



للبحوث والتحريات الكمبيوترية

مركز
الغامدية
اصبهان



عليه السلام
اصبهان

www. **Ghaemiyeh** .com
www. **Ghaemiyeh** .org
www. **Ghaemiyeh** .net
www. **Ghaemiyeh** .ir

الكامل
في البحار
لابن الأثير

١٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الكامل فى التاريخ

كاتب:

ابن اثير جزرى

نشرت فى الطباعة:

دارصادر

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

٥	الفهرس
٢١	الكامل فى التاريخ المجلد ١٢
٢١	اشارة
٢١	٥٨٤ ثم دخلت سنة أربع و ثمانين و خمسمائة
٢١	ذكر حصر صلاح الدين كوكب
٢١	ذكر رحيل صلاح الدين إلى بلد الفرنج
٢٢	ذكر فتح جبلة
٢٣	ذكر فتح لاذقية
٢٣	ذكر حال أسطول صقلية
٢٣	ذكر فتح صهيون و عدة من الحصون
٢٤	ذكر فتح حصن بكاس و الشجر
٢٥	ذكر فتح سرمينية
٢٥	ذكر فتح برزية
٢٧	ذكر فتح درب ساك
٢٧	ذكر فتح بغراس
٢٨	ذكر الهدنة بين المسلمين و صاحب أنطاكية
٢٩	ذكر فتح الكرك و ما يجاوره
٢٩	ذكر فتح قلعة صفد
٢٩	ذكر فتح كوكب
٣٠	ذكر ظهور طائفة من الشيعة بمصر
٣١	ذكر انهزام عسكر الخليفة من السلطان طغرل
٣١	ذكر عدة حوادث
٣٢	٥٨٥ ثم دخلت سنة خمس و ثمانين و خمسمائة

- ٣٢ ذكر فتح شقيف أرنون
- ٣٣ ذكر وقعة اليزك مع الفرنج
- ٣٣ ذكر وقعة ثانية للغزاة المتطوعة
- ٣٣ ذكر وقعة ثالثة
- ٣٤ ذكر مسير الفرنج إلى عكا و محاصرتها
- ٣٦ ذكر وقعة أخرى و وقعة العرب
- ٣٦ ذكر الوقعة الكبرى على عكا
- ٣٨ ذكر رحيل صلاح الدين عن الفرنج و تمكّنهم من حصر عكا
- ٣٩ ذكر وصول عسكر مصر و الأسطول المصرى فى البحر
- ٣٩ ذكر عدّة حوادث
- ٤٠ ٥٨٦ ثم دخلت سنة ست و ثمانين و خمسمائة
- ٤٠ ذكر وقعة الفرنج و اليزك و عود صلاح الدين إلى منازل الفرنج
- ٤٠ ذكر إحراق الأبراج و وقعة الأسطول
- ٤٢ ذكر وصول ملك الألمان إلى الشام و موته
- ٤٣ ذكر وقعة للمسلمين و الفرنج على عكا
- ٤٤ ذكر خروج الفرنج من خنادقهم
- ٤٥ ذكر تسيير البدل إلى عكا و التفریط فيه حتّى أخذت
- ٤٦ ذكر وفاة زين الدين يوسف صاحب إربل و مسير أخيه مظفر الدين إليها
- ٤٦ ذكر ملك الفرنج مدينة شلب و عودها إلى المسلمين
- ٤٧ ذكر الحرب بين غياث «١» الدين و سلطان شاه بخراسان
- ٤٧ ذكر عدّة حوادث
- ٤٨ ٥٨٧ ثم دخلت سنة سبع و ثمانين و خمسمائة
- ٤٨ ذكر حصر عزّ الدين صاحب الموصل الجزيرة
- ٤٩ ذكر عبور تقى الدين الفرات [١] و ملكه حرّان و غيرها من البلاد الجزريّة و مسيره إلى خلاط و مؤتة

- ٤٩ ذكر وصول الفرنج من الغرب فى البحر إلى عكا
- ٥١ ذكر ملك الفرنج عكا
- ٥٢ ذكر رحيل الفرنج إلى ناحية عسقلان و تخريبها
- ٥٤ ذكر رحيل الفرنج إلى نظرون
- ٥٥ ذكر مسير صلاح الدين إلى القدس
- ٥٥ ذكر عود الفرنج إلى الرملة
- ٥٦ ذكر قتل قزل أرسلان
- ٥٦ ذكر عدّة حوادث
- ٥٧ ٥٨٨ ثم دخلت سنة ثمان و ثمانين و خمسمائة
- ٥٧ ذكر عمارة الفرنج عسقلان
- ٥٧ ذكر قتل المركيس و ملك الكندهرى
- ٥٨ ذكر نهب بنى عامر البصرة «١»
- ٥٨ ذكر ما كان من ملك إنكلتار
- ٥٩ ذكر استيلاء الفرنج على عسكر المسلمين و قفل
- ٥٩ ذكر سير الأفضل و العادل إلى بلاد الجزيرة
- ٦٠ ذكر عود الفرنج إلى عكا
- ٦٠ ذكر ملك صلاح الدين يافا
- ٦١ ذكر الهدنة مع الفرنج و عود صلاح الدين إلى دمشق
- ٦٢ ذكر وفاة قلج أرسلان
- ٦٤ ذكر ملك شهاب الدين أجمير «١» و غيرها من الهند
- ٦٥ ذكر عدّة حوادث
- ٦٦ ٥٨٩ ثم دخلت سنة تسع و ثمانين و خمسمائة
- ٦٦ ذكر وفاة صلاح الدين و بعض سيرته
- ٦٧ ذكر حال أهله و أولاده بعده

- ٦٨ ذكر مسير أتابك عز الدين إلى بلاد العادل و عوده بسبب مرضه
- ٦٩ ذكر وفاة أتابك عز الدين و شيء من سيرته
- ٦٩ ذكر قتل بكتمر صاحب خلاط
- ٧٠ ذكر عدّة حوادث
- ٧١ ٥٩٠ ثم دخلت سنة تسعين و خمسمائة
- ٧١ ذكر الحرب بين شهاب الدين و ملك بنارس الهندى
- ٧١ ذكر قتل السلطان طغرل و ملك خوارزم شاه الرى و وفاة أخيه سلطان شاه
- ٧٣ ذكر مسير وزير الخليفة إلى خوزستان و ملكها
- ٧٣ ذكر حصر العزيز مدينة دمشق
- ٧٣ ذكر عدّة حوادث
- ٧٤ ٥٩١ ثم دخلت سنة إحدى و تسعين و خمسمائة
- ٧٤ ذكر ملك وزير الخليفة همذان و غيرها من بلاد العجم
- ٧٥ ذكر غزو [ابن] عبد المؤمن الفرنج بالأندلس
- ٧٧ ذكر فعله المثلث بإفريقية
- ٧٧ ذكر ملك عسكر الخليفة أصفهان
- ٧٧ ذكر ابتداء حال كوكجه و ملكه بلد الرى و همذان و غيرهما
- ٧٨ ذكر حصر العزيز دمشق ثانية و انهزامه عنها
- ٧٩ ذكر عدّة حوادث «١»
- ٧٩ ٥٩٢ ثم دخلت سنة اثنتين و تسعين و خمسمائة
- ٧٩ ذكر ملك شهاب الدين بهنكر «١» و غيرها من بلد الهند
- ٧٩ ذكر ملك العادل مدينة دمشق من الأفضل
- ٨٠ ذكر عدّة حوادث
- ٨١ ٥٩٣ ثم دخلت سنة ثلاث و تسعين و خمسمائة
- ٨١ ذكر إرسال الأمير أبى الهيجاء إلى همذان و ما فعله

- ٨١ ذكر ملك العادل يافا من الفرنج و ملك الفرنج بيروت من المسلمين و حصر الفرنج تبينين و رحيلهم عنها
- ٨٣ ذكر وفاة سيف الإسلام و ملك ولده
- ٨٤ ذكر عدّة حوادث
- ٨٥ ٥٩٤ ثم دخلت سنة أربع و تسعين و خمسمائة
- ٨٥ ذكر وفاة عماد الدين و ملك ولده قطب الدين محمد
- ٨٥ ذكر ملك نور الدين نصيبين
- ٨٦ ذكر ملك الغوريّة مدينة بلخ من الخطا الكفرة
- ٨٦ ذكر انهزام الخطا من الغوريّة
- ٨٧ ذكر ملك خوارزم شاه مدينة بخارى
- ٨٨ ذكر عدّة حوادث
- ٨٨ ٥٩٥ ثم دخلت سنة خمس و تسعين و خمسمائة
- ٨٨ ذكر وفاة الملك العزيز و ملك أخيه الأفضل ديار مصر
- ٩٠ ذكر حصر الأفضل مدينة دمشق و عوده عنها
- ٩١ ذكر وفاة يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن و ولاية ابنه محمد
- ٩٢ ذكر عصيان أهل المهدية على يعقوب و طاعتها لولده محمد
- ٩٣ ذكر رحيل عسكر الملك العادل عن ماردين
- ٩٤ ذكر الفتنة بفيروزكوه من خراسان
- ٩٥ ذكر مسير خوارزم شاه إلى الرّي
- ٩٥ ذكر عدّة حوادث
- ٩٦ ٥٩٦ ثم دخلت سنة ست و تسعين و خمسمائة
- ٩٦ ذكر ملك العادل الديار المصريّة
- ٩٧ ذكر وفاة خوارزم شاه
- ٩٨ ذكر عدّة حوادث
- ٩٩ ٥٩٧ ثم دخلت سنة سبع و تسعين و خمسمائة

- ٩٩ ذكر ملك الملك الظاهر صاحب حلب منبج و غيرها من الشام و حصره هو و أخوه الأفضل مدينة دمشق و عودهما عنها
- ١٠١ ذكر ملك غياث الدين و أخيه ما كان لخوارزم شاه بخراسان
- ١٠٣ ذكر قصد نور الدين بلاد العادل و الصلح بينهما
- ١٠٣ ذكر ملك شهاب الدين نهرواله «١»
- ١٠٣ ذكر ملك ركن الدين ملطية من أخيه و أرزن الروم
- ١٠٤ ذكر وفاة سقمان صاحب آمد و ملك أخيه محمود
- ١٠٤ ذكر عدة حوادث
- ١٠٥ ٥٩٨ ثم دخلت سنة ثمان و تسعين و خمسمائة
- ١٠٥ ذكر ملك خوارزم شاه ما كان أخذه الغورية من بلاده
- ١٠٦ ذكر حصر خوارزم شاه هراة و عوده عنها
- ١٠٧ ذكر عدة حوادث
- ١٠٨ ٥٩٩ ثم دخلت سنة تسع و تسعين و خمسمائة
- ١٠٨ ذكر حصر عسكر العادل ماردين و صلحه مع صاحبها
- ١٠٨ ذكر وفاة غياث الدين ملك الغور و شيء من سيرته
- ١١٠ ذكر أخذ الظاهر قلعة نجم من أخيه الأفضل
- ١١٠ ذكر ملك الكرج مدينة دوين «٢»
- ١١١ ذكر عدة حوادث
- ١١١ ٦٠٠ ثم دخلت سنة ستمائة
- ١١١ ذكر حصار خوارزم شاه هراة ثانية
- ١١١ ذكر عود شهاب الدين من الهند و حصره خوارزم و انهزامه من الخطا
- ١١٣ ذكر قتل طائفة من الإسماعيلية بخراسان
- ١١٣ ذكر ملك القسطنطينية من الروم
- ١١٥ ذكر انهزام نور الدين، صاحب الموصل، من العساكر العادلية
- ١١٦ ذكر خروج الفرنج بالشام إلى بلد الإسلام و الصلح معهم

- ١١٦ ذكر قتل كوكجة ببلاد الجبل
- ١١٦ ذكر وفاة ركن الدين بن قلج أرسلان و ملك ابنه بعده
- ١١٧ ذكر قتل الباطنية بواسط
- ١١٧ ذكر استيلاء محمود على مرباط و غيرها من حضرموت
- ١١٨ ذكر عدة حوادث
- ١١٨ ٦٠١ ثم دخلت سنة إحدى و ستمائة
- ١١٨ ذكر ملك كيخسرو بن قلج أرسلان بلاد الروم من ابن أخيه
- ١١٩ ذكر حصر صاحب آمد خرت برت و رجوعه عنها
- ١٢٠ ذكر الفتن ببغداد
- ١٢٠ ذكر غارة الكرج على بلاد الإسلام
- ١٢١ ذكر الحرب بين أمير مكة و أمير المدينة
- ١٢١ ذكر عدة حوادث
- ١٢٢ ٦٠٢ ثم دخلت سنة اثنتين و ستمائة
- ١٢٢ ذكر الفتنة بهراء
- ١٢٢ ذكر قتال شهاب الدين الغوري بنى كوكر
- ١٢٤ ذكر الظفر بالتيراهية
- ١٢٤ ذكر قتل شهاب الدين الغوري
- ١٢٤ ذكر ما فعله الدز
- ١٢٤ ذكر بعض سيرة شهاب الدين
- ١٢٤ ذكر مسير بهاء الدين سام إلى غزنة و موته
- ١٢٧ ذكر ملك علاء الدين غزنة و أخذها منه
- ١٢٨ ذكر ملك الدز غزنة
- ١٢٩ ذكر حال غياث الدين بعد قتل عمه
- ١٣١ ذكر استيلاء خوارزم شاه على بلاد الغورية بخراسان

- ١٣٣ ذكر ملك خوارزم شاه ترمذ و تسليمها إلى الخطا
- ١٣٤ ذكر عود أولاد صاحب باميان إلى غزنة
- ١٣٥ ذكر عود الدز إلى غزنة
- ١٣٦ ذكر قصد صاحب مراغة و صاحب إربل أذربيجان
- ١٣٧ ذكر إيقاع إيدغمش بالإسماعيلية
- ١٣٧ ذكر وصول عسكر من خوارزم إلى بلد الجبل و ما كان منهم
- ١٣٧ ذكر الغارة من ابن ليون على أعمال حلب
- ١٣٨ ذكر نهب الكرج أرمينية
- ١٣٩ ذكر عدة حوادث «١»
- ١٤٠ ٦٠٣ ثم دخلت سنة ثلاث و ستمائة
- ١٤٠ ذكر ملك عباس باميان و عودها إلى ابن أخيه
- ١٤١ ذكر ملك خوارزم شاه الطالقان
- ١٤٢ ذكر حال غياث الدين مع الدز و أيبك
- ١٤٤ ذكر وفاة صاحب مازندران و الخلف بين أولاده
- ١٤٥ ذكر ملك غياث الدين كيخسرو مدينة انطاكية
- ١٤٥ ذكر عزل ولد بكتمر صاحب خلاط و ملك بلبان و مسير صاحب ماردين إلى خلاط و عوده
- ١٤٦ ذكر ملك الكرج مدينة قرس و موت ملك الكرج
- ١٤٧ ذكر الحرب بين عسكر الخليفة و صاحب لرستان
- ١٤٧ ذكر عدة حوادث
- ١٤٨ ٦٠٤ ثم دخلت سنة أربع و ستمائة
- ١٤٨ ذكر ملك خوارزم شاه ما وراء النهر و ما كان بخراسان من الفتن و إصلاحها
- ١٤٩ ذكر قتل ابن خرميل و حصر هراء
- ١٥١ ذكر ما فعله خوارزم شاه بخراسان
- ١٥٢ ذكر قتل غياث الدين محمود

- ١٥٢ ذكر عود خوارزم شاه إلى الخطا
- ١٥٣ ذكر غدر صاحب سمرقند بالخوارزميين
- ١٥٤ ذكر الواقعة التي أفنت الخطا
- ١٥٥ ذكر ملك الدين ابن الملك العادل خلاط
- ١٥٦ ذكر غارات الفرنج بالشام
- ١٥٦ ذكر الفتنة بخلاط و قتل كثير من أهلها
- ١٥٦ ذكر ملك أبي بكر بن البهلوان مراغة
- ١٥٧ ذكر عزل نصير الدين وزير الخليفة
- ١٥٨ ذكر عدة حوادث
- ١٥٨ ٦٠٥ ثم دخلت سنة خمس و ستمائة
- ١٥٨ ذكر ملك الكرج أرجيش و عودهم عنها
- ١٥٩ ذكر قتل سنجر شاه و ملك ابنه محمود
- ١٦٠ ذكر عدة حوادث
- ١٦١ ٦٠٦ ثم دخلت سنة ست و ستمائة
- ١٦١ ذكر ملك العادل الخابور و نصيبين و حصره سنجر و عوده عنها و اتفاق نور الدين أرسلان شاه و مظفر الدين
- ١٦٣ ذكر عدة حوادث
- ١٦٣ ٦٠٧ ثم دخلت سنة سبع و ستمائة
- ١٦٤ ذكر عصيان سنجر مملوك الخليفة بخوزستان و مسير العساكر إليه «١»
- ١٦٤ ذكر وفاة نور الدين أرسلان شاه و شيء من سيرته
- ١٦٦ ذكر ولاية ابنه الملك القاهر
- ١٦٦ ذكر عدة حوادث
- ١٦٧ ٦٠٨ ثم دخلت سنة ثمان و ستمائة
- ١٦٧ ذكر استيلاء منكلى على بلاد الجبل و أصفهان و غيرها و هرب إيدغمش
- ١٦٨ ذكر نهب الحاج بمنى

- ١٦٨ ذكر عدّة حوادث
- ١٦٩ ٦٠٩ ثم دخلت سنة تسع و ستمائة
- ١٦٩ ذكر قدوم ابن منكلي بغداد «١»
- ١٦٩ ذكر عدّة حوادث
- ١٦٩ ٦١٠ ثم دخلت سنة عشر و ستمائة
- ١٦٩ ذكر قتل إيدغمش
- ١٧٠ ذكر عدّة حوادث
- ١٧٠ ٦١١ ثم دخلت سنة إحدى عشرة و ستمائة
- ١٧٠ ذكر ملك خوارزم شاه علاء الدين کرمان و مکران و السند
- ١٧١ ذكر عدّة حوادث
- ١٧٢ ٦١٢ ثم دخلت سنة اثنتی عشرة و ستمائة
- ١٧٢ ذكر قتل منكلي و ولاية أغلمش ما كان بيده من الممالك
- ١٧٣ ذكر وفاة ابن الخليفة
- ١٧٤ ذكر ملك خوارزم شاه غزنه و أعمالها
- ١٧٥ ذكر استيلاء الدز علی لهاوور و قتله
- ١٧٥ ذكر عدّة حوادث
- ١٧٦ ٦١٣ ثم دخلت سنة ثلاث عشرة و ستمائة
- ١٧٦ ذكر وفاة الملك الظاهر صاحب حلب
- ١٧٦ ذكر عدّة حوادث
- ١٧٧ ٦١٤ ثم دخلت سنة أربع عشرة و ستمائة
- ١٧٧ ذكر ملك خوارزم شاه بلد الجبل
- ١٧٩ ذكر ما جرى لأتابک سعد مع أولاده
- ١٧٩ مدينة دمیاط و عودها إلى المسلمين
- ١٨١ ذكر حصر الفرنج قلعة الطور و تخريبها

- ١٨١ ذكر حصر الفرنج دمياط إلى أن ملكوها
- ١٨٣ ذكر ملك المسلمين دمياط من الفرنج
- ١٨٥ ذكر عدّة حوادث «٣»
- ١٨٦ ٦١٥ ثم دخلت سنة خمس عشرة و ستمائة
- ١٨٦ ذكر وفاة الملك القاهر و ولاية ابنه نور الدين و ما كان من الفتن بسبب موته إلى أن استقرّت الأمور «١»
- ١٨٧ ذكر ملك عماد الدين زنكي قلاع الهكاريّة و الزوزان
- ١٨٨ ذكر اتفاق بدر الدين مع الملك الأشرف
- ١٨٩ ذكر انهزام عماد الدين زنكي من العسكر البدرّي
- ١٨٩ ذكر وفاة نور الدين صاحب الموصل و ملك أخيه
- ١٨٩ ذكر انهزام بدر الدين من مظفر الدين
- ١٩٠ ذكر ملك عماد الدين قلعة كواشي و ملك بدر الدين تلّ يعفر و ملك الملك الأشرف سنجار
- ١٩٢ ذكر وصول الأشرف إلى الموصل و الصلح مع مظفر الدين
- ١٩٣ ذكر عود قلاع الهكاريّة و الزوزان إلى بدر الدين
- ١٩٣ ذكر قصد كيكوس ولاية حلب و طاعة صاحبها للأشرف و انهزام كيكوس
- ١٩٥ ذكر وفاة الملك العادل و ملك أولاده بعده
- ١٩٦ ذكر عدّة حوادث
- ١٩٧ ٦١٦ ثم دخلت سنة ست عشرة و ستمائة
- ١٩٧ ذكر وفاة كيكوس و ملك كيقباز أخيه
- ١٩٧ ذكر موت صاحب سنجار و ملك ابنه ثم قتل ابنه و ملك أخيه
- ١٩٨ ذكر إجلاء بني معروف عن البطائح و قتلهم
- ١٩٨ ذكر عدّة حوادث
- ١٩٩ ٦١٧ ثم دخلت سنة سبع عشرة و ستمائة
- ١٩٩ ذكر خروج التتر إلى بلاد الإسلام
- ٢٠٠ ذكر خروج التتر إلى تركستان و ما وراء النهر و ما فعلوه

- ٢٠٤ ذكر مسير التتر الكفار إلى خوارزم شاه و انهزامه و موته
- ٢٠٥ ذكر صفة خوارزم شاه و شيء من سيرته
- ٢٠٦ ذكر استيلاء التتر المغربة على مازندران
- ٢٠٧ ذكر وصول التتر إلى الرّي و همذان
- ٢٠٧ ذكر وصول التتر إلى أذربيجان
- ٢٠٩ ذكر ملك التتر مراغة
- ٢١٠ ذكر ملك التتر همذان و قتل أهلها
- ٢١١ ذكر مسير التتر إلى أذربيجان و ملكهم أردويل و غيرها
- ٢١٢ ذكر قصد التتر بلاد الكرج
- ٢١٢ ذكر وصولهم إلى دربند شروان و ما فعلوه فيه
- ٢١٣ ذكر ما فعلوه باللان و قفجاق
- ٢١٣ ذكر ما فعله التتر بقفجاق و الروس
- ٢١٤ ذكر عود التتر من بلاد الروس و قفجاق إلى ملكهم «٢»
- ٢١٥ ذكر ما فعله التتر بما وراء النهر بعد بخارى و سمرقند
- ٢١٥ ذكر ملك التتر خراسان
- ٢١٧ ذكر ملكهم خوارزم و تخريبها
- ٢١٨ ذكر ملك التتر غزنه و بلاد الغور
- ٢٢٠ ذكر تسليم الأشرف خلاط إلى أخيه شهاب الدين غازي
- ٢٢٠ ذكر عدة حوادث
- ٢٢١ ٦١٨ ثم دخلت سنة ثمانى عشرة و ستمائة
- ٢٢١ ذكر وفاة قتادة أمير مکه و ملك ابنه الحسن و قتل أمير الحاج
- ٢٢٣ ذكر عدة حوادث
- ٢٢٤ ٦١٩ ثم دخلت سنة تسع عشرة و ستمائة
- ٢٢٤ ذكر خروج طائفة من قفجاق إلى أذربيجان و ما فعلوه بالكرج و ما كان منهم

- ٢٢٦ ذكر نهب الكرج بيلقان
- ٢٢٧ ذكر ملك بدر الدين قلعة شوش
- ٢٢٧ ذكر عدة حوادث
- ٢٢٨ ٦٢٠ ثم دخلت سنة عشرين و ستمائة
- ٢٢٨ ذكر ملك صاحب اليمن مكة، حرسها الله تعالى
- ٢٢٨ ذكر حرب بين المسلمين و الكرج بأرمينية
- ٢٢٩ ذكر الحرب بين غياث الدين و بين خاله
- ٢٣٠ حادثة غريبة لم يوجد مثلها
- ٢٣٠ ذكر عدة حوادث
- ٢٣١ ٦٢١ ثم دخلت سنة إحدى و عشرين و ستمائة
- ٢٣١ ذكر عود طائفة من التتر إلى الرى و همذان و غيرهما
- ٢٣١ ذكر ملك غياث الدين بلاد فارس
- ٢٣٢ ذكر عصيان شهاب الدين غازى على أخيه الملك الأشرف و أخذ خلاط منه
- ٢٣٣ ذكر حصار صاحب إربل الموصل
- ٢٣٣ ذكر عدة حوادث
- ٢٣٤ ٦٢٢ ثم دخلت سنة اثنتين و عشرين و ستمائة
- ٢٣٤ ذكر حصر الكرج مدينة كنجة
- ٢٣٤ ذكر وصول جلال الدين بن خوارزم شاه إلى خوزستان و العراق
- ٢٣٥ ذكر وفاة الملك الأفضل و غيره من الملوك
- ٢٣٦ ذكر خلع شروان شاه و ظفر المسلمين بالكرج
- ٢٣٧ ذكر ظفر المسلمين بالكرج أيضا
- ٢٣٧ ذكر ملك جلال الدين أذربيجان
- ٢٣٨ ذكر انهزام الكرج من جلال الدين
- ٢٣٩ ذكر عود جلال الدين إلى تبريز و ملكه مدينة كنجة و نكاحه زوجة أوزبك

- ٢٤٠ ذكر وفاة الخليفة الناصر لدين الله
- ٢٤١ ذكر خلافة الظاهر بأمر الله
- ٢٤٣ ذكر ملك بدر الدين قلعتي العماديّة و هروز
- ٢٤٤ ذكر عدّة حوادث
- ٢٤٦ ٦٢٣ ثم دخلت سنة ثلاث و عشرين و ستمائة
- ٢٤٦ ذكر ملك جلال الدين تفليس
- ٢٤٧ ذكر مسير مظفر الدين صاحب إربل إلى الموصل و عوده عنها
- ٢٤٨ ذكر عصيان كرمان على جلال الدين و مسيره إليها
- ٢٤٨ ذكر الحرب بين عسكر الأشرف و عسكر جلال الدين
- ٢٤٩ ذكر وفاة الخليفة الظاهر بأمر الله
- ٢٤٩ ذكر خلافة ابنه المستنصر بالله
- ٢٥٠ ذكر الحرب بين كيقباز و صاحب آمد
- ٢٥٠ ذكر حصر جلال الدين مدينتي أنى و قرس
- ٢٥١ ذكر حصر جلال الدين خلاط
- ٢٥١ ذكر إيقاع جلال الدين بالترکمان الإيوانيّة
- ٢٥٢ ذكر الصلح بين المعظم و الأشرف
- ٢٥٣ ذكر الفتنة بين الفرنج و الأرمن
- ٢٥٣ ذكر عدّة حوادث
- ٢٥٥ ٦٢٤ ثم دخلت سنة أربع و عشرين و ستمائة
- ٢٥٥ ذكر دخول الكرج مدينة تفليس و إحراقها
- ٢٥٥ ذكر نهب جلال الدين بلد الإسماعيليّة
- ٢٥٥ ذكر الحرب بين جلال الدين و التتر
- ٢٥٥ ذكر دخول العساكر الأشرفيّة إلى أذربيجان و ملك بعضها
- ٢٥٦ ذكر وفاة المعظم صاحب دمشق و ملك ولده

- ٢٥٦ ذكر عدّة حوادث
- ٢٥٧ ٦٢٥ ثم دخلت سنة خمس و عشرين و ستمائة
- ٢٥٧ ذكر الخلف بين جلال الدين و أخيه
- ٢٥٨ ذكر الحرب بين جلال الدين و التتر
- ٢٥٨ ذكر خروج الفرنج إلى الشام و عمارة صيدا
- ٢٥٩ ذكر ملك كيقباز أرزنكان
- ٢٥٩ ذكر خروج الملك الكامل
- ٢٦٠ ذكر نهب جلال الدين بلاد أرمينية
- ٢٦٠ ذكر عدّة حوادث
- ٢٦٠ ٦٢٦ ثم دخلت سنة ست و عشرين و ستمائة
- ٢٦٠ ذكر تسليم البيت المقدس إلى الفرنج
- ٢٦١ ذكر ملك الملك الأشرف مدينة دمشق
- ٢٦٢ ذكر القبض على الحاجب عليّ و قتله
- ٢٦٢ ذكر ملك الكامل مدينة حماة
- ٢٦٣ ذكر حصر جلال الدين خلاط و ملكها
- ٢٦٤ ذكر عدّة حوادث
- ٢٦٤ ٦٢٧ ثم دخلت سنة سبع و عشرين و ستمائة
- ٢٦٤ ذكر انهزام جلال الدين من كيقباز و الأشرف
- ٢٦٥ ذكر ملك علاء الدين أرزن الروم
- ٢٦٥ ذكر الصلح بين الأشرف و علاء الدين و بين جلال الدين
- ٢٦٥ ذكر ملك شهاب الدين غازي مدينة أرزن
- ٢٦٦ ذكر ملك سونج قشالوا قلعة روبندز
- ٢٦٦ ٦٢٨ ثم دخلت سنة ثمان و عشرين و ستمائة
- ٢٦٦ ذكر خروج التتر إلى أذربيجان و ما كان منهم

- ٢٦٧ ذكر ملك التتر مراغة
- ٢٦٨ ذكر وصول جلال الدين إلى آمد و انهزامه عندها و ما كان منه
- ٢٦٨ ذكر دخول التتر ديار بكر و الجزيرة و ما فعلوه في البلاد من الفساد
- ٢٦٩ ذكر وصول طائفة من التتر إلى إربل و دقوقا
- ٢٧٠ ذكر طاعة أهل أذربيجان للتتر
- ٢٧١ ذكر عدة حوادث
- ٢٧١ تعريف مركز القائمية باصفهان للتمريبات الكمبيوترية

الكامل في التاريخ المجلد ١٢

إشارة

نام كتاب: الكامل في التاريخ

نويسنده: ابن اثير جزري

تاريخ وفات مؤلف: ٦٣٠ ق

موضوع: تاريخ عمومي

زبان: عربي

تعداد جلد: ١٣

ناشر: دار الصادر

مكان چاپ: بيروت

سال چاپ: ١٣٨٥ ق / ١٩٦٥ م

٥٨٤ ثم دخلت سنة أربع وثمانين وخمسائة

ذكر حصر صلاح الدين كوكب

في هذه السنة، في المحرم، انحسر الشتاء، فسار صلاح الدين من عكا فيمن تخلف عنده من العسكر إلى قلعة كوكب، فحصرها، و نازلها، فلما منه أن ملكها سهل [١] وأن أخذها، وهو في قلعة من العسكر، متيسر، فلما رآها عالية منيعة [٢] [أدرك أن] الوصول إليها متعذر، وكان عنده منها ومن صفد والكرك المقيم المقعد. لأن البلاد الساحلية، من عكا إلى جهة الجنوب، كانت قد ملك جميعها، ما عدا هذه الحصون، وكان يختار أن لا يبقى في وسطها ما يشغل قلبه، ويقسم هممه، ويحتاج إلى حفظه، ولئلا ينال الرعايا والمجتازين منهم الضرر العظيم.

فلما حصر كوكب، و رآها منيعة، يبطن ملكها وأخذها، رحل عنها،

[١] سهلاً.

[٢] منيعة.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٦

وجعل عليها قايماء النجمي مستديماً لحصاره، وكان رحيله عنها في ربيع الأول، وأتاه رسل الملك قلع أرسلان، و قزل أرسلان و غيرهما، يهتئونه بالفتح والظفر، و سار من كوكب إلى دمشق، ففرح الناس بقدمه، و كتب إلى البلاد جميعها باجتماع العساكر، و أقام بها إلى أن سار إلى الساحل.

ذكر رحيل صلاح الدين إلى بلد الفرنج

لما أراد صلاح الدين المسير عن دمشق حضر عند القاضي الفاضل مودعاً له و مستشيراً، و كان مريضاً، و ودعه و سار عن دمشق منتصف ربيع الأول إلى حمص، فنزل على بحيرة قدس، غربى حمص، و جاءته العساكر:

فأول من أتاه من أصحاب الأطراف عماد الدين زنكى بن مودود بن آقسنقر، صاحب سنجار، و نصيبين، و الخابور، و تلاحقت العساكر من الموصل و ديار الجزيرة و غيرها، فاجتمعت عليه، و كثرت عنده، فسار حتى نزل تحت حصن الأكراد من الجانب الشرقى، و كنت معه حينئذ، فأقام يومين، و سار جريدة، و ترك أنقال العسكر موضعها تحت الحصن، و دخل إلى بلد الفرنج، فأغار على صافيشا، و العريمة، و يحمور، و غيرها من البلاد و الولايات، و وصل إلى قرب طرابلس، و أبصر البلاد، و عرف من أين يأتيها، و أين يسلك منها، ثم عاد إلى معسكره سالماً.

و قد غنم العسكر من الدواب، على اختلاف أنواعها، ما لا حد له، و أقام تحت حصن الأكراد إلى آخر ربيع الآخر.

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٧

ذكر فتح جبلة

لما أقام صلاح الدين تحت حصن الأكراد، أتاه قاضى جبلة، و هو منصور بن نبيل، يستدعيه إليها ليسلمها إليه، و كان هذا القاضى عند يميند، صاحب أنطاكية و جبلة، مسموع القول مقبول الكلمة، له الحرمة الوافرة، و المنزلة العالية، و هو يحكم على جميع المسلمين، بجلبة و نواحيها، على ما يتعلّق باليميند، فحملته الغيرة للدين على قصد السلطان، و تكفل له بفتح جبلة و لاذقية و البلاد الشماليّة، فسار صلاح الدين معه رابع جمادى الأولى، فنزل بأنطربوس سادسه، فرأى الفرنج قد أدخلوا المدينة، و احتموا فى برجين حصينين، كلّ واحد منهما قلعة حصينة و معقل منيع، فخرب المسلمون دورهم و مساكنهم و سور البلد، و نهبوا ما وجدوه من ذخائرهم.

و كان الداوية بأحد البرجين، فحصرهما صلاح الدين، فنزل إليه من فى أحد البرجين بأمان و سلموه، فأمنهم، و خرب البرج و ألقى حجارته فى البحر، و بقى الذى فيه الداوية لم يسلموه، و كان معهم مقدّمهم الذى أسره صلاح الدين يوم المصاف، و كان قد أطلقه لما ملك البيت المقدس، فهو الذى حفظ هذا الحصن، فخرب صلاح الدين ولاية أنطربوس، و رحل عنها و أتى مرقية، و قد أحلاها أهلها، و رحلوا عنها، و ساروا إلى المرقب، و هو من حصونهم التى لا- ترام، و لا- يحدث أحد نفسه بملكه لعلوه و امتناعه، و هو للإستبار، و الطريق تحته، فيكون الحصن على يمين المجتاز إلى جبلة، و البحر عن يساره، و الطريق مضيق لا يسلكه إلّا الواحد بعد الواحد.

فاتفق أنّ صاحب صقلية من الفرنج قد سیر نجدة إلى فرنج الساحل فى ستين قطعة من الشوانى، و كانوا بطرابلس، فلما سمعوا بمسير صلاح الدين جاءوا و وقفوا فى البحر، تحت المرقب، فى شوانيتهم، ليمنعوا من يجتاز

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٨

بالسّهام. فلما رأى صلاح الدين ذلك أمر بالطاريقات و الجفتيات، فصفت على الطريق ممّا يلى البحر من أول المضيق إلى آخره، و جعل وراءها الرماء، فمنعوا الفرنج من الدنوّ إليهم، فاجتاز المسلمون عن آخرهم، حتى عبروا المضيق و وصلوا إلى جبلة ثامن عشر جمادى الأولى، و تسلّمها وقت وصوله.

و كان قاضيا قد سبق إليها و دخل، فلما وصل صلاح الدين رفع أعلامه على سورها و سلمها إليه، و تحصّن الفرنج الذين كانوا بها بحصنها، و احتموا بقلعتها، فما زال قاضى جبلة يخوفهم و يرغبهم، حتى استنزلهم بشرط الأمان، و أن يأخذ رهائنهم يكونون عنده إلى أن يطلق الفرنج رهائن المسلمين من أهل جبلة.

و كان يميند، صاحبها، قد أخذ رهائن القاضى و مسلمى [١] جبلة، و تركهم عنده بأنطاكية، فأخذ القاضى رهائن الفرنج فأنزلهم عنده حتى أطلق يميند رهائن المسلمين فأطلق المسلمون رهائن الفرنج، و جاء رؤساء أهل الجبل إلى صلاح الدين بطاعة أهله، و هو من أمنع الجبال و أشقّها مسلكاً، و فيه حصن يُعرف بيكسرايل «١»، بين جبلة و مدينة حماة، فملكه المسلمون، و صار الطريق فى هذا الوقت عليه من بلاد الإسلام إلى العسكر، و كان الناس يلقون شدة فى سلوكه. و قرّر صلاح الدين أحوال جبلة، و جعل فيها لحفظها

الأمير سابق الدين عثمان بن الداية، صاحب شيزر، و سار عنها.

[١] و مسلمين.

(١). بكسرايل B.

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٩

ذكر فتح لاذقية

لمّا فرغ السلطان من أمر جبله، سار عنها إلى لاذقية، فوصل إليها فى الرابع والعشرين من جمادى الأولى، فترك الفرنج المدينة لعجزهم عن حفظها، و صعدوا إلى حصنين لها على الجبل فامتنعوا بهما، فدخل المسلمون المدينة و حصروا القلعتين اللتين فيهما الفرنج، و زحفوا إليهما، و نقبوا السور ستين ذراعاً، و علّقوه، و عظم القتال، و اشتدّ الأمر عند الوصول إلى السور؛ فلمّا أيقن «١» الفرنج بالعطب، و دخل إليهم قاضى جبله فخوفهم من المسلمين، طلبوا الأمان، فأمنهم صلاح الدين، و رفعوا الأعلام الإسلامية إلى الحصنين، و كان ذلك فى اليوم الثالث من النزول عليها.

و كانت عمارة لاذقية من أحسن الأبنية و أكثرها زخرفة مملوءة بالرخام على اختلاف أنواعه، فخرّب المسلمون كثيراً منها، و نقلوا رخامها، و شعثوا كثيراً من بيعها التى قد غرم على كلّ واحدة منها الأموال الجليّة المقدار، و سلّمها إلى ابن أخيه تقي الدين عمر، فعمرها، و حصّن قلعتها، حتّى إذا رآها اليوم من رآها قبل ينكرها، فلا يظنّ أنّ هذه تلك، و كان عظيم الهبة فى تحصين القلاع و الغرامة الوافرة عليها، كما فعل بقلعة حماة.

ذكر حال أسطول صقلية

لمّا نازل صلاح الدين لاذقية [جاء أسطول صقلية] الذى تقدّم ذكره، فوقف بإزاء ميناء لاذقية، فلمّا سلّمها الفرنج الذين بها إلى صلاح الدين،

(١). فلما نقب أيقن B.

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ١٠

عزم أهل هذا الأسطول على أخذ من يخرج منها من أهلها غيظاً و حنقا، حيث سلّموها سريعاً، فسمع بذلك أهل لاذقية، فأقاموا، و بذلوا الجزية، و كان سبب مقامهم.

ثمّ إنّ مقدّم هذا الأسطول طلب من السلطان الأمان ليحضر عنده، فأمنه، و حضر [وقبل] الأرض بين يديه، و قال ما معناه: إنّك سلطان رحيم و كريم، و قد فعلت بالفرنج ما فعلت فذلّوا، فاتركهم يكونون ممالكك و جندك تفتح بهم البلاد و الممالك، و تردّ عليهم بلادهم، و إلّا جاءك من البحر ما لا طاقة لك به، فيعظم عليك الأمر و يشتدّ الحال.

فأجاب صلاح الدين بنحو من كلامه من إظهار القوة و الاستهانة بكلّ من يجىء من البحر، و أنّهم إن خرجوا أذاقهم ما أذاق أصحابهم من القتل و الأسر، فصلب على وجهه، و رجع إلى أصحابه.

ذكر فتح صهيون و عدّة من الحصون

ثم رحل صلاح الدين عن لاذقية في السابع والعشرين من جمادى الأولى، وقصد قلعة صهيون، وهى قلعة منيعة شاهقة فى الهواء، صعبة المرتقى، على قرنة جبل، يطيف بها واد عميق، فيه ضيق فى بعض المواضع، بحيث إن حجر المنجنيق يصل منه إلى الحصن، إلّا أنّ الجبل متّصل بها من جهة الشمال، وقد عملوا لها خندقاً عميقاً لا يرى قعره، وخمس أسوار منيعة، فنزل صلاح الدين على هذا الجبل الملتصق بها، ونصب عليه المجانيق ورمائها، وتقدّم إلى ولده الظاهر، صاحب حلب، فنزل على المكان الضيق من الوادى، ونصب عليه المجانيق أيضاً، فرمى الحصن منه.

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ١١

و كان معه من الرجاله الحليين «١» كثير، وهم فى الشجاعة بالمنزلة المشهورة، ودام رشق السهام من قسى اليد، والجرح، والزبورك، والزيار، فجرح أكثر من بالحصن، وهم يظهرون التجلّد والامتناع، وزحف المسلمون إليهم ثانى جمادى الآخرة، فتعلّقوا بقرنة من ذلك الجبل قد أغفل الفرنج إحكامها، فتسلّقوا منها بين الصخور، حتّى التحقوا بالسور الأوّل فقاتلهم عليه حتى ملكوه، ثم إنهم قاتلهم على باقى الأسوار فملكوا منها ثلاثة و غنموا ما فيها من أبقار و دوابّ و ذخائر و غير ذلك، واحتمى الفرنج بالقلعة التى للقلعة، فقاتلهم المسلمون عليها، فنادوا و طلبوا الأمان، فلم يجبههم صلاح الدين إليه، فقرّروا على أنفسهم مثل قطيعة البيت المقدّس، وتسلم الحصن و سلمه إلى أمير يقال له ناصر الدين منكوبرس، صاحب قلعة أبى قبيس، فحصّنه وجعله من أحصن الحصون.

ولما ملك المسلمون صهيون تفرّقوا فى تلك النواحي، فملكوا حصن بلاطنوس «٢»، و كان من به من الفرنج قد هربوا منه وتركوه خوفاً و رعباً، و ملك أيضاً حصن العيدو «٣»، و حصن الجماهرتين، فاتّسعت [١] المملكة الإسلامية بتلك الناحية، إلّا أنّ الطريق إليها من البلاد الإسلامية على عقبه بكسرايل شاقّ شديد، لأنّ الطريق السهلة كانت غير مسلوكة، لأنّ بعضها بيد الإسماعيلية، وبعضها بيد الفرنج.

[١] اتّسقت.

(١). الرجاله الجليين A.

(٢). حصن بلاطيس A.

(٣). العيدو: ٧٤٠ العدو: P.C.

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ١٢

ذكر فتح حصن بكاس و الشّجر

ثم سار صلاح الدين عن صهيون، ثالث جمادى الآخرة، فوصل إلى قلعة بكاس [فرأى الفرنج قد أخلوها، و تحصّوا بقلعة الشّجر، فملك قلعة بكاس] «١» بغير قتال، و تقدّم إلى قلعة الشّجر و حصرها، وهى و بكاس على الطريق السهل المسلوك إلى لاذقية و جبلة، و البلاد التى افتتحها صلاح الدين من بلاد الشام الإسلامية.

فلما نازلها رآها منيعة حصينة لا ترام، و لا يوصل إليها بطريق من الطرق، إلّا أنّه أمر بمزاحفتهم و نصب منجنيق عليهم، ففعلوا ذلك، و رمى بالمنجنيق، فلم يصل من أحجاره إلى القلعة شىء إلّا القليل الذى لا يؤذى، فبقى المسلمون عليه أيّاماً لا يرون فيه طمعا، و أهله غير مهتمّين بالقتال لامتناعهم عن ضرر يتطرّق إليهم، و بلاء ينزل عليهم.

فبينما صلاح الدين جالس، و عنده أصحابه، و هم فى ذكر القلعة و أعمال الحيلة فى الوصول إليها، قال بعضهم: هذا الحصن كما قال الله تعالى فَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا «٢» فقال صلاح الدين: أو يأتى الله بنصر من عنده و فتح.

فبينما هم فى هذا الحديث إذ قد أشرف عليهم فرنجى و نادى بطلب الأمان لرسول يحضر عند صلاح الدين، فأجيب إلى ذلك، و نزل رسول، و سأل إنظارهم ثلاثة أيام، فإن جاءهم من يمنعهم، و إلّا سلّموا القلعة بما فيها [١]

[١] فيه.

(١).p.c

(٢). ٩٦ خ ١٨.roC

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ١٣

من ذخائر و دواب و غير ذلك، فأجابهم إليه و أخذ رهائنهم على الوفاء به.

فلَمّا كان اليوم الثالث سلّموها إليه، و اتفق يوم الجمعة سادس عشر جمادى الآخرة، و كان سبب استمها لهم أنّهم «١» أرسلوا إلى البيمند، صاحب أنطاكية، و كان هذا الحصن له، يعرفونه أنّهم محصورون، و يطلبون منه أن يرّحل «٢» عنهم المسلمين، فإن فعل، و إلّا سلّموها، و إنّما فعلوا ذلك «٣» لرعب قذفه الله تعالى فى قلوبهم، و إلّا فلو أقاموا الدهر الطويل لم يصل إليهم أحد، و لا بلغ المسلمون منهم غرضاً، فلَمّا تسلّم صلاح الدين الحصن سلّمه إلى أمير يقال له قلج، و أمره بعمارتها، و رحل عنه.

ذكر فتح سرمينية

لَمّا كان صلاح الدين مشغولاً بهذه القلاع و الحصون، سَير ولده الظاهر غازى، صاحب حلب، فحصر سرمينية، و ضيق على أهلها [١]، و استنزلهم على قطعة قرّرها عليهم، فلَمّا أنزلهم، و أخذ منهم المقاطعة، هدم الحصن و عفى أثره و عالى «٤» بنيانه. و كان فيه و فى هذه الحصون من أسارى المسلمين الجَمّ الغفير، فأطلقوا، و أعطوا كسوة و نفقة، و كان فتحه فى يوم الجمعة الثالث و العشرين من جمادى الآخرة.

و اتفق أن فتح هذه المدن و الحصون جميعها من جبله إلى سرمينية، مع

[١] أهله.

(١) استمالهم أنهم سبب صلحهم.B

(٢). أن ينجدهم و يرّحل.B

(٣) و صالحوا و ذلوا ذلك.B

(٤) و على لى:spUأثره:P.Cnita. P. C. te ٧٤٠

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ١٤

كثرتها، كان فى ستّ جمع مع أنّها فى أيدى أشجع الناس و أشدّهم عداوة للمسلمين، فسبحان من إذا أراد أن يسهل الصعب فعل، و هى جميعها من أعمال أنطاكية، و لم يبق لها سوى القصير، و بغراس، و درب ساك، و سيأتى ذكرها إن شاء الله تعالى فى مكانه.

ذكر فتح برزية

لَمّا رحل صلاح الدين من قلعة الشجر سار إلى قلعة برزية، و كانت قد وصفت له، و هى تقابل حصن أفامية، و تناصفها فى أعمالها، و

بينهما بحيرة تجتمع من ماء العاصى و عيون تتفجر من جبل برزية وغيره، و كان أهلها أضرب شىء على المسلمين، يقطعون الطريق، و يبالغون فى الأذى، فلما وصل إليها نزل شرقيتها فى الرابع و العشرين من جمادى الآخرة، ثم ركب من الغد و طاف عليها لينظر موضعا يقاتلها منه، فلم يجده إلا من جهة الغرب، فنصب له هناك [خيمة] «١» صغيرة، و نزل فيها و معه بعض العسكر جريده لضيق المواضع. و هذه القلعة لا يمكن أن تقاتل من جهة الشمال و الجنوب البتة، فإنها لا يقدر أحد أن يصعد جبلها من هاتين الجهتين، و أما الجانب الشرقى فيمكن الصعود منه لكن لغير مقاتل، لعلوه و صعوبته، و أما جهة الغرب فإن الوادى المطيف بجبلها قد ارتفع هناك ارتفاعا كثيرا، حتى قارب القلعة، بحيث يصل منه حجر المنجنيق و السهام، فنزله المسلمون و نصبوا عليه المجانيق، و نصب أهل القلعة عليها منجنيقا بطلها.

(١). P. C. ٧٤٠ te

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ١٥

و رأيت أنا من رأس جبل عال يشرف على القلعة، لكنه لا يصل منه شىء إليها، امرأة ترمى من القلعة عن المنجنيق، و هى التى بطلت منجنيق المسلمين، فلما رأى صلاح الدين أن المنجنيق لا ينتفعون به، عزم على الزحف، و مكاثره أهلها بجموعه، فقسم عسكره ثلاثة أقسام: يزحف قسم، فإذا تعبوا «١» و كلوا عادوا و زحف القسم الثانى، فإذا تعبوا و ضجروا عادوا و زحف القسم الثالث، ثم يدور الدور مرة بعد أخرى حتى يتعب الفرنج و ينصبوا، فإنهم لم يكن عندهم من الكثرة ما يتقشرون كذلك، فإذا تعبوا و أعياوا سلّموا القلعة.

فلما كان الغد، و هو السابع و العشرون من جمادى الآخرة، تقدّم أحد الأقسام، و كان المقدّم عليهم عماد الدين زنكى بن مودود بن زنكى، صاحب سنجار، و زحفوا، و خرج الفرنج من حصنهم، فقاتلهم على فصيلهم، و رماهم المسلمون بالسهام من وراء الجفتيات و الجنويات و الطارقيات، و مشوا إليهم حتى قربوا إلى الجبل، فلما قاربوا الفرنج عجزوا عن الدنو منهم لخشونة المرتقى، و تسلط الفرنج عليهم، لعلو مكانهم، بالنشاب و الحجارة، فإنهم كانوا يلقون الحجارة الكبار فتتدحرج إلى أسفل الجبل، فلا يقوم لها شىء. فلما تعب هذا القسم انحدروا، و صعد القسم الثانى، و كانوا جلوسا ينتظرونهم، و هم حلقة صلاح الدين الخاص، فقاتلوا قتالا شديدا، و كان الزمان حرا شديدا، فاشتد الكرب على الناس، و صلاح الدين فى سلاحه يطوف عليهم و يحرضهم، و كان تقى الدين ابن أخيه كذلك، فقاتلهم إلى قريب الظهر ثم تعبوا، و رجعوا.

فلما رآهم صلاح الدين قد عادوا تقدّم إليهم و بيده جماق و يردهم، و صاح فى القسم الثالث، و هم جلوس ينتظرون نوبتهم، فوثبوا ملتين، و ساعدوا إخوانهم، و زحفوا معهم، فجاء الفرنج ما لا قبل لهم به، و كان أصحاب

(١). فإذا نصبوا و ضجروا. A

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ١٦

عماد الدين قد استراحوا، فقاموا أيضا معهم، فحينئذ اشتد الأمر على الفرنج و بلغت القلوب الحناجر، و كانوا قد اشتدّ تعبهم و نصبهم، فظهر عجزهم عن القتال، و ضعفهم عن حمل السلاح لشدة الحرّ و القتال، فخالطهم المسلمون فعاد الفرنج يدخلون الحصن، فدخل المسلمون معهم، و كان طائفة قليلة فى الخيام، شرقى الحصن، فأروا الفرنج قد أهملوا ذلك الجانب، لأنهم لا يرون فيه مقاتلا، و ليكثروا فى الجهة التى فيها صلاح الدين، فصعدت تلك الطائفة من العسكر، فلم يمنعهم مانع، فصعدوا أيضا الحصن من الجهة الأخرى، فالتقوا مع المسلمين الداخلين مع الفرنج، فملكوا الحصن عنوة و قهرا، و دخل الفرنج القلعة التى للحصن، و أحاط بها المسلمون، و أرادوا نقبها.

و كان الفرنج قد رفعوا من عندهم من أسرى المسلمين إلى سطح القلعة، و أرجلهم فى القيود و الخشب المنقوب، فلما سمعوا تكبير المسلمين فى نواحي القلعة كبروا فى سطح القلعة، و ظنّ الفرنج أنّ المسلمين قد صعدوا على السطح فاستسلموا و ألقوا بأيديهم إلى الأسر، فملكها المسلمون عنوة، و نهبوا ما فيها، و أسروا و سبوا من فيها، و أخذوا صاحبها و أهله، و أمست خالية لا ديار بها، و ألقى المسلمون النار فى بعض بيوتهم فاحترقت.

و من أعجب ما يحكى من السلامة أننى رأيت رجلا من المسلمين على هذا الحصن قد جاء من طائفة من المؤمنين شمالي القلعة إلى طائفة أخرى من المسلمين جنوبي القلعة، و هو يعدو فى الجبل عرضا، فألقيت عليه الحجارة، و جاءه حجر كبير لو ناله لبعجه، فنزل عليه، فناداه الناس يحذرونه، فالتفت ينظر ما الخبر، فسقط على وجهه من عثرة، فاسترجع الناس، و جاء الحجر إليه، فلما قاربه و هو منبطح على وجهه، لقيه حجر آخر ثابت فى الأرض فوق الرجل، فضربه المنحدر فارتفع عن الأرض، و جاز الرجل، ثم عاد إلى الأرض من جانبه الآخر لم ينله منه أذى و لا ضرر، و قام يعدو حتى لحق بأصحابه، فكان

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ١٧

سقوطه سبب نجاته فتعست أمّ الجبان.

و أما صاحب برزیه، فإنه أسر هو و امرأته و أولاده، و منهم بنت له معها زوجها، فتفرقهم العسكر، فأرسل صلاح الدين فى الوقت و بحث عنهم و اشتراهم، و جمع شمل بعضهم ببعض، فلما قارب أنطاكية أطلقهم و سیرهم إليها، و كانت امرأة صاحب برزیه أخت امرأة يميند، صاحب أنطاكية، و كانت تراسل صلاح الدين و تهاديه، و تعلمه كثيرا من الأحوال التى تؤثر، فأطلق «أ» هؤلاء لأجلها.

ذكر فتح درب ساك

لما فتح صلاح الدين حصن برزیه رحل عنه من الغد، فأتى جسر الحديد، و هو على العاصى، بالقرب من أنطاكية، فأقام عليه حتى وافاه من تخلف عنه من عسكره، ثم سار عنه إلى قلعة درب ساك، فنزل عليها ثامن رجب، و هى من معاقل الداوية الحصينة و قلاعهم التى يدخرونها لحماياتهم عند نزول الشدائد.

فلما نزل عليها نصب المجانيق، و تابع الرمي بالحجارة، فهدمت من سورها شيئا يسيرا، فلم يبال من فيه بذلك، فأمر بالزحف عليها و مهاجمتها، فبادرها العسكر بالزحف و قاتلوها، و كشفوا الرجال عن سورها، و تقدّم النقبون فنقبوا منها برجا و علّقه، فسقط و اتسع المكان الذى يريد المقاتلة [أن] يدخلوا منه، و عادوا يومهم ذلك، ثم باكروا الزحف من الغد.

و كان من فيه قد أرسلوا إلى صاحب أنطاكية يستجدونه، فصبروا،

(١). تؤثر عليها. B. يؤثر علمها فأطلق. A.

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ١٨

و أظهروا الجلد، و هم ينتظرون وصول جوابه إقيا بإنجادهم و إزاحة المسلمين عنهم، و إمّا بالتخلى عنهم ليقوم عذرهم فى التسليم، فلما علموا عجزه عن نصرتهم، و خافوا هجوم المسلمين عليها، و أخذهم بالسيف، و قتلهم و أسرهم، و نهب أموالهم، طلبوا الأمان، فأمنهم على شرط [أن] لا يخرج أحد إلّا بشيابه التى عليه بغير مال، و لا سلاح، و لا أثاث بيت، و لا داية، و لا شىء ممّا بها، ثم أخرجهم منه و سیرهم إلى أنطاكية، و كان فتحه تاسع عشر رجب.

ذكر فتح بغراس

ثم سار عن درب ساك إلى قلعة بغراس، فحصرها، بعد أن اختلف أصحابه فى حصرها، فمنهم من أشار به، و منهم من نهى عنه و

قال: هو حصن حصين، وقلعة منيعة، و هو بالقرب من أنطاكية، ولا فرق بين حصره وحصرها، و يحتاج أن يكون أكثر العسكر في اليزك مقابل أنطاكية، فإذا كان الأمر كذلك قلّ المقاتلون عليها، و يتعدّر حينئذ الوصول إليها. فاستخار الله تعالى و سار إليها، و جعل أكثر عسكره يزكا مقابل أنطاكية، يغيرون على أعمالها، و كانوا حذرين من الخوف من أهلها، إن غفلوا، لقربهم منها، و صلاح الدين في «١» بعض أصحابه على القلعة يقاتلها، و نصب المجانيق، فلم يؤثر فيها شيئا لعلوها و ارتفاعها، فغلب على الظنون تعدّر فتحها و تأخر ملكها، و شقّ على المسلمين قلّة الماء عندهم، إلّا أن صلاح الدين نصب الحياض، و أمر بحمل الماء إليها، فخفف الأمر عليهم.

(١). و بقي صلاح الدين في B.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ١٩

فبينما هو على هذه الحال إذ قد فتح باب القلعة، و خرج منه إنسان يطلب الأمان ليحضر، فأجيب إلى ذلك، فأذن له في الحضور، فحضر، و طلب الأمان لمن في الحصن حتّى يسلموه إليه بما فيه على قاعدة درب ساك، فأجابهم إلى ما طلبوا، فعاد الرسول و معه الأعلام الإسلاميّة، فرفعت على رأس القلعة، و نزل من فيها، و تسلّم المسلمون القلعة بما فيها من ذخائر و أموال و سلاح، و أمر صلاح الدين بتخريبه، فخرّب، و كان ذلك مضرّة عظيمة على المسلمين، فإنّ ابن ليون صاحب الأرمن خرج إليه من ولايته، و هو مجاوره، فجدد عمارته و أتقنه، و جعل فيه جماعة من عسكره يغيرون منه على البلاد، فأدّى بهم السواد الذي بحلب، و هو إلى الآن بأيديهم.

ذكر الهدنة بين المسلمين و صاحب أنطاكية

لَمَّا فتح صلاح الدين بغراس عزم على التوجّه إلى أنطاكية و حصرها، فخاف البيمند صاحبها من ذلك، و أشفق منه، فأرسل إلى صلاح الدين يطلب الهدنة، و بذل إطلاق كلّ أسير عنده من المسلمين، فاستشار من عنده من أصحاب الأطراف و غيرهم، فأشار أكثرهم بإجابته إلى ذلك ليعود الناس و يستريحوا و يجددوا ما يحتاجون إليه، فأجاب إلى ذلك، و اصطلحوا ثمانية أشهر، أولها: أوّل تشرين الأوّل، و آخرها: آخر أيار، و سيّر رسوله إلى صاحب أنطاكية يستحلفه، و يطلق من عنده من الأسرى. و كان صاحب أنطاكية، في هذا الوقت، أعظم الفرنج شأنا، و أكثرهم ملكا، فإنّ الفرنج كانوا قد سلّموا إليه طرابلس، بعد موت القمص، و جميع أعمالها، مضافا إلى ما كان له، لأنّ القمص لم يخلف ولدا، فلَمَّا سلّمت إليه طرابلس جعل ولده الأكبر فيها نائبا عنه. الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٢٠

و أمّا صلاح الدين فإنّه عاد إلى حلب ثالث شعبان، فدخلها و سار منها إلى دمشق، و فرّق العساكر الشرقيّة، كعماد الدين زنكي بن مودود صاحب سنجار و الخابور، و عسكر الموصل، و غيرها، ثمّ رحل من حلب إلى دمشق، و جعل طريقه على قبر عمر بن عبد العزيز، فزاره، و زار الشيخ الصالح أبا زكريا المغربي، و كان مقيما هناك، و كان من عباد الله الصالحين، و له كرامات ظاهرة. و كان مع صلاح الدين الأمير عزّ الدين أبو الفليته قاسم بن المهنا العلويّ الحسيني، و هو أمير مدينة النجى، صلّى الله عليه و سلّم، كان قد حضر عنده، و شهد معه مشاهدته و فتوحه، و كان صلاح الدين قد تبارك برؤيته، و تيمّن بصحبته، و كان يكرمه كثيرا، و ينبسط معه، و يرجع إلى قوله في أعماله كلّها، و دخل دمشق أوّل شهر رمضان، فأشير عليه بتفريق العساكر، فقال:

إنّ العمر قصير و الأجل غير مأمون، و قد بقي بيد الفرنج هذه الحصون:

كوكب، و صفد، و الكرك، و غيرها، و لا «١» بدّ من الفراغ منها، فإنّها في أوّسط بلاد الإسلام، و لا يؤمن شرّ أهلها، و إنّ أغفلناهم ندمنّا فيما بعد، و الله أعلم.

ذكر فتح الكرك و ما يجاوره

كان صلاح الدين قد جعل على الكرك عسكرا يحصره، فلازموا الحصار هذه المدة الطويلة، حتى فنيت أزواد الفرنج و ذخائرهم، و أكلوا دوابهم، و صبروا حتى لم يبق للصبر مجال، فراسلوا الملك العادل، أخا صلاح الدين،

(١). و الكرك و تبين و لا. A.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٢١

و كان جعله صلاح الدين على قلعة الكرك «١» في جمع من العسكر يحصرها، و يكون مطلعاً على هذه الناحية من البلاد لما أبعد هو إلى درب ساك، و بغراس، فوصلته رسل الفرنج من الكرك يبذلون تسليم القلعة إليه، و يطلبون الأمان، فأجابهم إلى ذلك، و أرسل إلى مقدم العسكر الذي يحصرها في المعنى، فتسلم القلعة منهم و أمّتهم. و تسلم أيضاً ما يقاربه من الحصون كالشوبك و هرمز و الوعية و السلع، و فرغ القلب من تلك الناحية، و ألقى الإسلام هناك جراحه، و أمّنت قلوب من في ذلك السقع من البلاد، كالقدس و غيره، فإنهم كانوا ممن بتلك الحصون و جلين، و من شرهم مشفقين.

ذكر فتح قلعة صفد

لما وصل صلاح الدين إلى دمشق، و أشير عليه بتفريق العساكر، و قال: لا بدّ من الفراغ من صفد و كوكب و غيرهما، أقام بدمشق إلى منتصف رمضان، و سار عن دمشق إلى قلعة صفد فحصرها و قاتلها، و نصب عليها المجانيق، و أدام الرمي إليها ليلاً و نهاراً بالحجارة و السهام. و كان أهلها قد قاربت ذخائرهم و أزوادهم أن تفنى في المدة التي كانوا فيها محاصرين، فإنّ عسكر صلاح الدين كان يحاصرهم، كما ذكرناه، فلمّا رأى أهله جدّ صلاح الدين في قتالهم، خافوا أن يقيم إلى أن يفنى ما بقى معهم من أقواتهم، و كانت قليلة، و يأخذهم عنوة و يهلكهم، أو أنّهم يضعفون عن مقاومته قبل فناء ما عندهم من القوت فيأخذهم، فأرسلوا يطلبون الأمان، الكامل في التاريخ ج ١٢ ٢١ ذكر فتح قلعة صفد ص: ٢١

(١). anucal. Bdni، قلعة تبين. A.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٢٢

فأمّتهم و تسلمها منهم، فخرجوا عنها و ساروا إلى مدينة صور، و كفى الله المؤمنين شرهم، فإنهم كانوا وسط البلاد الإسلامية.

ذكر فتح كوكب

لما كان صلاح الدين يحاصر صفد، اجتمع من بصر من الفرنج، و قالوا: إن فتح المسلمون قلعة صفد لم تبق كوكب، و لو أنّها معلّقة بالكوكب، و حينئذ ينقطع طمعنا من هذا الطرف من البلاد، فاتفق رأيهم على إنفاذ نجدة لها سرّاً من رجال و سلاح و غير ذلك، فأخرجوا مائتي رجل من شجعان الفرنج و أجلادهم، فساروا الليل مستخفين، و أقاموا النهار مكمنين. فاتفق من قدر الله تعالى أن رجلاً من المسلمين الذين يحاصرون كوكب خرج متصيّداً، فلقى رجلاً من تلك النجدة، فاستغربه بتلك الأرض، فضربه ليعلمه بحاله، و ما الذي أقدمه إلى هناك، فأقرّ بالحال، و دلّه على أصحابه، فعاد الجندى المسلم إلى قايماز النجمي، و

هو مقدّم ذلك العسكر، فأعلمه الخبر، و الفرنجى معه، فركب فى طائفة من العسكر إلى الموضع الذى قد اختفى فيه الفرنج، فكبسهم، فأخذهم، و تتبعهم فى الشعاب و الكهوف، فلم يفلت منهم أحد، فكان معهم مقدّمان من فرسان الإسبتار، فحملا [١] إلى صلاح الدين و هو على صفد، فأحضرهما ليقتلها، و كانت عادته قتل الداوية و الإسبتارية لشدة عداوتهم للمسلمين و شجاعتهم، فلما أمر بقتلهما قال له أحدهما: ما أظنّ ينالنا سوء و قد نظرنا إلى طلعتك المباركة و وجهك الصبيح.

و كان، رحمه الله، كثير العفو، يفعل الاعتذار و الاستعطاف فيه، فيعفو

[١] فحملوا.

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٢٣

و يصفح، فلما سمع كلامهما لم يقتلها، و أمر بهما فسجنا.

و لما فتح صفد سار عنها إلى كوكب و نازلها و حصرها، و أرسل إلى من بها من الفرنج يبذل لهم الأمان إن سلّموا، و يتهدّدهم بالقتل و السبى و النهب إن امتنعوا، فلم يسمعوا قوله، و أصروا على الامتناع، فجذب فى قتالهم، و نصب عليهم المجانيق، و تابع رمى الأحجار إليهم، و زحف مرّة بعد مرّة، و كانت الأمطار كثيرة، لا تنقطع ليلا و لا نهارا، فلم يتمكن المسلمون من القتال على الوجه الذى يريدونه، و طال مقامهم عليها.

و فى آخر الأمر زحفوا إليها دفعات متناوبة فى يوم واحد، و وصلوا إلى باشورة القلعة، و معهم النقبابون و الرماة يحمونهم بالنشاب عن قوس اليد و الجروح، فلم يقدر أحد منهم أن يخرج رأسه من أعلى السور، فنقبوا الباشورة فسقطت، و تقدّموا إلى السور الأعلى، فلما رأى الفرنج ذلك أذعنوا بالتسليم، و طلبوا الأمان فأمنهم، و تسلّم الحصن منهم منتصف ذى القعدة، و سيّروهم إلى صور، فوصلوا إليها. و اجتمع بها من شياطين الفرنج و شجعانهم كلّ صنديد، فاشتدت شوكتهم، و حميت جمرتهم، و تابعوا الرسل إلى من بالأندلس و صقلية و غيرها من جزائر البحر يستغيثون و يستنجدون، و الأمداد كلّ قليل تأتيهم، و كان ذلك كلّ بتفريط صلاح الدين فى إطلاق كلّ من حصره، حتّى عضّ بنانه ندما و أسفا حيث لم ينفعه ذلك.

و اجتمع للمسلمين بفتح كوكب و صفد من حدّ أيلة إلى أقصى أعمال بيروت، لا يفصل بينه غير مدينة صور و جميع أعمال أنطاكية، سوى القصير، و لما ملك صلاح الدين صفد سار إلى البيت المقدّس، فعُيد فيه عيد الأضحى، ثم سار منه إلى عكا، فأقام بها حتّى انسلخت السنة.

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٢٤

ذكر ظهور طائفة من الشيعة بمصر

فى هذه السنة ثار بالقاهرة جماعة من الشيعة، عدّتهم اثنا عشر رجلا، ليلا، و نادوا بشعار العلويين: يال علىّ، يال علىّ، و سلّكوا الدروب ينادون، ظلّا منهم أنّ رعيّة البلد يلتبون دعوتهم، و يخرجون معهم، فيعيدون الدولة العلوية، و يخرجون بعض من بالقصر محبوسا منهم، و يملكون البلد، فلم يلتفت أحد منهم إليهم، و لا أعارهم سمعه.

فلما رأوا ذلك تفرّقوا خائفين، فأخذوا، و كتب بذلك إلى صلاح الدين، فأهمّه أمرهم و أزعبه، فدخل عليه القاضى الفاضل، فأخبره الخبر، فقال القاضى الفاضل: ينبغى أن تفرح بذلك و لا تحزن و لا تهتمّ، حيث علمت من بواطن رعيّتك المحيية لك و النصح، و ترك الميل إلى عدوّك، و لو وضعت جماعة يفعلون مثل هذه الحالة لتعلم بواطن أصحابك و رعيّتك، و خسرت الأموال الجليّة عليهم، لكان قليلا، فسرى عنه.

و كان هذا القاضى الفاضل صاحب دولة صلاح الدين، و أكبر من بها، و ستأتى مناقبه عند وفاته، ما تراه.

ذكر انهزام عسكر الخليفة من السلطان طغرل

في هذه السنة جهّز الخليفة الناصر لدين الله عسكرا كثيرا، وجعل المقدم عليهم وزيره جلال الدين عبيد الله بن يونس، و سيرهم إلى مساعدة قزل، ليكف السلطان طغرل عن البلاد، فسار العسكر ثالث صفر إلى أن قارب همذان، فلم يصل قزل إليهم، وأقبل طغرل إليهم في عساكره، فالتقوا ثامن

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٢٥

ربيع الأول بدايمرج عند همذان، واقتتلوا، فلم يثبت عسكر بغداد، بل انهزموا و تفرقوا، و ثبت الوزير قائما، و معه مصحف و سيف، فأتاه من عسكر طغرل من أسره، و أخذ ما معه من خزائنه و سلاح و دواب و غير ذلك، و عاد العسكر إلى بغداد متفرقين. و كنت حينئذ بالشام في عسكر صلاح الدين يريد الغزاة، فأتاه الخبر مع النجابين بمسير العسكر البغدادي، فقال: كأنكم و قد وصل الخبر بانهزامهم.

فقال له بعض الحاضرين: و كيف ذلك؟ فقال: لا شك أن أصحابي و أهلي أعرف بالحرب من الوزير، و أطوع في العسكر منه، و مع هذا، فما أرسل أحدا منهم في سرية للحرب إلّا و أخاف عليه، و هذا الوزير غير [١] عارف بالحرب، و قريب العهد بالولايه، و لا يراه الأمراء أهلا- أن يطاع، و في مقابلة سلطان شجاع قد باشر الحرب بنفسه، و من معه يطيعه. و كان الأمر كذلك، و وصل الخبر إليه بانهزامهم فقال لأصحابه: كنت أخبرتكم بكذا و كذا، و قد وصل الخبر بذلك.

و لما «١» عادت عساكر بغداد منهزمة قال بعض الشعراء، و هو أحمد بن الواثق بالله:

اتركونا من جائحات الجريمة طلعة طلعة تكون وخيمه

بركات الوزير قد شملتنا لهذا أمورنا مستقيمه

خرجت جندنا تريد خراسان جميعا بأبها عظيمه

بخيول و عدّة و عديد و سيوف مجربات قديمه

[١] فغير.

(١). aedni.mo. Aq. gapsita meopmenifdaeusq. و لما

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٢٦ و وزير و طاق طنب و نفس و خيول معدة للهزيمة

هم رأوا غرة العدو و قد أقبل ولّوا و انحلّ عقد العزيمة

و أتونا و لا بخفي حنين بوجوه سود قباح دميمه

لو رأى صاحب الزمان و لوعاين أفعالهم و قبح الجريمة

قابل الكل بالتكال و ناهيك بها سبّه عليهم مقيمة كان ينبغي أن تتقدم هذه الحادثة، و إنّما أخرتها لتتبع الحوادث المتقدمة بعضها بعضا، لتعلق كلّ واحدة منها بالأخرى.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة توفّي شيخنا أبو محمّد عبد الله بن عليّ بن عبد الله بن سويده التكريتي، كان عالما بالحديث، و له تصانيف حسنة. و فيها توفيت سلجوقه خاتون بنت قلع أرسلان بن مسعود بن قلع أرسلان زوجة الخليفة، و كانت قبله زوجة نور الدين محمّد بن قرا

أرسلان، صاحب الحصن، فلما توفى عنها تزوجها الخليفة، و وجد الخليفة عليها وجدا عظيما ظهر للناس كلهم، و بنى على قبرها تربةً بالجانب الغربى، و إلى جانب التربة رباطه المشهور بالرملة.

و فيها توفى علاء الدين تانمش و حمل تابوته إلى مشهد الحسين، عليه السلام.

و فيها توفى خالص خادم الخليفة، و كان أكبر أمير ببغداد، و مات أبو الفرج بن النقور «١» العدل ببغداد، و سمع الحديث الكثير، و هو من بيت الحديث، رحمه الله.

(١). العور: spu. القور: p.C.٧٤٠

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٢٧

٥٨٥ ثم دخلت سنة خمس و ثمانين و خمسمائة

ذكر فتح شقيف أرنون

فى هذه السنة، فى ربيع الأول، سار صلاح الدين إلى شقيف أرنون و هو من أمنع الحصون، ليحصره، فنزل بمرج عيون، فنزل صاحب الشقيف و هو أرناط صاحب صيدا، و كان أرناط هذا من أعظم الناس دهاء و مكراف دخل إليه و اجتمع به، و أظهر له الطاعة و المودة، و قال له: أنا محب لك.

و معترف بإحسانك، و أخاف أن يعرف المريكس «١» ما بينى و بينك، فينال أولادى و أهلى منه أذى، فإنهم عنده، فأشتهى أن تمهلنى حتى أتوصل فى تخليصهم من «٢» عنده، و حينئذ أحضر أنا و هم عندك، و نسلّم الحصن إليك، و نكون فى خدمتك، نقنع بما تعطينا من إقطاع، فظنّ صلاح الدين صدقه، فأجابه إلى ما سأل، فاستقرّ الأمر بينهما أن يسلم الشقيف فى جمادى الآخرة.

و أقام صلاح الدين بمرج عيون ينتظر الميعاد، و هو قلق مفكر، لقرب انقضاء مدّة الهدنة بينه و بين البيمند، صاحب أنطاكية، فأمر تقى الدين ابن أخيه أن يسير فى من معه من عساكره، و من يأتى من بلاد المشرق، و يكون مقابل أنطاكية لئلا يغير صاحبها على بلاد الإسلام عند انقضاء الهدنة.

و كان أيضا منزعج خاطر، كثير الهم، لما بلغه من اجتماع الفرنج بمدينة

(١). المريكس بصور.

(٢). خلاصهم من.

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٢٨

صور، و ما يتصل بهم من الأمداد فى البحر، و أن ملك الفرنج الذى كان قد أسره صلاح الدين و أطلقه، بعد فتح القدس، قد اصطلح هو و المريكس، بعد اختلاف كان بينهما، و أنهم قد اجتمعوا فى خلق لا يحصون، فإنهم قد خرجوا من مدينه صور إلى ظاهرها، فكان هذا و أشباهه مما يزعجه، و يخاف من ترك الشقيف وراء ظهره و التقدّم إلى صور و فيها الجموع المتوافرة فتقطع الميرة عنه، إلّا أنه مع هذه الأشياء مقيم على العهد مع أرناط صاحب الشقيف.

و كان أرناط، فى مدّة الهدنة، يشتري الأقوات من سوق العسكر و السلاح و غير ذلك مما يحصن به شقيفه، و كان صلاح الدين يحسن الظنّ، و إذا قيل له عنه ممّا هو فيه من المكر، و إن قصده المطاولة إلى أن يظهر الفرنج من صور، و حينئذ يبدى فضيخته، و يظهر مخالفته، لا يقبل فيه، فلما قارب انقضاء الهدنة تقدّم صلاح الدين من معسكره إلى القرب من شقيف أرنون و أحضر عنده

أرناط و قد بقى من الأجل ثلاثة أيام، فقال له فى معنى تسليم الشقيف، فاعتذر بأولاده و أهله، و أنّ المركيس لم يمكنهم من المجيء إليه و طلب التأخير مدة أخرى، فحينئذ علم السلطان مكره و خداعه، فأخذه و حبسه، و أمره بتسليم الشقيف، فطلب قتييسا، ذكره، ليحمله رسالته إلى من بالشقيف ليسلموه، فأحضروه عنده، فسارّه بما لم يعلموا، فمضى ذلك القسيس إلى الشقيف، فأظهر أهله العصيان، فسار صلاح الدين أرناط إلى دمشق و سجنه، و تقدّم إلى الشقيف فحصره و ضيق عليه، و جعل عليه من يحفظه و يمنع عنه الذخيرة و الرجال.

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٢٩

ذكر وقعة اليزك مع الفرنج

لما كان صلاح الدين بمرج عيون، و على الشقيف، جاءته كتب من أصحابه الذين جعلهم يزكا فى مقابل الفرنج على صور، يخبرونه فيها أنّ الفرنج قد أجمعوا على عبور الجسر الذى لصور، و عزموا على حصار صيدا، فسار صلاح الدين جريده فى شجعان أصحابه، سوى من جعله على الشقيف، فوصل إليهم و قد فات الأمر.

و ذلك أنّ الفرنج قد فارقوا صور و ساروا عنها لمقصدهم، فلقىهم اليزك على مضيق هناك، و قاتلوه و منعوه، و جرى لهم معهم حرب شديدة يشيب لها الوليد، و أسروا من الفرنج جماعة، و قتلوا جماعة منهم سبعة رجال من فرسانهم المشهورين و جرحوا جماعة، و قتل من المسلمين أيضا جماعة منهم مملوك لصلاح الدين كان من أشجع الناس، فحمل وحده على صفّ الفرنج، فاختلط بهم، و ضربهم بسيفه يمينا و شمالا، فتكاثروا عليه فقتلوه، رحمه الله، ثم إنّ الفرنج عجزوا عن الوصول إلى صيدا فعادوا إلى مكانهم.

ذكر وقعة ثانية للغزاة المتطوعة

لما وصل صلاح الدين إلى اليزك و قد فاتته تلك الوقعة أقام عندهم فى خيمة صغيرة، ينتظر عودة الفرنج لينتقم منهم، و يأخذ بثأر من قتلوه من المسلمين.

فركب فى بعض الأيام فى عدّة يسيرة على أن ينظر إلى مخيم الفرنج من الجبل ليعمل بمقتضى ما يشاهده، و ظنّ من هناك من غزاة العجم و العرب المتطوعة أنّه على قصد المصافّ و الحرب، فساروا مجدين و أوغلوا فى أرض العدوّ مبعدين،

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٣٠

و فارقوا الحزم، و خلّفوا السلطان وراء ظهورهم، و قاربوا الفرنج، فأرسل صلاح الدين عدّة من الأمراء يردّونهم و يحمونهم إلى أن يخرجوا، فلم يسمعوا و لم يقبلوا.

و كان الفرنج قد اعتقدوا أنّ وراءهم كميناً، فلم يقدموا عليهم، فأرسلوا من ينظر حقيقة الأمر، فأتاهم الخبر أنّهم منقطعون عن المسلمين، و ليس وراءهم ما يخاف، فحملت الفرنج عليهم حملة رجل واحد، فقاتلوه، فلم يلبثوا أن أناموهم، و قتل معهم جماعة من المعروفين، و شقّ على صلاح الدين و المسلمين ما جرى عليهم، و كان ذلك بتفريطهم فى حقّ أنفسهم، رحمهم الله و رضى عنهم.

و كانت هذه الوقعة تاسع جمادى الأولى، فلما رأى صلاح الدين ذلك انحدر من الجبل إليهم فى عسكره، فحملوا على الفرنج فألقوهم إلى الجسر و قد أخذوا طريقهم، فألقوا أنفسهم فى الماء، فغرق منهم نحو مائة دارع سوى من قتل، و عزم السلطان على مصابرتهم و محاصرتهم، فتسامع الناس، فقصدوه من كلّ ناحية و اجتمع معه خلق كثير، فلما رأى الفرنج ذلك عادوا إلى مدينة صور، فلما عادوا إليها سار صلاح الدين إلى تبين، ثم إلى عكا ينظر حالها، ثم عاد إلى العسكر و المخيم.

ذكر وقعة ثالثة

لَمَّا عاد صلاح الدين إلى العسكر أتاَه الخبر أَنَّ الفرنج يخرجون من صور للاحتطاب و الاحتشاش، متبذدين، فكتب إلى من بعكاً من العسكر و واعدهم يوم الاثنين ثامن جمادى الآخرة ليلاقوهم من الجانبين، و رتب كمناء فى موضع من تلك الأودية و الشعاب، و اختار جماعة من شجعان عسكره،

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٣١

و أمرهم بالتعرض للفرنج، و أمرهم أَنَّهُمْ إِذَا حمل عليهم الفرنج قاتلوهم شيئاً من قتال، ثُمَّ تطاردوا لهم، و أروهم العجز عن مقاتلتهم، فإِذَا تبعهم الفرنج استجروهم إلى أن يجوزوا موضع الكمين، ثُمَّ يعطفوا عليهم، و يخرج الكمين من خلفهم، فخرجوا على هذه العزيمة. فلَمَّا تراءى الجمعان، و التقت الفتتان و اقتتلوا، أنف فرسان المسلمين أن يظهر عنهم اسم الهزيمة، و ثبتوا، فقاتلوهم، و صبر بعضهم لبعض، و اشتد القتال و عظم الأمر، و دامت الحرب، و طال على الكمناء الانتظار، فخافوا على أصحابهم فخرجوا من مكانهم نحوهم مسرعين، و إليهم قاصدين، فأتوهم و هم فى شدة الحرب، فزاد الأمر شدة على شدة، و كان فيهم أربعة أمراء من ربيعة و طى، و كانوا يجهلون تلك الأرض، فلم يسلكوا مسلك أصحابهم، فسلكوا الوادى ظناً منهم أَنَّهُ يخرج بهم إلى أصحابهم، و تبعهم بعض مماليك صلاح الدين، فلَمَّا رآهم الفرنج بالوادى علموا أَنَّهُمْ جاهلون فأتوهم و قاتلوهم.

و أمَّا المملوك فَإِنَّهُ نزل عن فرسه، و جلس على صخرة، و أخذ قوسه بيده، و حمى نفسه، و جعلوا يرمونه بسهام الزنبورك و هو يرميهم فجرح منهم جماعة و جرحوه جراحات كثيرة، فسقط فأتوه و هو بآخر رمق، فتركوه و انصرفوا و هم يحسبونه ميتاً، ثُمَّ إِنَّ المسلمين جاءوا من الغد إلى موضعهم، فرأوا القتلى «١»، و رأوا المملوك حياً، فحملوه فى كساء، و هو يكاد لا يعرف من [كثرة] الجراحات، فأيسوا من حياته، فأعرضوا [عنه و عرضوا] عليه الشهادة، و بشروه بالشهادة، فتركوه، ثُمَّ عادوا إليه، فرأوه و قد قويت نفسه، فأقبلوا عليه بمشروب، فعوفى، ثُمَّ كان بعد ذلك لا يحضر مشهداً إلَّا كان له فيه الأثر العظيم.

(١). فواروا القتلى A.

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٣٢

ذكر مسير الفرنج إلى عكا و محاصرتها

لَمَّا كثر جمع الفرنج بصور على ما ذكرناه من أَنَّ صلاح الدين كان كَلَّمَا فتح مدينة أو قلعة أعطى أهلها الأمان، و سيرهم إليها بأموالهم و نسائهم و أولادهم، فاجتمع بها منهم عالم كثير لا يعد و لا يحصى، و من الأموال ما لا يفنى على كثرة الإنفاق فى السنين الكثيرة، ثُمَّ إِنَّ الرهبان و القسوس و خلقاً كثيراً من مشهورينهم و فرسانهم لبسوا السواد، و أظهروا الحزن على خروج البيت المقدس من أيديهم، و أخذهم البطرك الذى كان بالقدس، و دخل بهم بلاد الفرنج يطوفها بهم جميعاً «١»، و يستجدون أهلها، و يستجيرون بهم، و يحثونهم على الأخذ بثأر البيت المقدس، و صوّروا المسيح، عليه السلام، و جعلوه مع صورة عربى يضربه، و قد جعلوا الدماء على صورة المسيح، عليه السلام، و قالوا لهم: هذا المسيح يضربه محمد نبي المسلمين و قد جرحه و قتله.

فعظم ذلك على الفرنج، فحشروا و حشدوا حتى النساء، فَإِنَّهُمْ كان معهم على عكا عدّة من النساء يبارزن [١] الأقران، على ما ذكره إن شاء الله تعالى، و من لم يستطع الخروج استأجر من يخرج عوضه، أو يعطيهم مالا- على قدر حالهم، فاجتمع لهم من الرجال و الأموال ما لا يتطرق إليه الإحصاء.

و لقد حدّثنى بعض المسلمين المقيمين بحصن الأكراد، و هو من أجناد أصحابه الذين سلّموه إلى الفرنج قديماً، و كان هذا الرجل قد ندم على ما كان منه [من] موافقة الفرنج فى الغارة على بلاد الإسلام، و القتال معهم، و السعى

[١] يارزون.

(١). جميعها. A.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٣٣

معهم، و كان سبب اجتماعي به ما أذكره سنة تسعين و خمسمائة، إن شاء الله تعالى.

قال لى هذا الرجل إنه دخل مع جماعة من الفرنج من حصن الأكراد إلى البلاد البحرية التي للفرنج و الروم فى أربع شوان، يستجدون، قال: فانتهى بنا التطواف إلى رومية الكبرى، فخرجنا منها و قد ملأنا الشوانى نقرة.

و حدثنى بعض الأسرى منهم أنه له والدته ليس لها ولد سواه، و لا يملكون من الدنيا غير بيت باعته و جهّزته بثمنه، و سيرته لاستنقاذ بيت واحد فأخذ أسيرا.

و كان عند الفرنج من الباعث الدينى و النفسانى ما هذا حدّه، فخرجوا على الصعب و الذلول، برّاء و بحراً، من كلّ فجّ عميق، و لو لا [أنّ] الله تعالى لطف بالمسلمين، و أهلكت ملك الألمان لما خرج على ما نذكره عند خروجه إلى الشام، و إلّا كان يقال: إنّ الشام و مصر كانتا للمسلمين.

فهذا كان سبب خروجهم، فلما اجتمعوا بصور تموّج بعضهم فى بعض، و معهم الأموال العظيمة، و البحر يمدّهم بالأقوات و الذخائر، و العدد و الرجال، من بلادهم، فضاقت عليهم صور، باطنها و ظاهرها، فأرادوا قصد صيدا، و كان ما ذكرناه، فعادوا و اتفقوا على قصد عكا و محاصرتها و مصابرتها، فساروا إليها بفارسهم و راجلهم، و قضّهم و قضيضهم، و لزموا البحر فى مسيرهم لا يفارقونه فى السهل و الوعر، و الضيق و السعة، و مراكبهم تسير مقابلهم فى البحر، فيها سلاحهم و ذخائرهم، و لتكون عدّة لهم، إن جاءهم ما لا قبل لهم به ركبوا فيها و عادوا، و كان رحيلهم ثامن رجب، و نزولهم على عكا فى منتصفه، و لما كانوا سائرين كان يزكّ المسلمين يتخطّفونهم، و يأخذون المنفرد منهم.

و لما رحلوا جاء الخبر إلى صلاح الدين برحيلهم، فسار حتّى قاربهم، ثمّ

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٣٤

جمع أمراءه و استشارهم: هل يكون المسير محاذاه الفرنج و مقاتلتهم و هم سائرون، أو يكون فى غير الطريق التى سلكوها؟ فقالوا: لا حاجة بنا إلى احتمال المشقّة فى مسيرتهم، فإنّ الطريق وعر و ضيق، و لا يتهيا لنا ما نريده منهم، و الرأى أنّنا نسير فى الطريق المهيّج، و نجتمع عليهم عند عكا، فنفرّقهم و نمزّقهم.

فعلم ميلهم إلى الراحة المعجّلة، فوافقهم، و كان رأيه مسيرتهم و مقاتلتهم و هم سائرون، و قال: إنّ الفرنج إذا نزلوا لصقوا بالأرض، فلا يتهيا لنا إزعاجهم، و لا- نيل الغرض منهم، و الرأى قتالهم قبل الوصول إلى عكا، فخالقوه، فتبعهم، و ساروا على طريق كفر كنا، فسبقهم الفرنج، و كان صلاح الدين قد جعل فى مقابل الفرنج جماعة من الأمراء يسايرونهم، و يناوشونهم القتال، و يتخطّفونهم، و لم يقدم الفرنج عليهم مع قلّتهم، فلو أنّ العساكر اتبعت رأى صلاح الدين فى مسيرتهم و مقاتلتهم قبل نزولهم على عكا، لكان بلغ غرضه و صدّهم عنها، و لكن إذا أراد الله أمراً هيأ أسبابه.

و لما وصل صلاح الدين إلى عكا رأى الفرنج قد نزلوا عليها من البحر إلى البحر، من الجانب الآخر، و لم يبق للمسلمين إليها طريق، فنزل صلاح الدين عليهم، و ضرب خيمته على تلّ كيسان، و امتدّت يمينته إلى تلّ الغياضية «١»، و يسرته إلى النهر الجارى، و نزلت الأثقال بصقورية، و سّير الكتب إلى الأطراف باستدعاء العساكر، فأتاه عسكر الموصل، و ديار بكر، و سنجار و غيرها من بلاد الجزيرة، و أتاه تقى الدين ابن أخيه، و أتاه مظفر الدين بن زين الدين، و هو صاحب حرّان و الرها.

و كانت الأمداد تأتى المسلمين فى البرّ و تأتى الفرنج فى البحر، و كان بين الفريقين مدّة مقامهم على عكا حروب كثيرة ما بين صغيرة

و كبيرة، منها اليوم المشهور، و منها ما هو دون ذلك، و أنا أذكر الأيام الكبار لئلا يطول

(١) تل العياضية. A.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٣٥

ذلك، و لأنّ ما عداها كان قتالا يسيرا من بعضهم مع بعض، فلا حاجة إلى ذكره.

و لَمَّا نزل السلطان عليهم لم يقدر على الوصول إليهم، و لا إلى عكا، حتّى انسَلَخ رجب، ثمّ قاتلهم مستهلاً شعبان، فلم ينل منهم ما يريد، و بات الناس على تعبئة، فلمّا كان الغد باكرهم القتال بحدّه و حديدّه، و استدار عليهم من سائر جهاتهم من بكرة إلى الظهر، و صبر الفريقان صبرا حار له من رآه.

فلَمّا كان وقت الظهر حمل عليهم تقى الدين حملة منكراً من الميمنة على من يليه منهم، فأزاحهم عن مواقفهم يركب بعضهم بعضاً لا يلوى أخ على أخ، و التجنّوا إلى من يليهم من أصحابهم، و اجتمعوا بهم و احتموا بهم، و أخلوا نصف البلد، و ملك تقى الدين مكانهم، و التصق بالبلد، و صار ما أخلوه بيده، و دخل المسلمون البلد، و خرجوا منه، و اتّصلت الطرق، و زال الحصر عمّن فيه، و أدخل صلاح الدين إليه من أراد من الرجال، و ما أراد من الذخائر و الأموال و السلاح و غير ذلك، و لو أنّ المسلمين لزموا قتالهم إلى الليل لبلغوا [١] ما أرادوه، فإنّ للصدمة الأولى روعة، لكنّهم لمّا نالوا منهم هذا القدر أخلدوا إلى الراحة، و تركوا القتال و قالوا: نباكرهم غداً، و نقطع دابرهم.

و كان في جملة من أدخله صلاح الدين إلى عكا من جملة الأمراء حسام الدين أبو الهيجاء السمين، و هو من أكابر أمراء عسكره، و هو من الأكراد الحكيمّة من بلد إربل. و قتل من الفرنج هذا اليوم جماعة كبيرة.

[١] فبلغوا.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٣٦

ذكر وقعة أخرى و وقعة العرب

ثمّ إنّ المسلمين نهضوا إلى الفرنج من الغد و هو سادس شعبان عازمين على بذل جهدهم، و استنفاد وسعهم في استئصالهم، فتقدّموا على تعبئتهم، فرأوا الفرنج حذرين محتاطين، قد ندموا على ما فرطوا فيه بالأمس، و هم قد حفظوا أطرافهم و نواحيهم، و شرعوا في حفر خندق يمنع من الوصول إليهم، فألح المسلمون عليهم في القتال، فلم يتقدّم الفرنج إليهم، و لا- فارقوا مراتبهم، فلمّا رأى المسلمون ذلك عادوا عنهم.

ثمّ إنّ جماعة من العرب بلغهم أنّ الفرنج تخرج من الناحية الأخرى إلى الاحتطاب و غيره من أشغالهم، فكمنوا لهم في معاطف النهر و نواحيه سادس عشر شعبان، فلمّا خرج جمع من الفرنج على عادتهم حملت عليهم العرب، فقتلوه عن آخرهم، و غنموا ما كان معهم، و حملوا الرؤوس إلى صلاح الدين، فأحسن إليهم، و أعطاهم الخلع.

ذكر الوقعة الكبرى على عكا

لَمّا كان بعد هذه الوقعة المذكورة بقي المسلمون إلى العشرين من شعبان، كلّ يوم يغادون القتال مع الفرنج و يراوحوه، و الفرنج لا يظهرون من معسكرهم و لا- يفارقونه، ثمّ إنّ الفرنج اجتمعوا للمشورة، فقالوا: إنّ عسكر مصر لم يحضر و الحال مع صلاح الدين هكذا، فكيف يكون إذا حضر [١]؟

[١] حضرت.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٣٧

و الرأي أننا نلقى المسلمين غدا لعلنا نظفر بهم قبل اجتماع العساكر و الأمداد إليهم.

و كان كثير من عسكر صلاح الدين غائبا عنه، بعضها مقابل أنطاكية ليردوا عادية يميند صاحبها عن أعمال حلب، و بعضها في حمص مقابل طرابلس لتحفظ ذلك الثغر أيضا، و عسكر في مقابل صور لحماية ذلك البلد، و عسكر بمصر يكون بثغر دمياط و الإسكندرية و غيرهما، و الذي بقي من عسكر مصر كانوا لم يصلوا لطول بيكارهم، كما ذكرناه قبل، و كان هذا مما أطمع الفرنج في الظهور إلى قتال المسلمين.

و أصبح المسلمون على عادتهم، منهم من يتقدم إلى القتال، و منهم من هو في خيمته، و منهم من قد توجه في حاجته من زيارة صديق و تحصيل ما يحتاج إليه هو و أصحابه و دوابه، إلى غير ذلك، فخرج الفرنج من معسكرهم كأنهم الجراد المنتشر، يدبّون على وجه الأرض، قد ملئوها طولا و عرضا، و طلبوا ميمنة المسلمين و عليها تقى الدين عمر ابن أخى صلاح الدين، فلما رأى الفرنج نحوه قاصدين حذر هو و أصحابه، فتقدموا إليه، فلما قربوا منه تأخر عنهم.

فلما رأى صلاح الدين الحال، و هو في القلب، أمدّ تقى الدين برجال من عنده ليتقوى بهم، و كان عسكر ديار بكر و بعض الشرقيين في جناح القلب، فلما رأى الفرنج قلّة الرجال في القلب، و أنّ كثيرا منهم قد سار نحو الميمنة مددا لهم، عطفوا على القلب، فحملوا حملة رجل واحد، فاندفعت العساكر بين أيديهم منهزمين، و ثبت بعضهم، فاستشهد جماعة منهم كالأمير مجلى بن مروان و الظهير أخى [١] الفقيه عيسى، و كان و إلى البيت المقدس قد جمع بين الشجاعة و العلم و الدين، و كالحاجب خليل الهكاري و غيرهم من الشجعان

[١] أخو.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٣٨

الصابرين في مواطن الحرب، و لم يبق بين أيديهم في القلب من يردّهم، فقصدوا التلّ الذي عليه خيمة صلاح الدين، فقتلوا من مروا به، و نهبوا، و قتلوا عند خيمة صلاح الدين جماعة، منهم شيخنا جمال الدين أبو على بن رواحة الحمويّ، و هو من أهل العلم، و له شعر حسن، و ما ورث الشهادة من بعيد، فإنّ جدّه عبد الله بن رواحة، صاحب رسول الله، صلى الله عليه و سلّم، قتله الروم يوم مؤتة، و هذا قتله الفرنج يوم عكا، و قتلوا غيره، و انحدروا إلى الجانب الآخر من التلّ، فوضعوا السيف فيمن لقوه، و كان من لطف الله تعالى بالمسلمين أنّ الفرنج لم يلقوا خيمة صلاح الدين، و لو لقوها [١] لعلم الناس وصولهم إليها، و انهزام العساكر بين أيديهم، فكانوا انهزموا أجمعون [٢].

ثمّ إنّ الفرنج نظروا وراءهم، فرأوا أمدادهم قد انقطعت عنهم، فرجعوا خوفا أن ينقطعوا عن أصحابهم، و كان سبب انقطاعهم أنّ الميمنة وقفت مقابلتهم، فاحتاج بعضهم [أن] يقف مقابلها، و حملت ميسرة المسلمين على الفرنج، فاشتغل المدد بقتال من بها عن الاتصال بأصحابهم، و عادوا إلى طرف خنادقهم، فحملت الميسرة على الفرنج الواصلين إلى خيمة صلاح الدين، فصادفهم و هم راجعون، فقاتلهم، و ثار بهم غلمان العسكر.

و كان صلاح الدين لما انهزم القلب قد تبعهم يناديه، و يأمرهم بالكرّة، و معاودة القتال، فاجتمع معه منهم جماعة صالحة، فحمل بهم على الفرنج من وراء ظهورهم و هم مشغولون بقتال الميسرة، فأخذتهم سيوف الله من كلّ جانب، فلم يفلت منهم أحد، بل قتل أكثرهم، و أخذ الباقون أسرى، و في جملة من أسر مقدّم الداوية الذي كان قد أسره صلاح الدين و أطلقه، فلما

[١] ألقوها.

[٢] أجمعين.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٣٩

ظفر به الآن قتله.

و كانت عدّة القتلى، سوى من كان إلى جانب البحر، نحو عشرة آلاف قتل، فأمر بهم، فألقوا في النهر الذي يشرب الفرنج منه، و كان عاميّة القتلى من فرسان الفرنج، فإنّ الرجاله لم يلحقوهم، و كان في جملة الأسرى ثلاث نسوة فرنجيات كنّ يقاتلن على الخيل، فلمّا أسرن، و ألقى عنهنّ السلاح عرفن أنّهنّ نساء.

و أمّا المنهزمون من المسلمين، فمنهم من رجع من طبريّة، و منهم من جاز الأردن و عاد، و منهم من بلغ دمشق، و لو لا أنّ العساكر تفرّقت في الهزيمة لكانوا بلغوا من الفرنج [من] الاستئصال، و الإهلاك، مرادهم، على أنّ الباقين بذلوا جهدهم، و جدّوا في القتال و صمّموا على الدخول مع الفرنج إلى معسكرهم لعلّهم يفرعون منهم، فجاءهم الصريخ بأنّ رجالهم و أموالهم قد نهبت، و كان سبب هذا النهب أنّ الناس لمّا رأوا الهزيمة حملوا أثقالهم على الدوابّ، فثار بهم أوباش العسكر و غلمانهم، فنهبوه و أتوا عليه، و كان في عزم صلاح الدين أن يياكرهم القتال و الزحف، فرأى اشتغال الناس بما ذهب من أموالهم، و هم يسعون في جمعها و تحصيلها، فأمر بالنداء بإحضار ما أخذ، فأحضر منه ما ملأ الأرض من المفارش، و العيب المملوءة و الثياب و السلاح و غير ذلك، فردّ الجميع على أصحابه، ففاته ذلك اليوم ما أراد، فسكن روع الفرنج، و أصلحوا شأن الباقين منهم.

ذكر رحيل صلاح الدين عن الفرنج و تمكّنهم من حصر عكا

لمّا قتل من الفرنج ذلك العدد الكثير، جافت الأرض من نتن ريحهم، و فسد الهواء و الجوّ، و حدث للأمزجة فساد، و انحرف مزاج صلاح الدين،

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٤٠

و حدث له قولنج مبرح كان يعتاده، فحضر عنده الأمراء، و أشاروا عليه بالانتقال من ذلك الموضع، و ترك مضايقة الفرنج، و حسّنه له، و قالوا:

قد ضيقنا على الفرنج، و لو أرادوا الانفصال عن مكانهم لم يقدرُوا، و الرأى أنّنا نبعد عنهم بحيث يتمكّنون من الرحيل و العود، فإنّ رحلوا، و هو ظاهر الأمر، فقد كفيينا شرّهم و كفوا شرّنا، و إن أقاموا عاودنا القتال و رجعنا معهم إلى ما نحن فيه، ثمّ إنّ مزاجك منحرف، و الألم شديد، و لو وقع إرجاف لهلك الناس، و الرأى على كلّ تقدير البعد عنهم.

و وافقهم الأطباء على ذلك، فأجابهم إليه إلى ما يريد الله يفعلهُ و إذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مردّ لَهُ و ما لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ والٍ «١»، فرحلوا إلى الحرّوبة رابع شهر رمضان و أمر من بعكّا من المسلمين بحفظها، و إغلاق أبوابها، و الاحتياط، و أعلمهم بسبب رحيله.

فلتّما رحل هو و عساكره [١] أمن الفرنج و انبسطوا في تلك الأرض، و عادوا فحصبوا [٢] عكا، و أحاطوا بها من البحر إلى البحر، و مراكبهم أيضا في البحر تحصرها، و شرعوا في حفر الخندق [٣]، و عمل السور من التراب الذي يخرجونه من الخندق، و جاءوا بما لم يكن في الحساب، و كان اليزك كلّ يوم يوافقهم، و هم لا يقاتلون، و لا يتحرّكون، إنّما هم مهتمّون بعمل الخندق و السور عليهم ليتحصّنوا به من صلاح الدين، إن عاد إلى قتالهم، فحينئذ ظهر رأى المشيرين بالرحيل.

[١] و عساكر.

[٢] حصروا.

[٣] الخندق.

(١). ١١ خ ١٣. roC.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٤١

و كان اليزك كل يوم يخبرون صلاح الدين بما يصنع الفرنج، و يعظمون الأمر عليه، و هو مشغول بالمرض، و لا يقدر على النهوض للحرب، و أشار عليه بعضهم بأن يرسل العساكر جميعها إليهم [١] ليمنعهم من الخندق و السور، و يقاتلوهم، و يتخلف هو عنهم، فقال: إذا لم أحضر معهم لا يفعلون شيئاً، و ربّما كان من الشرّ أضعاف ما نرجوه من الخير، فتأخّر الأمر إلى أن عوفى، فتمكّن الفرنج و عملوا ما أرادوا، و أحكموا أمورهم، و حصّوا نفوسهم بما وجدوا إليه السبيل، و كان من بعدك يخرجون إليهم كل يوم، و يقاتلونهم، و ينالون منهم بظاهر البلد.

ذكر وصول عسكر مصر و الأسطول المصري في البحر

في منتصف شوال وصلت العساكر المصريّة، و مقدّمها الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب، فلمّا وصل قويت نفوس الناس به و بمن معه، و اشتدّت ظهورهم، و أحضر معه من آلات الحصار، من الدرق و الطارقيات و النشاب و الأقواس، شيئاً كثيراً، و معهم من الرّجاله الجيّم الغفير، و جمع صلاح الدين من البلاد الشاميّة راجلاً كثيراً، و هو على عزم الزحف إليهم بالفارس و الرّاجل. و وصل بعده الأسطول المصريّ، و مقدّمه الأمير لؤلؤ، و كان شهماً، شجاعاً، مقداماً، خبيراً بالبحر و القتال فيه، ميمون النقيبة، فوصل بغتة، فوقع على بطسة كبيرة للفرنج، فغنمها، و أخذ منها أموالاً كثيرة و ميرة عظيمة، فأدخلها إلى عكا، فسكنت نفوس من بها بوصول الأسطول و قوى جنانهم.

[١] إليها.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٤٢

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنّة، في صفر، خطب لولّي العهد أبي نصر «١» محمّد بن الخليفة الناصر لدين الله ببغداد، و نثرت الدنانير و الدراهم، و أرسل إلى البلاد في إقامة الخطبة، ففعل ذلك.

و فيها، في شوال، ملك الخليفة تكريت، و سبب ذلك أنّ صاحبها، و هو الأمير عيسى، قتله إخوته، و ملكوا القلعة بعده، فسير الخليفة إليهم عسكراً فحاصروها و تسلّموها، و دخل أصحابه إلى بغداد فأعطوا أقطاعاً.

و فيها، في صفر، فتح الرباط الذي بناه الخليفة بالجانب الغربيّ من بغداد، و حضر الخلق العظيم، فكان يوماً مشهوداً.

و في هذه السنّة، في رمضان، مات شرف الدين أبو سعد عبد الله بن محمّد ابن هبة الله بن أبي عصرون، الفقيه الشافعيّ بدمشق، و كان قاضيها، و أضّرّ، و ولي القضاء بعده ابنه، و كان الشيخ من أعيان الفقهاء الشافعيّة.

و فيها، في ذي القعدة، توفّي الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاريّ بالخروبة مع صلاح الدين، و هو من أعيان أمراء عسكره، و من قدماء الأسدّيّة، و كان فقيهاً، جندياً، شجاعاً، كريماً، ذا عصبيّة و مروءة، و هو من أصحاب الشيخ الإمام أبي القاسم بن البرزّي، تفقّه عليه بجزيرة ابن عمر، ثمّ اتّصل بأسد الدين شيركوه فصار إماماً له، فرأى من شجاعته ما جعل له أقطاعاً، و تقدّم عند صلاح الدين تقدّماً

عظيما.

و فيها، فى صفر، توفى شيخنا أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن بن وهبان،

(١). لدين الله. vdaeuqsu.qs أبى نصر aedni.mo

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٤٣

المعروف بابن أفضل الزمان، بمكة، و كان رحمه الله عالما متبحرا فى علوم كثيرة، خلاف فقه مذهبه و الأصولين، و الحساب و الفرائض، و النجوم، و الهيئة، و المنطق، و غير ذلك، و ختم أعماله بالزهد، و لبس الخشن، و أقام بمكة، حرسها الله تعالى، مجاورا، فتوفى بها، و كان من أحسن الناس صحبة و خلقا.

و فيها، فى ذى القعدة، مات أبو طالب المبارك بن المبارك الكرخى مدرّس النظامية، و كان من أصحاب أبى الحسن بن الخلّ، و كان صالحا خيرا له عند الخليفة و العامة حرمة عظيمة، و جاه عريض، و كان حسن الخطّ يضرب به المثل.

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٤٤

٥٨٦ ثم دخلت سنة ست و ثمانين و خمسمائة

ذكر وقعة الفرنج و اليزك و عود صلاح الدين إلى منازل الفرنج

قد ذكرنا رحيل صلاح الدين عن عكا إلى الحروبة لمرضه، فلما برأ أقام بمكانه إلى أن ذهب الشتاء، و فى مدّة مقامه بالخروبة كان يزيكه و طلائعه لا تنقطع عن الفرنج.

فلما دخل صفر من سنة ست و ثمانين و خمسمائة سمع الفرنج أنّ صلاح الدين قد سار للصيد، و رأى العسكر الذى فى اليزك عندهم قليلا، و أنّ الواحد الذى فى مرج عكا كثير يمنع من سلوكه من أراد أن ينجذ اليزك، فاغتنموا ذلك، و خرجوا من خندقهم على اليزك وقت العصر، فقاتلهم المسلمون، و حموا أنفسهم بالنشاب، و أحجم الفرنج عنهم، حتّى فنى نشابهم، فحملوا عليهم حينئذ حملة رجل واحد، فاشتد القتال، و عظم الأمر، و علم المسلمون أنّه لا ينجيهم إلّا الصبر و صدق القتال، فقاتلوا قتال مستقتل إلى أن جاء الليل، و قتل من الفريقين جماعة كثيرة، و عاد الفرنج إلى خندقهم.

و لما عاد صلاح الدين إلى المعسكر سمع خبر الوقعة، فندب الناس إلى نصر إخوانهم، فأتاه الخبر أنّ الفرنج عادوا إلى خندقهم، فأقام، ثمّ إنّه رأى الشتاء قد ذهب، و جاءت العساكر من البلاد القريبة منه دمشق و حمص و حماة و غيرها، فتقدّم من الحروبة نحو عكا، فنزل بتلّ كيسان، و قاتل الفرنج

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٤٥

كلّ يوم ليشغلهم عن قتال من بعكا من المسلمين، فكانوا يقاتلون الطائفتين و لا يسأمون.

ذكر إحراق الأبراج و وقعة الأسطول

كان الفرنج، فى مدّة مقامهم على عكا، قد عملوا ثلاثة أبراج من الخشب عالية جدا، طول كلّ برج منها فى السماء ستون ذراعا، و عملوا كلّ برج منها خمس طبقات، كلّ طبقة مملوءة من المقاتلة، و قد جمعوا [١] أخشابها من الجزائر، فإنّ مثل هذه الأبراج العظيمة لا يصلح لها من الخشب إلّا القليل النادر، و غشوها بالجلود و الخلّ و الطين و الأدوية التى تمنع النار من إحراقها، و أصلحوا الطرق لها، و قدّموها نحو مدينة عكا من ثلاث جهات، و زحفوا بها فى العشرين من ربيع الأوّل، فأشرفت على السور، و قاتل من بها من عليه،

فانكشفوا، و شرعوا في طمّ خندقها، فأشرف البلد على أن يملك عنوةً وقهرا.

فأرسل أهله إلى صلاح الدين إنسانا سبح في البحر، فأعلمه ما هم فيه من الضيق، و ما قد أشرفوا عليه من أخذهم وقتلهم، فركب هو و عساكره و تقدّموا إلى الفرنج و قاتلوهم [٢] من جميع جهاتهم قتالا عظيما دائما يشغلهم عن مكائده البلد، فافترق الفرنج فرقتين: فرقة تقاتل صلاح الدين، و فرقة تقاتل أهل عكا، إلّا أنّ الأمر قد خفّ عمنّ بالبلد، و دام القتال ثمانية أيام متتابعة، آخرها الثامن و العشرون [٣] من الشهر، و سئم الفريقان القتال، و ملّوا منه لملازمته

[١] جمع.

[٢] و قاتلهم.

[٣] و العشرين.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٤٦

ليلا- و نهارا، و المسلمون قد تيقنوا استيلاء الفرنج على البلد، لما رأوا من عجز من فيه عن دفع الأبراج، فإنهم لم يتركوا حيلة إلّا و عملوها، فلم يفد ذلك و لم يغن عنهم شيئا، و تابعوا رمى النفط الطيار عليها، فلم يؤثر فيها، فأيقنوا بالبوار و الهلاك، فأتاهم الله بنصر من عنده و إذن في إحراق الأبراج.

و كان سبب ذلك أنّ إنسانا من أهل دمشق كان مولعا بجمع آلات النفاطين، و تحصيل عقاقير تقوى عمل النار، فكان من يعرفه يلومه على ذلك و ينكره عليه، و هو يقول: هذه حالة لا أباشرها بنفسى إنّما أشتهى معرفتها، و كان بعكا لأمر يريد الله، فلمّا رأى الأبراج قد نصبت على عكا شرع في عمل ما يعرفه من الأدوية القويّة للنار، بحيث لا يمنعها شيء من الطين و الخلّ و غيرهما، فلمّا فرغ منها حضر عند الأمير قراقوش، و هو متولّى الأمور بعكا و الحاكم فيها، و قال له: تأمر المنجنيقيّ أن يرمى في المنجنيق المحاذى لبرج من هذه الأبراج ما أعطيه حتّى أحرقه.

و كان عند قراقوش من الغيظ و الخوف على البلد و من فيه ما يكاد يقتله، فازداد غيظا بقوله و حرد عليه، فقال له: قد بالغ أهل هذه الصناعة في الرمي بالنفط و غيره فلم يفلحوا، فقال له من حضر: لعلّ الله تعالى قد جعل الفرج على يد هذا، و لا يضرنّا أن نوافقه على قوله، فأجابته إلى ذلك، و أمر المنجنيقيّ بامتنال أمره، فرمى عدّة قدور نفطا و أدوية ليس فيها نار، فكان الفرنج إذا رأوا القدر لا يحرق شيئا يصيحون، و يرقصون، و يلعبون على سطح البرج، حتّى إذا علم أنّ المذى ألقاه قد تمكّن من البرج، ألقى قدرا مملوءة و جعل فيها النار فاشتعل البرج، و ألقى قدرا ثانية و ثالثة، فاضطربت النار في نواحي البرج، و أعجلت من في طبقاته الخمس عن الهرب و الخلاص، فاحترق هو و من فيه، و كان فيه من الزرديات و السلاح شيء كثير.

و كان طمع الفرنج بما رأوا أنّ القدور الأولى لا تعمل شيئا يحملهم على

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٤٧

الطمأنينة و ترك السعى في الخلاص، حتّى عجز الله لهم النار في الدنيا قبل الآخرة، فلمّا احترق البرج الأول انتقل إلى الثاني، و قد هرب من فيه لخوفهم.

فأحرقه، و كذلك الثالث، و كان يوما مشهودا لم ير الناس مثله، و المسلمون ينظرون و يفرحون، و قد أسفرت وجوههم بعد الكآبة فرحا بالنصر و خلاص المسلمين من القتل لأنهم ليس فيهم أحد إلّا و له في البلد إمّا نسيب و إمّا صديق.

و حمل ذلك الرجل إلى صلاح الدين فبذل له الأموال الجزيلة و الإقطاع الكثير فلم يقبل منه الحبّة الفرد، و قال: إنّما عملته لله تعالى، و لا أريد الجزاء إلّا منه.

و سيّرت الكتب إلى البلاد بالبشائر، و أرسل يطلب العساكر الشرقيّة، فأول من أتاه عماد الدين زنكى بن مودود بن زنكى، و هو

صاحب سنجار و ديار الجزيرة، ثم أتاه علاء الدين ولد عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي، سيّره أبوه مقدّما على عسكره و هو صاحب الموصل، ثم وصل زين الدين يوسف صاحب إربل، و كان كلّ منهم إذا وصل يتقدّم إلى الفرنج بعسكره، و ينضمّ إليه غيرهم، و يقاتلونهم، ثمّ ينزلون.

و وصل الأسطول من مصر، فلمّا سمع الفرنج بقربة منهم جهّزوا إلى طريقه أسطولا ليلقاه و يقاتله، فركب صلاح الدين في العساكر جميعها، و قاتلهم من جهاتهم ليشغلوا بقتاله عن قتال الأسطول ليتمكّن من دخول عكا، فلم يشتغلوا عن قصده بشيء، فكان القتال بين الفريقين بزا و بحرا، و كان يوما مشهودا لم يؤرّخ مثله، و أخذ المسلمون من الفرنج مركبا بما فيه من الرجال و السلاح، و أخذ الفرنج من المسلمين مثل ذلك، إلّا أنّ القتل في الفرنج كان أكثر منه في المسلمين، و وصل الأسطول الإسلامي سالما.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٤٨

ذكر وصول ملك الألمان إلى الشام و موته

في هذه السنة خرج ملك الألمان من بلاده، و هم نوع من الفرنج، من أكثرهم عددا، و أشدّهم بأسا، و كان قد أزعجه ملك الإسلام البيت المقدّس، فجمع عساكره، و أزاح علّتهم، و سار عن بلاده و طريقه على القسطنطينيّة، فأرسل ملك الروم بها إلى صلاح الدين يعرّفه الخبر و يعد أنّه لا يمكنه من العبور في بلاده.

فلما وصل ملك الألمان إلى القسطنطينيّة عجز ملكها [١] عن منعه من العبور لكثرة جموعه، لكنّه منع عنهم الميرة، و لم يمكن أحدا من رعيّته من حمل ما يريدونه إليهم، فضاقت بهم الأزواد و الأقوات، و ساروا حتّى عبروا خليج القسطنطينيّة، و صاروا على أرض بلاد الإسلام، و هي مملكة الملك قلعج أرسلان ابن مسعود بن سليمان بن قتلмыш بن سلجق. فلما وصلوا إلى أوائلها ثار بهم التركمان الأوج، فما زالوا يسايرونهم و يقتلون من انفراد و يسرقون ما قدروا عليه، و كان الزمان شتاء و البرد يكون في تلك البلاد شديدا، و الثلج متراكما، فأهلكهم البرد و الجوع و التركمان فقلّ عددهم.

فلما قاربوا مدينة قونية خرج إليهم الملك قطب الدين ملك شاه بن قلعج أرسلان ليمنعهم، فلم يكن له بهم قوّة، فعاد إلى قونية و بها أبوه قد حجر ولده المذكور عليه، و تفرّق أولاده في بلاده، و تغلّب كلّ واحد منهم على ناحية منها، فلما عاد عنهم قطب الدين أسرعوا السير في أثره، فنازلوا قونية، و أرسلوا إلى قلعج أرسلان هديّة و قالوا له: ما قصدنا بلادك و لا أردناها،

[١] ملكه.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٤٩

و إنّما قصدنا البيت المقدّس، و طلبوا منه أن يأذن لرعيّته في إخراج ما يحتاجون إليه من قوت و غيره، فأذن في ذلك، فأتاهم ما يريدون، فشبّعوا، و تزوّدوا، و ساروا، ثمّ طلبوا من قطب الدين أن يأمر رعيّته بالكفّ عنهم، و أن يسلم إليهم جماعة من أمرائه رهائن، و كان يخافهم، فسلم إليهم تيفا و عشرين أميرا كان يكرههم، فساروا بهم معهم و لم يمتنع اللصوص و غيرهم من قصدهم و التعرّض إليهم، فقبض ملك الألمان على من منعه من الأمراء و قيدهم، فمنهم من هلك في أسره، و منهم من فدى نفسه.

و سار ملك الألمان حتّى أتى بلاد الأرمن و صاحبها لافون بن اصطفان بن ليون «١»، فأمدّهم بالأقوات و العلوفات، و حكّمهم في بلاده، و أظهر الطاعة لهم، ثمّ ساروا نحو أنطاكية، و كان في طريقهم نهر، فترّلوا عنده، و دخل ملكهم إليه ليغتسل، فغرق في مكان منه لا يبلغ الماء وسط الرجل و كفى الله شرّه.

و كان معه ولد له، فصار ملكا بعده، و سار إلى أنطاكية، فاختلف أصحابه عليه، فأحبّ بعضهم العود إلى بلاده، فتخلف عنه، و بعضهم مال إلى تملك أخ له، فعاد أيضا، و سار فيمن صحت نيّته له، فعرضهم، و كانوا [١] تيفا و أربعين ألفا، و وقع فيهم الوباء و الموت،

فوصلوا إلى أنطاكية و كأنهم قد نبشوا من القبور، فتبرم بهم صاحبها، و حسن لهم المسير إلى الفرنج الذين على عكا، فساروا على جبله و لاذقية و غيرهما من البلاد التي ملكها المسلمون، و خرج أهل حلب و غيرها إليهم، و أخذوا منهم خلقا كثيرا، و مات أكثر ممن أخذ، فبلغوا طرابلس، و أقاموا بها أياما، فكثر فيهم الموت، فلم يبق منهم إلّا نحو ألف رجل، فركبوا في البحر إلى الفرنج الذين على عكا،

[١] و كانت.

(١) اسطفان ليون الأرمني. A.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٥٠

و لما وصلوا و رأوا ما نالهم في طريقهم و ما هم فيه من الاختلاف عادوا إلى بلادهم فغرقت بهم المراكب و لم ينج منهم أحد. و كان الملك قلع أرسلان ي كاتب صلاح الدين بأخبارهم، و يعدة أنه يمنعهم من العبور في بلاده، فلما عبروها و خلفوها أرسل يعتذر بالعجز عنهم، لأن أولاده حكموا عليه، و حجروا عليه، و تفرقوا عنه، و خرجوا عن طاعته.

و أما صلاح الدين عند وصول الخبر بعبور ملك الألمان، فإنه استشار أصحابه، فأشار كثير منهم عليه بالمسير إلى طريقهم و محاربتهم قبل أن يتصلوا بمن على عكا، فقال: بل نقيم إلى أن يقربوا منا، و حينئذ نفعل ذلك لئلا يستسلم من بعكا من عساكرنا، لكنه سير بعض من عنده من العساكر، منها عسكر حلب و جبله و لاذقية و شيزر و غير ذلك، إلى أعمال حلب ليكونوا في أطراف البلاد يحفظونها من عاديتهم، و كان حال المسلمين كما قال الله عز و جل: إِذْ جَاؤُكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَ بَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَ تَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا، هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَ زُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا «١» فكفى الله شرهم و رد كيدهم في نحهم. و من شدة خوفهم أن بعض أمراء صلاح الدين كان له ببلد الموصل قريه، و كان أخى، رحمه الله، يتولأها، فحصل دخلها من حنطة و شعير و تبن، فأرسل إليه في بيع الغلّة، فوصل كتابه يقول: تبع الحبة الفرد، و استكثر لنا من التبن، ثم بعد ذلك وصل كتابه يقول: تبع الطعام فما بنا حاجة إليه، ثم إن ذلك الأمير قدم الموصل، فسألناه عن المنع من بيع الغلّة، ثم الإذن فيها بعد مدّة يسيرة، فقال: لما وصلت الأخبار بوصول ملك الألمان أيقنا أننا ليس لنا بالشام مقام، فكتبت بالمنع من بيع الغلّة لتكون ذخيرة لنا إذا جئنا إليكم، فلما أهلكهم الله تعالى و أغنى عنها كتبت ببيعها و الانتفاع بثمنها.

(١). ١١. ١٠ خ ٣٣. roC.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٥١

ذكر وقعة للمسلمين و الفرنج على عكا

و في هذه السنة، في العشرين من جمادى الآخرة، خرجت الفرنج فارسها و راجلها من وراء خنادقهم، و تقدّموا إلى المسلمين، و هم كثير لا يحصى عددهم، و قصدوا نحو عسكر مصر، و مقدّمهم الملك العادل أبو بكر بن أيوب، و كان المصريون قد ركبوا و اصطفوا للقاء الفرنج، فالتقوا، و اقتتلوا قتالا شديدا، فانحاز المصريون عنهم، و دخل الفرنج خيامهم، و نهبوا أموالهم، فعطف المصريون عليهم، فقاتلوه من وسط خيامهم فأخرجوهم عنها، و توجهت طائفة من المصريين نحو خنادق الفرنج، فقطعوا المدد عن أصحابهم الذين خرجوا، و كانوا متّصلين كالنمل، فلما انقطعت أمدادهم ألقوا بأيديهم، و أخذتهم السيوف من كلّ ناحية فلم ينج منهم إلّا الشريد، و قتل منهم مقتلة عظيمة، يزيد عدد القتلى على عشرة آلاف قتيل.

و كانت عساكر الموصل قريبة من عسكر مصر، و كان مقدّمهم علاء الدين خرمشاه بن عزّ الدين مسعود صاحب الموصل، فحملوا أيضا على الفرنج، و بالغوا فى قتالهم، و نالوا منهم نيلا كثيرا، هذا جميعه، و لم يباشر القتال أحد من الحلقة الخاصّ التى مع صلاح الدين، و لا أحد من الميسرة، و كان بها عماد الدين زنكى، صاحب سنجار، و عسكر إربل و غيرهم.

و لما جرى على الفرنج هذه الحادثة خمدت جمرتهم، و لانت عريكتهم، و أشار المسلمون على صلاح الدين بمباكرتهم القتال، و مناجزتهم و هم على هذه الحال من الهلع و الجزع، فاتفق أنّه وصله من الغد كتاب من حلب يخبر فيه بموت ملك الألمان، و ما أصاب أصحابه من الموت و القتل و الأسر، و ما صار أمرهم إليه من القلّة و الذلّة، و اشغل المسلمون بهذه البشرى و الفرح بها عن قتال من يازائهم، و ظنّوا أنّ الفرنج إذا بلغهم هذه الخبر ازدادوا و هنا

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٥٢

على و هههم و خوفا على خوفهم، فلما كان بعد يومين أتت الفرنج أمداد فى البحر مع كند كبير من الكنود البحريّة يقال له الكندهرى ابن أخى ملك إفرنيس لأبيه، و ابن أخى ملك انكلتار لأّمه، و وصل معه من الأموال شىء كثير يفوق الإحصاء، فوصل إلى الفرنج، فجنّد الأجناد، و بذل الأموال فعادت نفوسهم قويت و اطمأنت، و أخبرهم أن الأمداد واصلت إليهم يتلو بعضها بعضاً، فتماسكوا و حفظوا مكانهم، ثمّ أظهروا أنّهم يريدون الخروج إلى لقاء المسلمين و قتالهم، فانتقل صلاح الدين من مكانه إلى الخروبة فى السابع العشرين من جمادى الآخرة، ليتّسع المجال، و كانت المتزلة قد أتنّت بريح القتلى.

ثمّ إنّ الكندهرى نصب منجنيقا و دبابات و عزّادات [١]، فخرج من بعكا من المسلمين فأخذوها، و قتلوا عندها، كثيرا من الفرنج، ثمّ إنّ الكندهرى بعد أخذ مجانيقه أراد أن ينصب منجنيقا، فلم يتمكّن من ذلك لأنّ المسلمين بعكا كانوا يمنعون من عمل ستائر يستتر بها من يرمى من المنجنيق، فعمل تلا من تراب بالبعد من البلد.

ثمّ إنّ الفرنج كانوا ينقلون التلّ إلى البلد بالتدريج، و يستترون به، و يقربونه إلى البلد، فلما صار من البلد بحيث يصل من عنده حجر منجنيق، نصبوا وراءه منجنيين، و صار التلّ ستره لهما [٢]، و كانت الميرة قد قلت بعكا، فأرسل صلاح الدين إلى الإسكندريّة يأمرهم بإنفاذ الأقوات و اللحوم و غير ذلك فى المراكب إلى عكا، فتأخّر إنفاذها، فسير إلى نائبه بمدينة بيروت فى ذلك، فسير بطسة عظيمة مملوءة من كلّ ما يريدونه، و أمر من بها فلبسوا ملابس الفرنج و تشبهوا بهم و رفعوا عليها الصلبان، فلما وصلوا إلى عكا لم يشكّ

[١] و غرادات.

[٢] لها.

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٥٣

الفرنج أنّها لهم، فلم يتعرّضوا لها، فلما حاذت ميناء عكا أدخلها من بها، ففرح بها المسلمون، و انتعشوا و قويت نفوسهم، و تبلّغوا بما فيها إلى أنّ أتهم الميرة من الإسكندريّة.

و خرجت ملكة من الفرنج من داخل البحر فى نحو ألف مقاتل، فأخذت بنواحي الإسكندريّة، و أخذت معها، ثمّ إنّ الفرنج وصلهم كتاب من بابا، و هو كبيرهم الذى يصدر عن أمره، و قوله عندهم كقول النبين لا يخالف، و المحروم عندهم من حرمه، و المقرب من قرّبه، و هو صاحب رومية الكبرى، يأمرهم بملازمة ما هم بصدد، و يعلمهم أنّه قد أرسل إلى جميع الفرنج يأمرهم بالمسير إلى نجدتهم بزا و بحرا، و يعلمهم بوصول الأمداد إليهم، فازدادوا قوّة و طمعا.

ذكر خروج الفرنج من خنادقهم

لما تابعت الأمداد إلى الفرنج، و جنّد لهم الكندهرى جمعا كثيرا بالأموال التى وصلت معه عزموا على الخروج من خنادقهم و مناجزة

المسلمين، فتركوا على عكا من يحصرها و يقاتل أهلها. و خرجوا، حادى عشر شوال، فى عدد كالرمل كثرة و كالنار جمره، فلما رأى صلاح الدين ذلك نقل أثقال المسلمين إلى قيمون، و هو على ثلاثة فراسخ عن عكا، و كان قد عاد إليه من فرق من عساكره لما هلك ملك الألمان، و لقي الفرنج على تعبته حسنة.

و كان أولاده الأفاضل على و الظاهر غازى و الظاهر [خضر] مّا يلي القلب، و أخوه العادل أبو بكر فى الميمنة، و معه عساكر مصر و من انضم إليهم، و كان فى الميسرة عماد الدين، صاحب سنجار، و تقى الدين، صاحب حماة، و معز الدين سنجر شاه، صاحب جزيرة ابن عمر، مع جماعة من أمرائه، و اتفق

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٥٤

أن صلاح الدين أخذه مغس كان يعتاده، فنصب له خيمة صغيرة على تل مشرف على العسكر، و نزل فيها ينظر إليهم، فسار الفرنج، شرقى نهر هناك، حتى وصلوا إلى رأس النهر، فشاهدوا عساكر الإسلام و كثرتها، فارتاعوا لذلك، و لقيهم الجالشيّة، و أمطروا عليهم من السهام ما كاد يستر الشمس، فلما رأوا ذلك تحوّلوا إلى غربى النهر، و لزمهم الجالشيّة يقاتلونهم، و الفرنج قد تجمّعوا، و لزم بعضهم بعضا، و كان غرض الجالشيّة أن تحمل الفرنج عليهم، فيلقاهم المسلمون و يلتحم القتال، فيكون الفصل، و يستريح الناس، و كان الفرنج قد ندموا على مفارقة خنادقهم، فلزموا مكانهم، و باتوا ليلتهم تلك.

فلما كان الغد عادوا نحو عكا ليعتصموا بخنادقهم، و الجالشيّة فى أكتافهم يقاتلونهم تارة بالسيوف و تارة بالرمح و تارة بالسهم، و كلما قتل من الفرنج قتيل أخذوه معهم لئلا يعلم المسلمون ما أصابهم، فلو لا ذلك الألم الذى حدث بصلاح الدين لكانت هى الفصيل، و إنّما لله أمر هو بالغه، فلما بلغ الفرنج خنادقهم، و لم يكن لهم بعدها ظهور منه، عاد المسلمون إلى خيامهم، و قد قتلوا من الفرنج خلقا كثيرا.

و فى الثالث و العشرين من شوال أيضا كمن جماعة من المسلمين، و تعرّض للفرنج جماعة أخرى، فخرج إليهم أربع مائة فارس، فقاتلهم المسلمون شيئا من قتال، و تطاردوا لهم، و تبعهم الفرنج حتى جازوا الكمين، فخرجوا عليهم فلم يفلت منهم أحد.

و اشتدّ الغلاء على الفرنج، حتى بلغت غرارة [١] الحنطة أكثر من مائة دينار صوري، فصبروا على هذا، و كان المسلمون يحملون إليهم الطعام من البلدان منهم الأمير أسامة، مستحفظ بيروت، كان يحمل الطعام و غيره، و منهم سيف الدين على بن أحمد المعروف بالمشطوب، كان يحمل من صيدا أيضا

[١] الغرارة.

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٥٥

إليهم، و كذلك من عسقلان و غيرها، و لو لا ذلك لهلكوا جوعا خصوصا فى الشتاء عند انقطاع مراكبهم عنهم لهياج البحر.

ذكر تسيير البدل إلى عكا و التفريط فيه حتى أخذت

لما هجم الشتاء، و عصفت الرياح، خاف الفرنج على مراكبهم التى عندهم لأنها لم تكن فى الميناء، فسيروها إلى بلادهم صور و الجزائر، فانفتح الطريق إلى عكا فى البحر، فأرسل أهلها إلى صلاح الدين يشكون الضجر و الملل و السآمة، و كان بها الأمير حسام الدين أبو الهيجاء السمين مقدّما على جندها، فأمر صلاح الدين بإقامة البدل و إنفاذه إليها، و إخراج من فيها، و أمر أخاه الملك العادل بمباشرة ذلك، فانتقل إلى جانب البحر، و نزل تحت جبل حيفا، و جمع المراكب و الشوانى، و كلما جاء جماعة من العسكر سيّروهم إليها، و أخرج عوضهم، فدخل إليها عشرون أميرا، و كان بها ستون أميرا، فكان الذين دخلوا قليلا بالنسبة إلى الذين خرجوا، و أهمل نواب صلاح الدين تجنيد الرجال و إنفاذهم.

و كان على خزائنه ماله قوم من النصارى، و كانوا إذا جاءهم جماعة قد جندوا تعنتوهم بأنواع شتى، تارة بإقامه معرفه، و تارة بغير ذلك، فتفرق بهذا السبب خلق كثير، و انضاف إلى ذلك توانى صلاح الدين و وثوقه بنوآبه، و إهمال الثواب، فانحسر الشتاء و الأمر كذلك، و عادت مراكب الفرنج إلى عكا و انقطع الطريق إلّا من سابع يأتى بكتاب.

و كان من جملة الأمراء الذين دخلوا إلى عكا سيف الدين على بن أحمد المشطوب، و عزّ الدين أرسل مقدّم الأسديّة بعد جاولى و ابن جاولى، و غيرهم، و كان دخولهم عكا أوّل سنه سبع و ثمانين [و خمسمائنه]، و كان قد أشار جماعة الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٥٦

على صلاح الدين بأن يرسل إلى من بعكا النفقات الواسعة و الذخائر و الأقوات الكثيرة، و يأمرهم بالمقام، فإنّهم قد جرّبوا و تدرّبوا و اطمأنّت نفوسهم على ما هم فيه، فلم يفعل، و ظنّ فيهم الضجر و الملل، و أنّ ذلك يحملهم على العجز و الفشل، فكان الأمر بالضدّ.

ذكر وفاة زين الدين يوسف صاحب إربل و مسير أخيه مظفر الدين إليها

كان زين الدين يوسف بن زين الدين على، صاحب إربل، قد حضر عند صلاح الدين بعساكره، فمرض و مات ثامن عشر شهر رمضان، و ذكر العماد الكاتب فى كتابه البرق الشامى قال: جئنا إلى مظفر الدين نعيّزه بأخيه، و ظنّنا به الحزن، و ليس له أخ غيره، و لا ولد يشغله عنه، فإذا [١] هو فى شغل شاغل عن العزاء، مهتمّ بالاحتياط على ما خلفه، و هو جالس فى خيام أخيه المتوفى، و قد قبض على جماعة من أمرائه، و اعتقلهم، [و عجل عليهم] «١»، و ما أغفلهم، منهم بلداجى «٢»، صاحب قلعه خفتيد كان «٣»، و أرسل إلى صلاح الدين يطلب منه إربل لينزل عن حرّان و الرّها، فأقطعه إيّاها، و أضاف إليها شهرزور و أعمالها و دربند قرابلى، و بنى قفجاق، و لما مات زين الدين كاتب من كان بإربل مجاهد الدين قايماز لهواهم فيه، و حسن سيرته فيهم، و طلبوه إليهم ليملكوه، فلم يجسر هو و لا صاحبه عزّ الدين أتابك مسعود بن مودود على

[١]- فإذا.

(١). P.C. ٧٤٠te

(٢). بلد أخو: spU. بلد أخى: P.C. ٧٤٠

(٣). خشيته كان: P.C. ٠٤٧te. spU.

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٥٧

ذلك، خوفا من صلاح الدين.

و كان أعظم الأسباب فى تركها أنّ عزّ الدين كان قد قبض على مجاهد الدين، فتمكّن زين الدين من إربل، ثمّ إنّ عزّ الدين أخرج مجاهد الدين من القبض، و ولّاه نيابته، و قد ذكرنا ذلك أجمع.

فلما ولّاه النيابة عنه لم يمكنه، و جعل معه إنسانا كان من بعض غلمان مجاهد الدين، فكان يشاركه فى الحكم و يحلّ عليه ما يعقده، فلحق مجاهد الدين من ذلك غيظ شديد، فلما طلب إلى إربل قال لمن يثق به [١]: لا أفعل لئلا يحكم فيها فلان، و يكفّ يدي عنها، فجاء مظفر الدين إليها و ملكها، و بقى غصية فى حلق البيت الأتابكى لا يقدرّون على إساعتها. و سنذكر ما أعتدّه معهم مرّة بعد أخرى، إن شاء الله تعالى.

ذكر ملك الفرنج مدينة شلب و عودها إلى المسلمين

في هذه السنة ملك ابن الرنك، و هو من ملوك الفرنج، غرب بلاد الأندلس، مدينة شلب و هي من كبار مدن المسلمين بالأندلس، و استولى عليها، فوصل الخبر بذلك إلى الأمير أبي يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن، صاحب الغرب و الأندلس، فتجهّز في العساكر الكثيرة و سار إلى الأندلس، و عبر المجاز، و سیر طائفة كثيرة من عسكره في البحر، و نازلها و حصرها، و قاتل من بها قتالا شديدا، حتّى ذلّوا و سألوا الأمان فأمنهم و سلّموا البلد و عادوا إلى بلادهم. و سیر جيشا من الموحّدين و معهم جمع من العرب إلى بلاد الفرنج، ففتحو

[١] إليه.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٥٨

أربع مدن كان الفرنج قد ملكوها قبل ذلك بأربعين سنة، و فتكوا في الفرنج، فخافهم ملك طليطلة من الفرنج، و أرسل يطلب الصلح، فصالحه خمس سنين، و عاد أبو يوسف إلى مراكش، و امتنع من هذه الهدنة طائفة من الفرنج لم يرضوها و لا- أمكنهم إظهار الخلاف، فبقوا متوقّفين حتّى دخلت سنة تسعين و خمسمائة، فتحركوا. و سنذكر خبرهم هناك، إن شاء الله تعالى.

ذكر الحرب بين غياث «١» الدين و سلطان شاه بخراسان

كان سلطان شاه أخو خوارزم شاه قد تعرّض إلى بلاد غياث الدين و معزّ الدين ملكي الغوريّة، من خراسان، فتجهّز غياث الدين و خرج من فيروزكوه إلى خراسان سنة خمس و ثمانين و خمسمائة، فبقى يتردّد بين بلاد الطالقان، و بنجده «٢»، و مرو، و غيرها يريد حرب سلطان شاه، فلم يزل كذلك إلى أن دخلت سنة ستّ و ثمانين، فجمع [١] سلطان شاه عساكره و قصد غياث الدين، فتصافّا و اقتتلا، فانهزم سلطان شاه، و أخذ غياث الدين بعض بلاده و عاد إلى غزنه.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة، في ربيع الأوّل، تسلّم الخليفة الناصر لدين الله حديثه عانته، و كان سیر إليها جيشا حصروها سنة خمس و ثمانين [و خمسمائة] فقاتلوا

[١]- جمع.

(١) شهاب: P.C.

(٢). بحده: spU. بحده: P.C. ٧٤٠.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٥٩

عليها قتالا- شديدا، و دام الحصار، و قتل من الفريقين خلق كثير، فلمّا ضاقت عليهم الأقوات سلّموها على أقطاع عيّنوها، و وصل صاحبها و أهلها إلى بغداد و أعطوا أقطاعا ثمّ تفرّقوا في البلاد و اشتدّت الحاجة بهم حتّى رأيت بعضهم و أنّه ليتعرّض بالسؤال و بعض خدم الناس، نعوذ بالله من زوال نعمته و تحوّل عافيته.

و في هذه السنة توفّي مسعود بن النادر الصّفّار ببغداد، و كان مكثرا من الحديث، حسن الخطّ، خيرا ثقة.

و فيها توفّي أبو حامد محمّد بن محمّد بن عبد الله بن القاسم الشهرزوريّ بالموصل، و كان قاضيها، و قبلها وليّ قضاء حلب و جميع الأعمال بها، و كان رئيسا جوادا ذا مروءة عظيمة، يرجع إلى دين و أخلاق جميلة.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٦٠

٥٨٧ ثم دخلت سنة سبع وثمانين وخمسائة

ذكر حصر عز الدين صاحب الموصل الجزيرة

في هذه السنة، في ربيع الأول، سار أتابك عز الدين مسعود بن مودود ابن زنكي صاحب الموصل إلى جزيرة ابن عمر، فحصرها، و كان بها صاحبها سنجر شاه بن سيف الدين غازي بن مودود، و هو ابن أخى عز الدين. و كان سبب حصره أن سنجر شاه كان كثير الأذى لعمه عز الدين، و الشناعة عليه، و المراسلة إلى صلاح الدين في حقه، تارة يقول إنه يريد قصد بلادك، و تارة يقول إنه يكتب أعداءك و يحثهم على قصدك، إلى غير ذلك من الأمور المؤذية، و عز الدين يصبر منه على ما يكره لأمور تارة للرحم، و تارة خوفا من تسليمها إلى صلاح الدين، فلما كان في السنة الماضية سار صاحبها إلى صلاح الدين، و هو على عكا، في جملة من سار من أصحاب الأطراف، و أقام عنده قليلا، و طلب دستورا للعود إلى بلده، فقال له صلاح الدين: عندنا من أصحاب الأطراف جماعة منهم عماد الدين، صاحب سنجار و غيرها، و هو أكبر منك، و منهم ابن عمك «١» عز الدين، و هو أصغر منك، و غيرهم، و متى فتحت هذا الباب اقتدى بك غيرك، فلم يلتفت إلى قوله، و أصر على ذلك. و كان عند صلاح الدين جماعة من أهل الجزيرة يستغيثون على

(١) ابن عمك. B. منهم عمك. A.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٦١

سنجر شاه لأنه ظلمهم، و أخذ أموالهم و أملاكهم، فكان يخافه لهذا.

و لم يزل في طلب الإذن في العود إلى ليلة الفطر من سنة ست و ثمانين [و خمسائة]، فركب تلك الليلة في السحر و جاء إلى خيمة صلاح الدين و أذن لأصحابه في المسير، فساروا بالاثقال، و بقي جريده، فلما وصل إلى خيمة صلاح الدين أرسل يطلب الإذن عليه، و كان صلاح الدين قد بات محموما، و قد عرق، فلم يمكن أن يأذن له، فبقي كذلك مترددا على باب خيمته إلى أن أذن له، فلما دخل عليه هنأه بالعيد، و أكب عليه يودعه، فقال له: ما علمنا بصحة عزمك على الحركة، فتصبر علينا حتى نرسل ما جرت به العادة، فما يجوز أن تنصرف عنا، بعد مقامك عندنا، على هذا الوجه. فلم يرجع و ودعه و انصرف.

و كان تقى الدين عمر ابن أخى صلاح الدين قد أقبل من بلده حماة في عسكره، فكتب إليه صلاح الدين يأمره بإعادة سنجر شاه طوعا أو كرها، فحكى له عن تقى الدين أنه قال: ما رأيت مثل سنجر شاه، لقيته بعقبه فيق، فسألته عن سبب انصرافه، فغالطني، فقلت له: سمعت بالحال، و لا يليق أن تنصرف بغير تشريف السلطان و هديته، فيضيع تبعك، و سألته العود فلم يصغ إلى قولي، فكلمني كأنني بعض [مماليكه] «١»، فلما رأيت ذلك منه قلت له: إن رجعت بالتي هي أحسن، و إلّا أعدتكَ كارها، فنزل عن دابته و أخذ ذيلي و قال:

قد استجرت بك، و جعل يبيكى، فعجبت من حماقته أولا، و ذلته ثانيا، فعاد معي.

فلما عاد بقى عند صلاح الدين عدة أيام، و كتب صلاح الدين إلى عز الدين أتابك يأمره بقصد الجزيرة، و محاصرتها، و أخذها، و أنه يرسل

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٦٢

إلى طريق سنجر شاه ليقبض عليه إذا عاد، فخاف عز الدين أن صلاح الدين قد فعل ذلك مكيدة ليشنع عليه بنكث العهد، فلم يفعل شيئاً من ذلك بل أرسل إليه يقول: أريد خطك بذلك و منشورا منك بالجزيرة، فترددت الرسل في ذلك إلى أن انقضت سنة ست و ثمانين [و خمسمائة]، و دخلت هذه السنة فاستقرت القاعدة بينهما، فسار عز الدين إلى الجزيرة، فحصرها أربعة أشهر و أياما آخرها شعبان، و لم يملكها بل استقرت القاعدة بينه و بين سنجر شاه على يد رسول صلاح الدين، فإنه كان قد أرسله بعد قصدها يقول: إن صاحب سنجر، و صاحب إربل و غيرهما قد شفعا في سنجر شاه، فاستقر الصلح على أن لعز الدين نصف أعمال الجزيرة، و لسنجر [شاه] نصفها، و تكون الجزيرة بيد سنجر شاه من جملة النصف.

و عاد عز الدين في شعبان إلى الموصل، و كان صلاح الدين بعد ذلك يقول: ما قيل لي عن أحد شيء من الشر رأيت أنه لا كان دون ما يقال فيه، إلا سنجر شاه، فإنه كان يقال لي عنه أشياء استعظمتها، فلما رأيت صغر في عيني ما قيل فيه.

ذكر عبور تقي الدين الفرات [١] و ملكه حران و غيرها من البلاد الجزرية و مسيره إلى خلاط و مؤتة

في هذه السنة، في صفر، سار تقي الدين من الشام إلى البلاد الجزرية: حران و الرها، و كان قد أقطعه إياها عمه صلاح الدين، بعد أخذها من مظفر الدين، مضافا إلى ما كان له بالشام، و قرر معه أنه يقطع البلاد للجنود، و يعود و هم معه إليه ليتقوى بهم على الفرنج، فلما عبر الفرات [١]، و أصلح حال البلاد،

[١] الفزاة.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٦٣

سار إلى ميفارقين، و كانت له، فلما بلغها تجدد له طمع في غيرها من البلاد المجاورة لها، فقصده مدينة حاني من ديار بكر، فحصرها و ملكها، و كان في سبع مائة فارس، فلما سمع سيف الدين بكتمر، صاحب خلاط، بملكه حاني جمع عساكره و سار إليه، فاجتمعت عساكره أربعة آلاف فارس، فلما التقوا اقتتلوا فلم يثبت عسكر خلاط لتقي الدين، بل انهزموا، و تبعهم تقي الدين، و دخل بلادهم. و كان بكتمر قد قبض على مجد الدين بن رشيق، وزير صاحبه شاه أرمن، و سجنه في قلعة هناك، فلما انهزم كتب إلى مستحفظ القلعة يأمره بقتل ابن رشيق، فوصل القاصد و تقي الدين قد نازل القلعة، فأخذ الكتاب، و ملك القلعة، و أطلق ابن رشيق، و سار إلى خلاط فحصرها، و لم يكن في كثرة من العسكر فلم يبلغ منها غرضاً، فعاد عنها، و قصد ملاز كرد و حصرها، و ضيق على من بها، و طال «١» مقامه عليها، فلما ضاق عليهم الأمر طلبوا منه المهلة أياما ذكروها، فأجابهم إليها «٢».

و مرض تقي الدين، فمات قبل انقضاء الأجل بيومين، و تفرقت العساكر عنها، و حمله ابنه و أصحابه ميّتا إلى ميفارقين، و عاد بكتمر فقوى أمره، و ثبت ملكه بعد أن أشرف على الزوال، و هذه الحادثة من الفرج بعد الشدة، فإن ابن رشيق نجا من القتل و بكتمر نجا من أن يؤخذ.

ذكر وصول الفرنج من الغرب في البحر إلى عكا

و في هذه السنة وصلت أمداد الفرنج في البحر إلى الفرنج الذين على عكا، و كان أول من وصل منهم الملك فليب، ملك إفرنسيس، و هو من أشرف

(١). و كان: P. C. spU

(٢). P. C.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٦٤

ملوكهم نسبا، وإن كان ملكه ليس بالكثير، و كان وصوله إليها ثانی عشر ربيع الأول، و لم يكن في الكثرة التي ظنوها و إنما كان معه ست بطس كبار عظام فوقيت به نفوس من على عكا منهم، و لجوا في قتال المسلمين الذين فيها. و كان صلاح الدين على شفرعم، فكان يركب كل يوم و يقصد الفرنج ليشغلهم بالقتال عن مزاحفة البلد، و أرسل إلى الأمير أسامة، مستحفظ بيروت، يأمره بتجهيز ما عنده من الشواني و المراكب و تشحينها بالمقاتلة، و تسييرها في البحر ليمنع الفرنج من الخروج إلى عكا، ففعل ذلك، و سير الشواني في البحر، فصادفت خمسة مراكب مملوءة رجالا من أصحاب ملك انكلتار الفرنج، كان قد سيرهم بين يديه، و تأخر هو بجزيرة قبرس ليملكها، فأقبلت شواني المسلمين مع مراكب الفرنج، فاستظهر المسلمون عليهم، و أخذوهم، و غنموا ما معهم من قوت و متاع و مال و أسروا الرجال.

و كتب أيضا صلاح الدين إلى من بالقرب «١» من النواب له يأمرهم بمثل ذلك ففعلوا. و أما الفرنج الذين على عكا، فإنهم لازموا قتال من بها، و نصبوا عليها سبعة مجانيق رابع جمادى الأولى، فلما رأى صلاح الدين ذلك تحوّل من شفرعم «٢»، و نزل عليهم لئلا يتعب «٣» العسكر كل يوم في المجيء إليهم و العود عنهم، ففقد منهم. و كانوا كلما تحركوا للقتال ركب و قاتلهم من وراء خندقهم، فكانوا يشتغلون بقتالهم «٤»، فيخفّ القتال عمّن بالبلد. ثم وصل ملك انكلتار ثالث عشر جمادى الأولى «٥». و كان قد استولى في طريقه على جزيرة قبرس، و أخذها من الروم، فإنه لما وصل إليها غدر بصاحبها و ملكها جميعا، فكان ذلك زيادة في ملكه و قوة للفرنج، فلما

(١). بالزيب: p. s. B. A.

(٢) شفرعم: P. C. شفرعم: ٧٤٠.

(٣) تتبع: ٧٤٠.

(٤) بقتاله: ٧٤٠.

(٥). P. C. te.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٦٥

فرغ منها سار عنها إلى من على عكا من الفرنج، فوصل إليهم في خمس و عشرين قطعة كبارا مملوءة رجالا و أموالا، فعظم به شرّ الفرنج، و اشتدّت نكايتهم في المسلمين. و كان رجل زمانه شجاعة و مكرا و جلدا و صبورا، و بلى المسلمون منه بالداهية التي لا مثل لها.

و لما وردت الأخبار بوصوله أمر صلاح الدين بتجهيز بطسة كبيرة مملوءة من الرجال و العدة و القوت، فجهّز و سيرت من بيروت، و فيها سبع مائة مقاتل، فلقيا ملك انكلتار مصادفة، فقاتلها، و صبر من فيها على قتالها، فلما أسوا من الخلاص نزل مقدّم من بها إلى أسفلها، و هو يعقوب الحلبيّ مقدّم الجنداريّة، يعرف بغلام ابن شقتين، فخرقها خرقا واسعا لئلا يظفر الفرنج بمن فيها و ما معهم من الذخائر، فغرق جميع ما فيها.

و كانت عكا محتاجة إلى رجال لما ذكرناه من سبب نقصهم، ثم إن الفرنج عملوا دبابات و زحفوا بها [فأحرق المسلمون بعضها و أخذوا بعضها، ثم عملوا كباشا و زحفوا بها]، فخرج المسلمون و قاتلوهم بظاهر البلد، و أخذوا تلك الكباش، فلما رأى الفرنج أن ذلك جميعه لا ينفعهم عملوا تلمبا كبيرا من التراب مستطيلا، و ما زالوا يقربونه إلى البلد و يقاتلون من ورائه لا ينالهم من البلد أذى،

حتى صار على نصف علوه، فكانوا يستظلون به، و يقاتلون من خلفه، فلم يكن للمسلمين فيه حيلة لا بالنار ولا بغيرها، فحينئذ عظمت المصيبة على من بعكا من المسلمين، فأرسلوا إلى صلاح الدين يعزفونه حالهم، فلم يقدر لهم على نفع.

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٦٦

ذكر ملك الفرنج عكا

فى يوم الجمعة، سابع عشر جمادى الآخرة، استولى الفرنج، لعنهم الله، على مدينة عكا، وكان أول وهن دخل على من بالبلد أن الأمير سيف الدين على بن أحمد الهكاري، المعروف بالمشطوب، كان فيها، ومعه عدة من الأمراء كان هو أمثلهم وأكبرهم، و خرج إلى ملك إفرنسيس و بذل له تسليم البلد بما فيه على أن يطلق المسلمين الذين فيه، و يمكنهم من اللحاق بسلطانهم، فلم يجبه إلى ذلك، فعاد على بن أحمد إلى البلد، فوهن من فيه، و ضعفت نفوسهم، و تخاذلوا، و أهمتهم أنفسهم.

ثم إن أميرين ممن كان بعكا، لما رأوا ما فعلوا بالمشطوب، و أن الفرنج لم يجيبوا إلى الأمان، اتخذوا الليل جملا، و ركبوا فى شىء صغير، و خرجوا سزا من أصحابهم، و لحقوا بعسكر المسلمين، و هم عز الدين أرسل الأسدي، و ابن عز الدين جاولي، و معهم غيرهم، فلما أصبح الناس و رأوا ذلك ازدادوا و هنا إلى و ههنا، و ضعفا إلى ضعفهم، و أيقنوا بالعطب.

ثم إن الفرنج أرسلوا إلى صلاح الدين فى معنى تسليم البلد، فأجابهم إلى ذلك، و الشرط بينهم أن يطلق من أسراهم بعدد من فى البلد ليطلقوا هم من بعكا، و أن يسلم إليهم صليب الصلבות، فلم يقنعوا بما بذل، فأرسل إلى من بعكا من المسلمين يأمرهم أن يخرجوا من عكا يدا واحدة و يسيروا مع البحر و يحملوا على العدو حملة واحدة، و يتركوا البلد بما فيه، و وعدهم أنه يتقدم إلى تلك الجهة التى يخرجون منها بعساكره، يقاتل الفرنج فيها ليلحقوا به، فشرعوا فى ذلك، و اشتغل كل منهم باستصحاب ما يملكه، فما فرغوا من أشغالهم حتى أسفر الصبح، فبطل ما عزموا عليه لظهوره.

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٦٧

فلما أصبحوا عجز الناس عن [١] حفظ البلد، و زحف إليهم الفرنج بحدهم و حديدهم، فظهر من بالبلد على سوره يحركون أعلامهم ليراها المسلمون، و كانت هى العلامة إذا حزبهم أمر، فلما رأى المسلمون ذلك ضجوا بالبكاء و العويل، و حملوا على الفرنج من جميع جهاتهم ظنا [٢] منهم أن الفرنج يشتغلون عن الذين بعكا، و صلاح الدين يحرضهم، و هو فى أولهم «١».

و كان الفرنج قد زحفوا من [٣] خنادقهم و مالوا إلى جهة البلد، فقرب «٢» المسلمون من خنادقهم، حتى كادوا يدخلونها عليهم و يضعون السيف فيهم، فوقع الصوت الفرنج و منعوا المسلمين، و تركوا فى مقابلة من بالبلد من يقاتلهم.

فلما رأى المشطوب أن صلاح الدين لا يقدر على نفع، و لا يدفع عنهم ضرا، خرج إلى الفرنج، و قرّر معهم تسليم البلد، و خروج من فيه بأموالهم و أنفسهم، و بذل لهم عن ذلك مائتى ألف دينار و خمسمائة أسير من المعروفين، و إعادة صليب الصلבות، و أربعة عشر ألف دينار للمركيس صاحب صور، فأجابوه إلى ذلك، و حلفوا له عليه، و أن تكون مدة تحصيل المال و الأسرى إلى شهرين.

فلما حلفوا له سلم البلد إليهم، و دخلوه سلما، فلما ملكوه غدروا و احتاطوا على من فيه من المسلمين و على أموالهم، و حسبوهم، و أظهروا أنهم يفعلون ذلك ليصل إليهم ما بذل لهم، و راسلوا صلاح الدين فى إرسال المال و الأسرى و الصليب، حتى يطلقوا من عندهم، فشرع فى جمع المال،

[١] من.

[٢] طلبا.

[٣] خفوا عن.

(١). و صلاح الدين فى أوائلهم و هو.B.

(٢). عليهم daeuqsu اقرب A. mo aedni

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٤٨

و كان هو لا مال [١] له، إنما يخرج ما يصل إليه من دخل البلاد أولاً بأول.

فلما اجتمع عنده من المال مائة ألف دينار جمع الأمراء و استشارهم، فأشاروا بأن لا يرسل شيئاً حتى يعود فيستحلفهم على إطلاق أصحابه، و أن يضمن الداوية ذلك، لأنهم أهل تدن يرون الوفاء. فراسلهم صلاح الدين فى ذلك، فقال الداوية: لا نحلف و لا نضمن لأننا نخاف غدر من عندنا، و قال ملوكهم: إذا سلمتم إلينا المال و الأسرى و الصليب فلنا الخيار فيمن عندنا، فحينئذ علم صلاح الدين عزمهم على الغدر، فلم يرسل إليهم شيئاً، و أعاد الرسالة إليهم، و قال: نحن نسلم إليكم هذا المال و الأسرى و الصليب، و نعطيكم رهنا على الباقي، و تطلقون أصحابنا، و تضمن الداوية الرهن، و يحلفون على الوفاء لهم، فقالوا: لا نحلف، إنما ترسل إلينا المائة ألف دينار التى حصّلت، و الأسرى، و الصليب، و نحن نطلق من أصحابكم من نريد و نترك من نريد حتى يجيء باقى المال، فعلم الناس حينئذ غدرهم، و إنما يطلقون غلمان العسكر و الفقراء و الأكرد و من لا يؤبه له «١»، و يمسون عندهم الأمراء و أرباب الأموال، و يطلبون منهم الفداء، فلم يجبههم السلطان إلى ذلك.

فلما كان يوم الثلاثاء السابع و العشرين من رجب، ركب الفرنج، و خرجوا إلى ظاهر البلد بالفارس و الراجل، و ركب المسلمون إليهم و قصدوهم، و حملوا عليهم، فأنكشفوا عن موقفهم «٢»، و إذا أكثر من كان عندهم من المسلمين قتلى قد وضعوا فيهم السيف و قتلوهم و استبقوا الأمراء و المقدّمين و من كان له مال، و قتلوا من سواهم من سوادهم و أصحابهم و من لا مال له، فلما رأى صلاح الدين ذلك تصرف فى المال الذى كان جمعه، ورد الأسرى و الصليب إلى دمشق.

[١]- الأمان.

(١). بهم.B. لا يؤبه به.A.

(٢). موضعهم.B.

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٤٩

ذكر رحيل الفرنج إلى ناحية عسقلان و تخريبها

لما فرغ الفرنج، لعنهم الله، من إصلاح أمر عكا، برزوا منها فى الثامن و العشرين من رجب، و ساروا مستهلاً شعبان نحو حيفا مع شاطئ البحر لا يفارقونه، فلما سمع صلاح الدين برحيلهم نادى فى عسكره [١] بالرحيل فساروا. و كان على الزك، ذلك اليوم، الملك الأفضل ولد صلاح الدين، و معه سيف الدين أيازكوش «١» و عز الدين جورديك، و عدّة من شجعان الأمراء، فضايقوا الفرنج فى مسيرهم، و أرسلوا عليهم من السهام ما كاد يحجب الشمس، و وقعوا على ساقه الفرنج، فقتلوا منها جماعة، و أسروا جماعة.

و أرسل الأفضل إلى والده يستمدّه و يعرّفه الحال، فأمر العساكر بالمسير إليه، فاعتذروا بأنهم ما ركبوا بأهبة الحرب، و إنما كانوا على عزم المسير لا غير، فبطل المدد و عاد ملك الإنكلتار إلى ساقه الفرنج، فحماها، و جمعهم، و ساروا حتى أتوا حيفا، فنزلوا بها، و نزل المسلمون بقيمون، قرية بالقرب منهم، و أحضر الفرنج من عكا عوض من قتل منهم و أسر ذلك اليوم، و عوض ما هلك من الخيل،

ثم ساروا إلى قيساريّة، و المسلمون يسايرونهم و يتخطفون منهم من قدروا عليه فيقتلونه، لأنّ صلاح الدين كان قد أقسم أنّه لا يظفر بأحد منهم إلّا قتله بمن قتلوا ممّن كان بعكا.

فلما قاربوا قيساريّة لاصقهم المسلمون، و قاتلوهم أشدّ قتال، فنالوا منهم نيلا كثيرا، و نزل الفرنج بها، و بات المسلمون قريبا منهم، فلما نزلوا خرج من الفرنج جماعة فأبعدوا عن جماعتهم، فأوقع بهم المسلمون الذين كانوا

[١] عسكر.

(١). اياركوح. B.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٧٠

في اليزك، فقتلوا منهم و أسروا، ثم ساروا من قيساريّة إلى أرسوف، و كان المسلمون قد سبقوهم إليها، و لم «١» يمكنهم مسايرتهم لضيق الطريق، فلما وصل الفرنج إليهم حمل المسلمون عليهم حملة منكروّة و ألحقوهم بالبحر، و دخله بعضهم فقتل منهم كثير. فلما رأى الفرنج ذلك اجتمعوا، و حملت الخيالة على المسلمين حملة رجل واحد، فولّوا منهزمين لا يلوى أحد على أحد. و كان كثير من الخيالة و السوقة قد ألّفوا القيام وقت الحرب قريبا من المعركة، فلما كان ذلك اليوم كانوا على حالهم، فلما انهزم المسلمون عنهم قتل خلق كثير، و التجأ المنهزمون إلى القلب، و فيه صلاح الدين، فلو علم الفرنج أنّها هزيمة لتبعوهم و استمرت [١] الهزيمة و هلك المسلمون، لكن كان بالقرب من المسلمين شعرة كثيرة الشجر، فدخلوها «٢» و ظنّها الفرنج مكيدة، فعادوا، و زال عنهم ما كانوا فيه من الضيق، و قتل من الفرنج كند كبير من طواغيتهم، و قتل من المسلمين مملوك لصلاح الدين اسمه أياز الطويل، و هو من الموصوفين بالشجاعة و الشهامة لم يكن في زمانه مثله.

فلما نزل الفرنج نزل المسلمون و أعنّه خيلهم بأيديهم، ثم سار الفرنج إلى يافا فنزّلوها، و لم يكن بها أحد من المسلمين، فملكوها. و لمّا كان من المسلمين بأرسوف من الهزيمة ما ذكرناه، سار صلاح الدين عنهم إلى الرملة، و اجتمع بأثقاله بها، و جمع الأمراء و استشارهم فيما يفعل، فأشاروا عليه بتخريب عسقلان، و قالوا له: قد رأيت ما كان ممّا بالأمس، و إذا جاء الفرنج إلى عسقلان و وقفنا في وجوههم نصدهم عنها «٣» فهم لا شكّ

[١]- لتبعهم و اشتهرت.

(١). جريدة و لم. A.

(٢). فدخلوها المسلمون. B.

(٣). نصدهم عنا. A.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٧١

يقاتلوننا [١] لنترّاح عنها فينزّلوا [٢] عليها، فإذا كان ذلك عدنا إلى مثل ما كنّا عليه على عكا، و يعظم الأمر علينا، لأنّ العدو قد قوى بأخذ عكا و ما فيها من الأسلحة و غيرها، و ضعفنا نحن بما خرج عن أيدينا، و لم تطل المدّة حتّى نستجدّ غيرها.

فلم تسمح نفسه بتخريبها، و ندب الناس إلى دخولها و حفظها، فلم يجب أحد إلى ذلك و قالوا: إنّ أردت حفظها فادخل أنت معنا، أو بعض أولادك الكبار، و إلّا فما يدخلها ممّا أحد لثلا يصيبنا ما أصاب أهل عكا، فلما رأى الأمر كذلك سار إلى عسقلان، و أمر بتخريبها، فخربت تاسع عشر شعبان، و ألقيت حجارتها في البحر، و هلك فيها من الأموال و الذخائر التي للسلطان و الرعيّة ما لا يمكن

حصره، و عفى أثرها حتى لا يبقى للفرنج فى قصدها مطمع.

ولما سمع الفرنج بتخريبها أقاموا مكانهم و لم يسيروا إليها، و كان المريكس، لعنه الله، لما أخذ الفرنج عكا قد أحس من ملك إنكلتار بالغدر به، فهرب من عنده إلى مدينه صور، و هى له و بيده، و كان رجل الفرنج رأيا و شجاعه، و كل هذه الحروب هو أثارها، فلما خربت عسقلان أرسل إلى ملك إنكلتار يقول له: مثلك لا ينبغى أن يكون ملكا و يتقدم على الجيوش، تسمع أن صلاح الدين قد خرب عسقلان و تقيم مكانك؟ يا جاهل، لما بلغك أنه قد شرع فى تخريبها كنت سرت إليه مجدا فرحلته و ملكتها صفوا بغير قتال و لا حصار، فإنه ما [٣] خربها إلّا و هو عاجز عن حفظها. و حق المسيح لو أننى معك كانت عسقلان اليوم بأيدينا لم يخرب منها غير برج واحد.

[١] يقاتلون.

[٢] و ينزلون.

[٣] لا.

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٧٢

فلما خربت عسقلان رحل صلاح الدين عنها ثانى شهر رمضان، و مضى إلى الرملة فخرب حصنها و خرب كنيسة لّد، و فى مدّة مقامه لتخريب عسقلان كانت العساكر مع الملك العادل أبى بكر بن أيوب تجاه الفرنج، ثم سار صلاح الدين إلى القدس بعد تخريب الرملة، فاعتبره و ما فيه من سلاح و ذخائر، و قرّر قواعده و أسبابه، و ما يحتاج إليه، و عاد إلى المخيم ثامن رمضان. و فى هذه الأيام خرج ملك إنكلتار من يافا، و معه نفر من الفرنج من معسكرهم، فوقع به نفر من المسلمين، فقاتلهم قتالا شديدا، و كاد ملك إنكلتار يؤسر، ففداه بعض أصحابه بنفسه، فتخلص الملك و أسر ذلك الرجل. و فيها أيضا كانت وقعة بين طائفة من المسلمين و طائفة من الفرنج انتصر [فيها] المسلمون.

ذكر رحيل الفرنج إلى نظرون

لما رأى صلاح الدين أنّ الفرنج قد لزموا يافا و لم يفارقوها، و شرعوا فى عمارتها، رحل من منزلته إلى النظرون ثالث عشر رمضان، و خيم به، فراسله ملك إنكلتار يطلب المهادنة، فكانت الرسل تتردد إلى الملك العادل أبى بكر بن أيوب، أخى صلاح الدين، فاستقرت القاعدة أنّ ملك إنكلتار يزوّج أخته من العادل، و يكون القدس و ما بأيدي المسلمين من بلاد الساحل للعادل، و تكون عكا و ما بيد الفرنج من البلاد لأخت ملك إنكلتار، مضافا إلى مملكه كانت لها داخل البحر قد ورثتها من زوجها، و أن يرضى الداوية بما يقع الاتفاق عليه، فعرض العادل ذلك على صلاح الدين، فأجاب إليه، فلما ظهر الخبر اجتمع القسيسون، و الأساقفة، و الرهبان إلى أخت ملك إنكلتار

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٧٣

و أنكروا عليها، فامتنعت من الإجابة، و قيل كان المانع منه غير ذلك، و الله أعلم.

و كان العادل و ملك إنكلتار يجتمعان [١] بعد ذلك و يتجاريان حديث الصلح، و طلب من العادل أن يسمعه غناء المسلمين، فأحضر له مغنية تضرب بالجنك، فغنت له، فاستحسن ذلك، و لم يتم بينهما صلح، و كان ملك إنكلتار يفعل ذلك خديعة و مكر.

ثم إن الفرنج أظهروا العزم على قصد البيت المقدس، فسار صلاح الدين إلى الرملة، جريده، و ترك الأثقال بالنظرون، و قرب من الفرنج، و بقى عشرين يوما ينتظرهم، فلم يبرحوا، فكان بين الطائفتين، مدّة المقام، عدّة وقعات فى كلّها ينتصر المسلمون على الفرنج، و عاد صلاح الدين إلى النظرون، و رحل الفرنج من يافا إلى الرملة ثالث ذى القعدة، على عزم قصد البيت المقدس، فقرب بعضهم من

بعض فعظم الخطب و اشتدّ الحذر، فكان كلّ ساعة يقع الصوت في العسكرين بالنفير فلقوا من ذلك شدّة شديدة، و أقبل الشتاء، و حالت الأوحال [٢] و الأمطار بينهما.

ذكر مسير صلاح الدين إلى القدس

لَمَّا رأى صلاح الدين أنّ الشتاء قد هجم، و الأمطار متوالية متتابعة، و الناس منها في ضنك و حرج، و من شدّة البرد و لبس السلاح و السّهر في تعب دائم، و كان كثير من العساكر قد طال بيكارها، فأذن لهم في العود إلى بلادهم للاستراحة و الإراحة، و سار هو إلى البيت المقدّس فيمن بقي

[١] يجتمعون.

[٢] الأحوال.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٧٤

معه، فنزلوا جميعا داخل البلد، فاستراحوا ممّا كانوا فيه، و نزل هو بدار الأقسا مجاور بيعه قمامة، و قدم إليه عسكر من مصر مقدّمهم الأمير أبو الهيجاء السّمين، فقويت نفوس المسلمين بالقدس.

و سار الفرنج من الرملة إلى النّطرون ثالث ذى الحجة، على عزم قصد القدس، فكانت بينهم و بين يزك المسلمين وقعات، أسر المسلمون في وقعة منها نيفا و خمسين فارسا من مشهورى الفرنج و شجعانهم، و كان صلاح الدين لَمَّا دخل القدس أمر بعمارة سوره، و تجديد ما رث منه «١»، فأحكم الموضع الذى ملكه البلد منه، و أتقنه، و أمر بحفر خندق خارج الفصيل، و سلّم كلّ برج إلى أمير يتولّى عمله، فعمل ولده الأفضل من ناحية باب عمود إلى باب الرحمة، و أرسل أتابك عزّ الدين مسعود، صاحب الموصل، جماعة من الحصّاصين، ممّن له في قطع الصخر اليد الطولى، فعملوا له هناك برجا و بدنة، و كذلك جميع الأمراء.

ثمّ إنّ الحجارة قلّت عند العمّالين، فكان صلاح الدين، رحمه الله، يركب و ينقل الحجارة بنفسه على دابّته من الأمكنة البعيدة، فيقتدى به العسكر، فكان يجمع عنده من العمّالين في اليوم الواحد ما يعملونه عدّة أيّام.

ذكر عود الفرنج إلى الرملة

فى العشرين من ذى الحجة عاد الفرنج إلى الرملة، و كان سبب عودهم أنّهم كانوا ينقلون ما يريدونه من الساحل، فلمّا أبعدوا عنه كان المسلمون يخرجون على من يجلب لهم الميرة فيقطعون الطريق و يغنمون ما معهم، ثمّ

(١) ما رم به. A.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٧٥

إنّ ملك إنكلتار قال لمن معه من الفرنج الشاميّين: صوّروا لى [١] مدينة القدس، فإنّى ما رأيته، فصوّروها له، فرأى الوادى يحيط بها ما عدا موضعا [٢] يسير من جهة الشمال، فسأل عن الوادى و عن عمقه، فأخبر أنّه عميق، وعر المسلك.

فقال: هذه مدينة لا يمكن حصرها ما دام صلاح الدين حيّا [٣] و كلمة المسلمين مجتمعة، لأنّا إن نزلنا فى الجانب الذى يلي المدينة بقيت سائر الجوانب غير محصورة، فيدخل إليهم منها الرجال و الذخائر و ما يحتاجون إليه، و إن نحن افترقنا فنزل بعضنا من جانب الوادى و بعضنا من الجانب الآخر، جمع صلاح الدين عسكره و واقع إحدى الطائفتين، و لم يمكن الطائفة الأخرى إيجاد أصحابهم، لأنّهم إن فارقوا مكانهم خرج من بالبلد من المسلمين فغنموا ما فيه، و إن تركوا فيه من يحفظه و ساروا نحو أصحابهم، فإلى أن

يتخلّصوا من الوادى و يلحقوا بهم يكون صلاح الدين قد فرغ منهم، هذا سوى ما يتعذّر علينا من إيصال ما يحتاج إليه من العلوفات و الأقوات.

فلَمّا قال لهم ذلك علموا صدقه، و رأوا قلبه الميرة عندهم، و ما يجرى للجالبين لها من المسلمين، فأشاروا عليه بالعود إلى الرملة، فعادوا خائبين خاسرين.

ذكر قتل قزل أرسلان

فى شعبان من هذه السنة قتل قزل أرسلان، و اسمه عثمان بن إيلدكز، و قد ذكرنا أنّه ملك البلاد، بعد وفاة أخيه البهلوان، ملك أَرّان، و أذربيجان،

[١] إلى.

[٢] موضع.

[٣] مهما صلاح الدين حى.

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٧٦

و همذان، و أصفهان، و الرى، و ما بينها، و أطاعه صاحب فارس و خوزستان، و استولى على السلطان طغرل بن أرسلان بن طغرل، فاعتقله فى بعض القلاع، و دانت له البلاد.

و فى آخر أمره سار إلى أصفهان، و الفتن بها متصلة من لدن توفى البهلوان إلى ذلك الوقت، فتعصّب على الشافعية، و أخذ جماعة من أعيانهم فصلبهم، و عاد إلى همذان، و خطب لنفسه بالسلطنة، و ضرب التّوب الخمس، ثمّ إنّه دخل ليلة قتل إلى منزله لينام، و تفرّق أصحابه، فدخل إليه من قتله على فراشه، و لم يعرف قاتله، فأخذ أصحابه صاحب بابّه ظنّاً و تخميناً، و كان كريماً حسن الأخلاق، يحبّ العدل و يؤثّر، و يرجع إلى حلم و قلة عقوبة.

ذكر عدّة حوادث

فى هذه السنة قدم معزّ الدين قيصر شاه بن قلیج أرسلان، صاحب بلاد الروم، على صلاح الدّين فى رمضان، و كان سبب قدومه أنّ والده عزّ الدين قلیج أرسلان فرّق مملكته على أولاده، و أعطى ولده هذا ملطية و أعطى ولده قطب الدين ملك شاه سيواس، فاستولى قطب الدين على أبيه، و حجر عليه، و أزال حكمه، و ألزمه ان يأخذ ملطية من أخيه هذا و يسلمها إليه، فخاف معزّ الدين، فسار إلى صلاح الدين ملتجئاً إليه، معتضداً به، فأكرمه صلاح الدين، و زوّجه بابنه أخيه الملك العادل، فامتنع قطب الدين من قصده، و عاد معزّ الدين إلى ملطية فى ذى القعدة.

و حدّثنى من أثق به قال: رأيت صلاح الدين و قد ركب ليودّع معزّ الدين هذا، فترجّل له معزّ الدين، و ترجّل صلاح الدين، و ودّعه راجلاً، فلَمّا أراد الركوب عضده معزّ الدين هذا، و أركبه، و سوى ثيابه علاء

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٧٧

الدين خرمشاه بن عزّ الدين، صاحب الموصل، قال: فعجبت من ذلك، و قلت ما تبالى يا ابن أيّوب أىّ موته تموت؟ يركبك ملك سلجوقى و ابن أتابك زنى.

و فيها توفى حسام الدين محمّد بن عمر بن لاجين، و هو ابن أخت صلاح الدين، و علم الدين سليمان بن جندر «١»، و هو من أكابر أمراء صلاح الدين أيضاً.

و فى رجب توفى الصفى بن القابض، و كان متولّى دمشق لصالح الدين، يحكم فى جميع بلاده.

(١). بن حيدر. B. A. tcnupenis

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٧٨

٥٨٨ ثم دخلت سنة ثمان وثمانين وخمسائة

ذكر عمارة الفرنج عسقلان

فى هذه السنة، فى المحرم، رحل الفرنج نحو عسقلان و شرعوا فى عمارتها.
و كان صلاح الدين بالقدس، فسار ملك إنكلتار، جريده، من عسقلان إلى يزك المسلمين، فواقعهم، و جرى بين الطائفتين قتال شديد انتصف [فيه] بعضهم من بعض.
و فى مدّة مقام صلاح الدين بالقدس ما برحت سراياه تقصد الفرنج، فتارة تواقع طائفة منهم، و تارة تقطع الميرة عنهم، و من جملتها سرّية كان مقدّمها فارس الدين ميمون القصرى، و هو من مقدّمى المماليك الصلاحية، خرج على قافلته كبيرة للفرنج، فأخذها و غنم ما فيها.

ذكر قتل المريكس و ملك الكندهرى

فى هذه السنة، فى ثالث عشر ربيع الآخر، قتل المريكس الفرنجى، لعنه الله، صاحب صور، و هو أكبر شياطين الفرنج.
و كان سبب قتله أنّ صلاح الدين راسل مقدّم الإسماعيلية [بالشام]، و هو سنان، و بذل له أن يرسل من يقتل ملك إنكلتار، و إن قتل المريكس فله عشرة

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٧٩

آلاف دينار، فلم يمكنهم قتل ملك إنكلتار، و لم يره سنان مصلحة لهم لئلا يخلو وجه صلاح الدين من الفرنج و يتفرّغ لهم، و شره فى أخذ المال، فعدل إلى قتل المريكس، فأرسل رجلين فى زىّ الرهبان، و اتصلا بصاحب صيدا و ابن بارزان، صاحب الرملة «١»، و كانا مع المريكس بصور، فأقاما معهما سنّة أشهر يظهران العبادة، فأنس بهما المريكس، و وثق بهما [١]، فلمّا كان بعد التاريخ عمل الأسقف بصور دعوة للمريكس، فحضرها، و أكل طعامه، و شرب مدامه، و خرج من عنده، فوثب عليه الباطنيان المذكوران، فجرحاه جراحا وثيقة، و هرب أحدهما، و دخل كنيسة يختفى فيها، فاتّفق أنّ المريكس حمل إليها ليشدّ جراحه «٢»، فوثب عليه ذلك الباطنى فقتله، و قتل الباطنيان بعده.

و نسب الفرنج قتله إلى وضع من ملك إنكلتار لينفرد بملك الساحل الشامى، فلمّا قتل ولى بعده مدينة صور كند من الفرنج، من داخل البحر، يقال له الكندهرى، و تزوّج بالملكة فى ليلته، و دخل بها و هى حامل، و ليس الحمل عندهم ممّا يمنع النكاح.
و هذا الكندهرى هو ابن أخت ملك إفرنسيس من أبيه، و ابن أخت ملك إنكلتار من أمّه، و ملك كندهرى هذا بلاد الفرنج بالساحل بعد عود ملك إنكلتار، و عاش إلى سنة أربع و تسعين و خمسائة، فسقط من سطح فمات، و كان عاقلا، كثير المداراة و الاحتمال.
و لما رحل ملك إنكلتار إلى بلاده أرسل كندهرى هذا إلى صلاح الدين يستعطفه، و يستميله، و يطلب منه خلعة، و قال: أنت تعلم أنّ لبس القباء و الشربوش عندنا عيب، و أنا ألبسهما منك محبة لك، فأنفذ إليه خلعة ستيه منها القباء و الشربوش، فلبسهما بعكا.

[١]- إليهما.

(١). صالة: P. C. ٠٤٧te. spU.

(٢). لشدة جراحة. A.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٨٠

ذكر نهب بنى عامر البصرة «١»

في هذه السنة، في صفر، اجتمع بنو عامر في خلق كثير، وأميرهم اسمه عميرة، وقصدوا البصرة، و كان الأمير بها اسمه محمّد بن إسماعيل، ينوب عن مقطعها الأمير طغرل، مملوك الخليفة الناصر لدين الله، فوصلوا إليها يوم السبت سادس صفر، فخرج إليهم الأمير محمّد فيمن معه من الجند، فوقعت الحرب بينهم بدرب الميدان، بجانب الخريبة «٢»، و دام القتال إلى آخر النهار، فلما جاء الليل ثلّم العرب في السور عدّة ثلّم، و دخلوا البلد من الغد، فقاتلهم أهل البلد، فقتل بينهم قتلى كثيرة من الفريقين، و نهبت العرب الخانات بالشاطئ و بعض محالّ البصرة، و عبر أهلها إلى شاطئ الملاحين، و فارق العرب البلد في يومهم و عاد أهله إليه.

و كان سبب سرعة العرب في مفارقة البلد أنّهم بلغهم أنّ خفاجة و المنتفق قد قاربوهم، فساروا إليهم و قاتلوهم أشدّ قتال، فظفرت عامر، و غنمت أموال خفاجة و المنتفق، و عادوا إلى البصرة بكرّة الاثنين، و كان الأمير قد جمع من أهل البصرة و السواد جمعا كثيرا، فلما عادت عامر قاتلهم أهل البصرة و من اجتمع معهم، فلم يقوموا للعرب و انهزموا، و دخل العرب البصرة و نهبوا، و فارق البصرة أهلها، و نهبت أموالهم، و جرت أمور عظيمة، و نهبت القسامل «٣» و غيرها يومين، و فارقها العرب و عاد أهلها إليها، و قد رأيت هذه القصة بعينها في سنة ثلاث و تسعين و خمسمائة، و الله أعلم.

(١). CnI. P. C. ٠٤٧te. imearpitnedecetn aemixorptupaccoh. tsemuss

(٢). الحرية: spU. الخريبة. P. C.

(٣). نهب أمل: P. C. ٠٤٧te. spU.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٨١

ذكر ما كان من ملك إنكلتار

في تاسع جمادى الأولى من هذه السنة استولى الفرنج على حصن الداروم، فخرّبوه، ثم ساروا إلى البيت المقدّس و صلاح الدين فيه، فبلغوا بيت نوبة.

و كان سبب طمعهم أنّ صلاح الدين فرّق عساكره الشرقية و غيرها لأجل الشتاء، و ليستريحوا [١]، و ليحضر البدل عوضهم، و سار بعضهم مع ولده الأفضل و أخيه العادل إلى البلاد الجزريّة، لما نذكره إن شاء الله تعالى، و بقى من حلقة الخاصّ بعض العساكر المصريّة، فظنّوا أنّهم ينالون غرضا، فلما سمع صلاح الدين بقربهم منه فرّق أبراج البلد على الأمراء، و سار الفرنج من بيت نوبة إلى قلونية «١»، سلخ الشهر، و هى [على] فرسخين من القدس، فصبّ المسلمون عليهم البلاء، و تابعوا إرسال السرايا فبلى [٢] الفرنج منهم بما لا قبل لهم به، و علموا أنّهم إذا نزلوا القدس كان الشرّ إليهم أسرع و التسلّط عليهم أمكن، فرجعوا القهقري، و ركب المسلمون أكتافهم بالرماح و السهام.

و لما أبعد الفرنج عن يافا سيّر صلاح الدين سرّيّة من عسكره إليها، فقاربوها، و كمنوا عندها، فاجتاز بهم جماعة من فرسان الفرنج مع

قافلة، فخرجوا عليهم، فقتلوا منهم وأسروا و غنموا، و كان ذلك آخر جمادى الأولى.

[١]- و يستريحوا.

[٢]- قبل.

(١) قلوبية. A

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٨٢

ذكر استيلاء الفرنج على عسكر المسلمين و قفل

فى تاسع جمادى الآخرة بلغ الفرنج الخبر بوصول عسكر من مصر، و معهم قفل كبير، و مقدّم العسكر فلک الدين سليمان، أخو العادل لأمه، و معه عدّة من الأمراء، فأسرى الفرنج إليهم، فواقعهم بنواحى الخليل، فانهزم الجند، و لم يقتل منهم رجل من المشهورين إنّما قتل من الغلمان و الأصحاب، و غنم الفرنج خيامهم و آلاتهم، و أمّا القفل فإنّه أخذ بعضه، و صعد من نجا جبل الخليل، فلم يقدم الفرنج على اتباعهم، و لو اتبعوهم نصف فرسخ لأتوا عليهم، و تمزّق من نجا من القفل، و تقطّعوا، و لقوا شدّة إلى أن اجتمعوا. حكى لى بعض أصحابنا، و كنّا قد سیرنا معه شيئاً للتجارة إلى مصر، و كان قد خرج فى هذا القفل، قال: لمّا وقع الفرنج علينا كنّا قد رفعنا أحمالنا للسیر، فحملوا علينا و أوقعوا بنا، فضربت أحمالى و صعدت الجبل و معى عدّة أحمال لغيرى. فلحقنا قوم من الفرنج، فأخذوا الأحمال التى فى صحبتى، و كنت بين أيديهم بمقدار رمية سهم، فلم يصلوا إلّى، فنجوت بما معى، و سرت لا أدرى أين أقصد، و إذ قد لاح لى بناء كبير على جبل، فسألت عنه، فقيل لى: هذا الكرك، فوصلت إليه ثمّ عدت منه إلى القدس سالما. و سار هذا الرجل من القدس سالما، فلمّا بلغ بزاعة، عند حلب، أخذه الحرامية، فنجا من العطب، و هلك عند ظنّه السلامة.

ذكر سير الأفضل و العادل إلى بلاد الجزيرة

قد تقدّم ذكر موت تقى الدين عمر ابن [أخى] صلاح الدين، و استيلاء ولده ناصر الدين محمّد على بلاد الجزيرة، فلمّا استولى عليها أرسل إلى صلاح

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٨٣

الدين يطلب تقريرها عليه، مضافا إلى ما كان لأبيه بالشام، فلم ير صلاح الدين أنّ مثل تلك البلاد تسلم إلى صبيّ، فما أجابه إلى ذلك، فحدّث نفسه بالامتناع على صلاح الدين لاشتغاله بالفرنج، فطلب الأفضل علىّ بن صلاح الدين من أبيه أن يقطعه ما كان لتقى الدين، و ينزل عن دمشق، فأجابه إلى ذلك، و أمره بالمسير إليها، فسار إلى حلب فى جماعة من العسكر، و كتب صلاح الدين إلى أصحاب البلاد الشرقية، مثل صاحب الموصل، و صاحب سنجار، و صاحب الجزيرة، و صاحب ديار بكر، و غيرها، يأمرهم بإنفاذ العساكر إلى ولده الأفضل فلمّا رأى ولد تقى الدين ذلك علم أنّه لا قوّة له بهم، فراسل الملك العادل [أبا بكر بن أيوب]، عمّ أبيه، يسأله إصلاح حاله مع صلاح الدين، فأنهى ذلك إلى صلاح الدين، و أصلح حاله، و قرّر قاعدته بأن يقرّر له ما كان لأبيه بالشام، و تؤخذ منه البلاد الجزريّة، و استقرّت القاعدة على ذلك.

و أقطع صلاح الدين البلاد الجزريّة، و هى حرّان، و الرّها، و سميساط، و ميفارقين، و حانى العادل، و سيّره إلى ابن تقى الدين ليتسلم منه البلاد، و يسيّره إلى صلاح الدين، و يعيد الملك الأفضل أين أدركه، فسار العادل، فلحق الأفضل بحلب، فأعادته إلى أبيه، و عبر

العادل الفرات [١]، و تسلم البلاد من ابن تقي الدين و جعل نوابه فيها، و استصحب ابن تقي الدين معه، و عاد إلى صلاح الدين بالعساكر، و كان عوده في جمادى الآخرة من هذه السنة.

ذكر عود الفرنج إلى عكا

لما عاد الملك الأفضل فيمن معه، و عاد الملك العادل و ابن تقي الدين فيمن معهما من عساكرهما، و لحقتهم العساكر الشرقية، عسكر الموصل

[١] الفراء.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٨٤

و عسكر ديار بكر و عسكر سنجار و غير ذلك من البلاد، و اجتمعت العساكر بدمشق، أيقن الفرنج أنهم لا طاقة لهم بها، إذا فارقوا البحر، فعادوا نحو عكا يظهرن العزم على قصد بيروت و محاصرتها، فأمر صلاح الدين ولده الأفضل أن يسير إليها في عسكره و العساكر الشرقية جميعها، معارضا للفرنج في مسيرهم نحوها، فسار إلى مرج العيون، و اجتمعت العساكر معه، فأقام هنالك ينتظر مسير الفرنج، فلما بلغهم ذلك أقاموا بعكا و لم يفارقوها.

ذكر ملك صلاح الدين يافا

لما رحل الفرنج نحو عكا كان قد اجتمع عند صلاح الدين عسكر حلب و غيره، فسار إلى مدينة يافا، و كانت بيد الفرنج، فنازلها و قاتل من بها منهم، و ملكها في العشرين من رجب بالسيف عنوة، و نهبها المسلمون، و غنموا ما فيها، و قتلوا الفرنج و أسروا كثيرا، و كان بها أكثر ما أخذوه من عسكر مصر و القفل الذي كان معهم، و قد ذكر ذلك.

و كان جماعة من المماليك الصلاحية قد وقفوا على أبواب المدينة، و كل من خرج من الجند و معه شيء من الغنيمة أخذوه منه، فإن امتنع ضربوه و أخذوا ما معه قهرا، ثم زحفت العساكر إلى القلعة، فقاتلوا عليها آخر النهار، و كادوا يأخذونها، فطلب من بالقلعة الأمان على أنفسهم، و خرج البطرك الكبير الذي لهم، و معه عدة من أكابر الفرنج، في ذلك، و ترددوا، و كان قصدهم منع المسلمين عن القتال، فأدركهم الليل، و واعدوا المسلمين أن ينزلوا بكرة غد و يسلموا القلعة.

فلما أصبح الناس طالبهم صلاح الدين بالنزول عن الحصن، فامتنعوا، و إذا قد وصلهم نجدة من عكا، و أدركهم ملك إنكلتار، فأخرج من بيافا من

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٨٥

المسلمين، و أتاه المدد من عكا و برز إلى ظاهر المدينة، و اعترض المسلمين وحده، و حمل عليهم، فلم يتقدم إليه أحد، فوقف بين الصفيين و استدعى [١] طعاما من المسلمين، و نزل فأكل [٢]، فأمر صلاح الدين عسكره بالحملة عليهم، و بالجدة في قتالهم، فتقدم إليه بعض أمرائه يعرف بالجناح، و هو أخو المشطوب ابن علي بن أحمد الهكاري، فقال له: يا صلاح الدين قل للمماليك الذين أخذوا أمس الغنيمة، و ضربوا الناس بالحماقات، [أن] يتقدموا فيقاتلوا [٣]، إذا كان القتال فنحن، و إذا كانت الغنيمة فلهم. فغضب صلاح الدين من كلامه و عاد عن الفرنج.

و كان، رحمه الله، حليما كريما [كثير العفو عند] المقدرة، و نزل في خيامه، و أقام حتى اجتمعت العساكر، و جاء إليه ابنه الأفضل و أخوه العادل و عساكر الشرق، فرحل بهم إلى الرملة لينظر ما يكون منه و من الفرنج، فلزم الفرنج يافا و لم يبرحوا منها.

ذكر الهدنة مع الفرنج و عود صلاح الدين إلى دمشق

في العشرين من شعبان من هذه السنة عقدت [الهدنة] بين المسلمين و الفرنج لمدة ثلاث سنين و ثمانية أشهر، أولها هذا التاريخ، وافق أول أيلول، و كان سبب الصلح أن ملك إنكلتار لما رأى اجتماع العساكر، و أنه لا- يمكنه مفارقة ساحل البحر، و ليس بالساحل للمسلمين بلد يطمع فيه، و قد طالت غيبته عن بلاده،

[١] و استدعا.

[٢] أكل.

[٣] يتقدمون فيقاتلون.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٨٦

راسل صلاح الدين في الصلح. و أظهر من ذلك ضد ما كان يظهره أولاً، فلم يجبه صلاح الدين إلى ما طلب ظناً منه أنه يفعل ذلك خديعة و مكراً، و أرسل يطلب منه المصاف و الحرب، فأعاد الفرنجى رسله مرة بعد مرة، و نزل عن تتمه عمارة عسقلان و [تخلي] عن غزة و الداروم و الرملة، و أرسل إلى الملك العادل في تقرير هذه القاعدة، فأشار هو و جماعة الأمراء بالإجابة إلى الصلح، و عزفوه ما عند العسكر من الضجر و الملل، و ما قد هلك من أسلحتهم و دوابهم و نفقاتهم، و قالوا: إن هذا الفرنجى إنما طلب الصلح ليركب البحر و يعود إلى بلاده، فإن تأخرت إجابته إلى أن يجيء الشتاء و ينقطع الركوب في البحر نحتاج للبقاء هاهنا سنة أخرى، و حينئذ يعظم الضرر على المسلمين.

و أكثروا القول له في هذا المعنى، فأجاب حينئذ إلى الصلح، فحضر رسل الفرنج و عقدوا الهدنة، و تحالفوا على هذه القاعدة. و كان في جملة من حضر عند صلاح الدين باليان بن بارزان «١» الذي كان صاحب الرملة و نابلس، فلما حلف صلاح الدين قال له: اعلم أنه ما عمل أحد في الإسلام [مثل] ما عملت، و لا هلك من الفرنج مثل ما هلك منهم هذه المدة، فإننا أحصينا من خرج إلينا في البحر من المقاتلة، فكانوا ستمائة ألف رجل ما عاد منهم إلى بلادهم من كل عشرة واحد، بعضهم قتلته أنت، و بعضهم مات، و بعضهم غرق.

و لما انفصل أمر الهدنة أذن صلاح الدين للفرنج في زيارة البيت المقدس.

فزاروه و تفرقوا، و عادت كل طائفة إلى بلادها. و أقام بالساحل الشامى، ملكا على الفرنج و البلاد التي بأيديهم، الكندهرى، و كان خبير الطبع، قليل الشر، رفيقا بالمسلمين، محباً لهم، و تزوج بالملكة التي كانت تملك بلاد الفرنج قبل أن يملكها صلاح الدين، كما ذكرناه.

و أما صلاح الدين، فإنه بعد تمام الهدنة سار إلى البيت المقدس، و أمر

(١). بيرزان. B.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٨٧

بإحكام سورة [و أدخل في السور كنيسة صهيون و كانت خارجة عنه بمقدار رميتي سهم]، و عمل المدرسة و الرباط و البيمارستان و غير ذلك من مصالح المسلمين، و وقف عليها الوقوف، و صام رمضان بالقدس، و عزم على الحج و الإحرام منه، فلم يمكنه ذلك، فسار عنه خامس شوال نحو دمشق، و استناب بالقدس «١» أميراً اسمه جورديك، و هو من المماليك النورية.

و لما سار عنه جعل طريقه على الثغور الإسلامية كنابلس و طبرية و صفد و تبين و قصد بيروت، و تعهد هذه البلاد، و أمر بإحكامها، فلما كان في بيروت أتاه بيمنند صاحب أنطاكية و أعمالها «٢»، و اجتمع به و خدمه، فخلع عليه صلاح الدين و عاد إلى بلده، فلما عاد

رحل صلاح الدين إلى دمشق، فدخلها في الخامس والعشرين من شوال، و كان يوم دخوله إليها يوما مشهودا، وفرح الناس به فرحا عظيما لطول غيبته، و ذهب العدو عن بلاد الإسلام.

ذكر وفاة قلع أرسلان

في هذه السنة، منتصف شعبان، توفي الملك قلع أرسلان بن مسعود بن قلع أرسلان بن سليمان بن قتلмыш بن سلجوق السلجوقي بمدينة قونية، و كان له من البلاد قونية و أعمالها، و أقصرا، و سيواس، و ملطية، و غير ذلك من البلاد، و كانت مدة ملكه نحو تسع و عشرين سنة، و كان ذا سياسة حسنة، و هيبه عظيمة، و عدل وافر، و غزوات كثيرة إلى بلاد الروم، فلما كبر فرق بلاده على أولاده، فاستضعفوه، و لم يلتفتوا إليه، و حجر عليه ولده قطب الدين.

(١). بالقدس عز الدين جرديك النوري. و لما. A.

(٢). أنطاكية و أعمالها و طرابلس. B.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٨٨

و كان قلع أرسلان قد استناب، في تدبير [١] ملكه، رجلا يعرف باختيار الدين حسن، فلما غلب قطب الدين على الأمر قتل حسنا، ثم أخذ والده و سار به إلى قيسارية ليأخذها من أخيه الذي سلمها إليه أبوه، فحصرها مدة، فوجد والده قلع أرسلان فرصة، فهرب و دخل قيسارية وحده. فلما علم قطب الدين ذلك عاد إلى قونية و أقصرا فملكهما، و لم يزل قلع أرسلان يتحول من ولد إلى ولد، و كلّ منهم يتبرّم به، حتّى مضى إلى ولده غياث الدين كيخسرو، صاحب مدينة برغلوا، فلما رآه فرح به، و خدمه، و جمع العساكر، و سار هو معه إلى قونية، فملكها، و سار إلى أقصرا و معه والده قلع أرسلان، فحصرها، فمرض أبوه، فعاد به إلى قونية فتوفي بها و دفن هناك، و بقي ولده غياث الدين في قونية مالكا لها، حتّى أخذها منه أخوه ركن الدين سليمان، على ما ذكره إن شاء الله تعالى.

و قد حدثني «١» بعض من أثق به [٢] من أهل العلم بما يحكيه، و كان قد وصل تلك البلاد بغير هذا، و نحن نذكره، قال إن قلع أرسلان قسم بلاده بين أولاده في حياته، فسلم دوقاط إلى ابنه ركن الدين سليمان، و سلم قونية إلى ولده كيخسرو غياث الدين، و سلم أنقرة «٢»، و هى التى تسمى انكشورية، إلى ولده محيي الدين، و سلم ملطية إلى ولده معز الدين قيصر شاه، و سلم أبلستين إلى ولده مغيث الدين، و سلم قيسارية إلى ولده نور الدين محمود، و سلم سيواس و أقصرا إلى ولده قطب الدين، و سلم نكسار «٣» إلى ولد آخر «٤»، و سلم أماسيا إلى ولد أخيه «٥».

[١] - مدينة.

[٢] - إليه.

(١). ٥٩. gapsit ipacmenifdaeuqsu و قد حدثني A. aedni. mo

(٢). أنكورية. B.

(٣). نكسار: spU: نكسار:

(٤). أخيه: spU.

(٥). إلى ولد آخر. B.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٨٩

هذه أمهات البلاد، و ينضاف إلى كل بلد من هذه ما يجاورها من البلاد الصغار التى ليست مثل هذه، ثم إنه ندم على ذلك، و أراد أن يجمع الجميع لولده الأ-كبر قطب الدين، و خطب له ابنه صلاح الدين يوسف، صاحب مصر و الشام، ليقوى به، فلمّا سمع باقى أولاده بذلك امتنعوا عليه، و خرجوا عن طاعته، و زال حكمه عنهم، فسار يتردّد بينهم على سبيل الزيارة، فيقيم عند كل واحد منهم مدّة، و ينتقل إلى الآخر، ثمّ إنه مضى إلى ولده كيخسرو، صاحب قونية، على عادته، فخرج إليه، و لقيه، و قبل الأرض بين يديه، و سلّم قونية إليه و تصرّف عن أمره، فقال لكيخسرو: أريد [أن] أسير إلى ولدى الملعون محمود، و هو صاحب قيساريّة، و تجيء أنت معى لآخذها منه، فتجهّز و سار معه، و حصر محمودا بقيساريّة، فمرض قلج أرسلان، و توفّى عليها. فعاد كيخسرو، و بقى كل واحد من الأولاد على البلد الذى [١] بيده.

و كان قطب الدين، صاحب أقصرا و سيواس، إذا أراد أن يسير من إحدى المدينتين إلى الأخرى يجعل طريقه على قيساريّة، و بها أخوه نور الدين محمود، و ليست على طريقه إنّما كان يقصدها ليظهر المودّة لأخيه و المحبّة له، و فى نفسه الغدر، فكان أخوه محمود يقصده و يجتمع به، ففى بعض المرات نزل بظاهر البلد على عادته، و حضر أخوه محمود عنده غير محتاط، فقتله قطب الدين، و ألقى رأسه إلى أصحابه، و أراد أخذ البلد، فامتنع من به من أصحاب أخيه عليه، ثمّ إنهم سلّموه إليه على قاعدة استمرت «١» بينهم. و كان عند محمود أمير كبير، و كان يحذّره من أخيه قطب الدين، و يخوّفه «٢»، فلم يصغ إليه، و كان جوادا، كثير الخير، و تقدّم فى الدولة عند نور

[١] التى.

(١). استقرت. B.

(٢). جوادا mo.... فى iuq أو يخوفه من حاله. B.

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٩٠

الدين، فلمّا قتل قطب الدين أخاه «١» قتل حسنا معه، و ألفاه على الطريق، فجاء كلب يأكل من لحمه، فثار الناس، و قالوا: لا سمعا و لا طاعة! هذا رجل مسلم، و له هاهنا مدرسة، و تربة، و صدقات دارّة، و أفعال حسنة، لا نتركه تأكله الكلاب، فأمر به فدفن فى مدرسته، و بقى أولاد قلج أرسلان على حالهم.

ثمّ إنّ قطب [الدين] مرض و مات، فسار أخوه ركن الدين سليمان صاحب دوقاط إلى سيواس، و هى تجاوره، فملكها «٢»، ثمّ سار منها إلى قيساريّة و أقصرا، ثمّ بقى مديدة «٣»، و سار إلى قونية و بها أخوه غياث الدين، فحصره بها و ملكها ففارقها غياث الدين إلى الشام، ثمّ إلى بلد الروم، و كان من أمره ما نذكره إن شاء الله تعالى، ثمّ سار بعد ذلك إلى ركن الدين إلى نكسار و أماسيا، فملكها، و سار إلى ملطية سنة سبع و تسعين و خمسمائة، فملكها و فارقها أخوه معزّ الدين إلى الملك العادل أبى بكر بن أيوب، و كان معزّ الدين هذا تزوّج ابنه للعادل، فأقام عنده، و اجتمع لركن الدين «٤» ملك جميع الإخوة ما عدا أنقرة فإنّها منيعة لا يوصل إليها، فجعل عليها عسكريا يحصرها صيفا و شتاء ثلاث سنين، فتسلّمها سنة إحدى و ستّمائة، و وضع على أخيه الذى كان بها من يقتله إذا فارقها، فلمّا سار عنها قتل.

و توفّى ركن الدين فى تلك الأيام، و لم يسمع خبر قتل أخيه بل عاجله الله تعالى لقطع رحمه.

(١). أخاه نور الدين. B.

(٢). فملكها ففوقى على جميع إخوته لأنه صار له دوقاط و سيواس و قيساريّة و أقصرا. B.

(٣). بقي مدة مديدة. B.

(٤). لركن الدين سليمان. B.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٩١

و إنما أوردنا هذه الحادثة هاهنا لتتبع بعضها بعضا، ولأننى لم أعلم تاريخ كل حادثة منها لأثبتها فيه.

ذكر ملك شهاب الدين أجمير «١» وغيرها من الهند

قد ذكرنا سنة ثلاث و ثمانين [و خمسمائة] غزوة شهاب الدين الغورى إلى بلد الهند، و انهزمه، و بقى إلى الآن و فى نفسه الحقد العظيم على الجند الغورية الذين انهزموا، و ما ألزمهم من الهوان.

فلما كان هذه السنة خرج من غزنه و قد جمع عساكره و سار منها يطلب عدوه الهندى الذى هزمه تلك النبوة، فلما وصل إلى برشاوور تقدم إليه شيخ من الغورية كان يدل عليه، فقال له: قد قربنا من العدو، و ما يعلم أحد أين نمضى و لا من نقصد و لا نرد على الأمراء سلاما، و هذا لا يجوز فعله.

فقال له السلطان: أعلم أنني منذ هزمنى هذا الكافر ما نمت مع زوجتى، و لا غيرت ثياب البياض عني، و أنا سائر إلى عدوى، و معتمد على الله تعالى لا على الغورية، و لا على غيرهم، فإن نصرنى الله، سبحانه، و نصر دينه فمن فضله و كرمه، و إن انهزمنا فلا تطلبونى فيمن انهزم [١]، و لو هلكت تحت حوافر الخيل.

فقال له الشيخ: سوف ترى بنى عميك من الغورية ما يفعلون، فينبغى أن تكلمهم و ترد سلامهم. ففعل ذلك، و بقى أمراء الغورية يتضرعون بين

[١]- فما انهزمت.

(١). حمير: spU. احمير: P. C. ٧٤٠ te.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٩٢

يديه، و يقولون سوف ترى ما نفعل.

و سار إلى أن وصل إلى موضع المصاف الأول، و جازه مسيرة أربعة أيام، و أخذ عدده مواضع من بلاد العدو، فلما سمع الهندى تجهز، و جمع عساكره، و سار يطلب المسلمين، فلما بقى بين الطائفتين مرحلة عاد شهاب الدين وراءه و الكافر فى أعقابه أربع منازل، فأرسل الكافر إليه يقول له: أعطنى يدك، إنك تصافنى فى باب غزنه حتى أجيء وراءك و إلّا فنحن مثقلون [١]، و مثلك لا يدخل البلاد شبه اللصوص ثم يخرج هاربا، ما هذا فعل السلاطين، فأعاد الجواب: إننى لا أقدر على حربك.

و تم على حاله عائدا إلى أن بقى بينه و بين بلاد الإسلام ثلاثة أيام، و الكافر فى أثره يتبعه، حتى لحقه قريبا من مرنده «١» فجهر [حينئذ] شهاب الدين من عسكره سبعين ألفا، و قال: أريد هذه الليلة تدورون «٢» حتى تكونوا وراء عسكر العدو، و عند صلاة الصبح تأتون أنتم من تلك الناحية، و أنا من هذه الناحية، ففعلوا ذلك، و طلع الفجر.

و من عادة الهنود أنهم لا يبرحون من مضاجعهم إلى أن تطلع الشمس، فلما أصبحوا حمل عليهم عسكر المسلمين من كل جانب، و ضربت الكوسات، فلم يلتفت ملك الهند إلى ذلك و قال: من يقدم علىّ، أنا هذا؟ و القتل قد كثر فى الهنود، و النصر قد ظهر للمسلمين، فلما رأى ملك الهند ذلك أحضر فرسا له سابقا، و ركب ليهرب، فقال له أعيان أصحابه: إنك حلفت لنا أنك لا تخلىنا و تهرب، فنزل عن الفرس و ركب الفيل و وقف موضعه، و القتال شديد، و القتل قد كثر فى أصحابه، فانتهى المسلمون «٣» إليه و

أخذه أسيراً،

[١] - مثقلين.

(١). [٩]: spU: مرده: ٧٤٠ مرده: P.C.

(٢). الدولة هذه. B. تدورون على عسكر. A.

(٣) فانشى المسلمون. A.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٩٣

و حينئذ عظم القتل و الأسر في الهنود، و لم ينج منهم إلا القليل.

و أحضر الهندي بين يدي شهاب الدين، فلم يخدمه، فأخذ بعض الحجاج بلحيته، و جذبه إلى الأرض، حتى أصابها جبينه، و أقعده بين يدي شهاب الدين، فقال له شهاب الدين: لو استأسرتني ما كنت تفعل بي؟ فقال الكافر:

كنت [١] استعملت لك قيذا من ذهب أقيدك به، فقال شهاب الدين: بل نحن ما نجعل لك من القدر ما نقيدك.

و غنم المسلمون من الهنود أموالا كثيرة و أمتعة عظيمة، و في جملة ذلك أربعة عشر فيلا، من جملتها الفيل الذي جرح شهاب الدين في تلك الواقعة.

و قال ملك الهند لشهاب الدين: إن كنت طالب بلاد، فما بقى فيها من يحفظها، و إن كنت طالب مال، فعندي أموال تحمّل أجمالك كلّها «١» فسار شهاب الدين و هو معه إلى الحصن الذي له يعول عليه، و هو أجدير، فأخذه، و أخذ جميع البلاد التي تقاربه، و أقطع جميع [٢] البلاد لمملوكه قطب الدين أيبك، و عاد إلى غزنه، و قتل ملك الهند.

ذكر عده حوادث

في هذه السنة قبض على أمير الحاج طاشتكين ببغداد، و كان نعم الأمير، عادلا في الحاج، رفيقا بهم، محبا لهم، له أورد كثيره من صلوات و صيام،

[١] قد.

[٢] الجميع.

(١). تحمل منها أحمالك (حمالك. B.A)

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٩٤

و كان كثير الصدقة، لا جرم، و قفت أعماله بين يديه فخلص من السجن، على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

و فيها خرج السلطان طغرل بن أرسلان بن طغرل من الحبس بعد موت قزل أرسلان بن إيلدكر، و التقى هو و قتلغ إينانج بن البهلوان بن إيلدكر، فانهزم إينانج إلى الرّي، و كان ما نذكره، إن شاء الله تعالى، سنة تسعين و خمسمائة.

و فيها، في رجب، توفي الأمير السيد علي بن المرتضى العلوي الحنفي مدرّس جامع السلطان ببغداد.

و في شعبان منها توفي أبو علي الحسن بن هبة الله بن البوقي، الفقيه الشافعي الواسطي، و كان عالما بالمذهب انتفع به الناس.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٩٥

٥٨٩ ثم دخلت سنة تسع وثمانين وخمسائة

ذكر وفاة صلاح الدين و بعض سيرته

في هذه السنة، في صفر، توفي صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شاذي، صاحب مصر و الشام و الجزيرة و غيرها من البلاد، بدمشق، و مولده بتكريت، و قد ذكرنا سبب انتقالهم منها، و ملكهم مصر سنة أربع و ستين و خمسمائة.

و كان سبب مرضه أن خرج «١» يتلقى الحاج، فعاد، و مرض من يومه مرضا حادا بقي به ثمانية أيام و توفي، رحمه الله.

و كان قبل مرضه قد أحضر ولده الأفضل عليا و أخاه الملك العادل أبا بكر، و استشارهما فيما يفعل، و قال: قد تفرغنا من الفرنج، و ليس لنا في هذه البلاد شاغل، فأى جهة نقصد؟ فأشار عليه أخوه العادل بقصد خلاط، لأنه كان قد وعده، إذا أخذها، أن يسلمها إليه، و أشار [عليه] ولده الأفضل بقصد بلد الروم التي بيد أولاد قلع أرسلان، و قال: هي أكثر بلادا و عسكريا و مالا و أسرع مأخذا، و هي أيضا طريق الفرنج إذا خرجوا على البر، فإذا ملكناها منعناهم من العبور فيها. فقال: كلا كما مقصّر، ناقص الهمة، بل أقصد أنا بلد الروم، و قال لأخيه: تأخذ أنت بعض أولادى و بعض العسكر و تقصد خلاط، فإذا فرغت أنا من بلد الروم جئت إليكم، و ندخل منها

(١). و كان قد خرج A.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٩٦

أذربيجان، و نتصل ببلاد العجم، فما فيها من يمنع عنها.

ثم أذن لأخيه العادل في المضي إلى الكرك، و كان له، و قال له: تجهّز و احضر لتسير، فلما سار إلى الكرك مرض صلاح الدين، و توفي قبل عوده.

و كان، رحمه الله، كريما، حليما، حسن الأخلاق، متواضعا، صبورا على ما يكره، كثير التغافل عن ذنوب أصحابه، يسمع من أحدهم ما يكره و لا يعلمه بذلك و لا يتغير عليه.

و بلغني أنه كان يوما جالسا و عنده جماعة، فرمى بعض المماليك بعضا بسرmoz فأخطأته و وصلت إلى صلاح الدين فأخطأته و وقعت بالقرب منه، فالتفت إلى الجهة الأخرى يكلم جلسه ليتغافل عنها.

و طلب مرّة الماء فلم يحضر، و عاود الطلب في مجلس واحد خمس مرّات فلم يحضر، فقال: يا أصحابنا، و الله قد قتلني العطش! فأحضر الماء، فشربه و لم ينكر التواني في إحضاره.

و كان مرّة قد مرض مرضا شديدا أرجف عليه بالموت، فلما برىء منه و أدخل الحمام كان الماء حارّا، فطلب ماء باردا، فأحضره الذي يخدمه، فسقط من الماء شيء على الأرض، فناله منه شيء، فتألّم له لضعفه، ثم طلب البارد أيضا فأحضر، فلما قاربه سقطت الطاسة على الأرض، فوقع الماء جميعه عليه، فكاد يهلك، فلم يزد على أن قال للغلام: إن كنت تريد قتلى فعزّني! فاعتذر إليه، فسكت عنه.

و أمّا كرمه، فإنه كان كثير البذل لا يقف في شيء يخرج، و يكفي دليلا على كرمه أنه لما مات لم يخلف في خزانته غير دينار واحد صوري، و أربعين درهما ناصريّة، و بلغني أنه أخرج في مدّة مقامه على عكا قبالة الفرنج ثمانية عشر ألف دابة من فرس و بغل سوى الجمال، و أمّا العين و الثياب و السلاح فإنه لا يدخل تحت الحصر، و لما انقضت الدولة العلويّة

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٩٧

بمصر أخذ من ذخائرهم من سائر الأنواع ما يفوت الإحصاء ففرّقه جميعه.

و أمّا تواضعه، فإنه كان ظاهرا لم يتكبر على أحد من أصحابه، و كان يعيب الملوك المتكبرين بذلك، و كان يحضر عنده الفقراء و الصوفيّة، و يعمل لهم السماع، فإذا قام أحدهم لرقص أو سماع يقوم له فلا يقعد حتّى يفرغ الفقير.

و لم يلبس شيئاً مما ينكره الشرع، و كان عنده علم و معرفة، و سمع الحديث و أسمعته، و بالجملة كان نادراً في عصره [١]، كثير المحاسن الأفعال الجميلة، عظيم الجهاد في الكفار، و فتوحه تدلّ على ذلك، و خلف سبعة عشر ولداً ذكراً.

ذكر حال أهله و أولاده بعده

لَمَّا مات صلاح الدين بدمشق كان معه بها ولده الأكبر الأفضل نور الدين عليّ، و كان قد حلف له العساكر جميعها، غير مَرَّة، في حياته، فَلَمَّا مات ملك دمشق، و الساحل، و البيت المقدس، و بعلبك، و صرخد، و بصرى، و بانياس، و هونين، و تبين، و جميع الأعمال إلى الداروم.

و كان ولده الملك العزيز عثمان بمصر، فاستولى عليها، و استقرّ ملكه بها. و كان ولده الظاهر غازي بحلب، فاستولى عليها، و على جميع أعمالها، مثل: حازم، و تلّ باشر، و إعزاز، و برزيّة، و درب ساك، و منبج و غير ذلك.

[١] عسكره.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٩٨

و كان بحمّاء محمود بن تقى الدين عمر فأطاعه و صار معه.

و كان بحمص شيركوه بن محمّد بن شيركوه، فأطاع الملك الأفضل.

و كان الملك العادل بالكرّك قد سار إليه، كما ذكرنا، فامتنع فيه، و لم يحضر عند أحد من أولاد أخيه، فأرسل إليه الملك الأفضل يستدعيه ليحضر عنده، فوعده و لم يفعل، فأعاد مراسلته، و خوّفه من الملك العزيز، صاحب مصر، و من أتابك عزّ الدين، صاحب الموصل، فإنّه كان قد سار عنها إلى بلاد العادل الجزريّة، على ما نذكره، و يقول له: إن حضرت جهّزت العساكر و سرت إلى بلادك فحفظتها، و إن أقيمت قصدك أخى الملك العزيز لما بينكما من العداوة، و إذا ملك عزّ الدين بلادك فليس له دون الشام مانع، و قال لرسوله:

إن حضر معك، و إلّا فقل له قد أمرني، إن سرت إليه بدمشق عدت معك، و إن لم تفعل أسير إلى الملك العزيز أحالفه على ما يختار.

فلَمَّا حضر الرسول عنده وعده بالمجىء، فلَمَّا رأى أن ليس معه منه غير الوعد أبلغه ما قيل له في معنى موافقة العزيز، فحينئذ سار إلى دمشق، و جهّز الأفضل معه عسكراً من عنده، و أرسل إلى صاحب حمص، و صاحب حماة، و إلى أخيه الملك الظاهر بحلب، يحثّهم على إنفاذ العساكر مع العادل إلى البلاد الجزريّة ليمنعها من صاحب الموصل، و يخوّفهم إن هم لم يفعلوا.

و ممّا قال لأخيه الظاهر: قد عرفت صحبته أهل «١» الشام لبيت أتابك، فوالله لئن ملك عزّ الدين حرّان ليقومنّ أهل حلب عليك، و لتخرجنّ منها و أنت لا- تعقل «٢»، و كذلك يفعل بى أهل دمشق. فاتّفت كلمتهم على تسيير العساكر معه، فجهّزوا عساكرهم و سيّروها إلى العادل و قد عبر الفرات [١]،

[١]- الفراء.

(١). محبة أهل B.

(٢). لا تغفل A.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٩٩

ففسكرت عساكرهم بنواحي الزها بمرج الرياحان، و سندر ما كان منه إن شاء الله تعالى.

ذكر مسير أتابك عز الدين إلى بلاد العادل و عوده بسبب مرضه

لما بلغ أتابك عز الدين مسعود بن مودود بن زكي، صاحب الموصل، وفاة صلاح الدين جمع أهل الرأي من أصحابه، و فيهم مجاهد الدين قايمار، كبير دولته، و المقدم على كل من فيها، و هو نائبه فيهم، و استشارهم فيما يفعل، فسكتوا. فقال له بعضهم، و هو أخى مجد الدين أبو السعادات المبارك: أنا أرى أنك تخرج مسرعا جريده فيمن خف من أصحابك و حلقتك الخاص، و تتقدم إلى الباقيين بالحق بك، و تعطى من هو محتاج إلى شيء ما يتجهز به ما يخرج به و يلحق بك إلى نصيبين، و تكاتب أصحاب الأطراف مثل مظفر الدين بن زين الدين، صاحب إربل، و سنجر شاه ابن أخيك صاحب جزيرة ابن عمر، و أخيك [١] عماد الدين صاحب سنجار و نصيبين، تعرفهم أنك قد سرت، و تطلب منهم المساعدة و تبذل لهم اليمين على ما يلتمسونه، فمتى رأوك قد سرت خافوك، و إن أجابك أخوك صاحب سنجار و نصيبين إلى الموافقة، و إلّا بدأت بنصيبين فأخذتها و تركت فيها من يحفظها، ثم سرت نحو الخابور، و هو له أيضا فأقطعه «١»، و تركت عسكره مقابل أخيك يمنعه من الحركة، إن

[١]- و أخاك.

(١). فأقطعه:

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ١٠٠

أرادها، أو قصدت الرقة، فلا تمنع نفسها، و تأتي حران و الزها، فليس فيها من يحفظها لا صاحب و لا عسكر و لا ذخيرة، فإن العادل أخذهما من ابن تقي الدين، و لم يقم فيهما ليصلح حالهما، و كان القوم يتكلمون على قوتهم، فلم يظنوا هذا الحادث، فإذا فرغت من ذلك الطرف عدت إلى من امتنع من طاعتك فقاتلته. و ليس وراءك ما تخاف عليه، فإن بلدك عظيم لا يبالي بكل من وراءك. فقال مجاهد الدين: المصلحة أننا نكاتب أصحاب الأطراف، و نأخذ رأيهم في الحركة، و نستميلهم، فقال له أخى: إن أشاروا بترك الحركة تقبلون منهم؟

قال: لا! قال: إنهم لا يشيرون إلّا بتركها، لأنهم لا يريدون أن يقوى هذا السلطان خوفا منه، و كأنى بهم يغالطونكم ما دامت «١» البلاد الجزرية فارغة من صاحب و عسكر، فإذا جاء إليها من يحفظها جاهر وكم بالعداوة.

و لم يمكنه أكثر من هذا القول خوفا من مجاهد الدين، حيث رأى ميله إلى ما تكلم به، فانفصلوا على أن يكاتبوا أصحاب الأطراف، فكاتبوهم، فكل أشار بترك الحركة إلى أن ينظر ما يكون من أولاد صلاح الدين و عمهم فتنبطوا.

ثم إن مجاهد الدين كرر المراسلات إلى عماد الدين، صاحب سنجار، يعده و يستميله، فبينما هم على ذلك إذ جاءهم كتاب الملك العادل من المناخ بالقرب من دمشق، و قد سار عن دمشق إلى بلاده، يذكر فيه موت أخيه، و أن البلاد قد استقرت لولده الملك الأفضل، و الناس متفقون على طاعته، و أنه هو المدبر لدولة الأفضل، و قد سيره في عسكر جم، كثير العدد، لقصد ماردین لما بلغه أن صاحبها تعرض إلى بعض القرى التي له، و ذكر من هذا النحو شيئا كثيرا، فظنوه حقا و أن قوله لا ريب فيه، ففوتروا عن

(١) مهما.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ١٠١

الحركة، و ذلك الرأي، فسيروا الجواسيس، فأتهم الأخبار بأنه في ظاهر حرّان نحو من مائتي خيمة لا غير، فعادوا فتحركوا، فإلى أن تقرّرت القواعد بينهم وبين صاحب سنجار، وصلته العساكر الشامية التي سيّرها الأفضل وغيره إلى العادل، فامتنع بها و سار أتابك عزّ الدين عن الموصل إلى نصيبين، واجتمع هو وأخوه عماد الدين بها، و ساروا على سنجار نحو الرها، و كان العادل قد عسكر قريبا منها بمرج الرياحان، فخافهم خوفا عظيما.

فلما وصل أتابك عزّ الدين إلى تلّ موزن «١» مرض بالإسهال، فأقام عدّة أيام فضعف عن [١] الحركة، و كثر مجيء الدم منه، فخاف الهلاك، فترك العساكر مع أخيه عماد الدين و عاد جريدة في مائتي فارس، و معه مجاهد الدين و أخى مجد الدين، فلما وصل إلى دنيسر استولى عليه الضعف، فأحضر أخى و كتب وصيته، ثم سار فدخل الموصل و هو مريض أوّل رجب.

ذكر وفاة أتابك عزّ الدين و شيء من سيرته

في هذه السنة توفّي أتابك عزّ الدين مسعود بن مودود بن زنكي بن آقسنقر، صاحب الموصل، بالموصل، و قد ذكرنا عوده إليها مريضا، فبقى في مرضه إلى التاسع و العشرين من شعبان، فتوفّي، رحمه الله، و دفن بالمدرسة التي أنشأها مقابل دار المملكة، و كان قد بقى ما يزيد على عشرة أيّام لا يتكلّم إلّا بالشهادتين، و تلاوة القرآن، و إذا تكلم بغيرها استغفر الله، ثم

[١]- فضعفت من.

(١). تل موزن. A.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ١٠٢

عاد إلى ما كان عليه، فرزق خاتمة خير، رضى الله عنه.

و كان، رحمه الله، خير الطبع، كثير الخير و الإحسان، لا سيّما إلى شيوخ قد خدموا أباه، فإنّه كان يتعهدهم بالبرّ و الإحسان، و الصلّة و الإكرام، و يرجع إلى قولهم، و يزور الصالحين، و يقربهم، و يشفعهم «١».

و كان حلّما، قليل المعاقبة، كثير الحياء، لم يكلم جليسا له إلّا و هو مطرق، و ما قال في شيء يسأله: لا، حياء و كرم طبع.

و كان قد حجّ، و ليس بمكة، حرسها الله، خرقة التّصوّف، و كان يلبس تلك الخرقة كلّ ليلة، و يخرج إلى مسجد قد بناه في داره، و يصلّي فيه نحو ثلث الليل، و كان رقيق القلب، شفيقا على الرعية.

بلغني عنه أنّه قال: بعض الأيّام: إنني سهرت الليلة كثيرا، و سبب ذلك أني سمعت صوت نائحة، فظننت أنّ ولد فلان قد مات، و كان قد سمع أنّه مريض، قال: فضاق صدرى، و قمت من فراشى أدور في السطح، فلما طال على الأمر أرسلت خادما إلى الجانداريّة، فأرسل منهم واحدا يستعلم الخبر، فعاد و ذكر إنسانا لا أعرفه، فسكن بعض ما عندي فنمت، و لم يكن الرجل الذي ظنّ أنّ ابنه مات من أصحابه إنّما كان من رعيته.

كان ينبغي أن تتأخّر وفاته، و إنّما قدّمناها لتتبع أخباره بعضها بعضا.

ذكر قتل بكتمر صاحب خلاط

في هذه السنة، أوّل جمادى الأولى، قتل سيف الدين بكتمر، صاحب خلاط، و كان بين قتله و موت صلاح الدين شهران، فإنّه أسرف في إظهار

(١). و يقربهم و ينفعهم A.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ١٠٣

الشماتة بموت صلاح الدين، فلم يمهل الله تعالى، ولما بلغه موت صلاح الدين فرح كثيرا، وعمل تختا جلس عليه، ولقب نفسه بالسلطان المعظم صلاح الدين، وكان لقبه سيف الدين، فغيره، وسمى نفسه عبد العزيز، وظهر منه اختلال و تخليط، و تجهز ليقصد ميافارقين يحصرها، فأدركته منيته.

و كان سبب قتله أن هزاردیناری، و هو أيضا من ممالیک شاه أرمن ظهير الدين، كان قد قوى و كثر جمعه، و تزوج ابنه بکتمر، فطمع في الملك، فوضع عليه من قتله، فلما قتل ملك بعده هزاردیناری بلاد خلاط و أعمالها.

و كان بکتمر ديناً، خيراً، صالحاً، كثير الخير، و الصلاح، و الصدقة، محباً لأهل الدين و الصوفية، كثير الإحسان إليهم، قريبا منهم و من سائر رعيتته، محبوباً إليهم، عادلاً فيهم، و كان «١» جواداً شجاعاً عادلاً في رعيتته حسن السيرة فيهم.

ذكر عدة حوادث

الكامل في التاريخ ج ١٢ ١٠٣ ذكر عدة حوادث ص: ١٠٣

في هذه السنة شتا شهاب الدين ملك غزنه في برشاوور، و جهز مملوكه أيبك في عساكر كثيرة، فأدخله بلاد الهند يغنم و يسبي، و يفتح من البلاد ما يمكنه، فدخلها، و عاد فخرج [١] هو و عساكره سالماً «٢»، قد ملئوا أيديهم من الغنائم.

[١] خرج.

(١). aedni.mo A. و كان

(٢). سالمين A.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ١٠٤

و فيها «١»، في رمضان، توفي سلطان شاه، صاحب مرو و غيرهما من خراسان، و ملك أخوه علاء الدين تكش بلاده، و سنذكره سنة تسعين [و خمسمائة] إن شاء الله.

و فيها أمر الخليفة الناصر لدين الله بعمارة خزانة الكتب بالمدرسة النظامية ببغداد، و نقل إليها من الكتب النفيسة ألوفاً لا يوجد مثلها. و فيها، في ربيع الأول، فرغ من عمارة الرباط الذي أمر بإنشائه الخليفة أيضاً بالحريم الطاهري [١]، غربى بغداد على دجلة، و هو من أحسن الربط، و نقل إليه كتباً كثيرة من أحسن الكتب.

و فيها ملك الخليفة قلعه من بلاد خوزستان «٢»، و سبب ذلك أن صاحبها سوسيان «٣» بن شمله جعل فيها دزداراً، فأساء السيرة مع جندها، فغدر به بعضهم فقتله، و نادوا بشعار الخليفة، فأرسل إليها و ملكها.

و فيها انقضّ كوكبان عظيمان «٤»، و سمع صوت هدة عظيمة، و ذلك بعد طلوع الفجر، و غلب ضوءهما القمر وضوء النهار. و فيها مات الأمير داود بن عيسى «٥» بن محمد بن أبي هاشم، أمير مكة، و ما زالت إماره مكة تكون له تارة، و لأخيه مكث تارة، إلى أن مات.

و في هذه السنة توفي أبو الرشيد الحاسب البغدادي، و كان قد أرسله الخليفة الناصر لدين الله في رسالة إلى الموصل فمات هناك.

[١] - الظاهري.

(١). aedni.mo. meni fsitipacdaeuqsni. وفيها.

(٢). قلاع خوزستان. B.

(٣). سوسان: ٠٤٧.doC. spU.

(٤) عظيمان و اضطر ما. B.

(٥). عيسى بن فليته بن قاسم بن محمد. B.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ١٠٥

٥٩٠ ثم دخلت سنة تسعين و خمسمائة

ذكر الحرب بين شهاب الدين و ملك بنارس الهندي

كان شهاب الدين الغوري، ملك غزنه، قد جهّز مملوكه قطب الدين أيبك، و سيّره إلى بلد الهند للغزاة، فدخلها فقتل فيها و سبي و غنم و عاد، فلمّا سمع به ملك بنارس، و هو أكبر ملك في الهند، ولايته من حدّ الصين إلى بلاد ملثوا طولاً، و من البحر إلى مسيرة عشرة أيام من لهاوور عرضاً، و هو ملك عظيم، فعندها جميع جيوشه، و حشرها «١»، و سار يطلب بلاد الإسلام. و دخلت سنة تسعين [و خمسمائة] فسار شهاب الدين الغوري من غزنه بعساكره نحوه، فالتقى العسكران على ماجون، و هو نهر كبير يقارب دجلة بالموصل، و كان مع الهندي سبع مائة فيل، و من العسكر على ما قيل ألف ألف رجل، و من جملة عسكره «٢» عدّة أمراء مسلمين، كانوا في تلك البلاد أبا [١] عن جدّ، من أيام السلطان محمود بن سبكتكين، يلازمون شريعة الإسلام، و يواظبون على الصلوات و أفعال الخير، فلمّا التقى المسلمون و الهنود اقتتلوا، فصر الكفار لكثرتهم، و صبر المسلمون لشجاعتهم، فانهمز الكفار، و نصر المسلمون،

[١] - أب.

(١). و حسدها. B. و حشدها. A.

(٢) - عسكر.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ١٠٦

و كثر القتل في الهنود، حتّى امتلأت الأرض و جافت، و كانوا لا يأخذون إلّا الصبيان و الجوارى، و أمّا الرجال فيقتلون، و أخذ منهم تسعين فيلاً، و باقى الفيلة قتل بعضها و انهزم بعضها، و قتل ملك الهند، و لم يعرفه أحد، إلّا أنّه كانت أسنانه قد ضعفت أصولها، فأمسكوها بشريط الذهب، فبذلّك عرفوه.

فلما انهزم الهنود دخل شهاب الدين بلاد بنارس، و حمل من خزائنها على ألف و أربع مائة جمل، و عاد إلى غزنه و معه الفيلة التي أخذها من جملتها فيل أبيض، حدّثني من رآه: لمّا أخذت الفيلة، و قدمت إلى شهاب الدين، أمرت بالخدمة، فخدمت جميعها إلّا الأبيض فإنّه لم يخدم، و لا يعجب أحد من قولنا الفيلة تخدم، فإنّها تفهم ما يقال لها، و لقد شاهدت فيلاً بالموصل و يقال يحدّثه، فيفعل ما يقول له.

ذكر قتل السلطان طغرل و ملك خوارزم شاه الرى و وفاه أخيه سلطان شاه

قد ذكرنا سنة ثمان وثمانين [وخمسمائة] خروج السلطان طغرل بن ألب أرسلان بن محمد بن ملك شاه بن ألب أرسلان السلجوقي من الحبس، وملكه همذان وغيرها، وكان قد جرى بينه وبين قتلغ إينانج بن البهلوان، صاحب البلاد، حرب انهزم فيها قتلغ إينانج، وتحصن بالرّي.

و سار طغرل إلى همذان، وأرسل قتلغ إينانج إلى خوارزم شاه علاء الدين تكش يستنجد، فسار إليه في سنة ثمان وثمانين [وخمسمائة]، فلما تقاربا ندم قتلغ إينانج على استدعاء خوارزم شاه، وخاف على نفسه فمضى من بين يديه وتحصن في قلعة له، فوصل خوارزم شاه إلى الرّي وملكها،

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ١٠٧

وحصر قلعة طبرك ففتحها في يومين، وراسله طغرل، واصطلحا، وبقيت الرّي في يد خوارزم شاه فرتب فيها عسكريا يحفظها، وعاد إلى خوارزم لأنه بلغه أنّ أخاه سلطان [شاه] قد قصد خوارزم، فجدّ في السير خوفا عليها، فأتاه الخبر، وهو في الطريق، أنّ أهل خوارزم منعوا سلطان شاه عنها، ولم يقدر على القرب منها، وعاد عنها خائبا، فشئت خوارزم شاه بخوارزم، فلما انقضى الشتاء سار إلى مرو لقصد أخيه سنة تسع وثمانين [وخمسمائة]، فترددت الرسل بينهما في الصلح.

فبينما هم في تقرير الصلح ورد على خوارزم شاه رسول من مستحفظ قلعة سرخس لأخيه سلطان شاه يدعوه ليسلم إليه القلعة لأنه قد استوحش من صاحبه سلطان شاه، فسار خوارزم شاه إليه مجداً، فتسلم القلعة وصار معه.

وبلغ ذلك سلطان شاه ففتّ في عضده، وتزايد كرده، فمات سلخ رمضان سنة تسع وثمانين وخمسمائة، فلما سمع خوارزم شاه بموته سار من ساعته إلى مرو فتسلمها، وتسلم مملكة أخيه سلطان شاه جميعها وخزائنه، وأرسل إلى ابنه علاء الدين محمد، وكان يلقب حينئذ قطب الدين، وهو بخوارزم، فأحضره فولاه نيسابور، ولّى ابنه الأكبر ملك شاه مرو، وذلك في ذي الحجة سنة تسع وثمانين.

فلما دخلت سنة تسعين وخمسمائة قصد السلطان طغرل بلد الرّي فأغار على من به من أصحاب خوارزم شاه، [ففر منه قتلغ إينانج بن البهلوان [١]]، وأرسل إلى خوارزم شاه [يعتذر ويسأل إنجاده مرة ثانية، ووافق ذلك وصول رسول الخليفة إلى خوارزم شاه يشكو من طغرل، ويطلب منه قصد بلاده و معه منشور بإقطاعه البلاد، فسار من نيسابور إلى الرّي، فتلقاه قتلغ

[١] البلوان.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ١٠٨

إينانج ومن معه بالطاعة، وساروا معه، فلما سمع السلطان طغرل بوصوله كانت عساكره متفرقة، فلم يقف ليجمعها، بل سار إليه فيمن معه، فقيل له: إنّ الأذى تفعله [١] ليس برأي، والمصلحة أن تجمع العساكر، فلم يقبل، وكان فيه شجاعة، بل تمم مسيره، فالتقى العسكران بالقرب من الرّي، فحمل طغرل بنفسه في وسط عسكر خوارزم شاه، فأحاطوا به وألقوه عن فرسه وقتلوه في الرابع والعشرين من شهر ربيع الأول، وحمل رأسه إلى خوارزم شاه، فسيّره من يومه إلى بغداد فنصب بها باب التوبيّ عدّة أيام.

و سار خوارزم شاه إلى همذان، وملك تلك البلاد جميعها، وكان الخليفة الناصر لدين الله قد سيّر عسكريا إلى نجدة خوارزم شاه، و سيّر له الخلع السلطانية مع وزيره مؤيد الدين بن القصاب، فنزل على فرسخ من همذان، فأرسل إليه خوارزم شاه يطلبه إليه، فقال مؤيد الدين: ينبغي أن تحضر أنت وتلبس الخلع من خيمتي، وترددت الرسل بينهما في ذلك، فقيل لخوارزم شاه: إنّها حيلة عليك حتى تحضر عنده ويقبض عليك، فرحل خوارزم شاه إليه قصدا لأخذه، فاندفع من بين يديه والتجأ إلى بعض الجبال فامتنع به، فرجع خوارزم شاه إلى همذان، ولما ملك همذان وتلك البلاد سلمها إلى قتلغ إينانج، وأقطع كثيرا منها لمماليكه وجعل المقدّم عليهم مياحق، وعاد إلى خوارزم.

ذكر مسير وزير الخليفة إلى خوزستان وملكها

في هذه السنة، في شعبان، خلع الخليفة الناصر لدين الله على النائب في الوزارة مؤيد الدين أبي عبد الله محمد بن علي المعروف بابن القصاب، خلع

[١] يفعله.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ١٠٩

الوزارة، و حكم في الولاية، و برز في رمضان، و سار إلى بلاد خوزستان، [و سبب ذلك أنه كان أولاً قد خدم في خوزستان] و ولي الأعمال بها، و صار له فيها أصحاب و أصدقاء و معارف، و عرف البلاد و من أي وجه يمكن الدخول إليها و الاستيلاء عليها، فلما ولي بغداد نيابة الوزارة أشار على الخليفة بأن يرسله في عسكر إليها ليملكها له، و كان عزمه أنه إذا ملك البلاد و استقر فيها أقام مظهرًا للطاعة، مستقلاً بالحكم فيها، ليأمن على نفسه.

فاتفق أن صاحبها ابن شمله توفي، و اختلف أولاده بعده، فراسل بعضهم مؤيد الدين يستنجد به لما بينهم من الصلابة القديمة، فقوى الطمع في البلاد، فجهّز العساكر و سيرت معه إلى خوزستان، فوصلها سنة إحدى و تسعين [و خمسمائة] و جرى بينه و بين أصحاب البلاد مراسلات و محاربة عجزوا عنها، و ملك مدينة تستر في المحرم، و ملك غيرها من البلاد، و ملك القلاع منها: قلعة الناظر، و قلعة كاكرد، و قلعة لا موج، و غيرها من الحصون و القلاع، و أنفذ بنى شمله أصحاب بلاد خوزستان «١» إلى بغداد، فوصلوا في ربيع الأول.

ذكر حصر العزيز مدينة دمشق

في هذه السنة وصل الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين، و هو صاحب مصر، إلى مدينة دمشق، فحصرها و بها أخوه الأكبر الملك الأفضل علي بن صلاح الدين. و كنت حينئذ بدمشق، فنزل بنواحي ميدان الحصى، فأرسل الأفضل إلى عمه الملك العادل أبي بكر بن أيوب، و هو صاحب الديار الجزرية، يستنجد به، و كان الأفضل غاية الواثق به و المعتمد عليه، و قد سبق ما يدل على

(١). أصحاب البلاد إلى خوزستان. ebrev susrevauqileriuq.mo.A

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ١١٠

ذلك، فسار الملك العادل إلى دمشق هو و الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين، صاحب حلب، و ناصر الدين محمد بن تقي الدين، صاحب حماة، و أسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه، صاحب حمص، و عسكر الموصل و غيرها، كلّ هؤلاء اجتمعوا بدمشق، و اتفقوا على حفظها، علما منهم أن العزيز إن ملكها أخذ بلادهم.

فلما رأى العزيز اجتماعهم علم أنه لا قدرة له على البلد، فترددت الرسل حينئذ في الصلح، فاستقرت القاعدة على أن يكون البيت المقدس و ما جاوره من أعمال فلسطين للعزيز، و تبقى دمشق و طبرية و أعمالها و الغور للأفضل، على ما كانت عليه، و أن يعطى الأفضل أخاه الملك الظاهر جبله و لاذقية بالساحل الشامي، و أن يكون للعادل بمصر إقطاعه الأول، و اتفقوا على ذلك، و عاد العزيز إلى مصر، و رجع كلّ واحد من الملوك إلى بلده.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة كانت زلزلة في ربيع الأول بالجزيرة والعراق وكثير من البلاد، سقطت منها الجبانة التي عند مشهد أمير المؤمنين علي، عليه السلام.

وفيها، في جمادى الآخرة، اجتمعت زعب وغيرها من العرب، وقصدوا مدينة النبي، صلى الله عليه وسلم، فخرج إليهم هاشم بن قاسم، أخو أمير المدينة، فقاتلهم فقتل هاشم، وكان أمير المدينة قد توجه إلى الشام، فلهذا طمعت العرب فيه. وفيها توفي القاضي أبو الحسن أحمد بن محمد بن عبد الصمد الطرسوسي الحلبي بها، في شعبان، وكان من عباد الله الصالحين، رحمه الله تعالى.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ١١١

٥٩١ ثم دخلت سنة إحدى وتسعين وخمسائة

ذكر ملك وزير الخليفة همدان وغيرها من بلاد العجم

قد ذكرنا ملك مؤيد الدين بن القصاب بلاد خوزستان، فلما ملكها سار منها إلى ميسان «١» من أعمال خوزستان، فوصل إليه قتلغ إينانج بن البهلوان، صاحب البلاد، وقد تقدم ذكر تغلب خوارزم شاه عليها، ومعه جماعة من الأمراء، فأكرمه وزير الخليفة وأحسن إليه.

وكان سبب مجيئه أنه جرى بينه وبين عسكر خوارزم شاه ومقدمهم مياجق مصاف عند زنجان «٢»، واقتتلوا، فانهزم قتلغ إينانج وعسكره، وقصد عسكر الخليفة ملتجئاً إلى مؤيد الدين الوزير، فأعطاه الوزير الخيل والخيام وغير ذلك مما يحتاج إليه، وخلع عليه وعلى من معه من الأمراء، ورحلوا إلى كرماشاهان.

ورحل منها إلى همدان، وكان بها ولد خوارزم شاه ومياجق والعسكر الذي معهم، فلما قاربهم عسكر الخليفة فارقها الخوارزميون وتوجهوا إلى الرّي، واستولى الوزير على همدان في شوال من هذه السنة، ثم رحل هو وقاتلغ إينانج خلفهم، فاستولوا على كل بلد جازوا به منها: خرقان، ومزدغان، وساوة، وآوة «٣»، وساروا إلى الرّي، ففارقها الخوارزميون إلى خوار الرّي، فسير الوزير خلفهم عسكراً، ففارقها الخوارزميون إلى

(١). ديسار: P.C. spU

(٢). لجان. ١٧٠ خ I rfC. ١٨٤٧ J. sA

(٣). و. أبة. A.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ١١٢

دامغان، وبسطام، وجرجان، فعاد عسكر الخليفة إلى الرّي فأقاموا بها، فاتفق قتلغ إينانج ومن معه من الأمراء على الخلاف على الوزير وعسكر الخليفة لأنهم رأوا البلاد قد خلت من عسكر خوارزم شاه، فطمعوا فيها، فدخلوا الرّي، فحصرها وزير الخليفة، ففارقها قتلغ إينانج، وملكها الوزير، ونهبها العسكر، فأمر الوزير بالنداء بالكف عن النهب.

وسار قتلغ إينانج ومن معه من الأمراء إلى مدينة آوة «١» وبها شحنة الوزير، فمنعهم من دخولها، فساروا عنها، ورحل الوزير في أثرهم نحو همدان، فبلغه وهو في الطريق أن قتلغ إينانج قد اجتمع معه عسكر، وقصد مدينة كرج، وقد نزل على دربند هناك، فطلبهم الوزير، فلما قاربهم التقوا واقتتلوا قتالا شديداً، فانهزم قتلغ إينانج ونجا بنفسه، ورحل الوزير من موضع المصاف إلى همدان، فنزل بظاهرها، فأقام نحو ثلاثة أشهر، فوصله رسول خوارزم شاه تكش، وكان قد قصدهم منكراً أخذه البلاد من عسكره، ويطلب

إعادتها، و تقرير قواعد الصلح، فلم يجب الوزير إلى ذلك، فسار خوارزم شاه مجداً إلى همدان. و كان الوزير مؤيد الدين [بن] القصاب قد توفى فى أوائل شعبان، فوقع بينه و بين عسكر الخليفة مصاف، نصف شعبان سنة اثنتين و تسعين و خمسمائة، فقتل بينهم. كثير من العسكرين، و انهزم عسكر الخليفة، و غنم الخوارزميون منهم شيئا كثيرا، و ملك خوارزم شاه همدان، و نبش الوزير من قبره و قطع رأسه و سيّره إلى خوارزم، و أظهر أنه قتله فى المعركة، ثم إن خوارزم شاه أتاه من خراسان ما أوجب أن يعود إليها، فترك البلاد و عاد إلى خراسان.

(١) أبة. A.

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ١١٣

ذكر غزو [ابن] عبد المؤمن الفرنج بالأندلس

فى هذه السنة، فى شعبان، غزا أبو يوسف يعقوب «١» بن عبد المؤمن، صاحب بلاد المغرب و الأندلس، و بلاد الفرنج بالأندلس، و سبب ذلك أن ألفنش ملك الفرنج بها، و مقرّ ملكه مدينة طليطلة، كتب إلى يعقوب كتابا نسخته: باسمك اللهم فاطر السموات و الأرض، أما بعد أيها الأمير، فإنه لا يخفى على كل ذى عقل لازب، و لا ذى لبّ و ذكاء ثاقب، أنك أمير الملة الحنيفية، كما أنا أمير الملة النصرانية، و أنك من لا يخفى عليه ما هم عليه رؤساء الأندلس من التخاذل و التواكل، و إهمال الرعية، و اشتغالهم بالراحات، و أنا أسومهم الخسف و أخلى الديار، و أسبى الذرارى، و أمثل بالكهول، و أقتل الشباب «٢»، و لا عذر لك فى التخلف عن نصرتهم، و قد أمكنتك يد القدرة، و أنتم تعتقدون أن الله فرض عليكم قتال عشرة مئا بواحد منكم، و الآن خفف الله عنكم، و علم أن فيكم ضعفا، فقد فرض عليكم قتال اثنين مئا بواحد منكم، و نحن الآن نقاتل عددا منكم بواحد مئا، و لا تقدرّون دفاعا، و لا تستطيعون امتناعا.

ثم حكى لى عنك أنك أخذت فى الاحتفال، و أشرفت على ربوة القتال، و تمطل نفسك عاما بعد عام، تقدّم رجلا و تؤخر أخرى، و لا أدري الجبن أبطأ بك أم التكذيب بما أنزل [١] عليك.

ثم حكى لى عنك أنك لا تجد سبيلا للحرب لعلك ما يسوغ لك التقصم

[١] - الزل.

(١). يعقوب بن يوسف بن B.

(٢). الشبان. A.

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ١١٤

فيها، فها أنا أقول لك ما فيه الراحة، و أعتذر عنك، و لك أن توافينى [١] باليهود و الموائيق و الأيمان أن تتوجه بجملة من عندك فى المراكب و الشوانى، و أجوز إليك بجملتى و أبارزك فى أعزّ الأماكن عندك، فإن كانت لك فغنيمة عظيمة جاءت إليك، و هديّة مثلت بين يديك، و إن كانت لى كانت يدى العليا عليك، و استحققت إمارة الملتين، و التقدم على الفتين، و الله يسهل الإرادة، و يوفق السعادة بمن لا ربّ غيره، و لا خير إلّا خيره.

فلما وصل كتابه و قرأه يعقوب كتب فى أعلاه هذه الآية ارجع إليهم فلنأيتنهم بجند لا- قيل لهم بها و لنخرجنهم منها أدلة و هم صاغرون «١» و أعاده إليه، و جمع العساكر العظيمة من المسلمين و عبر المجاز إلى الأندلس.

وقيل: كان سبب عبوره إلى الأندلس أن يعقوب لما قاتل الفرنج سنة ست وثمانين [وخمسمائة] وصالحهم، بقي طائفة من الفرنج لم ترض الصلح، كما ذكرناه، فلما كان الآن جمعت تلك الطائفة جمعا من الفرنج، وخرجوا إلى بلاد الإسلام، فقتلوا و سبوا و غنموا و أسروا، و عاثوا فيها عيثا شديدا، فأنتهى ذلك إلى «٢» يعقوب، فجمع العساكر، و عبر المجاز إلى الأندلس في جيش يضيق عنه الفضاء، فسمعت الفرنج بذلك، فجمعت قاصيهم و دانيهم، و أقبلوا إليه مجدين على قتاله، واثقين بالظفر لكثرتهم، فالتقوا، تاسع شعبان، شمالي قرطبة عند قلعة رباح «٣»، بمكان يعرف بمرج الحديد، فاقتتلوا قتالا شديدا، فكانت الدائرة أولا على المسلمين، ثم عادت على الفرنج، فانهزموا

[١] - توفيني.

(١). ٣٧ خ roC.٢٧

(٢). و سرى ذلك إلى A.

(٣). قلعة رباح. p.s.B.A.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ١١٥

أقبح هزيمة و انتصر المسلمون عليهم وَ جَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ «١».

و كان عدد من قتل من الفرنج مائة ألف و ستّة و أربعين ألفا، و أسر ثلاثة عشر ألفا، و غنم المسلمون منهم شيئا عظيما، فمن الخيام مائة ألف و ثلاثة و أربعون ألفا، و من الخيل ستّة و أربعون ألفا، و من البغال مائة ألف، و من الحمير مائة ألف. و كان يعقوب قد نادى في عسكره: من غنم شيئا فهو له سوى السلاح، و أحصى ما حمل إليه منه، فكان زيادة على سبعين ألف لبس، و قتل من المسلمين نحو عشرين ألفا.

و لما انهزم الفرنج اتبعهم أبو يوسف، فرآهم قد أخذوا قلعة رباح «٢»، و ساروا عنها من الرعب و الخوف، فملكها، و جعل فيها واليا، و جندا يحفظونها، و عاد إلى مدينة إشبيلية.

و أمّا الفنش، فإنّه لما انهزم حلق رأسه، و نكس صليبه، و ركب حمارا، و أقسم أن لا يركب فرسا و لا بغلا حتّى تنصر النصرانية، فجمع جموعا عظيمة، و بلغ الخبر بذلك إلى يعقوب، فأرسل إلى بلاد الغرب مراکش و غيرها يستنفر الناس من غير إكراه، فأتاه من المتطوعة و المرتزقين جمع عظيم، فالتقوا في ربيع الأول سنة اثنتين و تسعين و خمسمائة، فانهزم الفرنج هزيمة قبيحة، و غنم المسلمون ما معهم من الأموال و السلاح و الدواب و غيرها، و توجه إلى مدينة طليطلة فحصرها، و قاتلها قتالا شديدا، و قطع أشجارها، و شنّ الغارة على ما حولها من البلاد، و فتح فيها عدّة حصون، فقتل رجالها، و سبى حريمها، و خرب دورها، و هدم أسوارها، فضعفت النصرانية حينئذ، و عظم أمر الإسلام بالأندلس، و عاد يعقوب إلى إشبيلية فأقام بها.

(١). ٤٠ خ roC.٩

(٢). قد أحلوا قلعة رباح. p.s.B.A.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ١١٦

فلما دخلت سنة ثلاث و تسعين [وخمسمائة] سار عنها إلى بلاد الفرنج [و فعل فيها مثل فعله الأول و الثاني، فضاقت الأرض على الفرنج] و ذلّوا، و اجتمع ملوكهم، و أرسلوا يطلبون الصلح، فأجابهم إليه بعد أن كان عازما على الامتناع مريدا لملازمة [١] الجهاد إلى أن يفرغ منهم، فأتاه خبر عليّ بن إسحاق الملقم الميورقي أنّه فعل بإفريقية ما ذكره من الأفاعيل الشنيعة، فترك عزمه، و صالحهم مدة

خمس سنين، و عاد إلى مراكش آخر سنة ثلاث و تسعين و خمسمائة.

ذكر فعلة المثلث بإفريقية

لما عبر أبو يوسف يعقوب، صاحب المغرب، إلى الأندلس، كما ذكرنا، و أقام مجاهدا ثلاث سنين، انقطعت أخباره عن إفريقية، فقوى طمع علي بن إسحاق المثلث الميورقي، و كان بالبرية مع العرب، فعاد قصد إفريقية، فانبث جنوده في البلاد فخرّبوها، و أكثروا الفساد فيها، فمحيث آثار تلك البلاد و تغيرت، و صارت خالية من الأنيس، خاوية على عروشها. و أراد المسير إلى بجاية و محاصرتها لاشتغال يعقوب بالجهاد، و أظهر أنه إذا استولى على بجاية سار إلى المغرب، فوصل الخبر إلى يعقوب بذلك، فصالح الفرنج على ما ذكرناه، و عاد إلى مراكش عازما على قصده، و إخراجهم من البلاد، كما فعل سنة إحدى و ثمانين و خمسمائة و قد ذكرناه.

[١] يريد الملازمة.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ١١٧

ذكر ملك عسكر الخليفة أصفهان

في هذه السنة جهّز الخليفة الناصر لدين الله جيشا و سيّره إلى أصفهان، و مقدّمهم سيف الدين طغرل، مقطع بلد اللحف من العراق، و كان بأصفهان عسكر لخوارزم شاه مع ولده. و كان أهل أصفهان يكرهونهم، فكتب صدر الدين الخجندی رئيس الشافعية بأصفهان الديوان ببغداد يبذل من نفسه تسليم البلد إلى من يصل الديوان من العساكر، و كان هو الحاكم بأصفهان على جميع أهلها، فسيّرت العساكر، فوصلوا إلى أصفهان، و نزلوا بظاهر البلد، و فارقه عسكر خوارزم شاه، و عادوا إلى خراسان، و تبعهم بعض عسكر الخليفة، فتخطّفوا [١] منهم، و أخذوا من ساقه العسكر من قدروا عليه، و دخل عسكر الخليفة إلى أصفهان و ملكوها.

ذكر ابتداء حال كوكجه و ملكه بلد الرّي و همذان و غيرهما

لما عاد خوارزم شاه إلى خراسان، كما ذكرنا، اتفق المماليك الذين للبهلوان و الأمراء، و قدّموا على أنفسهم كوكجه، و هو من أعيان المماليك البهلوانية، و استولوا على الرّي و ما جاورها من البلاد، و ساروا إلى أصفهان لإخراج الخوارزمية منها، فلما قاربوها سمعوا بعسكر الخليفة عندها، فأرسل إلى مملوك الخليفة سيف الدين طغرل يعرض نفسه على خدمة الديوان، و يظهر

[١] فتحفظوا.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ١١٨

العبودية، و أنه إنما قصد أصفهان في طلب العساكر الخوارزمية، و حيث رأهم فارقوا أصفهان سار في طلبهم، فلم يدركهم، و سار عسكر الخليفة من أصفهان إلى همذان.

و أما كوكجه فإنه تبع الخوارزمية إلى طبس، و هي من بلاد الإسماعيلية، و عاد فقصد أصفهان و ملكها، و أرسل إلى بغداد يطلب أن يكون له الرّي و خوار الرّي و ساوة و قم و قاجان و ما ينضم إليها إلى حدّ مزدغان، و تكون أصفهان و همذان و زنجان و قزوین لديوان الخليفة، فأجيب إلى ذلك، و كتب له منشور بما طلب، و أرسلت له الخلع، فعظم شأنه، و قوى أمره، و كثرت عساكره، و تعظم

على أصحابه.

ذكر حصر العزيز دمشق ثانية وانهزامه عنها

وفي هذه السنة أيضا خرج الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين من مصر في عساكره إلى دمشق يريد حصرها، فعاد عنها منهزما. وسبب ذلك أن من عنده من مماليك أبيه، وهم المعروفون بالصلاحية:

فخر الدين جركس، و سراستقر، و قراجا، و غيرهم كانوا منحرفين عن الأفضل على بن صلاح الدين لأنه كان قد أخرج من عنده منهم مثل: ميمون القصري، و سنقر الكبير، و أبيك و غيرهم، فكانوا لا يزالون يخوفون العزيز من أخيه، و يقولون: إن الأكراد و المماليك الأسديّة من عسكر مصر يريدون أخاك، و نخاف أن يميلوا إليه و يخرجوك من البلاد، و المصلحة أن نأخذ دمشق، فخرج في العام الماضي و عاد، كما ذكرناه، فتجهّز هذه السنة ليخرج، فبلغ الخبر إلى الأفضل، فسار من دمشق إلى عمّه الملك العادل، فاجتمع به الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ١١٩

بقلعة جعبر، و دعاه إلى نصرته، و سار من عنده إلى حلب، إلى أخيه الملك الظاهر غازي، فاستنجد به، و سار الملك العادل من قلعة جعبر إلى دمشق، فسبق الأفضل إليها و دخلها، و كان الأفضل لثقتة به قد أمر نوابه بإدخاله إلى القلعة، ثم عاد الأفضل من حلب إلى دمشق و وصل الملك العزيز إلى قرب دمشق، فأرسل مقدّم الأسديّة، و هو سيف الدين أيازكوش، و غيره منهم، و من الأكراد أبو الهيجاء السمين و غيره، إلى الأفضل و العادل بالانحياز إليهما و الكون معهما، و يأمرهما بالاتفاق على العزيز و الخروج من دمشق ليسلموه إليهما.

و كان سبب الانحراف عن العزيز و ميلهم إلى الأفضل أن العزيز لما ملك مصر مال إلى المماليك الناصريّة، و قدّمهم، و وثق بهم، و لم يلتفت إلى هؤلاء الأمراء، فامتعضوا [١] من ذلك، و مالوا إلى أخيه، و أرسلوا إلى الأفضل و العادل فاتفقا على ذلك، و استقرّت القاعدة بحضور رسل الأمراء أن الأفضل يملك الديار المصريّة، و يسلم دمشق إلى عمّه الملك العادل، و خرجا من دمشق، فانحاز إليهما من ذكرنا، فلم يمكن العزيز المقام، بل عاد منهزما يطوى المراحل خوف الطلب و لا يصدّق بالنجاء، و تساقط أصحابه عنه إلى أن وصل إلى مصر.

و أمّا العادل و الأفضل فإنهما أرسلتا إلى القدس، و فيه نائب العزيز، فسلمه إليهما، و سارا فيمن معهما من الأسديّة و الأكراد إلى مصر، فرأى العادل انضمام العساكر إلى الأفضل، و اجتماعهم عليه، فخاف أنّه يأخذ مصر، و لا يسلم إليه دمشق، فأرسل حينئذ سراً إلى العزيز يأمره بالثبات، و أن يجعل بمدينة بلبس من يحفظها، و تكفل بأنّه يمنع الأفضل و غيره من مقاتلة من بها، فجعل العزيز الناصريّة و مقدّمهم فخر الدين جركس بها و معهم غيرهم، و وصل العادل و الأفضل إلى بلبس، فنازلوا من بها من الناصريّة،

[١] فاتفقوا.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ١٢٠

و أراد الأفضل مناجزتهم، أو تركهم بها و الرحيل إلى مصر، فمنعه العادل من الأمرين، و قال: هذه عساكر الإسلام، فإذا اقتتلوا في الحرب فمن يردّ العدو الكافر، و ما بها حاجة إلى هذا، فإنّ البلاد لك و بحكمك، و متى قصدت مصر و القاهرة و أخذتهما قهرا زالت هيبة البلاد، و طمع فيها الأعداء، و ليس فيها من يمنعك عنها.

و سلك معه أمثال هذا، فطالت الأيام، و أرسل إلى العزيز سراً يأمره بإرسال القاضي الفاضل، و كان مطاعا عند البيت الصلاحيّ لعلّو منزلته كانت عند صلاح الدين، فحضر عندهما، و أجرى ذكر الصلح، و زاد القول و نقص، و انفسخت العزائم و استقرّ الأمر على أن يكون للأفضل القدس و جميع البلاد بفلسطين و طبريّة و الأردن و جميع ما بيده، و يكون للعادل إقطاعه المذى كان قديما، و يكون

مقيما بمصر عند العزيز، و إنما اختار ذلك لأنَّ الأسدِيَّة و الأكراد لا يريدون العزيز، فهم يجتمعون معه، فلا يقدر العزيز على منعه عَمَّا يريد، فلَمَّا استقرَّ الأمر على ذلك و تعاقدوا عاد الأفضل إلى دمشق و بقى العادل بمصر عند العزيز.

ذكر عدَّة حوادث «١»

فى ذى القعدة، التاسع عشر منه، وقع حريق عظيم ببغداد بعقد المصطنع فاحترقت المربعة التى بين يديه، و دكان ابن البخيل الهَرَّاس، و قيل كان ابتداءؤه [١] من دار ابن البخيل.

[١] - ابتداءؤها.

(١). A. tupscmutot .mo

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ١٢١

٥٩٢ ثم دخلت سنة اثنتين و تسعين و خمسمائة

ذكر ملك شهاب الدين بهنكر «١» و غيرها من بلد الهند

فى هذه السنة سار شهاب الدين الغورى، صاحب غزنه، إلى بلد الهند، و حصر قلعة بهنكر «٢»، و هى قلعة عظيمة منيعة، فحصرها، فطلب أهلها منه الأمان على أن يسلموا إليه، فأمنهم و تسلمها، و أقام عندها عشرة أيام حتى رتب جندها و أحوالها و سار عنها إلى قلعة كوالير «٣»، و بينهما مسيرة خمسة أيام، و فى الطريق نهر كبير، فجازته، و وصل إلى كوالير «٤»، و هى قلعة منيعة حصينة على جبل عال لا يصل إليها حجر منجنيق، و لا نشاب، و هى كبيرة، فأقام عليها صفرا جميعه يحاصرها، فلم يبلغ منها غرضا، فراسله من بها فى الصلح، فأجابهم إليه على أن يقر القلعة بأيديهم على مال يحملونه إليه، فحملوا إليه فيلا - حمله ذهب، فرحل عنها إلى بلاد آى و سور «٥»، فأغار عليها و نهبها، و سبى و أسر ما يعجز العاد عن حصره، ثم عاد إلى غزنه سالما.

ذكر ملك العادل مدينة دمشق من الأفضل

فى هذه السنة، فى السابع و العشرين من رجب، ملك الملك العادل أبو بكر ابن أيوب مدينة دمشق من ابن أخيه الأفضل على بن صلاح الدين.

(١-٢). نهنكر. P.C.

(٣-٤) كواكير: P.C. spUteP.

(٥). الصى و صور ٧٤٠. اصى و سور. P.C.

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ١٢٢

و كان أبلغ الأسباب فى ذلك وثوق الأفضل بالعادل، و أنه بلغ من وثوقه به أنه أدخله بلده و هو غائب عنه، و لقد أرسل إليه أخوه الظاهر غازى، صاحب حلب، يقول له: أخرج عَمَّنَا من بيننا فإنه لا يجىء علينا منه خير، و نحن ندخل لك تحت كل ما تريد، و أنا أعرف به منك، و أقرب إليه، فإنه عمى مثل ما هو عمك، و أنا زوج ابنته، و لو علمت أنه يريد لنا خيرا لكنت أولى به منك. فقال له

الأفضل: أنت سيئ الظن في كل أحد، أي مصلحة لعمنا في أن يؤذينا؟ ونحن إذا اجتمعت كلمتنا، و سترنا معه العساكر من عندنا كلنا، ملك [١] من البلاد أكثر من بلادنا، و نربح سوء الذكر.

و هذا كان أبلغ الأسباب، و لا- يعلمها كل أحد، و أما غير هذا، فقد ذكرنا مسير العادل و الأفضل إلى مصر و حصارهم بليس، و صلحهم مع الملك العزيز بن صلاح الدين، و مقام العادل معه بمصر، فلما أقام عنده استماله، و قرّر معه أنه يخرج معه إلى دمشق و يأخذها من أخيه و يسلمها إليه، فسار معه من مصر إلى دمشق، و حصروها، و استمالوا أميرا من أمراء الأفضل يقال له العز [بن] أبي غالب الحمصي، و كان الأفضل كثير الإحسان إليه، و الاعتماد عليه، و الوثوق به، فسلم إليه بابا من أبواب دمشق يعرف بالباب الشرقي ليحفظه، فمال إلى العزيز و العادل، و وعدهما أنه يفتح لهما الباب، و يدخل العسكر منه إلى البلد غيلة، ففتحه اليوم السابع و العشرين من رجب، وقت العصر، و أدخل الملك العادل منه و معه جماعة من أصحابه، فلم يشعر الأفضل إلّا و عمّه معه في دمشق، و ركب الملك العزيز، و وقف بالميدان الأخضر غربى دمشق.

فلما رأى الأفضل أن البلد قد ملك خرج إلى أخيه، وقت المغرب،

[١] فملك.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ١٢٣

و اجتمع به، و دخلا كلاهما البلد، و اجتماعا بالعادل و قد نزل في دار أسد الدين شيركوه، و تحادثوا، فاتفق العادل و العزيز على أن أوهما الأفضل أنهما يبقيان عليه البلد خوفا أنه ربما جمع من عنده من العسكر و ثار بهما، و معه العامة، فأخرجهم من البلد، لأن العادل لم يكن في كثرة، و أعاد الأفضل إلى القلعة، و بات العادل في دار شيركوه، و خرج العزيز إلى الخيم فبات فيها، و خرج العادل من الغد إلى جوسقه فأقام به و عساكره في البلد في كل يوم يخرج الأفضل إليهما، و يجتمع بهما، فبقوا كذلك أياما، ثم أرسلوا إليه و أمراه بمفارقة القلعة و تسليم البلد على قاعدة أن تعطى قلعة صرخد له، و يسلم جميع أعمال دمشق، فخرج الأفضل، و نزل في جوسق بظاهر البلد، غربى دمشق، و تسلم العزيز القلعة، و دخلها، و أقام بها أياما، فجلس يوما في مجلس شرا به، فلما أخذت منه الخمر جرى على لسانه أنه يعيد البلد إلى الأفضل، فنقل ذلك إلى العادل في وقته، فحضر المجلس في ساعته، و العزيز سكران، فلم يزل به حتى سلم البلد إليه، و خرج منه، و عاد إلى مصر، و سار الأفضل إلى صرخد، و كان «١» العادل يذكر أن الأفضل سعى في قتله، فلهذا أخذ البلد منه، و كان الأفضل ينكر ذلك و يتبرأ منه [فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ] «٢».

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة، في المحرم، هبت ريح شديدة بالعراق، و اسودت لها الدنيا، و وقع رمل أحمر، و استعظم الناس ذلك و كبروا، و اشتعلت الأضواء بالنهار.

(١). ean igapmenifdaeus. mo. aedni

(٢). ١١٣ خ ٢. roC

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ١٢٤

و فيها قتل صدر الدين محمود بن عبد اللطيف بن محمد بن ثابت الخجندی، رئيس الشافعية بأصفهان، قتله فلك الدين سنقر الطويل، شحنة أصفهان بها «١»، و كان قدم بغداد سنة ثمان و ثمانين و خمسمائة، و استوطنها، و ولى النظر في المدرسة النظامية ببغداد، و لما سار مؤيد الدين بن القصاب إلى خوزستان سار في صحبته، فلما ملك الوزير أصفهان أقام ابن الخجندی بها في بيته و ملكه و منصبه،

فجرى بينه وبين سنقر الطويل شحنة أصفهان للخليفة منافرة فقتله سنقر.

و في رمضان درس مجير الدين أبو القاسم محمود بن المبارك البغدادي، الفقيه الشافعي، بالمدرسة النظامية ببغداد.

و في سؤال منها استناب نصير الدين ناصر بن مهدي العلوي الرازي في الوزارة ببغداد، و كان قد توجه إلى بغداد لَمَّا ملك ابن القصاب الرزي.

و فيها ولي أبو طالب يحيى بن سعيد بن زيادة ديوان الإنشاء ببغداد، و كان كاتباً مفلحاً، و له شعر جيد.

و في صفر منها توفي الفخر محمود بن علي القوفاني «٢» الفقيه الشافعي بالكوفة، عائداً من الحج، و كان من أعيان أصحابه محمد بن يحيى.

و في رجب منها توفي أبو الغنائم محمد بن علي بن المعلم الشاعر الهروي، و الهرب بضم الهاء و الثاء المثناة قرية من أعمال واسط، عن إحدى و تسعين سنة.

و في رابع شعبان منها توفي الوزير مؤيد الدين أبو الفضل محمد بن علي بن القصاب بهمدان، و قد ذكرنا من كفايته و نهضته ما فيه كفاية.

(١). بها في جمادى. B.

(٢). التومانى. B. محمد بن النوقافى. A.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ١٢٥

٥٩٣ ثم دخلت سنة ثلاث و تسعين و خمسمائة

ذكر إرسال الأمير أبي الهيجاء إلى همدان و ما فعله

في هذه السنة، في صفر، وصل إلى بغداد أمير كبير من أمراء مصر اسمه أبو الهيجاء، و يعرف بالسمين، لأنه كان كثير السمن، و كان من أكابر أمراء مصر، و كان في إقطاعه أخيراً البيت المقدس و غيره مما يجاوره، فلما ملك العزيز و العادل مدينة دمشق من الأفضل، أخذ القدس منه، ففارق الشام، و عبر الفرات [١] إلى الموصل، ثم انحدر إلى بغداد، لأنه طلب من ديوان الخلافة، فلما وصل إليها أكرم إكراماً كثيراً، ثم أمر بالتجهيز و المسير إلى همدان مقدماً على العساكر البغدادية، فسار إليها و التقى عندها بالملك أوزبك بن البهلوان و أمير علم و ابنه، و ابن سطمس و غيرهم، و هم قد كاتبوا الخليفة بالطاعة، فلما اجتمع بهم و ثقوا به [٢] و لم يحذروه، فقبض على أوزبك و ابن سطمس و ابن قرا بموافقة من أمير علم، فلما وصل الخبر بذلك إلى بغداد أنكرت هذه الحال على أبي الهيجاء، و أمر بالإفراج عن الجماعة و سيّرت لهم الخلع من بغداد تطيباً لقلوبهم، فلم يسكنوا بعد هذه الحادثة و لا أمنوا، ففارقوا أبا الهيجاء السمين، فخاف الديوان، فلم يرجع إليه، و لم يمكنه أيضاً المقام، فعاد يريد إربل لأنه من بلدها هو، فتوفي قبل وصوله إليها، و هو من الأكراد الحكمية من بلد إربل.

[١] الفراء.

[٢] إليه.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ١٢٦

ذكر ملك العادل يافا من الفرنج و ملك الفرنج بيروت من المسلمين و حصر الفرنج تبين و رحيلهم عنها

في هذه السنة، في شوال، ملك العادل أبو بكر بن أيوب مدينة يافا من الساحل الشامي، و هي [١] بيد الفرنج، لعنهم الله. و سبب ذلك [٢] أن الفرنج كان قد ملكهم الكندهري، على ما ذكرناه قبل، و كان الصلح قد استقر بين المسلمين و الفرنج أيام صلاح الدين يوسف بن أيوب، رحمه الله تعالى، فلمّا توفي و ملك أولاده بعده، كما ذكرناه، جدّد الملك العزيز الهدنة مع الكندهري [ملك الفرنج] و زاد في مدّة الهدنة، و بقي ذلك إلى الآن.

و كان بمدينة بيروت أمير يعرف بأسماءه، و هو مقطوعا، فكان يرسل الشواني تقطع الطريق على الفرنج، فاشتكى [٣] الفرنج من ذلك غير مرّة إلى الملك العادل بدمشق، و إلى الملك العزيز بمصر، فلم يمنعا أسامة من ذلك، فأرسلوا إلى ملوكهم الذين داخل البحر يشكون إليهم ما يفعل بهم المسلمون، و يقولون: إن لم تنجدونا، و إلّا أخذ المسلمون البلاد، فأمدّهم الفرنج بالعساكر الكثيرة، و كان أكثرهم من ملك الألمان، و كان المقدّم عليهم قتييس يعرف بالخنصير، فلمّا سمع العادل بذلك أرسل إلى العزيز بمصر يطلب العساكر، و أرسل إلى ديار الجزيرة و الموصل يطلب العساكر، فجاءته الأمداد [٤] و اجتمعوا على عين

[١] هو.

[٢] ذلّد.

[٣] فاشتكا.

[٤] الأمراء.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ١٢٧

الجالوت، فأقاموا شهر رمضان و بعض شوال، و رحلوا إلى يافا، و ملكوا المدينة، و امتنع من بها بالقلعة التي لها، فخرّب المسلمون المدينة، و حصروا القلعة، فملكوها عنوة و قهرا بالسيف في يومها، و هو يوم الجمعة، و أخذ كلّ ما بها غنيمة و أسرا و سبياء، و وصل الفرنج من عكا إلى قيساريّة ليمنعوا المسلمين عن يافا «١»، فوصلهم الخبر بها بملكها فعادوا.

و كان سبب تأخرهم أن ملكهم الكندهري سقط من موضع عال بعكا فمات، فاختلفت [١] أحوالهم فتأخروا لذلك.

و عاد المسلمون إلى عين الجالوت، فوصلهم الخبر بأنّ الفرنج على عزم قصد بيروت، فرحل العادل و العسكر في ذى القعدة إلى مرج العيون، و عزم على تخريب بيروت، فسار إليها جمع من العسكر، و هدموا سور المدينة سابع ذى الحجة، و شرعوا في تخريب دورها و تخريب القلعة، فمنعهم أسامة من ذلك، و تكفّل بحفظها.

و رحل الفرنج من عكا إلى صيدا، و عاد عسكر المسلمين من بيروت، فالتقوا الفرنج بنواحي صيدا، و جرى بينهم مناوشة، فقتل من الفريقين جماعة، و حجز بينهم الليل، و سار الفرنج تاسع ذى الحجة، فوصلوا إلى بيروت، فلمّا قاربوها هرب منها أسامة و جميع من معه من المسلمين، فملكوها صفوا عفوا بغير حرب و لا قتال، فكانت غنيمة باردة، فأرسل العادل إلى صيدا من خرّب ما كان بقي منها، فإنّ صلاح الدين كان قد خرّب أكثرها، و سارت العساكر الإسلامية إلى صور، فقطعوا أشجارها، و خرّبوا ما لها من قرى و أبراج، فلمّا سمع الفرنج بذلك رحلوا من بيروت إلى صور، و أقاموا عليها.

[١]- فاختلفت.

(١). عنها. B. من عكا. A.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ١٢٨

و نزل المسلمون عند قلعة هونين و أذن للعساكر الشرقية بالعود ظنا منه أن الفرنج يقيمون ببلادهم، و أراد أن يعطى العساكر المصريّة

دستورا بالعود، فأتاه الخبر، منتصف المحرم، أن الفرنج قد نازلوا حصن تبين، فسير العادل إليه عسكريا يحمونه و يمنعون عنه، و رحل الفرنج من صور، و نازلوا تبين أول صفر سنة أربع و تسعين [و خمسمائة] و قاتلوا من به، و جدوا فى القتال، و نقبوه من جهاتهم، فلما علم العادل بذلك أرسل إلى العزيز بمصر يطلب منه أن يحضر هو بنفسه، و يقول له: إن حضرت، و إلّا فلا يمكن حفظ هذا الثغر، فسار العزيز مجدا فيمن بقى معه من العساكر.

و أمّا من بحصن تبين فإنهم لما رأوا النقوب قد خربت تلّ القلعة، و لم يبق إلّا أن يملكوها بالسيف، نزل بعض من فيها إلى الفرنج يطلب الأمان على أنفسهم و أموالهم ليسلموا القلعة، و كان المرجع إلى القسيس الخنصلي من أصحاب ملك الألمان، فقال لهؤلاء المسلمين بعض الفرنج الذين من ساحل الشام:

إن سلّمتم الحصن استأسركم هذا و قتلکم، فاحفظوا نفوسکم، فعادوا كأنهم يراجعون من فى القلعة ليسلموا، فلما صعدوا إليها أصروا [١] على الامتناع، و قاتلوا قتال من يحمى نفسه، فحموها إلى أن وصل الملك العزيز إلى عسقلان فى ربيع الأول، فلما سمع الفرنج بوصوليه و اجتماع المسلمين، و أنّ الفرنج ليس لهم ملك يجمعهم، و أن أمرهم إلى امرأة، و هى الملكة، اتفقوا [٢] و أرسلوا إلى ملك قبرس و اسمه هيمرى، فأحضره، و هو أخو الملك الذى أسر بحطین، كما ذكرناه، فزوجوه [٣] بالملكة زوجة الكندهرى، و كان رجلا عاقلا يحبّ السلامة و العافية، فلما ملكهم لم يعد إلى الزحف على الحصن، و لا قاتله.

[١] صرّوا.

[٢] فاتفقوا.

[٣] فزوجوه.

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ١٢٩

و اتفق وصول العزيز أول شهر ربيع الآخر، و رحل هو و العساكر إلى جبل الخليل الذى يعرف بجبل عامله، فأقاموا أياما، و الأمطار متداركة، فبقى إلى ثالث عشر الشهر، ثم سار و قارب الفرنج، و أرسل رماة النشاب، فرموهم ساعة و عادوا، و رتب العساكر ليزحف إلى الفرنج و يجذّ فى قتالهم، فرحلوا إلى صور خامس عشر الشهر المذكور ليلا، ثم رحلوا إلى عكا، فسار المسلمون فنزلوا اللجون، و ترأسوا فى الصلح، و تناول الأمر، فعاد العزيز إلى مصر قبل انفصال الحال.

و سبب رحيله أن جماعة من الأمراء، و هم ميمون القصرى، و أسامه، و سرا سنقر، و الحجاف، و ابن المشطوب، و غيرهم، قد عزموا على الفتك به و بفخر الدين جرّكس مدبّر دولته، و وضعهم العادل على ذلك، فلما سمع بذلك سار إلى مصر و بقى العادل، و ترددت الرسل بينه و بين الفرنج فى الصلح، فاصطلحوا على أن تبقى بيروت بيد الفرنج، و كان الصلح فى شعبان سنة أربع و تسعين [و خمسمائة]، فلما انتظم [١] الصلح عاد العادل إلى دمشق، و سار منها إلى ماردين، من أرض الجزيرة، فكان ما نذكره، إن شاء الله تعالى.

ذكر وفاة سيف الإسلام و ملك ولده

فى شوال من هذه السنة توفى سيف الإسلام طغتكين بن أيوب، أخو صلاح الدين، و هو صاحب اليمن، بزبيد، و قد ذكرنا كيف ملك.

[١] انضم.

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ١٣٠

و كان شديد السيرة، مضيقاً على رعيته، يشتري أموال التجار لنفسه و يبيعها كيف شاء.
و أراد ملك مكة، حرسها الله تعالى، فأرسل الخليفة الناصر لدين الله إلى أخيه صلاح الدين في المعنى، فمنعه من ذلك، و جمع من الأموال ما لا يحصى، حتى إنه من كثرتة كان يسبك الذهب و يجعله كالطاحون و يدّخره.
و لما توفي ملك بعده ابنه إسماعيل، و كان أهوج، كثير التخليط بحيث إنه ادّعى أنه قرشي من بني أمية، و خطب لنفسه بالخلافة، و تلقّب بالهادي، فلما سمع عمه الملك العادل ذلك ساء و أهّمه، و كتب إليه يلومه و يوبّخه، و يأمره بالعود إلى نسبه الصحيح، و بترك ما ارتكبه ممّا يضحك الناس منه، فلم يلتفت إليه و لم يرجع و بقي كذلك، و انضاف إلى ذلك أنه أساء السيرة مع أجناده و أمرائه، فوثبوا عليه فقتلوه، و ملكوا عليهم بعده أميراً من مماليك أبيه.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة، في ربيع الآخر، توفي أبو بكر عبد الله بن منصور بن عمران الباقلائي المقرئ الواسطي بها عن ثلاث و تسعين سنة و ثلاثة أشهر و أيام، و هو آخر من بقي من أصحاب القلانسي.

و في جمادى الآخرة توفي قاضي القضاء أبو طالب علي بن علي بن البخاري ببغداد و دفن بترتبه في مشهد باب التين.
و فيها، في ربيع الآخر، توفي ملك شاه بن خوارزم شاه تكش بنيسابور، و كان أبوه قد جعله فيها، و أضاف إليه عساكر جميع بلاده التي بخراسان و جعله

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ١٣١

ولّى عهده في الملك، و خلف ولدا اسمه هندوخان، فلما مات جعل فيها أبوه خوارزم شاه «١» بعده ولده الآخر قطب الدين محمد، و هو الذي ملك بعد أبيه، و كان بين الأخوين عداوة مستحكمة أفضت إلى أن محمداً لما ملك بعد أبيه هرب هندوخان بن ملك شاه منه على ما ذكره.

و فيها «٢» توفي شيخنا أبو القاسم يعيش بن صدقة بن علي الفرائي الضرير، الفقيه الشافعي، كان إماماً في الفقه، مدرّساً صالحاً كثير الصلاح، سمعت عليه كثيراً، لم أر مثله، رحمه الله تعالى.

و لقد شاهدت منه عجباً يدلّ على دينه و إرادته، بعمله، وجه الله تعالى، و ذلك أنني كنت أسمع عليه ببغداد سنن أبي عبد الرحمن النسائي، و هو كتاب كبير، و الوقت ضيق لأنني كنت مع الحجاج قد عدنا من مكة، حرسها الله، فبينما نحن نسمع عليه مع أخى الأكبر مجد الدين أبي السعادات، إذ قد أتاه إنسان من أعيان بغداد، و قال له: قد برز الأمر لتحضر لأمر كذا، فقال:

أنا مشغول بسماع هؤلاء السادة، و وقتهم يفوت، و الذي يراد منّي لا يفوت، فقال: أنا لا أحسن أذكر هذا في مقابل أمر الخليفة. فقال: لا عليك! قل:

قال أبو القاسم لا أحضر حتى يفرغ السماع، فسألناه ليمشي معه، فلم يفعل ذلك، و قال: اقرأوا، فقرأنا، فلما كان الغد حضر غلام لنا، و ذكر أن أمير الحاج الموصلي قد رحل، فعظم الأمر علينا فقال: و لم يعظم عليكم العود إلى أهلكم و بلدكم؟ قلنا: لأجل فراغ هذا الكتاب، فقال: إذا رحلت أستعير دابةً و أركبها، فأسير معكم و أنتم تقرأون، فإذا فرغتم عدت.

فمضى الغلام ليتزوّد، و نحن نقرأ، فعاد و ذكر أن الحاج لم يرحلوا، ففرغنا من الكتاب، فانظر إلى هذا الدين المتين يرد أمر الخليفة و هو يخافه و يرجوه، و يريد [أن] يسير معنا و نحن غرباء لا يخافنا و لا يرجونا.

(١). أبوه ... شاه. A. mo

(٢). q. gapnimen ifsitipacdaeus. mo. A. aedni

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ١٣٢

٥٩٤ ثم دخلت سنة أربع وتسعين وخمسائة

ذكر وفاة عماد الدين و ملك ولده قطب الدين محمد

في هذه السنة، في المحرم، توفي عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي ابن آقسنقر، صاحب سنجار و نصيبين و الخابور و الرقة، و قد تقدم ذكره كيف ملكها سنة تسع و سبعين [و خمسائة]، و ملك بعده ابنه قطب الدين محمد، و تولى تدبير دولته مجاهد الدين يرنقش مملوك أبيه، و كان ديناً خيراً عادلاً حسن السيرة في رعيته، عفيفاً عن أموالهم و أملاكهم، متواضعاً، يحب أهل العلم و الدين، و يحترمهم، و يجلس معهم، و يرجع إلى أقوالهم، و كان رحمه الله شديد التعصب على مذهب الحنفية، كثير الذم للشافعية، فمن تعصب به أنه بنى مدرسته للحنفية بسنجار، و شرط أن يكون النظر للحنفية من أولاده دون الشافعية، و شرط أن يكون البواب و الفرائش على مذهب أبي حنيفة، و شرط للفقهاء طيخا يطبخ لهم [١] كل يوم، و هذا نظر حسن، رحمه الله.

ذكر ملك نور الدين نصيبين

في هذه السنة، في جمادى الأولى، سار نور الدين أرسلان شاه بن مسعود ابن مودود، صاحب الموصل، إلى مدينة نصيبين، فملكها، و أخذها من

[١] ذلك.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ١٣٣

ابن عمه قطب الدين محمد.

و سبب ذلك أن عمه عماد الدين كان له نصيبين، فتناول نوابه بها، و استولوا على عدة قرى من أعمال بين النهرين من ولاية الموصل، و هي تجاوز نصيبين، فبلغ الخبر مجاهد الدين قايمار القائم بتدبير مملكة نور الدين بالموصل و أعمالها و المرجوع إليه فيها، فلم يعلم مخدومه نور الدين بذلك، لما علم من قلبه صبره على احتمال مثل هذا، و خاف أن يجرى خلف بينهم، فأرسل من عنده رسولا إلى عماد الدين في المعنى، و قبح هذا الفعل الذي فعله النواب بغير أمره، و قال: إنني ما أعلمت نور الدين بالحال لئلا يخرج عن يدك، فإنه ليس كوالده، و أخاف [أن] يبدو منه ما يخرج الأمر فيه عن يدي، فأعاد الجواب: إنهم لم يفعلوا إلا ما أمرتهم به، و هذه القرى من أعمال نصيبين.

فترددت الرسل بينهما، فلم يرجع عماد الدين عن أخذها، فحينئذ أعلم مجاهد الدين نور الدين بالحال، فأرسل نور الدين رسولا من مشايخ دولته ممن خدم جدّهم الشهيد زنكي و من بعده، و حمّله رسالته فيها بعض الخشونة، فمضى الرسول فلحق عماد الدين و قد مرض، فلمّا سمع الرسالة لم يلتفت، و قال: لا- أعيد ملكي، فأشار الرسول من عنده، حيث هو من مشايخ دولتهم، بترك اللجاج، و تسليم ما أخذه، و حذره عاقبة ذلك، فأغلظ عليه عماد الدين القول، و عرض بدم نور الدين و احتقاره، فعاد الرسول و حكى لنور الدين جليّة الحال، فغضب لذلك، و عزم على المسير إلى نصيبين و أخذها من عمه.

فاتفق أن عمه مات، و ملك بعده ابنه، فقوى طمعه، فمنعه مجاهد الدين فلم يمتنع و تجهّز و سار إليها، فلمّا سمع قطب الدين صاحبها سار إليها من سنجار في عسكره، و نزل عليها ليمنع نور الدين عنها، فوصل نور الدين، و تقدّم إلى البلد، و كان بينهما نهر، فجازه بعض أمرائه، و قاتل من يازائه،

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ١٣٤

فلم يثبتوا له، فعبّر جميع العسكر النورى، و تمت الهزيمة على قطب الدين، فصعد هو و نائبة مجاهد الدين یرنقش إلى قلعة نصيبين، و أدرکهم الليل، فخرجوا منها هاربين إلى حرّان، و راسلوا الملك العادل أبا بكر بن أيوب، صاحب حرّان و غيرها، و هو بدمشق، و بذلوا له الأموال الكثيرة لينجدهم و يعيد نصيبين إليهم.

و أقام نور الدين بنصيبين مالكا لها، فتضعض عسكره بكثرة الأمراض، و عودهم إلى الموصل، و موت كثير منهم، و وصل العادل إلى الديار الجزرية، فحينئذ فارق نور الدين نصيبين و عاد إلى الموصل فى شهر رمضان، فلما فارقها تسلمها قطب الدين. و ممّن توفى من أمراء الموصل: عزّ الدين جورديك، و شمس الدين عبد الله بن إبراهيم، و فخر الدين عبد الله بن عيسى المهراتيان، و مجاهد الدين قايماز، و ظهير الدين يولق بن بلنكرى، و جمال الدين محاسن و غيرهم. و لما عاد نور الدين إلى الموصل قصد العادل قلعة ماردين فحصرها، و ضيق على أهلها، على ما ذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر ملك الغورية مدينة بلخ من الخطا الكفرة

فى هذه السنة ملك بهاء الدين سام بن محمّد بن مسعود، و هو ابن أخت غياث الدين [و شهاب الدين] صاحبى غزنه و غيرها، و له باميان، مدينة بلخ، و كان صاحبها تركيا اسمه أزيه، و كان يحمل الخارج كلّ سنة إلى الخطا، بما وراء النهر، فتوفى هذه السنة، فسار بهاء الدين سام إلى المدينة، فملكها، و تمكّن فيها، و قطع الحمل إلى الخطا، و خطب لغيث الدين، و صارت من جملة بلاد الإسلام بعد أن كانت فى طاعة الكافر.

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ١٣٥

ذكر انهزام الخطا من الغورية

و فى هذه السنة عبر الخطا نهر جيحون إلى ناحية خراسان، فعاثوا فى البلاد و أفسدوا، فلقبهم عسكر غياث الدين الغورى و قاتلهم فانهمزم الخطا.

و كان سبب ذلك أنّ خوارزم شاه تكش كان قد سار إلى بلد الرى، و همذان و أصفهان و ما بينهما من البلاد، و ملكها، و تعرّض إلى عساكر الخليفة، و أظهر طلب السلطنة و الخطبة ببغداد، فأرسل الخليفة إلى غياث الدين ملك الغور و غزنه [يأمره] «١» بقصد بلاد خوارزم شاه [ليعود عن قصد العراق، و كان خوارزم شاه] «٢» قد عاد إلى خوارزم، فراسله غياث الدين يقبّح له فعله، و يتهدّده بقصد بلاده و أخذها، فأرسل خوارزم شاه إلى الخطا يشكو إليهم من غياث الدين، و يقول: إن لم تدركوه بإنفاذ العساكر، و إلّا أخذ غياث الدين بلاده، كما أخذ مدينة بلخ، و قصد بعد ذلك بلادهم، و يتعدّر عليهم منعه، و يعجزون عنه، و يضعفون عن ردّه عمّا وراء النهر، فجّهز ملك الخطا جيشا كثيفا، و جعل مقدّمهم المعروف بطاينكوا، و هو كالوزير له، فساروا و عبروا جيحون فى جمادى الآخرة، و كان الزمان شتاء، و كان شهاب الدين الغورى أخو غياث الدين ببلاد الهند، و العساكر معه، و غياث الدين به من النقرس ما يمنعه من الحركة، إنّما يحمل فى محفّة، و الذى يقود الجيش و يباشر الحروب أخوه شهاب الدين، فلما وصل الخطا إلى جيحون سار خوارزم شاه إلى طوس، عازما على قصد هراة و محاصرتها، و عبر الخطا النهر، و وصلوا إلى بلاد الغور مثل: كرزبان و سرقان و غيرهما، و قتلوا و أسروا و نهبوا و سبوا كثيرا لا يحصى، فاستغاث الناس بغياث الدين، فلم يكن عنده من

العساكر ما يلقاتهم بها، فراسل الخطا بهاء الدين سام ملك باميان يأمرونه بالإفراج عن بلخ. أو أنه يحمل ما كان من قبله يحمله من المال، فلم يجبههم إلى ذلك.

وعظمت المصيبة على المسلمين بما فعله الخطا، فانتدب الأمير حميد بن جربك «١» الغوري، وهو مقطع الطالقان من قبل غياث الدين، و كان شجاعا، و كاتب الحسين بن خرمل، و كان بقلعة كرزبان، و اجتمع معهما الأمير حرّوش «٢» الغوري، و ساروا بعساكرهم إلى الخطا، فبيّتهم، و كبسوهم ليلا، و من عادة الخطا أنهم لا يخرجون من خيامهم ليلا، و لا يفارقونها، فأتاهم هؤلاء الغوريّة و قاتلوهم، و أكثروا القتل في الخطا، و انهزم من سلم منهم من القتل، و أين ينهزمون و العسكر الغوريّ خلفهم، و جيحون بين أيديهم؟

و ظنّ الخطا أنّ غياث الدين قد قصدهم في عساكره، فلما أصبحوا، و عرفوا من قاتلهم، و علموا أنّ غياث الدين بمكانه، قويت قلوبهم، و ثبتوا [و اقتتلوا] عاميّة نهارهم فقتل من الفريقين خلق عظيم، و لحقت المتطوعة بالغوريين، و أتاهم مدد من غياث الدين و هم في الحرب، فثبت المسلمون، و عظمت نكايتهم في الكفار.

و حمل الأمير حرّوش «٣» على قلب الخطا، و كان شيخا كبيرا، فأصابه جراحة توفّي منها، ثم إن محمود بن جربك «٤» و ابن خرمل حملا- في أصحابهما، و نادوا: لا يرم أحد بقوس، و لا يطعن برمح، و أخذوا اللتوت، و حملوا على الخطا فهزموهم [١] و ألحقوهم بجيحون، فمن صبر قتل، و من ألقى نفسه في الماء غرق.

و وصل الخبر إلى ملك الخطا فعظم عليه و أرسل إلى خوارزم شاه يقول له:

[١]- فهزمهم.

(١-٤). بن حرنك. B. A. ni. p. s.

(٢-٣). حروس. A.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ١٣٧

أنت قتلت رجالي، و أريد عن كلّ قتيل عشرة آلاف دينار، و كان القتلى اثني عشر ألفا، و أنفذ إليه من ردّه إلى خوارزم، و ألزموه بالحضور عنده، فأرسل حينئذ خوارزم شاه إلى غياث الدين يعرفه حاله مع الخطا، و يشكو إليه و يستعطفه غير مرّة، فأعاد الجواب يأمره بطاعة الخليفة، و إعادة ما أخذه الخطا من بلاد الإسلام، فلم ينفصل بينهما حال.

ذكر ملك خوارزم شاه مدينة بخارى

لما ورد رسول ملك الخطا على خوارزم شاه بما ذكرناه، أعاد الجواب:

إنّ عسكرك إنّما قصد انتزاع بلخ، و لم يأتوا إلى نصرتي، و لا اجتمعت بهم، و لا أمرتهم بالعبور، و إن كنت فعلت ذلك، فأنا مقيم بالمال المطلوب منّي، و لكن حيث عجزتم أنتم عن الغوريّة عدتم على بهذا القول و هذا المطلب، و أمّا أنا فقد أصلحت الغوريّة، و دخلت في طاعتهم، و لا طاعة لكم عندي.

فعاد الرسول بالجواب، فجّهز ملك الخطا جيشا عظيما و سيّره إلى خوارزم فحصرها، فكان خوارزم شاه يخرج إليهم كلّ ليلة، و يقتل منهم خلقا، و أتاه من المتطوعة خلق كثير، فلم يزل هذا فعله بهم حتّى أتى على أكثرهم، فدخل «١» الباكون إلى بلادهم، و رحل خوارزم شاه في آثارهم، و قصد بخارى فنازلها و حصرها، و امتنع أهلها منه، و قاتلوه مع الخطا، حتّى إنهم أخذوا كلبا أعور و ألبسوه «٢» قباء و قلنسوة، و قالوا: هذا خوارزم شاه، لأنّه كان أعور، و طافوا به على السور، ثم ألقيوه في منجنيق [إلى] «٣» العسكر،

(١). فانهزم.B. فرحل.A.

(٢).v. أقورdaeuqsu والبسواA. mo.aedni

(٣). و رموه إلى.A.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ١٣٨

وقالوا: هذا سلطانكم. و كان الخوارزميون يسيرونهم و يقولون: يا أجناد الكفار، أنتم قد ارتددتم عن الإسلام، فلم يزل هذا دأبهم حتى ملك خوارزم شاه البلد، بعد أيام يسيرة، عنوة و عفا عن أهله، و أحسن إليهم، و فرق فيهم مالا- كثيرا، و أقام به مدة ثم عاد إلى خوارزم.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة، في ذى الحجة، توفي أبو طالب يحيى بن سعيد بن زيادة، كاتب الإنشاء بديوان الخليفة، و كان عالما فاضلا، له كتابة حسنة، و كان رجلا عاقلا خيرا، كثير النفع للناس، و له شعر جيد.

و فيها حصر الملك العادل أبو بكر بن أيوب قلعة ماردين في شهر رمضان، و قاتل من بها، و كان صاحبها حسام الدين يولق «١» أرسلان بن إيلغازي بن ألبى ابن تمر تاش بن إيلغازي بن أرتق، كل هؤلاء ملوك ماردين، و قد تقدم من أخبارهم ما يعلم به محلهم، و كان صبيّا و الحاكم في بلده و دولته مملوك أبيه النظام يرشق، و ليس لصاحبه معه حكم البتة في شيء من الأمور، و لما حصر العادل ماردين و دام عليها سلم إليه بعض أهلها الرض بمخامرة بينهم، فنهب العسكر أهله نهبا قبيحا، و فعلوا بهم أفعالا عظيمة لم يسمع بمثلها، فلما تسلم الرض تمكن من حصر القلعة و قطع الميرة عنها، و بقي عليها إلى أن رحل عنها سنة خمس و تسعين [و خمسمائة] على ما ذكره إن شاء الله.

و فيها «٢» توفي الشيخ أبو علي الحسن بن مسلم بن أبي الحسن القادسي «٣»

(١). يولق.A. mo

(٢).v. أقورdaeuqsu والبسواA. mo.edni

(٣). الفارسي و الفارسية.B. qs.vte

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ١٣٩

الزاهد، المقيم ببغداد، و القادسيّة التي ينسب إليها قرية بنهر عيسى من أعمال بغداد، و كان من عباد الله الصالحين العاملين، و دفن بقريته.

و أبو المجد علي بن أبي الحسن علي بن الناصر بن محمد الفقيه الحنفي مدرّس أصحاب أبي حنيفة ببغداد، و كان من أولاد محمد بن الحنفية ابن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، رضي الله عنه.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ١٤٠

٥٩٥ ثم دخلت سنة خمس و تسعين و خمسمائة

ذكر وفاة الملك العزيز و ملك أخيه الأفضل ديار مصر

في هذه السنة، في العشرين من المحرم، توفي الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف بن أيوب، صاحب ديار مصر، و كان سبب موته أنه خرج إلى الصيد، فوصل إلى الفيوم متصيداً. فرأى ذئباً، فركض «١» فرسه في طلبه، فعثر الفرس فسقط عنه في الأرض و لحقته حمى، فعاد إلى القاهرة مريضاً، فبقي كذلك إلى أن توفي، فلما مات كان الغالب على أمره مملوك والده فخر الدين جهاركس «٢»، و هو الحاكم في بلده، فأحضر إنساناً كان عندهم من أصحاب الملك العادل أبي بكر بن أيوب، و أراه العزيز ميتاً، و سيّره إلى العادل و هو يحاصر ماردین، كما ذكرناه، و يستدعيه ليملكه البلاد، فسار القاصد مجداً، فلما كان بالشام رأى بعض أصحاب الأفضّل عليّ بن صلاح الدين، فقال له: قل لصاحبك إنّ أخاه العزيز توفي، و ليس في البلاد من يمنعها، فليسر إليها فليس دونها مانع.

و كان الأفضّل محبوباً إلى الناس يريدونه، فلم يلتفت الأفضّل إلى هذا القول، و إذا قد وصله رسل الأمراء من مصر يدعونه «٣» إليهم ليملكوه، و كان السبب في ذلك أنّ الأمير سيف الدين يازكج «٤» مقدّم الأسديّة، و الفرقة الأسديّة

(١). فركض خلفه فعثر. B.

(٢). أنار حر كس. B. إياس جر كس. A.

(٣). يستدعونه. B.

(٤). إيازكش. B.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ١٤١

و الأمراء الأكراد يريدونه و يميلون إليه، و كان المماليك الناصريّة الذين هم ملك أبيه يكرهونه، فاجتمع سيف الدين، مقدّم الأسديّة، و فخر الدين جهاركس، مقدّم الناصريّة، ليتفقوا على من يولّونه الملك، فقال «١» فخر الدين: نولّي ابن الملك العزيز، فقال سيف الدين: إنّّه طفل، و هذه البلاد ثغر الإسلام، و لا بدّ من قيم بالملك يجمع العساكر، و يقاتل «٢» بها، و الرأى أنّنا نجعل الملك في هذا الطفل الصغير، و نجعل معه بعض أولاد صلاح الدين يدبّره إلى أن يكبر، فإنّ العساكر لا تطيع غيرهم، و لا تنقاد لأمر، فاتّفقا على هذا، فقال جهاركس: فمن يتولّى هذا؟ فأشار يازكج بغير الأفضّل ممّن بينه و بين جهاركس منازعةً لئلاّ يتّهم و ينفر جهاركس عنه، فامتنع من ولايته، فلم يزل يذكر من أولاد صلاح الدين واحداً بعد آخر إلى أن ذكر آخرهم الأفضّل، فقال جهاركس: هو بعيد عنّا، و كان بصرخد مقيماً فيها من حين أخذت منه دمشق، فقال يازكج: نرسل إليه من يطلبه مجداً، فأخذ جهاركس يغالطه، فقال يازكج: نمضى إلى القاضي الفاضل و نأخذ رأيه، فاتّفقا على ذلك، و أرسل «٣» يازكج يعرفه ذلك، و يشير بتمليك الأفضّل، فلما اجتمعا عنده، و عزّاه صورة الحال، أشار بالأفضّل، فأرسل يازكج في الحال القصاد وراءه، فسار عن صرخد لليلتين بقيتا من صفر، متنكراً في تسعة عشر نفساً، لأنّ البلاد كانت للعادل، و يضبط نوابه الطرق، لئلاّ يجوز إلى مصر ليجيء العادل و يملكها.

فلما قارب الأفضّل القدس، و قد عدل عن الطريق المؤدّي إليه، لقيه فارسان قد أرسلوا إليه من القدس، فأخبراه أنّ من بالقدس قد صار في طاعته، و جدّ في السير، فوصل إلى بليس خامس ربيع الأوّل، و لقيه إخوته،

(١). v. qd بالملك daeuqsu فقال A. aedni. mo

(٢). و نقاتل. A.

(٣). و أرسل ... إلى الفاضل. A.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ١٤٢

و جماعة الأمراء المصريّة، و جميع الأعيان، فاتّفق أنّ أخاه الملك المؤيّد مسعوداً صنع له طعاماً، و صنع له فخر الدين مملوك أبيه طعاماً، فابتدأ بطعام أخيه ليمين خلفها أخوه أنّه يبدأ به، فظنّ جهاركس أنّه فعل هذا انحرافاً عنه و سوء اعتقاد فيه، فتغيّرت نيّته، و عزم

على الهرب، فحضر عند الأفضل وقال: إن طائفة من العرب قد اقتتلوا، ولئن لم تمض إليهم تصلح بينهم يؤد ذلك إلى فساد «١»، فأذن له الأفضل في المضي إليهم، ففارقته، و سار مجداً حتى وصل إلى البيت المقدس، و دخله، و تغلب عليه، و لحقه جماعة من الناصرية منهم قراجه الزره كش «٢»، و سراسنقر، و أحضروا عندهم ميمونا القصرى صاحب نابلس، و هو أيضا من المماليك الناصرية، فقويت شوكتهم به، و اجتمعت كلمتهم على خلاف الأفضل، و أرسلوا إلى الملك العادل و هو على ماردين يطلبونه إليهم ليدخلوا معه إلى مصر ليملكوها، فلم يسر إليهم لأنه كانت أطماعه قد قويت في أخذ ماردين، و قد عجز من بها عن حفظها، فظن أنه يأخذها، و الذى يريدونه منه لا يفوته.

و أما الأفضل فإنه دخل إلى القاهرة سابع ربيع الأول، و سمع بهرب جهاركس، فأهمه ذلك، و ترددت الرسل بينه «٣» و بينهم ليعودوا إليه، فلم يزدادوا إلّا بعدا، و لحق بهم جماعة من الناصرية أيضا، فاستوحش الأفضل من الباقين، فقبض عليهم، و هم شقيرة «٤» و أيبك «٥» فطيس، و البكى الفارس، و كل هؤلاء بطل مشهور و مقدّم مذکور، سوى من ليس مثلهم فى التقدّم و علو القدر، و أقام الأفضل بالقاهرة و أصلح الأمور، و قرّر القواعد، و المرجع فى جميع الأمور إلى سيف الدين يازكج.

(١). بينهم أدى إلى الفساد. A.

(٢). الركمرش: P. C. ٠٤٧٦٤. spU.

(٣). إليه كل منهم فلم B. بينه و بين الأمراء. A.

(٤). سنقر: P. C. شقير:

(٥). و أيبك: spU. titeper

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ١٤٣

ذكر حصر الأفضل مدينة دمشق و عوده عنها

لما ملك الأفضل مصر، و استقر بها، و معه ابن أخيه الملك العزيز، اسم الملك له لصغره، و اجتمعت الكلمة على الأفضل بها، وصل إليه رسول أخيه الملك الظاهر غازى، صاحب حلب، و رسل ابن عمه أسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه، صاحب حمص، يحثانه على الخروج إلى دمشق، و اغتنام الفرصة بغية العادل عنها، و بذلا له المساعدة بالمال و النفس و الرجال، فبرز من مصر، منتصف جمادى الأولى من السنة، على عزم المسير إلى دمشق، و أقام بظاهر القاهرة إلى ثالث رجب، و رحل فيه و تعوّق فى مسيره، و لو بادر و عجل المسير لملك دمشق، لكنّه تأخر، فوصل إلى دمشق ثالث عشر شعبان، فنزل عند جسر الخشب على فرسخ و نصف من دمشق، و كان العادل قد أرسل إليه نوابه بدمشق يعزّفونه قصد الأفضل لهم، ففارق ماردين و خلف ولده الملك الكامل محمداً فى جميع العساكر على حصارها، و سار جريده فجداً فى السير، فسبق الأفضل، فدخل دمشق قبل الأفضل بيومين.

و أما الأفضل فإنه تقدّم إلى دمشق من الغد، و هو رابع عشر شعبان، و دخل ذلك اليوم بعينه طائفة يسيرة من عسكره إلى عسقلان إلى دمشق من باب السلامة، و سبب دخولهم أن قوماً من أجناده، ممّن بيوتهم مجاورة الباب، اجتمعوا بالأمير مجد الدين أخى الفقيه عيسى الهكاري، و تحدّثوا معه فى أن يقصد هو و العسكر باب السلامة ليفتحوه لهم، فأراد مجد الدين أن يختصّ بفتح الباب وحده «١»، فلم يعلم الأفضل، و لا أخذ معه أحداً من الأمراء، بل سار وحده بمفرده، و معه نحو خمسين فارساً من أصحابه، ففتح له الباب، فدخله

(١). يختص بالفتح وحده. B.

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ١٤٤

هو و من معه، فلما رأهم عامية البلد نادوا بشعار الأفضل و استسلم من به من الجند، و نزلوا عن الأسوار، و بلغ الخبر إلى الملك العادل، فكاد يستسلم، و تماسك.

و أميا الذين دخلوا البلد فأتهم وصلوا إلى باب البريد، فلما رأى عسكر العادل بدمشق قلته عددهم، و انقطاع مددهم، وثبوا بهم و أخرجوهم منه، و كان الأفضل قد نصب خيمه بالميدان الأخضر، و قارب عسكره الباب الحديد، و هو من أبواب القلعة، فقدّر الله تعالى أن أشير على الأفضل بالانتقال إلى ميدان الحصى، ففعل ذلك، فقويت نفوس من فيه، و ضعفت نفوس العسكر المصرى، ثم إن الأمراء الأكراد منهم تحالفوا فصاروا يدا واحدة يغضبون لغضب أحدهم، و يرضون لرضى أحدهم، فظن الأفضل و باقى الأسديّة أنّهم فعلوا بقاعدته بينهم و بين الدمشقيين، فرحلوا من موضعهم، و تأخروا فى العشرين من شعبان، و وصل أسد الدين شيركوه صاحب حمص إلى الأفضل الخامس و العشرين من شعبان، و وصل بعده الملك الظاهر، صاحب حلب، ثانى عشر شهر رمضان، و أرادوا الزحف إلى دمشق، فمنعهم الملك الظاهر مكرًا بأخيه و حسدا له، و لم يشعر أخوه الأفضل بذلك.

و أما الملك العادل فإنه لما رأى كثرة العساكر و تتابع الأمداد إلى الأفضل عظم عليه، فأرسل إلى المماليك الناصرية بالبيت المقدس يستدعيهم إليه، فساروا سلخ شعبان، فوصل خبرهم إلى الأفضل، فسير أسد الدين، صاحب حمص، و معه جماعة من الأمراء إلى طريقهم ليمنعوهم، فسلكوا غير طريقهم، فجاء أولئك و دخلوا دمشق خامس رمضان، فقوى العادل بهم قوة عظيمة، و أيس الأفضل و من معه من دمشق، و خرج عسكر دمشق فى شوال، فكبسوا العسكر المصرى، فوجدوهم قد حذروهم، فعادوا عنهم خاسرين.

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ١٤٥

و أقام العسكر على دمشق ما بين قوة و ضعف، و انتصار و تخاذل، حتى أرسل الملك العادل خلف ولده الملك الكامل محمّد، و كان قد رحل عن ماردين، على ما نذكره إن شاء الله تعالى، و هو بحران، فاستدعاه إليه بعسكره، فسار على طريق البر، فدخل إلى دمشق ثانى عشر صفر سنة ست و تسعين و خمسمائة، فعند ذلك رحل العسكر عن دمشق إلى ذيل جبل الكسوة سابع عشر صفر، و استقرّ أن يقيموا بحوران حتى يخرج الشتاء، فرحلوا إلى رأس الماء، و هو موضع شديد البرد، فتغيّر العزم عن المقام، و اتفقوا على أن يعود كلّ منهم إلى بلده، فعاد الظاهر، صاحب حلب، و أسد الدين، صاحب حمص، إلى بلادهما، و عاد الأفضل إلى مصر، فكان ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر وفاة يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن و ولاية ابنه محمّد

فى هذه [السنة]، ثامن عشر ربيع الآخر، و قيل جمادى الأولى، توفى أبو يوسف يعقوب بن أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن، صاحب المغرب و الأندلس، بمدينة سلا، و كان قد سار إليها من مراكش، و كان قد بنى مدينة محاذية لسلا، و سمّاها المهدية، من أحسن البلاد و أنزهها، فسار إليها يشاهدها، فتوفى بها، و كانت ولايته خمس عشرة سنة، و كان ذا جهاد للعدو، و دين، و حسن «١» سيرة، و كان يتظاهر بمذهب الظاهرية، و أعرض عن مذهب مالك، فعظم أمر الظاهرية فى أيامه، و كان بالمغرب منهم خلق كثير يقال لهم الجرمية «٢» منسوبون إلى ابن محمّد بن جرم، رئيس الظاهرية «٣»، إلّا أنّهم مغمورون [١]

[١] - مغمورون

(٣). الظاهرية في زمانه. B.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ١٤٦

بالمالكية. ففي أيامه ظهوروا وانتشروا، ثم في آخر أيامه استقضى الشافعية على بعض البلاد و مال إليهم. ولما مات قام ابنه أبو عبد الله محمّد بالملك بعده، و كان أبوه قد ولّاه عهده في حياته، فاستقام الملك له و أطاعه الناس، و جهّز جمعا من العرب و سيّرتهم إلى الأندلس احتياطا من الفرنج.

ذكر عصيان أهل المهدية على يعقوب و طاعتها لولده محمّد

كان أبو يوسف يعقوب، صاحب المغرب، لما عاد من إفريقيه، كما ذكرناه سنه إحدى و ثمانين و خمسمائة، استعمل أبا سعيد عثمان، و أبا عليّ يونس بن عمر اينتى «١»، و هما و أبوهما من أعيان الدولة، فولّى عثمان مدينة تونس، و ولّى أخاه المهدية، و جعل قائد الجيش بالمهدية محمّد بن عبد الكريم، و هو شجاع مشهور، فعظمت نكايته في العرب، فلم يبق منهم إلّا من يخافه. فاتفق أنّه أتاه الخبر بأنّ طائفة من عوف نازلون [١] بمكان، فخرج إليهم، و عدل عنهم حتّى جازهم، ثمّ أقبل عائدا يطلبهم، و أتاهم الخبر بخروجه إليهم، فهربوا من بين يديه، فلقوه أمامهم، فهربوا و تركوا المال و العيال من غير قتال، فأخذ الجميع و رجع إلى المهدية و سلّم العيال إلى الوالى، و أخذ من الأسلاب و الغنيمة ما شاء، و سلّم الباقي إلى الوالى و إلى الجند. ثمّ إنّ العرب من بنى عوف قصدوا أبا سعيد بن عمر اينتى «٢»، فوحدوا

[١]- نازلين.

(١-٢). A. tenupenis. عمر هنتى. B.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ١٤٧

و صاروا من حزب الموحّدين، و استجاروا به في ردّ عيالهم و أموالهم، فأحضر محمّد بن عبد الكريم، و أمره بإعادة ما أخذ لهم من النعم، فقال: أخذه الجند، و لا أقدر على ردّه، فأغلظ له في القول، و أراد أن يبطش به، فاستمهلته إلى أن يرجع إلى المهدية و يستردّ من الجند ما يجده عندهم، و ما عدم منه غرم العوض عنه من ماله، فأمهله، فعاد إلى المهدية و هو خائف، فلما وصلها جمع أصحابه و أعلمهم ما كان من أبي سعيد، و حالفهم على موافقته، فحلفوا له، فقبض على أبي عليّ يونس، و تغلّب على المهدية و ملكها، فأرسل إليه أبو سعيد في معنى إطلاق أخيه يونس، فأطلقه على اثني عشر ألف دينار، فلما أرسلها إليه أبو سعيد فرّقها في الجند و أطلق يونس، و جمع أبو سعيد العساكر، و أراد قصده و محاصرته، فأرسل محمّد بن عبد الكريم إلى عليّ بن إسحاق المثلّم فحالفه و اعتضد به، فامتنع أبو سعيد من قصده.

و مات يعقوب، و ولى ابنه محمّد، فسير عسكرا مع عمّه في البحر، و عسكرا آخر في البرّ مع ابن عمّه الحسن بن أبي حفص بن عبد المؤمن، فلما وصل عسكر البحر إلى بجاية، و عسكر البرّ إلى قسنطينة الهوى، هرب المثلّم و من معه من العرب من بلاد إفريقية إلى الصحراء، و وصل الأسطول إلى المهدية، فشكا محمّد بن عبد الكريم ما لقي من أبي سعيد، و قال «١»: أنا على طاعة أمير المؤمنين محمّد، و لا أسلمها إلى أبي سعيد، و إنّما أسلمها إلى من يصل من أمير المؤمنين، فأرسل محمّد من يتسلّمها منه، و عاد إلى الطاعة.

(١). v. dsdaeuqsu و قال A. aedni. mo

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ١٤٨

ذكر رحيل عسكر الملك العادل عن ماردین

في هذه السنة زال الحصار عن ماردین، و رحل عسكر الملك العادل عنها مع ولده الملك الكامل، و سبب ذلك أن الملك العادل لمّا حصر ماردین عظم ذلك على نور الدين، صاحب الموصل، و غيره من ملوك ديار بكر و الجزيرة، و خافوا إن ملكها أن لا يبقى عليهم، إلّا أن العجز عن منعه [حملهم] «١» على طاعته، فلمّا توفّي العزيز، صاحب مصر، و ملك الأفضل مصر، كما ذكرناه، و بينه و بين العادل اختلاف، أرسل أحد عسكر مصر من عنده، و أرسل إلى نور الدين، صاحب الموصل، و غيره من الملوك يدعوهم إلى موافقته، فأجابوه إلى ذلك، فلمّا رحل الملك العادل عن ماردین إلى دمشق، كما ذكرناه، برز نور الدين أرسلان شاه بن مسعود بن مودود، صاحب الموصل، عنها ثانی شعبان، و سار إلى دنيسر فنزل عليها، و وافقه ابن عمّه قطب الدين محمّد ابن زنكي بن مودود، صاحب سنجار، و ابن عمّه الآخر معزّ الدين سنجر شاه بن غازي بن مودود، صاحب جزيرة ابن عمر، فاجتمعوا كلّهم بدنيسر إلى أن عتدوا عيد الفطر، ثمّ ساروا عنها سادس شوال و نزلوا بحرزم «٢»، و تقدّم العسكر إلى تحت الجبل ليرتادوا موضعا للنزول. و كان أهل ماردین قد عدت الأقوات عندهم، و كثرت الأرض فيهم، حتّى إن كثيرا منهم كان لا يطيق القيام، فلمّا رأى النظام، و هو الحاكم في دولة صاحبها، ذلك أرسل إلى ابن العادل في تسليم القلعة إليه إلى أجل معلوم ذكره على شرط أن يتركهم يدخل إليهم من الميرة ما يقوتهم، حسب، فأجابهم إلى ذلك، و تحالفوا عليه، و رفعوا أعلامهم إلى رأس القلعة، و جعل ولد العادل

(١). P.C.

(٢). بحررم: spU. محررم: P.C. ٧٤٠

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ١٤٩

بباب القلعة أميرا لا- يترك يدخلها من الأطمعة إلّا ما يكفيهم يوما بيوم، فأعطى من بالقلعة ذلك الأمير شيئا، فمكّنهم من إدخال الذخائر الكثيرة.

فبينما هم كذلك إذ أتاهم خبر وصول نور الدين، صاحب الموصل، فقويت نفوسهم، و عزموا على الامتناع، فلمّا تقدّم عسكره إلى ذيل جبل ماردین، قدّر الله تعالى أن الملك الكامل بن العادل نزل بعسكر من ربض ماردین إلى لقاء نور الدين و قتاله، و لو أقاموا بالربض لم يمكن نور الدين و لا- غيره الصعود إليهم، و لا إزالتهم، لكن نزلوا ليقضى الله أمرا كان مفعولا، فلمّا أصحروا من الجبل اقتتلوا، و كان من عجيب الاتفاق أن قطب الدين، صاحب سنجار، قد واعد العسكر العادليّ أن ينهزم إذا التقوا، و لم يعلم بذلك أحدا من العسكر، فقدّر الله تعالى أنه لما نزل العسكر العادليّ و اصطفت العساكر للقتال ألجأت [١] قطب الدين الضرورة بالرحمة إلى أن وقف في سفح شعب جبل ماردین ليس إليه طريق للعسكر العادليّ، و لا يرى الحرب الواقعة بينهم و بين نور الدين، ففاته ما أراده من الانهزام، فلمّا التقى العسكران و اقتتلوا، حمل ذلك اليوم نور الدين بنفسه، و اصطلى الحرب، [فألقي] الناس أنفسهم بين يديه، فانهزم العسكر العادليّ، و صعدوا في الجبل إلى الربض، و أسر منهم كثير، فحملوا إلى بين يدي نور الدين، فأحسن إليهم، و وعدهم الإطلاق إذا انفصلوا، و لم يظنّ أن الملك الكامل و من معه يرحلون عن ماردین سريعا، فجاءهم أمر لم يكن في الحساب، فإنّ الملك الكامل لمّا صعد إلى الربض رأى أهل القلعة قد نزلوا إلى الذين جعلهم بالربض من العسكر، فقاتلوهم و نالوا منهم و نهبوا، فألقى الله الرعب في قلوب الجميع، فأعملوا رأيهم على مفارقة الربض ليلا، فرحلوا ليلة الاثنين سابع شوال، و تركوا كثيرا من أثقالهم و رحالهم و ما أعدّوه، فأخذهم أهل القلعة، و لو ثبت العسكر العادليّ

[١] ألجأت.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ١٥٠

مكانه لم يمكن أحدا [١] أن يقرب منهم.

ولمّا رحلوا نزل صاحب ماردین حسام الدين يولق بن «١» إيلغازی إلى نور الدين، ثم عاد إلى حصنه، و عاد أتابك إلى دنيسر، و رحل عنها إلى رأس عين على عزم قصد حرّان و حصرها، فأتاه رسول من الملك الظاهر يطلب الخطبة و السكّة و غير ذلك، فتغيّرت نيّة نور الدين، و فتر عزمه عن نصرتهم، فعزم على العود إلى الموصل، فهو يقدّم إلى العرض رجلا- و يؤخّر أخرى إذ أصابه مرض، فتحقّق عزم العود إلى الموصل، فعاد إليها، و أرسل رسولا- إلى الملك الأفضل و الملك الظاهر يعتذر عن عوده بمرضه، فوصل الرسول ثاني ذی الحجّة إليهم و هم على دمشق.

و كان عود نور الدين من سعادة الملك العادل، فإنّه كان هو و كلّ من عنده ينتظرون ما يجيء من أخباره، فإنّ من بحرّان استسلموا فقدّر الله تعالى أنّه عاد، فلمّا عاد جاء الملك الكامل إلى حرّان، و كان قد سار عن [٢] ماردین إلى ميفارقين، فلمّا رجع نور الدين سار الكامل إلى حرّان، و سار إلى أبيه بدمشق على ما ذكرناه، فازداد به قوّة، و الأفضل و من معه ضعفا.

[١]- أحد.

[٢]- على.

(١). بولو أرسلان بن A.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ١٥١

ذكر الفتنة بفيروزكوه من خراسان

في هذه السنة كانت فتنة عظيمة بعسكر غياث الدين، ملك الغور و غزنه، و هو بفيروزكوه، عمّت الرعيّة و الملوك و الأمراء، و سببها أنّ الفخر محمّد ابن عمر بن الحسين الرازيّ، الإمام المشهور، الفقيه الشافعيّ، كان قدم إلى غياث الدين مفارقا لبهاء الدين سام، صاحب باميان، و هو ابن أخت غياث الدين، فأكرمه غياث الدين، و احترامه، و بالغ في إكرامه، و بنى له مدرسة بهراء بالقرب من الجامع، فقصدته الفقهاء من البلاد، فعظم ذلك على الكراميّة، و هم كثيرون بهراء، و أمّا الغوريّة فكلّهم كراميّة، و كرهوه، و كان أشدّ الناس عليه الملك ضياء الدين، و هو ابن عمّ غياث الدين، و زوج ابنته، فاتفق أن حضر الفقهاء من الكراميّة و الحنفيّة و الشافعيّة عند غياث الدين بفيروزكوه للمناظرة، و حضر فخر الدين الرازيّ و القاضي مجد الدين عبد المجيد ابن عمر، المعروف بابن القدوة، و هو من الكراميّة الهيصميّة، و له عندهم محلّ كبير لزهده و علمه و بيته، فتكلّم الرازيّ، فاعترض عليه ابن القدوة، و طال الكلام، فقام غياث الدين فاستطال عليه الفخر، و سبّه و شتمه، و بالغ في أذاه، و ابن القدوة لا يزيد على أن يقول لا يفعل مولانا إلّا «١» و أخذك الله، أسْتَغْفِرُ الله، فانفصلوا على هذا.

و قام ضياء الدين في هذه الحادثة و شكّا إلى غياث الدين، و ذمّ الفخر، و نسبّه إلى الزندقة و مذهب الفلاسفة، فلم يصغ غياث الدين إليه. فلمّا كان الغد وعظ ابن عمّ المجد بن القدوة بالجامع، فلمّا صعد المنبر قال، بعد أن حمد الله و صلّى الله على النبي، صلّى الله عليه و سلّم: لا إله إلّا الله، ربّنا آمنا

(١) مولانا لا يزيده A.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ١٥٢

بِمَا أَنْزَلْتُ، وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ، فَكَتَبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ، أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّا لَا نَقُولُ إِلَّا مَا صَحَّ عِنْدَنَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَمَّا عِلْمُ أَرَسْطَاطَالِسَ، وَكَفَرِيَّاتِ ابْنِ سِينَا، وَفَلَسَفَةُ الْفَارَابِيِّ، فَلَا نَعْلَمُهَا، فَلَأَيَّ حَالٍ يَشْتَمُ بِالْأَمْسِ شَيْخٌ مِنْ شِيُوخِ الْإِسْلَامِ يَذُبُّ [١] عَنْ دِينِ اللَّهِ، وَعَنْ سُنَّةِ نَبِيِّهِ! وَبَكِي وَضَجَّ النَّاسُ، وَبَكَى الْكِرَامِيَّةُ وَاسْتَغَاثُوا، وَأَعَانَهُمْ مِنْ يَوْثَرٍ بَعْدَ الْفَخْرِ الرَّازِيِّ عَنِ السُّلْطَانِ، وَثَارَ النَّاسُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَامْتَلَأَ الْبَلَدُ فِتْنَةً، وَكَادُوا يَقْتَتِلُونَ، وَيَجْرِي مَا يَهْلِكُ فِيهِ خَلْقٌ كَثِيرٌ، فَبَلَغَ ذَلِكَ السُّلْطَانُ، فَأَرْسَلَ جَمَاعَةً مِنْ عِنْدِهِ إِلَى النَّاسِ وَسَكَنَهُمْ، وَوَعَدَهُمْ بِإِخْرَاجِ الْفَخْرِ مِنْ عِنْدِهِمْ، وَتَقَدَّمَ إِلَيْهِ بِالْعُودِ إِلَى هَرَاءَ، فَعَادَ إِلَيْهَا.

ذكر مسير خوارزم شاه إلى الرّي

فِي هَذِهِ السَّنَةِ، فِي رَبِيعِ الْأَوَّلِ، سَارَ خَوَارِزْمُ شَاهِ عِلَاءِ الدِّينِ تَكشَ إِلَى الرِّيّ وَغَيْرِهَا مِنْ بِلَادِ الْجِبَلِ، لِأَنَّهُ بَلَغَهُ أَنَّ نَائِبَهُ بِهَا مِيَاجِقَ قَدْ تَغَيَّرَ عَنْ طَاعَتِهِ، فَسَارَ إِلَيْهِ، فَخَافَهُ مِيَاجِقُ، فَجَعَلَ يَفِرُّ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ، وَخَوَارِزْمُ شَاهٍ فِي طَلَبِهِ يَدْعُوهُ إِلَى الْحُضُورِ عِنْدِهِ، وَهُوَ يَمْتَنِعُ، فَاسْتَأْمَنَ أَكْثَرَ أَصْحَابِهِ إِلَى خَوَارِزْمُ شَاهٍ، وَهَرَبَ هُوَ، فَحَصَلَ بِقَلْعَةٍ مِنْ أَعْمَالِ «١» مَازَنْدَرَانَ فَاِمْتَنَعَ بِهَا، فَسَارَتِ الْعَسَاكِرُ فِي طَلَبِهِ فَأَخَذَ مِنْهَا وَاحِضٌ بَيْنَ يَدَيِ خَوَارِزْمُ شَاهٍ فَأَمَرَ بِحَبْسِهِ بِشَفَاعَةِ أَخِيهِ أَقْبَجَةَ. وَسَيَّرَ الْخَلْعَ مِنَ الْخَلِيفَةِ لَخَوَارِزْمُ شَاهٍ وَوَلَدِهِ قُطْبِ الدِّينِ مُحَمَّدٍ «٢»،

[١]- وَ يَذُبُّ.

(١). من قلاع. A.

(٢) و سيرت ... محمد. A. mo

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ١٥٣

و تَقْلِيدُ بِمَا بِيَدِهِ مِنَ الْبِلَادِ، فَلَبَسَ الْخَلْعَةَ، وَاشْتَغَلَ بِقِتَالِ الْمَلَا حِدَةٍ، فَافْتَتَحَ قَلْعَةً عَلَى بَابِ قَرْوِينَ تَسْمَى أَرْسَلَانَ كِشَاهَ «١»، وَانْتَقَلَ إِلَى حِصَارِ أَلْمُوتِ، فَقَتَلَ عَلَيْهَا صَدْرُ الدِّينِ مُحَمَّدُ بْنُ الْوَزَانِ رَئِيسَ الشَّافِعِيَّةِ بِالرِّيّ، وَكَانَ قَدْ تَقَدَّمَ عِنْدَهُ تَقْدَمًا عَظِيمًا، قَتَلَهُ الْمَلَا حِدَةُ، وَعَادَ خَوَارِزْمُ شَاهٍ إِلَى خَوَارِزْمٍ، فَوَثَبَ الْمَلَا حِدَةُ عَلَى وَزِيرِهِ نِظَامِ الْمَلِكِ مَسْعُودِ بْنِ عَلِيٍّ فَقَتَلُوهُ فِي جَمَادَى الْآخِرَةِ سَنَةِ سِتٍّ وَتَسْعِينَ [و خَمْسِمِائَةٍ]، فَأَمَرَ تَكشَ وَلَدَهُ قُطْبِ الدِّينِ بِقَصْدِ الْمَلَا حِدَةٍ، فَقَصَدَ قَلْعَةَ تَرْشِيشَ «٢» وَهُوَ مِنْ قَلَاعِهِمْ، فَحَصَرَهَا فَأَذْعَنُوا لَهُ بِالطَّاعَةِ، وَصَالِحُوهُ عَلَى مِائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ، فَفَارَقَهَا، وَإِنَّمَا صَالِحُهُمْ لِأَنَّهُ بَلَغَهُ خَبَرُ مَرَضِ أَبِيهِ، وَكَانُوا يَرِاسِلُونَهُ بِالْصَّلَاحِ فَلَا يَفْعَلُ، فَلَمَّا سَمِعَ بِمَرَضِ أَبِيهِ لَمْ يَرْحَلْ حَتَّى صَالِحُهُمْ عَلَى الْمَالِ الْمَذْكُورِ وَ الطَّاعَةِ وَ رَحْلٍ.

ذكر عدّة حوادث

فِي هَذِهِ السَّنَةِ، فِي رَبِيعِ الْأَوَّلِ، تَوَفَّى مُجَاهِدُ الدِّينِ قَايِمَازَ، رَحِمَهُ اللَّهُ، بِقَلْعَةِ الْمَوْصِلِ، وَهُوَ الْحَاكِمُ فِي دَوْلَةِ نُورِ الدِّينِ، وَالْمَرْجُوعُ إِلَيْهِ فِيهَا، وَكَانَ ابْتِدَاءَ وَلَايَتِهِ قَلْعَةَ الْمَوْصِلِ فِي ذِي الْحِجَّةِ سَنَةِ إِحْدَى وَ سَبْعِينَ وَ خَمْسِمِائَةٍ، وَوَلَّى إِرْبِلَ سَنَةَ تِسْعٍ [و خَمْسِينَ] وَ خَمْسِمِائَةٍ، فَلَمَّا مَاتَ زَيْنُ الدِّينِ عَلِيُّ كُوجَكِ سَنَةَ ثَلَاثٍ وَ سِتِّينَ [و خَمْسِمِائَةٍ] بَقِيَ هُوَ الْحَاكِمُ فِيهَا، وَمَعَهُ مِنْ يَخْتَارِهِ مِنْ أَوْلَادِ زَيْنِ الدِّينِ لَيْسَ لِوَاحِدٍ مِنْهُمْ مَعَهُ حُكْمٌ.

وَكَانَ عَاقِلًا، دَيِّنًا، خَيْرًا، فَاضِلًا، يَعْرِفُ الْفَقْهَ عَلَى مَذْهَبِ أَبِي حَنِيفَةَ، وَيَحْفَظُ، مِنَ التَّارِيخِ وَ الْأَشْعَارِ وَ الْحِكَايَاتِ، شَيْئًا كَثِيرًا. وَكَانَ كَثِيرٌ

(١). شاه: spU. كساء: P.C.٧٤٠

(٢). برشيش: spU. برشش: P.C.٧٤٠

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ١٥٤

الصوم، يصوم من كل سنة نحو سبعة أشهر، و له أوراد كثيرة حسنة كل ليلة، و يكثر الصدقة، و كان له فرائض حسنة فيمن يستحق الصدقة و يعرف الفقراء المستحقين و يبرهم، و بى عدة جوامع منها الجامع الذي بظاهر الموصل باب الجسر «١»، و بنى الربط و المدارس و الخانات في الطرق، و له من المعروف شيء كثير، رحمه الله، فلقد كان من محاسن الدنيا. و فيها فارق غياث الدين، صاحب غزنه و بعض خراسان، مذهب الكرامية، و صار شافعي المذهب، و كان سبب ذلك أنه كان عنده [١] إنسان يعرف بالفخر مبارك شاه يقول الشعر بالفارسية، متفنا في كثير من العلوم، فأوصل إلى غياث الدين الشيخ وحيد الدين أبا الفتح محمد بن محمود المروزي الفقيه الشافعي، فأوضح له مذهب الشافعي، و بين له فساد مذهب الكرامية، فصار شافعيًا، و بنى المدارس للشافعية، و بنى بغزنه مسجدا لهم أيضا، و أكثر مراعاتهم، فسعى الكرامية في أذى وحيد الدين فلم يقدروهم الله تعالى على ذلك.

و قيل إن غياث الدين و أخاه شهاب الدين لما ملكا في خراسان قيل لهما: إن الناس في جميع البلاد يزرون على الكرامية و يحتقرونهم، و رأى أن تفارقوا مذاهبهم، فصارا شافعيين، و قيل: إن شهاب الدين كان حنفيًا، و الله أعلم. و في هذه السنة توفي أبو القاسم يحيى بن علي بن فضلان الفقيه الشافعي، و كان إماما فاضلا، و درس ببغداد، و كان من أعيان أصحاب [محمد بن يحيى] «٢» نجى «٣» النيسابوري.

[١] عبده.

(١). ببغداد و تخرج عليه جماعة من العلماء. A.abr evsitipacauqiler.mo

(٢).

(٣). نجى. B.mo

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ١٥٥

٥٩٦ ثم دخلت سنة ست و تسعين و خمسمائة

ذكر ملك العادل الديار المصرية

قد ذكرنا سنة خمس و تسعين [و خمسمائة] حصر الأفضل و الظاهر ولدى صلاح الدين دمشق، و رحيلهما إلى رأس الماء، على عزم المقام بحوران إلى أن يخرج الشتاء، فلما أقاموا برأس الماء وجد العسكر بردا شديدا، لأن البرد في ذلك المكان في الصيف موجود، فكيف في الشتاء، فتغير العزم عن المقام، و اتفقوا على أن يعود كل إنسان منهم إلى بلده، و يعودوا إلى الاجتماع، فتفرقوا تاسع ربيع الأول، فعاد الظاهر و صاحب حمص إلى بلادهما، و سار الأفضل إلى مصر، فوصل بلبيس، فأقام بها، و وصلته الأخبار بأن عمه الملك العادل قد سار من دمشق قاصدا مصر و معه المماليك الناصرية، و قد حلفوه على أن يكون ولد الملك العزيز هو صاحب البلاد، و هو المدبر للملك، إلى أن يكبر، فساروا على هذا.

و كان عسكره بمصر قد تفرّق عن الأفضل من الخشبى، فسار كلّ منهم إلى إقطاعه ليربعوا دوابهم، فرام الأفضل جمعهم من أطراف البلاد، فأعجله الأمر عن ذلك، و لم يجتمع منهم إلّا طائفة يسيرة ممّن قرب إقطاعه، و وصل العادل، فأشار بعض الناس على الأفضل أن يخرب سور بليس و يقيم بالقاهرة، و أشار غيرهم بالتقدّم إلى أطراف البلاد، ففعل ذلك، فسار عن بليس، و نزل موضعا يقال له السائح إلى طرف البلاد، و لقاء العادل قبل دخول البلاد سابع ربيع الآخر، فانهزم الأفضل، و دخل القاهرة ليلا.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ١٥٦

و فى تلك الليلة توفى القاضى الفاضل عبد الرحيم بن علىّ اليسانى كاتب الإنشاء لصالح الدين و وزيره، فحضر الأفضل الصلاة عليه، و سار العادل فنزل على القاهرة و حصرها، فجمع الأفضل من عنده من الأمراء و استشارهم، فرأى منهم تخاذلا، فأرسل رسولا إلى عمّه فى الصلح و تسليم البلاد إليه، و أخذ العوض عنها، و طلب دمشق، فلم يجبه العادل، فنزل عنها [إلى] حرّان و الرها فلم يجبه، فنزل إلى ميفارقين و حانى و جبل جور، فأجابه إلى ذلك، و تحالفوا عليه، و خرج الأفضل من مصر ليلة السبت ثامن عشر ربيع الآخر، و اجتمع بالعادل، و سار إلى صرخد، و دخل العادل إلى القاهرة يوم السبت ثامن عشر ربيع الآخر.

و لما وصل الأفضل إلى صرخد أرسل من تسلّم ميفارقين و حانى و جبل جور، فامتنع نجم الدين أيوب ابن الملك العادل من تسليم ميفارقين، و سلّم ما عداها، فتردّت الرسل بين الأفضل و العادل فى ذلك، و العادل يزعم أن ابنه عصاه، فأمسك عن المراسلة فى ذلك لعلمه أنّ هذا فعل بأمر العادل.

و لمّا ثبتت قدم العادل بمصر قطع خطبة الملك المنصور ابن الملك العزيز فى شوال من السنة، و خطب لنفسه، و حاقق الجند فى إقطاعاتهم، و اعترضهم فى أصحابهم و من عليهم من العسكر المقرّر، فتغيّرت لذلك ثيابهم، فكان ما ذكره سنه سبع و تسعين [و خمسمائة] إن شاء الله.

ذكر وفاة خوارزم شاه

فى هذه السنة، فى العشرين من رمضان، توفى خوارزم شاه تكش بن ألب أرسلان، صاحب خوارزم و بعض خراسان و الرى و غيرها من البلاد

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ١٥٧

الجباليّة، بشهرستانه بين نيسابور و خوارزم. و كان قد سار من خوارزم إلى خراسان، و كان به خوانيق، فأشار عليه الأطباء بترك الحركة، فامتنع، و سار، فلمّا قارب شهرستانه اشتدّ مرضه و مات، و لما اشتدّ مرضه أرسلوا إلى ابنه قطب الدين محمّد يستدعونه، و يعرفونه شدّة مرض أبيه، فسار إليهم و قد مات أبوه، فولى الملك بعده، و لقب علاء الدين، لقب أبيه، و كان لقبه قطب الدين، و أمر فحمل أبوه و دفن بخوارزم فى تربة عملها فى مدرسة بناها كبيرة عظيمة «١»، و كان عادلا حسن السيرة، له معرفة حسنة و علم، يعرف الفقه على مذهب أبى حنيفة، و يعرف الأصول.

و كان ولده علىّ شاه بأصفهان، فأرسل إليه أخوه خوارزم شاه محمّد يستدعيه، فسار إليه، فنهب أهل أصفهان خزائنه و رحله، فلمّا وصل إلى أخيه ولّاه حرب أهل خراسان، و التقدّم على جندها، و سلّم إليه نيسابور، و كان هندوخان [بن] ملك شاه بن خوارزم شاه تكش يخاف عمّه محمّدا، فهرب منه، و نهب كثيرا من خزائن جدّه تكش لمّا مات، و كان معه، و سار إلى مرو.

و لما سمع غياث الدين ملك غزنه بوفاة خوارزم شاه أمر أن لا تضرب نوبته ثلاثة أيّام، و جلس للجزاء على ما بينهما من العداوة و المحاربة، فعل ذلك عقلا منه و مروءة، ثمّ إنّ هندوخان جمع جمعا كثيرا بخراسان، فسير إليه عمّه خوارزم شاه محمّد جيشا مقدّمهم جقر التركى، فلمّا سمع هندوخان بمسيرهم هرب عن خراسان و سار إلى غياث الدين يستنجد به على عمّه، فأكرم لقاءه و إنزاله، و أقطعه، و وعده النصرة، فأقام عنده، و دخل جقر مدينه مرو، و بها والدّه هندوخان و أولاده، فاستظهر عليهم، و أعلم صاحبه، فأمره

يأرسالهم إلى خوارزم مكرمين، فلما سمع غياث الدين ذلك أرسل إلى محمد بن جربك،

(١) في تربة ... عزيمة. A. mo

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ١٥٨

صاحب الطالقان، يأمره أن يرسل [إلى] جفر يتهدده، ففعل [ذلك] و سار من الطالقان، فأخذ مروالروذ «١»، والخمس قرى و تسمى بالفارسيّة بنجده، و أرسل إلى جفر يأمره بإقامه الخطبة بمرو لغياث الدين، أو يفارق البلد، فأعاد الجواب يتهدد ابن جربك و يتوعده، و كتب إليه سرّا يسأله أن يأخذ له أمانا من غياث الدين ليحضر خدمته، فكتب إلى غياث الدين بذلك، فلما قرأ كتابه علم أن خوارزم شاه ليس له قوة، فلهذا طلب جفر الانحياس إليه، فقوى طمعه في البلاد، و كتب إلى أخيه شهاب الدين يأمره بالخروج إلى خراسان ليتفقا على أخذ بلاد خوارزم شاه محمد.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة، في جمادى الآخرة، وثب الملاحدة الإسماعيليّة على نظام الملك مسعود بن عليّ، وزير خوارزم شاه تكش، فقتلوه، و كان صالحا كثير الخير، حسن السيرة، شافعي المذهب، بنى للشافعيّة بمرو جامعا مشرفا على جامع الحنفيّة، فتعصب شيخ الإسلام [بمرو] و هو مقدّم الحنابلة بها، قديم الرئاسة [١]، و جمع الأوباش [٢]، فأحرقه، فأنفذ خوارزم شاه فأحضر شيخ الإسلام و جماعة ممن سعى في ذلك، فأغرمهم مالا كثيرا.

و بنى الوزير أيضا مدرسة عظيمة بخوارزم و جامعا و جعل فيها خزائن كتب، و له آثار حسنة بخراسان باقية، و لما مات خلف ولدا صغيرا، فاستوزره خوارزم

[١] فيم و الرئاسة.

[٢] الأوباش.

(١). وده: SPUte و دره الرود: tidde

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ١٥٩

شاه رعايه لحقّ أبيه، فأشير عليه أن يستعفى، فأرسل يقول: إنني صبي لا أصلح لهذا المنصب الجليل، فيولى السلطان فيه من يصلح له إلى أن أكبر، فإن كنت أصلح فأنا المملوك، فقال خوارزم شاه: لست أعفيك، و أنا وزيرك، فكن مراجعي [١] في الأمور، فإنّه لا يقف منها شيء. فاستحسن الناس هذا، ثمّ إنّ الصبيّ لم تطل أيامه، فتوفّي قبل خوارزم شاه بيسير.

و في هذه السنة، في ربيع الأوّل، توفّي شيخنا أبو الفرج عبد المنعم بن عبد الوهاب بن كليب الحرّانيّ المقيم ببغداد و له ستّ و تسعون سنة و شهران، و كان عالي الإسناد في الحديث، و كان ثقة صحيح السماع.

و في ربيع الآخر منها توفّي القاضي الفاضل عبد الرحيم البيسانيّ الكاتب المشهور، لم يكن في زمانه أحسن كتابه منه، و دفن بظاهر مصر بالقرافة، و كان «١» دينًا كثير الصدقة و العبادة، و له وقوف كثيرة على الصدقة و فكّ الأسارى، و كان يكثر الحجّ و المجاورة مع اشتغاله بخدمة السلطان، و كان السلطان صلاح الدين يعظّمه و يحترمه و يكرمه، و يرجع إلى قوله، رحمهما الله.

[١] راجعني.

(١) menifinnadaeuqsu و كان aedni .mo

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ١٦٠

٥٩٧ ثم دخلت سنة سبع و تسعين و خمسمائة**ذكر ملك الملك الظاهر صاحب حلب منبج و غيرها من الشام و حصره هو و أخوه الأفضل مدينة دمشق و عودهما عنها**

قد ذكرنا قبل ملك العادل ديار مصر، و قطعه خطبة الملك المنصور ولد الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف بن أيوب، و أنه لما فعل ذلك لم يرضه الأمراء المصريون، و خبت نياتهم في طاعته، فراسلوا أخويه [١]: الظاهر بحلب، و الأفضل بصرخد، و تكررّت المكاتبات و المراسلات بينهم، يدعونهما إلى قصد دمشق و حصرها ليخرج الملك العادل إليهم، فإذا خرج إليهم [من] مصر أسلموه، و صاروا معهما، فيملكان [٢] البلاد.

و كثر ذلك، حتّى فشا الخبر و اتّصل بالملك العادل، و انضاف إلى ذلك أنّ التّيل لم يزد بمصر الزيادة التي تركب الأرض ليزرع الناس، فكثّر الغلاء فضعفت قوّة الجند، و كان فخر الدين جرّكس قد فارق مصر إلى الشام هو و جماعة من المماليك الناصريّة لحصار بانياس ليأخذها لنفسه بأمر العادل، و كانت لأمير كبير تركي اسمه بشاره، قد اتّهمه العادل، فأمر جرّكس بذلك. و كان أمير من أمراء العادل يعرف بأسامة قد حجّ هذه السنة، فلما

[١] إخوته.

[٢] فيملكا.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ١٦١

عاد من الحجّ، و قارب صرخد، نزل الملك الأفضل، فلقيه و أكرمه، و دعاه إلى نفسه، فأجابه و حلف له، و عزّفه الأفضل جليّة الحال، و كان أسامة من بطانته العادل، و إنّما حلف لينكشف له الأمر، فلما فارق الأفضل أرسل إلى العادل، و هو بمصر، يعزّفه الخبر جميعه، فأرسل إلى ولده الذي بدمشق يأمره بحصر الأفضل بصرخد، و كتب إلى إياس «١» جرّكس و ميمون القصريّ، صاحب بليّس، و غيرهما من الناصريّة، يأمرهم بالاجتماع مع ولده على حصر الأفضل.

و سمع الأفضل الخبر، فسار إلى أخيه الظاهر بحلب مستهلّ جمادى الأولى من السنة، و وصل إلى حلب عاشر الشهر، و كان الظاهر قد أرسل أميرا كبيرا من أمرائه إلى عمّه العادل، فمنعه العادل من الوصول إليه، و أمره بأن يكتب رسالته، فلم يفعل و عاد لوقته، فتحرّك الظاهر لذلك و جمع عسكره و قصد منبج فملكها للسّادس و العشرين من رجب، و سار إلى قلعة نجم و حصرها، فتسلّمها سلخ رجب. و أمّا ابن العادل المقيم بدمشق فإنّه سار إلى بصرى، و أرسل إلى جرّكس و من معه، و هم على بانياس يحصرونها، يدعّوهم إليه، فلم يجيبوه إلى ذلك بل غالطه، فلما طال مقامه على بصرى عاد إلى دمشق، و أرسل الأمير أسامة إليهم يدعّوهم إلى مساعدته، فاتّفق أنّه جرى بينه و بين البكي الفارس، بعض المماليك الكبار الناصريّة، منافرة فأغلظ له البكي القول، و تعدّى إلى الفعل باليد، و ثار العسكر جميعه على أسامة، فاستدّمْ بميمون، فأمنّه و أعاده إلى دمشق، و اجتمعوا كلّهم عند الملك الظاهر خضر بن صلاح الدين، و أنزلوه من صرخد، و أرسلوا إلى الملك الظاهر و الأفضل يحثّونهما على الوصول إليهم، و الملك الظاهر يتربّص و يتعوّق، فوصل من منبج إلى حماة في عشرين يوما،

(١). أنار. أناس. B.A.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ١٦٢

و أقام على حماة يحصرها و بها صاحبها ناصر الدين محمد بن تقي الدين إلى تاسع عشر شهر رمضان، فاصطلحا و حمل له ابن تقي الدين ثلاثين ألف ديار صوريّة، و ساروا منها إلى حمص، ثم ساروا منها إلى دمشق على طريق بعلبك، فنزلوا عليها عند مسجد القدم، فلما نزلوا على دمشق أتاهم المماليك الناصريّة مع الملك الظاهر خضر بن صلاح الدين، و كانت القاعدّة استقرّت بين الظاهر و أخيه الأفضل أنهم إذا ملكوا «١» دمشق تكون بيد الأفضل، و يسرون إلى مصر، فإذا ملكوها تسلّم الظاهر دمشق، فيبقى الشام جميعه له، و تبقى مصر للأفضل، و سلّم الأفضل صرخد إلى زين الدين قراجه مملوك والده ليحضر [١] في خدمته، و أنزل والدته و أهله منها و سيّروهم إلى حمص، فأقاموا عند أسد «٢» الدين شيركوه صاحبها «٣».

و كان الملك العادل قد سار من مصر إلى الشام، فنزل [على] مدينة نابلس و سيّر جمعا من العسكر إلى دمشق ليحفظها، فوصلوا قبل وصول الظاهر و الأفضل، و حضر فخر الدين جركس و غيره من الناصريّة عند الظاهر، و زحفوا إلى دمشق و قاتلوا رابع عشر ذى القعدة، و اشتدّ القتال عليها، فالتصق الرجال بالسور، فأدركهم الليل، فعادوا و قد قوى الطمع في أخذها، ثم زحفوا إليها مرّة ثانية و ثالثة، فلم يبق إلّا ملكها، لأنّ العسكر صعد إلى سطح خان ابن المقدّم، و هو ملاصق السور، فلو لم يدركه الليل لملكوا البلد، فلما أدركهم الليل، و هم عازمون على الزحف بكرة، و ليس لهم عن البلد مانع، حسد الظاهر أخاه الأفضل، فأرسل إليه يقول له تكون

[١]- لتحضر.

(١). أنهما إذا ملكا. B.

(٢) عند ناصر. A.

(٣) الدين محمد صاحبها. A.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ١٦٣

دمشق له و بيده و يسير العساكر معه إلى مصر. فقال له الأفضل: قد علمت أنّ والدتي و أهلي، و هم أهلك أيضا، على الأرض، ليس لهم موضع يأوون إليه، فاحسب أنّ هذا البلد لك تعيرناه ليسكنه أهلي هذه المدّة إلى أن يملك مصر. فلم يجبه الظاهر إلى [١] ذلك، و لجّ، فلما رأى الأفضل ذلك الحال قال للناصريّة و كلّ من جاء إليهم من الجند: إن كنتم جئتم إلّي فقد أذنت لكم في العود إلى العادل، و إن كنتم جئتم إلى أخي الظاهر فأنتم و هو أخير، و كان الناس كلّهم يريدون الأفضل، فقالوا: ما نريد سواك، و العادل أحبّ إلينا من أخيك، فأذن لهم في العود، فهرب فخر الدين جركس و زين الدين قراجه الذي أعطاه الأفضل صرخد، فمنهم من دخل دمشق، و منهم من عاد إلى إقطاعه، فلما انفسخ الأمر عليهم عادوا إلى تجديد الصلح مع العادل، فتردّدت الرسل بينهم و استقرّ الصلح على أن يكون الظاهر منبج، و أفامية و كفرطاب، و قرى معيّن «١» من المعرّة، و يكون للأفضل سميّساط، و سروج، و رأس عين، و حمّلين، و رحلوا عن دمشق أوّل المحرم سنة ثمان و تسعين [و خمسمائة]، فقصد الأفضل حمص فأقام بها، و سار الظاهر إلى حلب، و وصل العادل إلى دمشق تاسع المحرم، و سار الأفضل إليه من حمص، فاجتمع به بظاهر دمشق، و عاد من عنده إلى حمص، و سار منها ليتسلّم سميّساط، فتسلّمها، و تسلّم باقي ما استقرّ له: رأس عين و سروج و غيرها [٢].

[١]- في.

[٢] و غيرها

(١). و قرى معروفة. B.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ١٦٤

ذكر ملك غياث الدين وأخيه ما كان لخوارزم شاه بخراسان

قد ذكرنا مسير محمد بن خرميل «١» من الطالقان. و استيلاءه على مروالروذ و سؤال جقر التركي نائب علاء الدين محمد خوارزم شاه بمرور أن يكون في جملة عسكر غياث الدين، و لما وصل كتاب ابن خرميل «٢» إلى غياث الدين في معنى جقر، علم أن هذا إنما دعاه إلى الانتماء إليهم ضعف صاحبه، فأرسل إلى أخيه شهاب الدين يستدعيه إلى خراسان، فسار من غزنة في عساكره و جنوده و عدته و ما يحتاج إليه.

و كان بهراء الأمير عمر بن محمد المرغني «٣» نائبا عن غياث الدين، و كان يكره خروج غياث الدين إلى خراسان، فأحضره غياث الدين و استشاره، فأشار بالكف عن قصدتها، و ترك المسير «٤» إليها، فأنكر عليه ذلك، و أراد إبعاده [١] عنه، ثم تركه، و وصل شهاب الدين في عساكره و عساكر سجستان و غيرها في جمادى الأولى من هذه السنة، فلما وصلوا إلى ميمنة «٥» و هي قرية بين الطالقان و كرزيان، وصل إلى شهاب الدين كتاب جقر مستحفظ مرو، يطلبه ليسلمها إليه، فاستأذن أخاه غياث الدين، فأذن له، فسار إليها، فخرج أهلها مع العسكر الخوارزمي و قاتلوه، فأمر أصحابه بالحملة عليهم و الجدد في قتالهم، فحملوا عليهم، فأدخلوهم البلد، و زحفوا بالقبيلة إلى أن قاربوا السور، فطلب أهل البلد الأمان، فأمنهم و كف الناس عن التعرض إليهم، و خرج جقر إلى شهاب الدين فوعده الجميل.

[١] - إبعاده.

(٢-١). حرميل. A.

(٣). المرغني. B.

(٤). عن قصدتها و المسير. A.

(٥). إلى ميمنة. A.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ١٦٥

ثم حضر غياث الدين إلى مرو بعد فتحها، فأخذ جقر و سيّره إلى هراء مكرما. و سلم مرو إلى هندوخان بن ملك شاه بن خوارزم شاه تكش، و قد ذكرنا هربه من عمه خوارزم شاه محمد بن تكش إلى غياث الدين، و وصاه بالإحسان إلى أهلها.

ثم سار غياث الدين إلى مدينته سرخس، فأخذها صلحا، و سلمها إلى الأمير زنكي بن مسعود، و هو من أولاد عمه، و أقطعه معها نسا و أبيورد، ثم سار بالعساكر إلى طوس، فأراد الأمير الذي بها أن يمتنع فيها و لا يسلمها، فأغلق باب البلد ثلاثة أيام، فبلغ الخبز ثلاثة أمناء [١] بدينار ركني، فضج أهل البلد عليه، فأرسل إلى غياث الدين يطلب الأمان، فأمنه، فخرج إليه، فخلع عليه و سيّره إلى هراء، و لما ملكها أرسل إلى علي شاه بن خوارزم شاه تكش، و هو نائب أخيه علاء الدين محمد بنيسابور، يأمره بمفارقة البلد، و يحذره إن أقام سطوة أخيه شهاب الدين. و كان مع علي شاه عسكر من خوارزم شاه، فاتفقوا على الامتناع من تسليم البلد، و حصّوه، و خرّبوا ما بظاهره من العمارة، و قطعوا الأشجار. و سار غياث الدين إلى نيسابور، فوصل إليها أوائل رجب، و تقدّم عسكر أخيه شهاب الدين إلى القتال، فلما رأى غياث الدين ذلك قال لولده محمود: قد سبقنا عسكر غزنة بفتح مرو، و هم يريدون أن يفتحوا نيسابور، فيحصلون

بالاسم، فاحمل إلى البلد، ولا ترجع حتى تصل إلى السور.

فحمل، و حمل معه وجوه الغوريّة، فلم يردّهم أحد من السور، حتى أصدعوا علم غياث الدين إليه، فلمّا رأى شهاب الدين علم أخيه على السور قال لأصحابه: اقصدوا بنا هذه الناحية، و اصدعوا السور من هاهنا، وأشار إلى مكان فيه، فسقط السور منهدهما، فضجّ الناس بالتكبير، و ذهل الخوارزميون و أهل البلد، و دخل الغوريّة البلد، و ملكوه عنوة، و نهبوه

[١] أمّا.

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ١٦٦

ساعة من نهار، فبلغ الخبر إلى غياث الدين فأمر بالنداء: من نهب مالا أو آذى أحدا فدمه حلال، فأعاد الناس ما نهبوه عن آخره. و لقد حدّثنى بعض أصدقائنا من التجار، و كان بنيسابور فى هذه الحادثة:

نهب من متاعى شىء من جملة سكر، فلمّا سمع العسكر النداء ردّوا جميع ما أخذوا منّى، و بقى لى بساط و شىء من السكر، فرأيت السكر مع جماعة، فطلبتهم منهم، فقالوا: أمّا السكر فأكلناه، فنسألك ألا يسمع أحد، و إن أردت ثمنه أعطيناك، فقلت: أنتم فى حلّ منه، و لم يكن البساط مع أولئك، قال: فمشيت إلى باب البلد مع النظارة، فرأيت البساط «١» الذى لى قد ألقى عند باب البلد لم يجسر أحد على أن يأخذه، فأخذته و قلت: هذا لى، فطلبوا منّى من يشهد به، فأحضرت من شهد لى و أخذته.

ثمّ إنّ الخوارزميين تحصّوا بالجامع، فأخرجهم أهل البلد، فأخذهم الغوريّة و نهبوا ما لهم، و أخذ على شاه بن خوارزم شاه و أحضر عند غياث الدين راجلا، فأنكر ذلك على من أحضره، و عظم الأمر فيه، و حضرت داية كانت لعلّى شاه، و قالت لغياث الدين: أهكذا يفعل بأولاد الملوك؟ فقال:

لا! بل هكذا، و أخذ بيده، و ألقاه معه على السرير، و طيّب نفسه، و سيّر جماعة الأمراء الخوارزميّة إلى هراة تحت الاستظهار، و أحضر غياث الدين ابن عمّه، و صهره على ابنته، ضياء الدين محمد بن أبى على الغورى و ولّاه حرب خراسان و خراجها، و لقّبه علاء الدين، و جعل معه وجوه الغوريّة، و رحل إلى هراة، و سلّم على شاه إلى أخيه شهاب الدين، و أحسن «٢» إلى أهل نيسابور و فرق فيهم مالا كثيرا.

ثمّ رحل بعده شهاب الدين إلى ناحية قهستان، فوصل إلى قرية، فذكر

(١). قال ... البساط. mo A.

(٢). و أحسن. mo A.

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ١٦٧

له أن أهلها إسماعيليّة، فأمر بقتل المقاتلة، و نهب الأموال، و سبى الذرارى، و خرب القرية فجعلها خاوية على عروشها، ثمّ سار إلى كَناباد «١» و هى من المدن التى جميع أهلها إسماعيليّة، فنزل عليها و حصرها، فأرسل صاحب قهستان إلى غياث الدين يشكو أخاه شهاب الدين، و يقول: بيننا عهد، فما الذى بدا منّا حتى تحاصر بلدى؟

و اشتدّ خوف الإسماعيليّة الذين بالمدينة من شهاب الدين، فطلبوا الأمان ليخرجوا منها، فأمنهم، و أخرجهم و ملك المدينة و سلّمها إلى بعض الغوريّة، فأقام بها الصلاة، و شعار الإسلام، و رحل شهاب الدين فنزل على حصن آخر للإسماعيليّة، فوصل إليه رسول أخيه غياث الدين، فقال الرسول: معى تقدّم من السلطان، فلا يجرى حرد إن فعلته؟ فقال: لا. فقال: إنّه يقول لك ما لك و لرعتى، أرحل، قال: لا أرحل! قال: إذن أفعل ما أمرنى. قال: افعل، فسلّ سيفه و قطع أطناب سراق شهاب الدين، و قال:

أرحل بتقدّم السلطان، فرحل شهاب الدين و العسكر و هو كاره، و سار إلى بلد الهند، و لم يقيم بغزنة غضبا لما فعله أخوه معه.

ذكر قصد نور الدين بلاد العادل و الصلح بينهما

في هذه السنة أيضا تجهّز نور الدين أرسلان شاه، صاحب الموصل، و جمع عساكره و سار إلى بلاد الملك العادل بالجزيرة: حرّان و الرّها، و كان سبب حركته أنّ الملك العادل لمّا ملك مصر، على ما ذكرناه قبل، اتّفق نور الدين و الملك الظاهر، صاحب حلب و صاحب ماردين و غيرهما [١]، على أن يكونوا

[١]- و غيرها.

(١). كُناباد: spU. كُناباذ: ٧٤٠. كُناباد: P.C.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ١٦٨

يدا واحدة، متّفقين على منع العادل عن قصد أحدهم، فلمّا تجدّدت [١] حركة الأفضل و الظاهر أرسلّا [٢] إلى نور الدين ليقصد البلاد الجزريّة، فسار عن الموصل في شعبان من هذه السنة، و سار معه ابن عمّه قطب الدين محمّد بن عماد الدين زنكي، صاحب سنجار و نصيبين، و صاحب ماردين، و وصل إلى رأس عين، و كان الزمان قيظا، فكثرت الأمراض في عسكره. و كان بحرّان ولد العادل يلقّب بالملك الفائز و معه عسكر يحفظ البلاد، فلمّا وصل نور الدين إلى رأس عين جاءته رسل الفائز و من معه من أكابر الأمراء يطلبون الصلح و يرغبون فيه، و كان نور الدين قد سمع بأنّ الصلح بدأ يتمّ «١» بين الملك العادل و الملك الظاهر و الأفضل، و انضاف إلى ذلك كثرة الأمراض في عسكره، فأجاب إليه، و حلّف الملك الفائز و من عنده من أكابر الأمراء على القاعدة التي استقرّت، و حلفوا له أنّهم يحلّفون الملك العادل له، فإن امتنع كانوا معه عليه، و حلف هو للملك العادل. و سارت الرسل من عنده و من عند ولده في طلب اليمين من العادل، فأجاب إلى ذلك، و حلف له، و استقرّت القاعدة، و أمنت البلاد و عاد نور الدين إلى الموصل في ذى القعدة من السنة.

[١]- تجدد.

[٢]- أرسلان.

(١). الصلح اوذانتهم. A. B. tcnupenis

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ١٦٩

ذكر ملك شهاب الدين نهرواله «١»

لمّا سار شهاب الدين من خراسان، على ما ذكرناه، لم يقيم بغزنه، و قصد بلاد الهند، و أرسل مملوكه قطب الدين أيبك إلى نهرواله «٢»، فوصلها سنة ثمان و تسعين [و خمسمائة]، فلقية عسكر الهنود، فقاتلوه قتالا شديدا، فهزمهم أيبك، و استباح معسكرهم، و ما لهم فيه من الدوابّ و غيرها، و تقدّم إلى نهرواله «٣» فملكها عنوة، و هرب ملكها، فجمع و حشد، فكثّر جمعه. و علم شهاب الدين أنّه لا- يقدر على حفظها إلّا بأن يقيم هو فيها و يخليها من أهلها، و يتعدّر عليه ذلك، فإنّ البلد عظيم، هو أعظم بلاد الهند، و أكثرهم أهلا، فصالح صاحبها على مال يؤدّيه إليه عاجلا و آجلا، و أعاد عساكره عنها و سلّمها إلى صاحبها.

ذكر ملك ركن الدين ملطية من أخيه و أرزن الروم

في هذه السنة، في شهر رمضان، ملك ركن الدين سليمان بن قلع أرسلان مدينة ملطية، وكانت لأخيه معز الدين قيصر شاه، فسار إليه وحصره أياماً وملكها، و سار منها إلى أرزن الروم، وكانت لولد الملك ابن محمد بن صلتق، وهم بيت قديم قد ملكوا أرزن الروم هذه المدّة طويلة، فلمّا سار إليها وقاربها خرج صاحبها إليه ثقة به ليقرّر معه الصلح على قاعدة يؤثرها ركن الدين، فقبض عليه واعتقله عنده وأخذ البلد، وكان هذا آخر أهل بيته الذين [ملكوا]، فتبارك الله الحي القيوم الذي لا يزول ملكه أبداً سرمداً.

(١-٢-٣). نهرواكه: spU. نهرواره: P.C.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ١٧٠

ذكر وفاة سقمان صاحب آمد و ملك أخيه محمود

في هذه السنة توفي قطب الدين سقمان بن محمد بن قرا أرسلان بن داود بن سقمان، صاحب آمد و حصن كيفا، سقط من سطح جوسق كان له بظاهر حصن كيفا فمات، وكان شديد الكراهة لأخيه هذا [١]، والنفور عنه، قد أبعدته وأنزله حصن منصور في آخر بلادهم، واتخذ مملوكاً اسمه إياس، فزوجه أخته، وأحبّه حبّاً شديداً، وجعله وليّ عهده، فلمّا توفي ملك بعده عدّة أيام، وتهدّد وزيراً كان لقطب الدين، وغيره من أمراء الدولة، فأرسلوا إلى أخيه محمود سرّاً يستدعونّه، فسار مجدّاً، فوصل إلى آمد و قد سبقه إليها إياس مملوك أخيه، فلم يقدم على الامتناع، فتسلّم محمود البلاد جميعها وملكها، وحبس المملوك فبقى مدّة محبوساً، ثم شفع له صاحب بلاد الروم، فأطلق من الحبس، و سار إلى الروم، فصار أميراً من أمراء الدولة.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة اشتدّ الغلاء بالبلاد المصريّة لعدم زيادة النيل، وتعدّرت الأقوات حتّى أكل الناس الميتة، و أكل بعضهم بعضاً، ثم لحقهم عليه وباء و موت كثير أفنى الناس. وفي شعبان منها ترزّلت الأرض بالموصل، و ديار الجزيرة كلّها، و الشام، و مصر، و غيرها، فأثّرت في الشام آثاراً قبيحة، و خرّبت كثيراً من الدور بدمشق، و حمص، و حماة، و انخسفت قرية من قرى بصرى، و أثّرت في

[١] لهذا أخيه.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ١٧١

الساحل الشاميّ أثراً كثيراً، فاستولى الخراب على طرابلس، و صور، و عكا، و نابلس، و غيرها من القلاع، و وصلت الزلزلة إلى بلد الروم، و كانت بالعراق يسيرة لم تهدم دوراً.

و فيها ولد ببغداد طفل له رأسان، و ذلك أنّ جبهته مفروقة بمقدار ما يدخل فيها ميل.

و في هذه السنة، في شهر رمضان، توفي أبو الفرج عبد الرحمن بن عليّ ابن الجوزيّ الحنبليّ الواعظ ببغداد، و تصانيفه مشهورة، و كان كثير الوقعة في الناس لا سيّما في العلماء المخالفين لمذهبه و الموافقين له، و كان مولده سنة عشر و خمسمائة.

و فيه أيضاً توفي عيسى بن نصير «١» النميريّ الشاعر، و كان حسن الشعر، و له أدب و فضل، و كان موته ببغداد.

و فيها توفي العماد أبو عبد الله محمّد بن محمّد بن حامد بن محمّد بن ألبّه، أوّل باللام المشدّدة، و هو العماد الكاتب الأصفهانيّ، كتب لنور الدين محمود ابن زنكي و لصلاح الدين يوسف بن أيّوب، رضي الله عنهما، و كان كاتباً مفلحاً، قادراً على القول.

و فيها جمع عبد الله بن حمزة العلوى المتغلب على جبال اليمن جموعا كثيرة فيها اثنا عشر ألف فارس، و من الرجاله ما لا يحصى كثرة، و كان قد انضاف إليه من جند المعز بن إسماعيل بن سيف الإسلام طغد كين بن أيوب، صاحب اليمن، خوفا منه، و أيقنوا بملك البلاد، و اقتسموها، و خافهم ابن سيف الإسلام خوفا عظيما، فاجتمع قواد عسكر ابن حمزة ليلا ليتفقوا على رأى يكون العمل بمقتضاه، و كانوا اثنى عشر قائدا فنزلت عليهم صاعقة أهلكتهم

(١). بن نصر. A.

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ١٧٢

جميعهم، فأتى الخبر ابن سيف الإسلام فى باقى الليلة بذلك، فسار إليهم مجدا فأوقع بالعسكر المجتمع، فلم يثبتوا له، و انهزموا بين يديه، و وضع السيف فيهم، فقتل منهم «١» ستة آلاف قتيل أو أكثر من ذلك و ثبت ملكه و استقر بتلك الأرض. و فيها وقع فى بنى عترة بأرض الشراء، بين الحجاز و اليمن، وباء عظيم، و كانوا يسكنون فى عشرين قرية، فوقع الوباء فى ثمانى عشرة قرية، فلم يبق منهم أحد. و كان الإنسان إذا قرب من تلك القرى يموت ساعه ما يقاربها، فتحامها الناس، و بقيت إبلهم و أغنامهم لا مانع لها، و أما القريتان الأخريان [١] فلم يمت فيهما [٢] أحد، و لا أحسوا بشيء مما كان فيه أولئك.

[١] - الأخريتان.

[٢] - فيها.

(١). منهم أكثر من B.

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ١٧٣

٥٩٨ ثم دخلت سنة ثمان و تسعين و خمسمائة

ذكر ملك خوارزم شاه ما كان أخذه الغورية من بلاده

قد ذكرنا فى سنة سبع و تسعين [و خمسمائة] ملك غياث الدين و أخيه شهاب الدين ما كان لخوارزم شاه محمد بن تكش بخراسان و مرو و نيسابور و غيرها [١]، و عودهما عنها بعد أن أقطعا البلاد، و مسير شهاب الدين إلى الهند، فلما اتصل بخوارزم شاه علاء الدين محمد بن تكش عود العساكر الغورية عن خراسان، و دخول شهاب الدين الهند، أرسل إلى غياث الدين يعاتبه، و يقول: كنت أعتقد أن تخلف على بعد أبى، و أن تنصرنى على الخطأ، و تردهم عن بلادى، فحيث لم تفعل فلا أقل من أن لا تؤذينى و تأخذ بلادى، و الذى أريده أن تعيد ما أخذته منى إلى، و إلّا استنصرت عليك بالخطأ و غيرهم من الأتراك، إن عجزت عن أخذ بلادى، فإننى إنما شغلنى عن منعكم عنها الاشتغال بعزاء والدى و تقرير أمر بلادى، و إلّا فما أنا عاجز عنكم و عن أخذ بلادكم بخراسان و غيرها، فغالطه غياث الدين فى الجواب لتمتد الأيام بالمراسلات، و يخرج أخوه شهاب الدين من الهند بالعساكر، فإن غياث الدين كان عاجزا باستيلاء التقرس [٢] عليه.

فلما وقف خوارزم شاه على رساله غياث الدين أرسل إلى علاء الدين الغورى،

[١] و غيرهما.

[٢] النفوس.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ١٧٤

نائب غياث الدين بخراسان، يأمره بالرحيل عن نيسابور، و يتهدده إن لم يفعل، فكتب علاء الدين إلى غياث الدين بذلك، و يعرفه ميل أهل البلد إلى الخوارزميين، فأعاد غياث الدين جوابه يقوى قلبه، و يعده النصر و المنع عنه «١».

و جمع خوارزم شاه عساكره و سار عن خوارزم نصف ذى الحجة سنة سبع و تسعين و خمسمائة، فلما قارب نسا و أبيورد هرب هندوخان ابن أخى ملك شاه من مرو إلى غياث الدين بفيروزكوه، و ملك خوارزم شاه مدينة مرو، و سار إلى نيسابور و بها علاء الدين، فحصره، و قاتله قتالا شديدا، و طال مقامه عليها، و راسله غير مرة فى تسليم البلد إليه، و هو لا يجيب إلى ذلك انتظارا للمدد من غياث الدين، فبقى نحو شهرين، فلما أبطأ عنه النجدة أرسل إلى خوارزم شاه يطلب الأمان لنفسه و لمن معه من الغوريّة، و أنّه لا يتعرض إليهم بحبس و لا- غيره من الأذى، فأجابه إلى ذلك، و حلف لهم، و خرجوا من البلد و أحسن خوارزم شاه إليهم، و وصلهم بمال جليل و هدايا كثيرة، و طلب من علاء الدين أن يسعى فى الصلح بينه و بين غياث الدين و أخيه، فأجابه إلى ذلك.

و سار إلى هراء، و منها إلى إقطاعه، و لم يمض إلى غياث الدين تجنّيا عليه لتأخر أمداده، و لما خرج الغوريّة من نيسابور أحسن خوارزم شاه إلى الحسين، ابن خرميل، و هو من أعيان أمرائهم، زيادة على غيره، و بالغ فى إكرامه، فقبل إنه من ذلك اليوم استحلفه لنفسه، و أن يكون معه بعد غياث الدين و أخيه شهاب الدين.

ثم سار خوارزم شاه إلى سرخس، و بها الأمير زنكى، فحصره أربعين يوما، و جرى بين الفريقين حروب كثيرة، فضاقت الميرة على أهل البلد، لا سيما الحطب، فأرسل زنكى إلى خوارزم شاه يطلب منه أن يتأخر عن باب

(١). عنه و أمره بملازمة مكانه. و جمع. B.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ١٧٥

البلد حتى يخرج هو و أصحابه و يترك البلد له، فراسله خوارزم شاه فى الاجتماع به ليحسن إليه و إلى من معه، فلم يجبه إلى ذلك و احتج بقرب نسبه من غياث الدين، فأبعد خوارزم شاه عن باب البلد بعساكره، فخرج زنكى فأخذ من الغلات و غيرها التى فى المعسكر ما أراد لا سيما من الحطب، و عاد إلى البلد و أخرج منه من كان قد ضاق به الأمر، و كتب إلى خوارزم شاه: العود أحمد، فندم حيث لم ينفعه الندم، و رحل عن البلد، و ترك عليه جماعة من الأمراء يحصرونه.

فلما أبعد خوارزم شاه سار محمد بن جربك من الطالقان، و هو من أمراء الغوريّة، و أرسل إلى زنكى أمير سرخس يعرفه أنّه يريد أن يكبس الخوارزميين لئلا ينزعج إذا سمع الغلبة، و سمع الخوارزميون الخبر، ففارقوا سرخس، و خرج زنكى و لقي محمد بن جربك و عسكرا فى مروالروذ، و أخذ خراجها و ما يجاورها، فسير إليهم خوارزم شاه عسكرا مع خاله، فلقاهم محمد بن جربك و قاتلهم، و حمل بلت فى يده على صاحب علم الخوارزميّة فضربه فقتله، و ألقى علمهم، و كسر كوساتهم، فانقطع صوتها عن العسكر، و لم يروا أعلامهم، فانهزموا، و ركبهم الغوريّة قتلا و أسرا نحو فرسخين فكانوا ثلاثة آلاف فارس و ابن جربك فى تسع مائة فارس، و غنم جميع معسكرهم، فلما سمع خوارزم شاه ذلك عاد إلى خوارزم، و أرسل إلى غياث الدين فى الصلح، فأجابه عن رسالته مع أمير كبير من الغوريّة يقال له الحسين بن محمد المرغنى، و مرغن من قرى الغور، فقبض عليه خوارزم شاه.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ١٧٦

ذكر حصر خوارزم شاه هراء و عوده عنها

لما أرسل خوارزم شاه إلى غياث الدين فى الصلح، و أجابه عن رسالته مع الحسين المرغنى مغالطا، قبض خوارزم شاه على الحسين، و

سار إلى هراة ليحاصرها، فكتب الحسين إلى أخيه عمر بن محمد المرغني، أمير هراة، يخبره بذلك، فاستعد للحصار. و كان سبب قصد خوارزم شاه حصار هراة أن رجلين أخوين، ممن كان يخدم محمدا «١» سلطان شاه، اتصلا بغياث الدين، بعد وفاة سلطان شاه، فأكرمهما غياث الدين، و أحسن إليهما، يقال لأحدهما الأمير الحاجي، فكاتبوا خوارزم شاه، و أطمعاه [١] في البلد، و ضمنا له تسليمه إليه، فسار لذلك، و نازل المدينة و حصرها، فسلم الأمير عمر المرغني، أمير البلد، مفاتيح [٢] الأبواب إليهما، و جعلهما على القتال ثقة منه بهما، و ظنا منه أنهما عدوا خوارزم شاه تكش و ابنه محمد بعده، فاتفق أن بعض الخوارزمية أخبر الحسين المرغني «٢» المأسور عند خوارزم شاه بحال الرجلين، و أنهما هما اللذان يدبران خوارزم شاه و يأمرانه بما يفعل، فلم يصدقه، و أتاه بخط الأمير الحاجي، فأخذه و أرسله إلى أخيه عمر أمير هراة، فأخذهما و اعتقلهما و أخذ أصحابهما. ثم إن ألب غازي، و هو ابن أخت غياث الدين، جاء في عسكر من الغورية، فنزل على خمسة فراسخ من هراة، فكان يمنع الميرة عن عسكر

[١]- و أطمعاه.

[٢]- مفاتيح.

(١). يخدم عمه سلطان شاه. A.

(٢). المرغني. A.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ١٧٧

خوارزم شاه، ثم إن خوارزم شاه سیر عسكرا إلى أعمال الطالقان للغارة عليها، فلقبهم الحسن بن خرمل «١» فقاتلهم، فظفر بهم فلم يفلت منهم أحد.

و سار غياث الدين عن فيروزكوه إلى هراة في عسكره، فنزل برباط رزين «٢» بالقرب من هراة، و لم يقدم على خوارزم شاه لقلّة عسكره لأن أكثر عساكره كانت مع أخيه بالهند و غزنه، فأقام خوارزم شاه على هراة أربعين يوما، و عزم على الرحيل لأنه بلغه انهزام أصحابه بالطالقان و قرب غياث الدين، و كذلك أيضا قرب ألب غازي، و سمع أيضا أن شهاب الدين قد خرج من الهند إلى غزنه، و كان وصوله إليها في رجب من هذه السنة، فخاف أن يصل بعساكره فلا يمكنه المقام على البلد، فأرسل إلى أمير هراة عمر المرغني في الصلح فصالحه على مال حمله إليه و ارتحل عن البلد.

و أما شهاب الدين، فإنه لما وصل إلى غزنه بلغه الخبر بما فعله خوارزم شاه بخراسان و ملكه لها، فسار إلى خراسان، فوصل إلى بلخ و منها إلى باميان ثم إلى مرو، عازما على حرب خوارزم شاه، و كان نازلا هناك، فالتقت أوائل عسكريهما، و اقتتلوا، فقتل من الفريقين خلق كثير، ثم إن خوارزم شاه ارتحل عن مكانه شبه المنهزم، و قطع القناطر، و قتل الأمير سنجر، صاحب نيسابور، لأنه اتهمه بالمخامرة عليه، و توجه شهاب الدين إلى طوس فأقام بها تلك الشتوة على عزم المسير إلى خوارزم ليحصرها، فأتاه الخبر بوفاء أخيه غياث الدين، فقصد هراة و ترك ذلك العزم.

(١). خرمل. A.

(٢). برباط. زرّين. P. C.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ١٧٨

في هذه السنة درّس مجد الدين أبو عليّ يحيى بن الربيع، الفقيه الشافعيّ، بالنظاميّة ببغداد في ربيع الأوّل. وفيها توفيت «١» بنفسه جارية الخليفة المستضيء بأمر الله، و كان كثير الميل إليها، و المحبّة لها، و كانت كثيرة المعروف و الإحسان و الصدقة. وفيها أيضا توفي الخطيب عبد الملك بن زيد الدّولعيّ، خطيب دمشق، و كان فقيها شافعيّا، هو من الدّولعيّة قرية من أعمال الموصل.

(١). في ربيع الأوّل منها توفيت ببغداد. B.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ١٧٩

٥٩٩ ثم دخلت سنة تسع و تسعين و خمسمائة

ذكر حصر عسكر العادل ماردين و صلحه مع صاحبها

في هذه السنة، في المحرم، سيّر الملك العادل أبو بكر بن أيّوب، صاحب دمشق و مصر، عسكرا مع ولده الملك الأشرف موسى إلى ماردين، فحصروها، و شحّنوا على أعمالها، و انضاف إليه عسكر الموصل و سنجار و غيرهما، و نزلوا بخرزم «١» تحت ماردين، و نزل عسكر من قلعة البارعيّة «٢»، و هي لصاحب ماردين، يقطعون الميرة عن العسكر العادليّ، فسار إليهم طائفة من العسكر العادليّ، فاقتتلوا، فانهزم عسكر البارعيّة «٣».

و ثار التركمان و قطعوا الطريق في تلك الناحية، و أكثروا الفساد، فتعذّر سلوك الطريق إلّا لجماعة «٤» من أرباب السلاح، فسار طائفة من العسكر العادليّ إلى رأس عين لإصلاح الطرق، و كفّ عادية الفساد، و أقام ولد العادل، و لم يحصل له غرض، فدخل الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين يوسف، صاحب حلب، في الصلح بينهم، و أرسل إلى عمّه العادل في ذلك، فأجاب إليه على قاعدة أن يحمل له صاحب ماردين مائة و خمسين ألف دينار «٥»، فجاء صرف الدينار أحد عشر قيراطا من أميريّ، و يخطب له ببلاده، و يضرب اسمه على السكّة، و يكون عسكره في خدمته أيّ وقت طلبه، و أخذ الظاهر عشرين ألف

(١). محرزم. P.C.

(٢-٣). النارعيه: P.C. spU.

(٤). الطرق إلّا بجماعة. A.

(٥). دينار اقجا مصارفه. A.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ١٨٠

دينار من النقد المذكور، و قرية القرايّي من أعمال شبختان «١»، فرحل ولد العادل عن ماردين.

ذكر وفاة غياث الدين ملك الغور و شيء من سيرته

في هذه السنة، في جمادى الأولى، توفي غياث الدين أبو الفتح محمّد بن سام الغوريّ، صاحب غزنه و بعض خراسان و غيرها، و أخفيت وفاته، و كان أخوه شهاب الدين بطوس، عازما على قصد خوارزم شاه، فأتاه الخبر بوفاء أخيه، فسار إلى هراء، فلمّا وصل إليها جلس للعزاء بأخيه في رجب، و أظهرت وفاته حينئذ.

و خلف غياث الدين من الولد ابنا اسمه محمود، لقّب بعد موت أبيه غياث الدين، و سنورد من أخباره كثيرا.

ولما سار شهاب الدين من طوس استخلف بمرو الأمير محمد بن جربك، فسار إليه جماعة من الأمراء الخوارزمية، فخرج إليهم محمد ليلاً، وبيتهم، فلم ينج منهم إلّا القليل، و أنفذ الأسرى و الرؤوس إلى هراء، فأمر شهاب الدين بالاستعداد لقصد خوارزم على طريق الرمل، و جهّز خوارزم شاه جيشاً و سيّره مع برفور التركي «٢» إلى قتال محمد بن جربك، فسمع بهم، فخرج إليهم، و لقيهم على عشرة فراسخ من مرو، فاقتتلوا قتالاً شديداً، قتل بين الفريقين خلق كثير، و انهزم الغورية و دخل محمد بن جربك مرو في عشرة فرسان، و جاء الخوارزميون فحاصروه خمسة عشر يوماً، فضعف

(١). سحرار: spU. شبختان: P.C.

(٢) مع منقور التركي. A.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ١٨١

عن الحفظ، فأرسل في طلب الأمان، فحلفوا له إن خرج إليهم على حكمهم أنّهم لا يقتلونه، فخرج إليهم، فقتلوه، و أخذوا كلّ ما معه. و سمع شهاب الدين الخبر، فعظم عليه، و ترددت الرسل بينه و بين خوارزم شاه، فلم يستقرّ الصلح، و أراد العود إلى غزنه، فاستعمل على هراء ابن أخيه ألب غازي، و فلك الملك «١» علاء الدين محمد بن أبي عليّ الغوري على مدينة فيروزكوه «٢»، و جعل إليه حرب خراسان و أمر كلّ ما يتعلّق بالمملكة، و أتاه محمود ابن أخيه غياث الدين، فولّاه مدينة بست و اسفرار «٣»، و تلك الناحية، و جعله بمعزل من الملك جميعه، و لم يحسن الخلافة عليه بعد أبيه، و لا على غيره من أهله، فمن جملة فعله أنّ غياث الدين كانت له زوجة كانت مغنيّة، فهيها و تزوّجها، فلما مات غياث الدين قبض «٤» عليها و ضربها ضرباً مبرّحاً، و ضرب ولدها «٥» غياث الدين، و زوج أختها، و أخذ أموالهم و أملاكهم و سيّره إلى بلد الهند، فكانوا في أقبح صورة، و كانت قد بنت مدرسه، و دفنت فيها أباهما و أمّها و أخاها [١]، فهدمها، و نبش قبور الموتى، و رمى بعظامهم منها.

و أمّا سيرة غياث الدين و أخلاقه، فإنّه كان مظفراً منصوراً في حروبه، لم تنهزم له راية قطّ، و كان قليل المباشرة للحروب، و إنّما كان له دهاء و مكر، و كان جواداً، حسن الاعتقاد، كثير الصدقات و الوقوف بخراسان، بنى المساجد و المدارس بخراسان لأصحاب الشافعيّ، و بنى الخانكاهات «٦» في الطرق، و أسقط

([١] - و أخاهم.

(١). غازي و قلد الملك. A.

(٢). و بلد الغور. dda. فيروزكوه. topte. على. A. mo

(٣). و أسفرار. C. P. tu

(٤). الدين أخذها شهاب الدين و قبض. A.

(٥). ولدها ربيب. A.

(٦) و بي الخانات. A.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ١٨٢

المكوس، و لم يتعرّض إلى مال أحد من الناس، و من مات [و لا وارث له تصدّق بما يخلفه، و من كان من بلد معروف و مات] ببلده يسلم ماله إلى أهل بلده من التجار، فإن لم يجد أحداً، يسلمه إلى القاضي، و يختم عليه إلى أن يصل من يأخذه بمقتضى الشرع. و كان إذا وصل إلى بلد عمّ إحسانه أهله و الفقهاء و أهل الفضل، يخلع عليهم، و يفرض لهم الأعطيات كلّ سنه من خزانته، و يفرق

الأموال في الفقراء، و كان يراعى كل من وصل إلى حضرته من العلويين و الشعراء و غيرهم، و كان فيه فضل غزير، و أدب مع حسن خط و بلاغة، و كان، رحمه الله، ينسخ المصاحف بخطه و يقفها في المدارس التي بناها، و لم يظهر منه تعصب على مذهب، و يقول: التعصب في المذاهب من الملك قبيح، إلّا أنّه كان شافعي المذهب، فهو يميل إلى الشافعية من غير أن يطمعهم في غيرهم، و لا أعطاهم ما ليس لهم.

ذكر أخذ الظاهر قلعة نجم من أخيه الأفضل

في هذه السنة أخذ الظاهر غازي قلعة نجم من أخيه الأفضل، و كانت في جملة ما أخذ من العادل لما صالحه سنة سبع و تسعين [و خمسمائة]، فلما كان هذه السنة أخذ العادل من الأفضل سروج و حملين و رأس عين، و بقي بيده سميساط، و قلعة نجم، فأرسل الظاهر إليه يطلب منه قلعة نجم، و ضمن له أنّه يشفع إلى عمّه العادل في إعادة ما أخذ منه، فلم يعطه، فتهدّد بأن يكون إلّا عليه «١»، و لم تزل الرسل تتردّد حتى سلّمها إليه في شعبان، و طلب منه

(١). عليه مع العادل. A.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ١٨٣

أن يعوّضه قرى أو مالا، فلم يفعل، و كان هذا من أقبح ما سمع عن ملك يزاحم أخاه في مثل قلعة نجم مع خستتها «١» و حقارتها، و كثرة بلاده و عدمها لأخيه.

و أمّا العادل، فإنّه لما أخذ سروج و رأس عين من الأفضل أرسل والدته إليه لتسأل في ردّهما، فلم يشفعها و ردّها خائبة، و لقد عوقب البيت الصلاحي بما فعله أبوه مع البيت الأتابكي، فإنّه لما قصد حصار الموصل سنة ثمانين و خمسمائة أرسل صاحب الموصل والدته و ابنه عمّه نور الدين إليه يسألانه أن يعود، فلم يشفعهما، فجرى لأولاده هذا، و ردّت زوجته خائبة، كما فعل.

و لما رأى الأفضل عمّه و أخاه قد أخذوا ما كان بيده أرسل إلى ركن الدين سليمان بن قلعج أرسلان، صاحب ملطية و قونية، و ما بينهما من البلاد، يبذل له الطاعة، و أن يكون في خدمته، و يخطب له ببلده، و يضرب السكة باسمه، فأجابه ركن الدين إلى ذلك، و أرسل له خلعة، فلبسها الأفضل، و خطب له بسميساط في سنة ستّمائة و صار في جملة.

ذكر ملك الكرج مدينة دوين «٢»

في هذه السنة استولى الكرج على مدينة دوين، من آذربايجان، و نهبوا، و استباحوها، و أكثروا القتل في أهلها، و كانت هي و جميع بلاد آذربايجان للأمرير أبي بكر بن البهلوان، و كان على عادته مشغولا بالشرب ليلا و نهارا، لا يفيق، و لا يصحو، و لا ينظر في أمر مملكته و رعيته و جنده، قد ألقى الجميع عن قلبه، و سلك طريق من ليس له علاقة، و كان أهل تلك البلاد قد أكثرت الاستغاثة به، و إعلامه بقصد الكرج بلادهم بالغارة مرّة بعد أخرى، فكأنّهم ينادون صخرة صماء، فلما حصر الكرج، هذه السنة، مدينة

(١). مع بخستها. A.

(٢). tseba. Animutottupac.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ١٨٤

دوين، سار منهم جماعة يستغيثون، فلم يغتهم و خوّفه جماعة من أمرائه عاقبة إهماله و توانيهِ و إصراره على ما هو فيه فلم يصغ إليهم، فلما طال الأمر على أهلها ضعفوا، و عجزوا، و أخذهم الكرج عنوة بالسيف، و فعلوا ما ذكرنا.

ثم إنَّ الكرج بعد أن استقرَّ أمرهم بها أحسنوا إلى من بقى من أهلها، فالله تعالى ينظر إلى المسلمين، ويسهل لثغورهم من يحفظها و يحميها، فإنَّها مستباحة، لا سيما هذه الناحية، فإنا لله وإنا إليه راجعون، فلقد بلغنا من فعل الكرج بأهل دوين من القتل والسبي و الأمر ما تقشعر منه الجلود.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة أحضر الملك العادل محمداً ولد العزيز صاحب مصر إلى الرها، و سبب ذلك أنّه لما قطع خطبته من مصر سنة ست و تسعين [و خمسمائة]، كما ذكرناه، خاف شيعة أبيه أن يجتمعوا عليه، و يصير له معهم فتنة، فأخرجه سنة ثمان و تسعين إلى دمشق، ثم نقله هذه السنة إلى الرها، فأقام بها و معه جميع إخوته و أخواته و والدته و من يخصه.

و فيها، في رجب، توفّي الشيخ وجيه الدين محمد بن محمود المروزيّ، الفقيه الشافعيّ، و هذا الذي كان السبب في أن صار وحيد الدين شافعيّاً.

و في ربيع الأوّل منها توفّي أبو الفتوح عبيد الله بن أبي المعمر الفقيه الشافعيّ المعروف بالمستملّي ببغداد، و له خطّ حسن.

و في ربيع الآخر توفّيّت زمرد خاتون أمّ الخليفة الناصر لدين الله، و أخرجت جنازتها ظاهرة، و صليّ الخلق الكثير عليها، و دفنت في التربة التي بنتها لنفسها، و كانت كثيرة المعروف.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ١٨٥

٦٠٠ ثم دخلت سنة ستمائة

ذكر حصار خوارزم شاه هراة ثانية

في هذه السنة، أوّل رجب، وصل خوارزم شاه محمد إلى مدينة هراة، فحصرها، و بها ألب غازي ابن أخت شهاب الدين الغوريّ ملك غزنة، بعد مراسلات جرت بينه و بين شهاب الدين في الصلح، فلم يتمّ. و كان شهاب الدين قد سار عن غزنة إلى لهاوور عازماً على غزو الهند، فأقام خوارزم شاه على حصار هراة إلى سلخ شعبان.

و كان القتال دائماً، و القتل بين الفريقين كثيراً، و ممّن قتل رئيس خراسان، و كان كبير القدر يقيم بمشهد طوس، و كان الحسين بن خرميل بكرزبان، و هي إقطاعه، فأرسل إلى خوارزم شاه يقول له: أرسل إلى عسكريا لنسلم إليهم الفيلة و خزائن شهاب الدين، فأرسل إليه ألف فارس من أعيان عسكريه إلى كرزبان، فخرج عليه هو و الحسين بن محمد المرغنيّ، فقتلوهما إلّا القليل، فبلغ الخبر إلى خوارزم شاه، فسقط في يده و ندم على إنفاذ العسكري، و أرسل إلى ألب غازي يطلب منه أن يخرج إليه من البلد و يخدمه خدمة سلطانية ليرحل عنه، فلم يجبه إلى ذلك، فاتّفق أن ألب غازي مرض و اشتدّ مرضه، فخاف أن يشتغل بمرضه فيملك خوارزم شاه البلد، فأجاب إلى ما طلب منه، و استحلفه على الصلح، و أهدى له هديّة جليّة، و خرج من البلد ليخدمه، فسقط إلى الأرض ميتاً، و لم يشعر أحد بذلك، و ارتحل خوارزم شاه عن البلد و أحرق المجانيق و سار إلى سرخس فأقام بها.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ١٨٦

ذكر عود شهاب الدين من الهند و حصره خوارزم و انهزامه من الخطا

في هذه السنة، في رمضان، عاد شهاب الدين الغوريّ إلى خراسان من قصد الهند، و سبب ذلك أنّه بلغه حصر خوارزم شاه هراة، و موت ألب غازي نائبة بها، فعاد حنفاً على خوارزم شاه، فلمّا بلغ ميمند عدل على طريق أخرى قاصداً إلى خوارزم، فأرسل إليه خوارزم

شاه يقول له: ارجع إلّي لأحاربك، وإلا سرت إلى هراء، و منها إلى غزنه.

و كان خوارزم شاه قد سار من سرخس إلى مرو، فأقام بظاهرها، فأعاد إليه شهاب الدين جوابه: لعلك تنهزم كما فعلت تلك الدفعة، لكنّ خوارزم تجمعنا، ففزع خوارزم شاه عساكره، و أحرق ما جمعه من العلف، و رحل يسابق شهاب الدين إلى خوارزم، فسبقه إليها، فقطع الطريق، و أجرى المياه فيها، فتعذر على شهاب الدين سلوكها، و أقام أربعين يوما يصلحها حتّى أمكنه الوصول إلى خوارزم، و التقى العسكران بسوقا «١»، و معناه الماء الأسود، فجرى بينهم قتال شديد كثر القتلى فيه بين الفريقين، و ممّن قتل من الغوريّة الحسين المرغنيّ و غيره، و أسر جماعه من الخوارزميّة، فأمر شهاب الدين بقتلهم فقتلوا.

و أرسل خوارزم شاه إلى الأتراك الخطا يستنجدهم، و هم حينئذ أصحاب ما وراء النهر، فاستعدّوا، و ساروا إلى بلاد الغوريّة، فلمّا بلغ شهاب الدين ذلك عاد عن خوارزم، فلقى أوائلهم في صحراء أندخوى أوّل صفر سنه إحدى و ستمائة، فقتل فيهم و أسر كثيرا، فلمّا كان اليوم الثاني دهمه

(١). بسوى قرا. A.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ١٨٧

من الخطا ما لا طاقة له بهم، فانهزم المسلمون هزيمة قبيحة، و كان أوّل من انهزم الحسين بن خرميل صاحب طالقان و تبعه الناس و بقى شهاب الدين في نفر يسير، و قتل بيده أربعة أفيال لأنّها أعيّت، و أخذ الكفار فيلين، و دخل شهاب الدين أندخوى فيمن معه، و حصّره الكفار، ثمّ صالحوه على أن يعطيهم فيلا آخر، ففعل، و خلص. الكامل في التاريخ ج ١٢ ١٨٧ ذكر عود شهاب الدين من الهند و حصّره خوارزم و انهزاه من الخطا ص: ١٨٦

و وقع الخبر في جميع بلاده بأنّه قد عدم، و كثرت الأراجيف بذلك، ثمّ وصل إلى الطالقان في سبعة نفر، و قد قتل أكثر عسكره، و نهبت خزائنه جميعها، فلم يبق منها شيء، فأخرج له الحسين بن خرميل، صاحب الطالقان، خياما و جميع ما يحتاج إليه، و سار إلى غزنه، و أخذ معه الحسين بن خرميل، لأنّه قيل له عنه أنّه شديد الخوف لانهزاه، و أنّه قال: إذا سار السلطان هربت إلى خوارزم شاه، فأخذه معه، و جعله أمير حاجب.

و لمّا وقع الخبر بقتله جمع تاج الدين الدز، و هو مملوك اشتراه شهاب الدين، أصحابه و قصد قلعة غزنه ليصعد إليها، فمنعه مستحفظها، فعاد إلى داره فأقام بها، و أفسد الخلع و سائر المفسدين في البلاد، و قطعوا الطرق، و قتلوا كثيرا، فلمّا عاد شهاب الدين إلى غزنه بلغه ما فعله الدز، فأراد قتله، فشفع فيه سائر المماليك، فأطلقه، ثمّ اعتذر، و سار شهاب الدين في البلاد، فقتل من المفسدين من تلك الأمم نفرا كثيرا.

و كان له أيضا مملوك آخر اسمه أيّيك بال تر «١»، فسلم من المعركة، و لحق بالهند، و دخل المولتان، و قتل نائب السلطان بها، و ملك البلد، و أخذ الأموال السلطانيّة، و أساء السيرة في الرعيّة، و أخذ أموالهم، و قال: قتل السلطان، و أنا السلطان، و كان يحمله على ذلك، و يحسنه له إنسان اسمه عمر ابن يزان «٢»، و كان زنديقا، ففعل ما أمره، و جمع المفسدين، و أخذ الأموال،

(١) ناك: بر. C. P.

(٢). مران: C. P.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ١٨٨

فأخاف الطريق، فبلغ خبره إلى شهاب الدين فسار إلى الهند، و أرسل إليه عسكرا، فأخذوه و معه عمر بن [يزان] فقتلها أقيح قتله، و قتل من وافقهما، في جمادى الآخرة من سنه إحدى و ستمائة، و لمّا رأهم قتلى قرأ إنّما جزاء الذين يحاربون الله و رسوله و يسعون

فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا الْآيَةُ «١»، و أمر شهاب الدين فنودی فی جميع بلاده بالتجهز لقتال الخطا و غزوهم و الأخذ بثأرهم.

و قيل: كان سبب انهزامه أنه لما عاد إلى الخطا من خوارزم فرّق عسكره في المفازة التي في طريقه لقلعة الماء، و كان الخطا قد نزلوا على طريق المفازة، فكلّموا خرج من أصحابه طائفة فتكوا فيهم بالقتل و الأسر، و من سلم من عسكره انهزم نحو البلاد، و لم يرجع إليه أحد يعلم الحال، و جاء شهاب الدين في ساقه العسكر في عشرين ألف فارس و لم يعلم الحال، فلما خرج من البرية لقيه الخطا مستريحين، و هو و من معه قد تعبوا و أعيوا، و كان الخطا أضعاف أصحابه، فقاتلهم عامية نهاره، و حمى نفسه منهم، و حصروه في أندخوى، فجرى بينهم في عدة أيام أربعة عشر مصافاً منها مصاف واحد كان من العصر إلى الغد بكرة، ثم إنه بعد ذلك سيّر طائفة من عسكره [١] ليلاً سرّاً، و أمرهم أن يرجعوا إليه بكرة كأنهم قد أتوه مدداً من بلاده، فلما فعلوا ذلك خافه الخطا، و قال لهم صاحب سمرقند، و كان مسلماً، و هو في طاعة الخطا، و قد خاف على الإسلام و المسلمين إن هم ظفروا بشهاب الدين، فقال لهم: إن هذا الرجل لا تجدونه قطّ أضعف منه لما خرج من المفازة، و مع ضعفه و تعب و قلّة من معه لم نظفر به، و الأمداد أتته، و كأنكم بعساكره

[١]- عسكر.

(١). ٣٣ خ ٢٠٠.٥

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ١٨٩

و قد أقبلت من كلّ طريق، و حينئذ نطلب الخلاص منه فلا- نقدر عليه، و الرأى لنا الصلح معه، فأجابوا إلى ذلك، فأرسلوا إليه في الصلح.

و كان صاحب سمرقند قد أرسل إليه و عزفه الحال سرّاً، و أمره بإظهار الامتناع من الصلح أولاً و الإجابة إليه أخيراً، فلما أتته الرسل امتنع، و أظهر القوة بانتظار الأمداد، و طال الكلام، فاصطلحوا على أن الخطا لا يعبرون النهر إلى بلاده، و لا هو يعبره إلى بلادهم، و رجعوا عنه، و خلص هو و عاد إلى بلاده، و الباقي نحو ما تقدّم.

ذكر قتل طائفة من الإسماعيلية بخراسان

في هذه السنة وصل رسول إلى شهاب الدين الغوري من عند مقدّم الإسماعيلية بخراسان برسالة أنكرها، فأمر علاء الدين محمد بن أبي عليّ متولّي بلاد الغور بالسير في عساكر إليهم و محاصرة بلادهم، فسار في عساكر كثيرة إلى قهستان، و سمع به صاحب زوزن، فقصد و صار معه و فارق خدمة خوارزم شاه، و نزل علاء الدين على مدينة قاين، و هي للإسماعيلية، و حصرها، و ضيق على أهلها، و وصل خبر قتل شهاب الدين، على ما ذكره، فصالح أهلها على ستين ألف دينار ركنية، و رحل عنهم، و قصد حصن كاخك فأخذه و قتل المقاتلة، و سبى الذرية، و رحل إلى هراة و منها «١» [إلى] «٢» فيروزكوه.

(١). و فيها: P. C. spU

(٢). P. C.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ١٩٠

ذكر ملك القسطنطينية من الروم

في هذه السنة، في شعبان، ملك الفرنج مدينة القسطنطينية من الروم، و أزالوا ملك الروم عنها، و كان سبب ذلك أن ملك الروم بها تزوج أخت ملك إفرنسيس، و هو من أكبر ملوك الفرنج، فرزق منها ولدا ذكرا، ثم وثب على الملك أخ له، فقبض عليه، و ملك البلد منه، و سمل عينيه، و سجنه، فهرب ولده و مضى إلى خاله مستنصرا به على عمه، فاتفق ذلك و قد اجتمع كثير من الفرنج ليخرجوا إلى بلاد الشام لاستنقاذ البيت المقدس من المسلمين، فأخذوا ولد الملك معهم، و جعلوا طريقهم على القسطنطينية قصدا لإصلاح الحال بينه و بين عمه، و لم يكن له طمع في سوى ذلك، فلما وصلوا خرج عمه في عساكر الروم محاربا لهم، فوقع القتال بينهم في رجب سنة تسع و تسعين و خمسمائة، فانهزمت الروم، و دخلوا البلد، فدخله الفرنج معهم، فهرب ملك الروم إلى أطراف البلاد، و قيل إن ملك الروم لم يقاتل الفرنج بظاهر البلد، و إنما حصروه فيها.

و كان بالقسطنطينية من الروم من يريد الصبي، فألقوا النار في البلد، فاشتغل الناس بذلك، ففتحوا بابا من أبواب المدينة، فدخلها الفرنج، و خرج ملكها هاربا، و جعل الفرنج الملك في ذلك الصبي، و ليس له من الحكم شيء، و أخرجوا أباه من السجن، إنما الفرنج هم الحكام في البلد، فثقلوا الوطأة على أهله، و طلبوا منهم أموالا عجزوا عنها، و أخذوا أموال البيع و ما فيها من ذهب و نقره و غير ذلك حتى ما على الصلبان، و ما هو على صورة المسيح، عليه السلام، و الحواريين، و ما على الأنجيل من ذلك أيضا، فعظم ذلك على الروم، و حملوا منه خطبا عظيما، فعمدوا إلى ذلك الصبي الملك فقتلوه، و أخرجوا الفرنج من البلد، و أغلقوا الأبواب، و كان ذلك في

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ١٩١

جمادى الأولى سنة ستمائة، فأقام الفرنج بظاهرة محاصرين للروم، و قاتلوهم، و لازموا قتالهم ليلا و نهارا، و كان الروم قد ضعفوا ضعفا كثيرا، فأرسلوا إلى السلطان ركن الدين سليمان بن قلع أرسلان، صاحب قونية و غيرها من البلاد، يستجدونه، فلم يجد إلى ذلك سيلا.

و كان بالمدينة كثير من الفرنج، مقيمين، يقاربون ثلاثين ألفا، و لعظم البلد لا يظهر أمرهم، فتواضعوا هم و الفرنج الذين بظاهر البلد، و وثبوا فيه، و ألقوا النار مرة ثانية، فاحترق نحو ربع البلد، و فتحوا الأبواب فدخلوها و وضعوا السيف ثلاثة أيام، و فتكوا بالروم قتلا و نهبا، فأصبح الروم كلهم ما بين قتيل أو فقير لا يملك شيئا، و دخل جماعة من أعيان الروم الكنيسة العظمى التي تدعى صوفيا [١]، فجاء الفرنج إليها، فخرج إليهم جماعة من القسيسين و الأساقفة و الرهبان، بأيديهم الإنجيل و الصليب يتوسلون بهما [٢] إلى الفرنج ليقبضوا عليهم، فلم يلتفتوا إليهم، و قتلوهم أجمعين و نهبوا الكنيسة.

و كانوا ثلاثة ملوك: دوقس البنادقة، و هو صاحب المراكب البحرية، و في مراكبه ركبوا إلى القسطنطينية، و هو شيخ أعمى، إذا ركب تقاد فرسه، و الآخر يقال له المركيس، و هو مقدم الإفرنسيس، و الآخر يقال له كند أفند، و هو أكثرهم عددا، فلما استولوا [٣] على القسطنطينية اقترحوا على الملك، فخرجت القرعة على كند أفند، فأعادوا القرعة ثانية و ثالثة، فخرجت عليه، فملكوه، و الله يؤتي ملكه من يشاء، و ينزعه ممن يشاء، فلما خرجت القرعة عليه ملكوه عليها و على ما يجاورها، و تكون لدوقس البنادقة الجزائر البحرية مثل جزيرة إقريطش و جزيرة رودس و غيرها، و يكون لمركيس

[١] تدعى صوفيا.

[٢] بها.

[٣] استولى.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ١٩٢

الإفرنسيس البلاد التي هي شرقي الخليج مثل أزيق و لاذيق، فلم يحصل لأحد منهم شيء غير الذي أخذ القسطنطينية، و أما الباقي فلم

يسلم من به من الروم، وأما البلاد التى كانت لملك القسطنطينية، شرقى الخليج، المجاورة لبلاد ركن الدين سليمان بن قلعج أرسلان، ومن جملتها أزيق ولاذيق، فإنها تغلب عليها بطريق كبير من بطارقة الروم، اسمه لشكرى، وهى بيده إلى الآن.

ذكر انهزام نور الدين، صاحب الموصل، من العساكر العادلية

فى هذه السنة، فى العشرين من شوال، انهزم نور الدين أرسلان شاه، صاحب الموصل، من العساكر العادلية، وسبب ذلك أن نور الدين كان بينه وبين عمه قطب الدين محمد بن زنكى، صاحب سنجار، وحشته مستحكمة أولا ثم اتفقا، و سار معه إلى ميفارقين سنة خمس وتسعين [و خمسمائة]، وقد ذكرناه، فلما كان الآن أرسل الملك العادل أبو بكر بن أيوب، صاحب مصر و دمشق و بلاد الجزيرة، إلى قطب الدين، واستماله، فمال إليه، و خطب له، فلما سمع نور الدين ذلك سار إلى مدينة نصيبين، سلخ شعبان، وهى لقطب الدين، فحصرها، و ملك المدينة، و بقيت القلعة فحصرها عدة أيام، فبينما هو يحاصرها و قد أشرف على أن يتسلمها أتاه الخبر أن مظفر الدين دوكبرى بن زين الدين على، صاحب إربل، قد قصد أعمال الموصل، فنهب نينوى، و أحرق غلاتها، فلما بلغه ذلك من نائبة المرتب بالموصل يحفظها، سار عن نصيبين إلى الموصل على عزم العبور إلى بلد إربل و نهبه جزاء بما فعل صاحبها ببلده، فوصل إلى مدينة بلد، و عاد مظفر الدين إلى بلده، و تحقق نور الدين أن المدى قليل له وقع فيه زيادة، فسار إلى تل أعفر من بلد و حصرها، و أخذها و رتب أمورها، و أقام عليها سبعة عشر يوما.

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ١٩٣

و كان الملك الأشرف موسى بن الملك العادل بن أيوب قد سار من مدينة حران إلى رأس عين نجدة لقطب الدين، صاحب سنجار و نصيبين، و قد اتفق هو و مظفر الدين، صاحب إربل، و صاحب الحصن و آمد، و صاحب جزيرة ابن عمر، و غيرهم، على ذلك، و على منع نور الدين من أخذ شىء من بلاده، و كلهم خائفون منه، و لم يمكنهم الاجتماع و هو على نصيبين، فلما فارقه نور الدين سار الأشرف إليها، و أتاه صاحب الحصن، و صاحب الجزيرة، و صاحب دارا، و ساروا عن نصيبين نحو بلد البقعاء قريبا من بوشرى (١)، و سار نور الدين من تل أعفر إلى كفر زمار، و عزم على المطاولة ليتفرقوا، فأتاه كتاب من بعض مماليكه، يسمى جرديك (٢)، و قد أرسله يتجسس أخبارهم، فيقللهم فى عينه، و يطمعه فيهم، و يقول: إن أذنت لى لقيتهم بمفردى (٣)، فسار حينئذ نور الدين إلى بوشرى (٤) فوصل إليها من الغد الظهر و قد تعبت دوابه و أصحابه، و لقوا شدة من الحر، فنزل بالقرب منهم أقل من ساعة. و أتاه الخبر أن عساكر الخصم قد ركبوا، فركب هو و أصحابه و ساروا نحوهم، فلم يروا لهم أثرا، فعاد إلى خيامه، و نزل هو و عساكره، و تفرق كثير منهم فى القرى لتحصيل العلوفات و ما يحتاجون إليه، فجاءه من أخبره بحركة الخصم و قصده، فركب نور الدين و عسكره، و تقدّموا إليهم، و بينهم نحو فرسخين، فنزلوا و قد ازداد تعبهم، و الخصم مستريح، فالتقوا، و اقتتلوا، فلم تطل الحرب بينهم حتى انهزم عسكر نور الدين، و انهزم هو أيضا، و طلب الموصل، فوصل إليها فى أربعة أنفس، و تلاحق الناس، و أتى الأشرف و من معه، فنزلوا فى كفر زمار، و نهبوا البلاد نهبا عظيما، و أهلكوا ما لم يصلح لهم لا سيما مدينة بلد فإنهم أفحشوا فى نهبها.

(١-٤). بوشرى. P.C. uqs

(٢). خرديك: P.C.

(٣). محفر دمی: P.C. spU

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ١٩٤

و من أعجب ما سمعنا أن امرأة كانت تطبخ، فرأت [النهب] (١)، فألقت سوارين كانا فى يديها فى النار و هربت، فجاء بعض الجند و نهب ما فى البيت، فرأى فيه بيضا، فأخذه و جعله فى النار ليأكله، فحرّكها، فرأى السوارين فيها فأخذهما.

و طال مقامهم و الرسل تتردد في الصلح، فوقف الأمر على إعادة تلّ أعفر، و يكون الصلح على القاعدة الأولى [١]، و توقّف نور الدين في إعادة تلّ أعفر، فلمّا طال الأمر سلّمها إليهم، و اصططحوا أوائل سنة إحدى و ستمائة، و تفرقت العساكر من البلاد.

ذكر خروج الفرنج بالشام إلى بلد الإسلام و الصلح معهم

في هذه السنة خرج كثير من الفرنج في البحر إلى الشام، و سهل الأمر عليهم بذلك لملكهم قسطنطينية، و أرسوا بعكا، و عزموا على قصد البيت المقدس، حرسه [٢] الله، و استنقذه من المسلمين، فلمّا استراحوا بعكا ساروا فنهبوا كثيرا من بلاد الإسلام بنواحي الأردن، و سبوا، و فتكوا في المسلمين.

و كان الملك العادل بدمشق، فأرسل في جمع العساكر من بلاد الشام و مصر، و سار فنزل عند الطور بالقرب من عكا، لمنع الفرنج من قصد بلاد الإسلام، و نزل الفرنج بمرج عكا، و أغاروا على كفر كنا، فأخذوا كلّ من بها

[١] - الأولى.

[٢] - حرسها.

P.C.(١)

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ١٩٥

و أموالهم، و الأمراء يحثّون العادل على قصد بلادهم و نهبها، فلم يفعل، فبقوا كذلك إلى أن انقضت السنة، و ذلك سنة إحدى و ستمائة، فاصططح هو و الفرنج على دمشق و أعمالها، و ما بيد العادل من الشام، و نزل لهم عن جميع المناصفات في الصيد و الرملة و غيرها، و أعطاهم ناصرة و غيرها، و سار نحو الديار المصرية. فقصد الفرنج مدينة حماة، فلقبهم صاحبها ناصر الدين محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيّوب، فقاتلهم، و كان في قلّة، فهزموه و تبعوه إلى البلد، فخرج العامّة إلى قتالهم، فقتل الفرنج منهم جماعة و عاد الفرنج.

ذكر قتل كوكجة ببلاد الجبل

قد ذكرنا قبل تغلب كوكجة مملوك البهلوان على الرّيّ، و همذان، و بلد الجبل، و بقي إلى الآن، و كان قد اصطنع مملوكا آخر كان للبهلوان، اسمه إيدغمش، و قدّمه، و أحسن إليه، و وثق به، فجمع إيدغمش الجموع من المماليك و غيرهم، ثم قصد كوكجة، فتصافّا، و اقتتل الفريقان، فقتل كوكجة في الحرب، و استولى إيدغمش على البلاد، و أخذ معه أوزبك بن البهلوان، له اسم الملك، و إيدغمش هو المدبّر له و القيّم بأمر المملكة، و كان شهما، شجاعا، ظالما، و كان كوكجة عادلا حسن السيرة، رحمه الله.

ذكر وفاة ركن الدين بن قلج أرسلان و ملك ابنه بعده

و في هذه السنة، سادس ذى القعدة، توفي ركن الدين سليمان بن قلج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان بن سليمان بن قتلمش بن سلجوق، صاحب

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ١٩٦

ديار الروم، ما بين ملطية و قونية، و كان موته بمرض القولنج و سبعة أيّام، و كان قبل مرضه بخمسة أيّام قد غدر بأخيه صاحب أنكوريّة، و تسمّى أيضا أنقرة، و هي مدينة منيعة، و كان مشاقّا [١] لركن الدين، فحصره عدّة سنين حتّى ضعف و قلّت الأقوات عنده،

فأذعن بالتسليم على عوض يأخذه، فعوضه قلعة في أطراف بلده و حلف له عليها، فنزل أخوه عن مدينة أنقرة، و سلمها، و معه ولدان له، فوضع ركن الدين عليه من أخذه، و أخذ أولاده معه، فقتله، فلم يمض غير خمسة أيام حتى أصابه القولنج فمات. و اجتمع الناس بعده على ولده قلج أرسلان، و كان صغيراً، فبقى في الملك إلى بعض سنة إحدى و ستمائة، و أخذ منه، على ما نذكره هناك.

و كان ركن الدين شديداً على الأعداء، قيماً بأمر الملك، إلّا أن الناس كانوا ينسبونه إلى فساد الاعتقاد، كان يقال إنه يعتقد أن مذهبه مذهب الفلاسفة، و كان كل من يرمى بهذا المذهب يأوى إليه، و لهذه الطائفة منه إحسان كثير، إلّا أنه كان عاقلاً يحب ستر هذا المذهب لئلا ينفر الناس عنه.

حكى لى عنه أنه كان عنده إنسان، و كان يرمى بالزندقة و مذهب الفلاسفة، و هو قريب منه، فحضر يوماً عنده فقيه، فتناظرا، فأظهر شيئاً من اعتقاد الفلاسفة، فقام الفقيه إليه و لطمه و شتمه بحضرة ركن الدين، و ركن الدين ساكت، و خرج الفقيه فقال لركن الدين: يجري على مثل هذا في حضرتك و لا تنكره؟ فقال: لو تكلمت لقتلنا جميعاً، و لا يمكن إظهار ما تريده أنت، ففارقه.

[١] مشاققا.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ١٩٧

ذكر قتل الباطنية بواسط

في هذه السنة قتل الباطنية بواسط، و سبب كونهم بها [و قتلهم] أنه ورد إليها رجل يعرف بالزكم محمد بن طالب بن عصية، و أصله من القاروب «١»، من قرى واسط، و كان باطنياً ملحداً، و نزل مجاوراً لدور بني الهروي، و غشيه الناس، و كثر أتباعه. و كان ممن يغشاه رجل يعرف بحسن الصابوني، فاتفق أنه اجتاز بالسويقة، فكلّمه رجل نجار في مذهبهم، فردّ عليه الصابوني ردّاً غليظاً، فقام إليه النجار و قتله، و تسامع الناس بذلك، فوثبوا و قتلوا من وجدوا ممن ينتسب إلى هذا المذهب، و قصدوا دار ابن عصية و قد اجتمع إليه خلق من أصحابه، و أغلقوا الباب، و صعدوا إلى سطحها، و منعوا الناس عنهم، فصعدوا إليهم من بعض الدور من على السطح، و تحصّن من بقي في الدار بإغلاق الأبواب و الممارق، فكسروها، و نزلوا فقتلوا من وجدوا في الدار و أحرقوا، و قتل ابن عصية، و فتح الباب، و هرب منهم جماعة فقتلوا، و بلغ الخبر إلى بغداد، و انحدر فخر الدين أبو البدر بن أمسينا الواسطي لإصلاح الحال، و تسكين الفتنة.

ذكر استيلاء محمود على مرباط و غيرها من حضرموت

في هذه السنة استولى إنسان اسمه محمود بن محمد الحميري على مدينة مرباط و ظفار و غيرها من حضرموت، و إنّ ابتداء أمره أنه له مركب يكرهه

(١) القاروث. P.C.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ١٩٨

في البحر التجار، ثم وزر لصاحب مرباط، و فيه كرم و شجاعة و حسن سيرة، فلما توفى صاحب مرباط ملك المدينة بعده، و أطاعه الناس محبة له لكرمه و سيرته، و دامت أيامه بها، فلما كان سنة تسع عشرة و ستمائة خرب مرباط و ظفار، و بنى مدينة جديدة على ساحل البحر بالقرب من مرباط، و عندها عين عذبة كبيرة أجراها إلى المدينة، و عمل عليها سورا و خندقاً، و حصّنها و سمّاها

الأحمدية، و كان يحب الشعر، و يكثر الجائزة عليه.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة خرج أسطول من الفرنج إلى الديار المصرية، فنهبوا مدينة فوه، و أقاموا خمسة أيام يسبون و ينهبون، و عساكر مصر مقابلهم، بينهم النيل، ليس لهم وصول إليهم لأنهم لم تكن لهم سفن. و فيها كانت زلزلة عظيمة عمّت أكثر البلاد مصر، و الشام، و الجزيرة، و بلاد الروم، و صقلية، و قبرس، و وصلت إلى الموصل و العراق و غيرهما، و خرب من مدينه صور سورها و أثرت في كثير من الشام. و فيها، في رجب، اجتمع جماعة من الصوفية برباط شيخ الشيوخ ببغداد و فيهم صوفي اسمه أحمد بن إبراهيم الداري من أصحاب شيخ الشيوخ عبد الرحيم بن إسماعيل، رحمهم الله، و معهم مغن يغنى و يقول الشعر: عويدلتى أقصرى كفى بمشيبي عدل شباب كأن لم يكن و شيب كأن لم يزل و حق ليالى الوصال أواخرها و الأول و صفرة لون المحب عند استماع العذل لئن عاد عيشي بكم حلا [١] العيش لى و اتصل

[١] حلى.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ١٩٩

فتحرّك الجماعة، عادة الصوفية في السماع، و طرب الشيخ المذكور، و تواجد، ثم سقط مغشياً عليه، فحرّكوه فإذا [١] هو ميت، فصلّى عليه و دفن، و كان رجلاً صالحاً.

و فيها توفى أبو الفتوح أسعد بن محمود العجلي، الفقيه الشافعي، بأصفهان في صفر، و كان إماماً فاضلاً. و في رمضان منها توفى قاضى هراء عمدة الدين الفضل بن محمود بن صاعد السّاوى، و ولى بعده ابنه صاعد.

[١] فإذا.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٢٠٠

٦٠١ ثم دخلت سنة إحدى و ستمائة

ذكر ملك كيخسرو بن قلع أرسلان بلاد الروم من ابن أخيه

في هذه السنة، في رجب، ملك غياث الدين كيخسرو بن قلع أرسلان بلاد الروم التي كانت بيد أخيه ركن الدين سليمان و انتقلت بعد موته إلى ابنه قلع أرسلان بن ركن الدين.

و كان سبب ملك غياث الدين لها أنّ ركن الدين كان قد أخذ ما كان لأخيه غياث الدين، و هو مدينة قونية، فهرب غياث الدين منه، و قصد الشام إلى الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين، صاحب حلب، فلم يجد عنده قبولا، و قصّر به، فسار من عنده، و تقلّب في البلاد إلى أن وصل إلى القسطنطينية، فأحسن إليه ملك الروم و أقطعه و أكرمه، فأقام عنده، و تزوّج بانه بعض البطارقة الكبار.

و كان لهذا البطريق قلعة من عمل القسطنطينية، فلما ملك الفرنج القسطنطينية هرب غياث الدين إلى حميه، و هو بقلعته، فأنزله عنده و قال له: نشترك في هذه القلعة، و نقنع بدخلها. فأقام عنده، فلما مات أخوه سنة ستمائة، كما ذكرناه، اجتمع الأمراء «١» على ولده، و

خالفهم الأتراك الأوج «٢»، و هم كثير بتلك البلاد، و أنف من أتباعهم، و أرسل إلى غياث الدين يستدعيه إليه

(١). الأمر: P.C. spU

(٢). و خالفهم الأمير و هو من الأتراك الأوج: P.C. spU

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٢٠١

ليملكه البلاد، فسار إليه، فوصل في جمادى الأولى، و اجتمع به، و كثر جمعه، و قصد مدينة قونية ليحصرها، و كان ولد ركن الدين و العساكر بها، فأخرجوا إليه طائفة من العسكر، فلقوه فهزموه، فبقى حيران لا يدري أين يتوجه، فقصد بلدة صغيرة يقال لها أوكرم بالقرب من قونية.

فقدّر الله تعالى أن أهل مدينة أقصرا وثبوا على الوالى فأخرجوه منها و نادوا بشعار غياث الدين، فلما سمع أهل قونية بما فعله أهل أقصرا قالوا:

نحن أولى من فعل هذا، لأنه كان حسن السيرة فيهم لما كان مالكمهم، فنادوا باسمه أيضا، و أخرجوا من عندهم، و استدعوه، فحضر عندهم، و ملك المدينة و قبض على ابن أخيه و من معه، و آتاه الله الملك، و جمع له البلاد جميعها في ساعة واحدة، فسبحان من إذا أراد أمرا هيا أسابه.

و كان أخوه قيصر شاه الذى كان صاحب ملطية، لما أخذها ركن الدين منه سنة سبع و تسعين [و خمسمائة]، خرج [١] منها، و قصد الملك العادل أبا بكر بن أيوب، لأنه كان تزوج ابنته مستنصرها به، فأمره بالمقام بمدينة الزها، فأقام بها، فلما سمع بملك أخيه غياث الدين سار إليه، فلم يجد عنده قبولا، إنما أعطاه شيئا و أمره بمفارقة البلاد، فعاد إلى الزها و أقام بها، فلما استقرّ ملك [غياث الدين سار إليه الأفضل صاحب] «١» سميساط، فلقيه بمدينة قيسارية «٢»، و قصده أيضا نظام الدين صاحب خرت برت، و صار معه، فعظم شأنه و قوى أمره.

[١]- فخرج

(١). P.C.

(٢). فلقيه بمدينة قيسارية. P.C. nitruseD

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٢٠٢

ذكر حصر صاحب آمد خرت برت و رجوعه عنها

كانت خرت برت لعقاد الدين بن قرا أرسلان، فمات، و ملكها بعده ابنه نظام الدين أبو بكر، و التجأ إلى ركن الدين بن قلع أرسلان، و بعده إلى أخيه غياث الدين ليمتنع به من ابن عمه ناصر الدين محمود بن محمد بن قرا أرسلان، فامتنع به.

و كان صاحب آمد ملتجئا إلى الملك العادل، و فى طاعته، و حضر مع ابنه الملك الأشرف قتال صاحب الموصل على شرط أنه يسير معه فى عساكره، و يأخذ له خرت برت، و إنما طمع فيها بموت ركن الدين، فلما دخلت هذه السنة طلب ما كان استقرّ الأمر عليه، فسار معه الملك الأشرف و عساكر ديار الجزيرة من سنجار، و جزيرة ابن عمر، و الموصل، و غيرها، و كان نزولهم عليها فى شعبان، و فى رمضان تسلّموا ربضها، و كان صاحبها قد اجتمع بغياث الدين، بعد أن ملك البلاد الرومية، و صار معه فى طاعته، فلما نزل صاحب آمد على خرت برت خاطب صاحبها غياث [١] الدين ينجده بعسكر يرخلهم عنه، فجهّز عسكرا كثيرا عدّتهم ستّة آلاف فارس، و

سيرهم [مع] الملك الأفضل علي بن صلاح الدين و هو صاحب سميساط، فلما وصل العسكر إلى ملطية فارق صاحب آمد و من معه من خرت برت، و نزلوا إلى الصحراء، و حصروا البحيرة المعروفة ببخيرة سمنين و بها حصنان أحدهما لصاحب خرت برت، فحصره و زاحفه، ففتحه ثاني ذى الحجة.

و وصل صاحب خرت برت مع العسكر الرومي إلى خرت برت، فرحل صاحب آمد عن البحيرة و قوى الحصن الذي فتحه فيها، فأزاح علقته،

[١] لغياث.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٢٠٣

و رحل إلى خلف مرحلة و نزل، و ترددت الرسل، و العسكر الرومي يطلب البحيرة، و صاحب آمد يمتنع من ذلك، فلما طال الأمر بقي الحصن بيد صاحب آمد، و انفصل العسكران، و عاد كل فريق إلى بلاده.

ذكر الفتن ببغداد

في سابع عشر رمضان جرت فتنه ببغداد بين أهل باب الأزج و أهل المأمونية، و سببها أن أهل باب الأزج قتلوا سبعا و أرادوا أن يطوفوا به، فمنعهم أهل المأمونية، ف وقعت الفتنه بينهما عند البستان الكبير، فجرح منهم خلق كثير، و قتل جماعة، و ركب صاحب الباب لتسكين الفتنه، فجرح فرسه، فعاد.

فلما كان الغد سار أهل المأمونية إلى أهل باب الأزج، ف وقعت بينهم فتنه شديدة و قتال بالسيوف و النشاب، و اشتد الأمر، فنهبت الدور القريبة منهم، و سعى الركن ابن عبد القادر و يوسف العقاب في تسكين الناس، و ركب الأتراك، فصاروا يبيتون تحت المنظره، فامتنع أهل الفتنه من الاجتماع، فسكنوا.

و في العشرين منه جرت فتنه بين أهل قطفتا و القرية، من محال الجانب الغربي، بسبب قتل سبع أيضا، أراد أهل قطفتا أن يجتمعوا و يطوفوا به، فمنعهم أهل القرية أن يجوزوا به عندهم، فاقتتلوا، و قتل بينهم عدة قتلى، فأرسل إليهم عسكر من الديوان لتلافي الأمر و منع الناس عن الفتنه، فامتنعوا.

و في تاسع رمضان كانت فتنه بين أهل سوق السلطان و الجعفرية، منشؤها أن رجلين من المحلّتين اختصما و توعد كل واحد منهما صاحبه، فاجتمع

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٢٠٤

أهل المحلّتين، و اقتتلوا في مقبرة الجعفرية، فسير إليهم من الديوان من تلافي الأمر و سكّنه، فلما كثرت الفتن رتب أمير كبير من ممالك الخليفة، و معه جماعة كثيرة، فطاف في البلد، و قتل جماعة ممن فيه شبهه، فسكن الناس.

ذكر غارة الكرج على بلاد الإسلام

في هذه السنة أغارت الكرج على بلاد الإسلام من ناحية أذربيجان، فأكثروا العيث و الفساد و النهب و السبي، ثم أغاروا على ناحية خلاط من أرمينية، فأوغلوا في البلاد حتى بلغوا ملاز كرد، و لم يخرج إليهم أحد من المسلمين يمنعهم، فجاسوا خلال البلاد ينهبون و يأسرون و يسبون، و كلما [تقدّموا] «١» تأخّرت عساكر المسلمين عنهم، ثم إنهم رجعوا، فالله تعالى ينظر إلى الإسلام و أهله، و ييسر لهم من يحمي بلادهم، و يحفظ ثغورهم، و يغزو أعداءهم.

و فيها أغارت [١] الكرج [على] بلاد خلاط، فأتوا إلى أرجيش و نواحيها، فنهبوا، و سبوا، و خزّبوا البلاد، و ساروا إلى حصن التين «٢»،

من أعمال خلاط، و هو مجاور أرزن الروم، فجمع صاحب خلاط عسكره و سار إلى ولد قلعج أرسلان، صاحب أرزن الروم، فاستنجده على الكرج، فسير عسكره جميعه معه، فتوجهوا نحو الكرج، فلقوهم، و تصافوا، و اقتتلوا، فانهزمت

[١]- غارت.

(١). P.C.

(٢). حصن التى. A.

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٢٠٥

الكرج، و قتل زكرى الصغير، و هو من أكابر مقدّميه، و هو الذى كان مقدّم هذا العسكر من الكرج و المقاتل بهم، و غنم المسلمون ما معهم من الأموال و السلاح و الكراع و غير ذلك، و قتلوا منهم خلقا كثيرا، و أسروا كذلك، و عاد إلى بلاده.

ذكر الحرب بين أمير مكّة و أمير المدينة

و فى هذه السنه أيضا كانت الحرب بين الأمير قتاده الحسنى، أمير مكّة، و بين الأمير سالم بن قاسم الحسينى، أمير المدينة، و مع كلّ واحد منهما جمع كثير، فاقتتلوا قتالا شديدا، و كانت الحرب بذى الحليفة، بالقرب من المدينة، و كان قتاده قد قصد المدينة ليحصرها و يأخذها، فلقيه سالم بعد أن قصد الحجره، على ساكنها الصلاة و السلام، فصلّى عندها، و دعا و سار فلقيه، فانهزم قتاده، و تبعه سالم إلى مكّة فحصره بها، فأرسل قتاده إلى من مع سالم من الأمراء، فأفسدهم عليه، فمالوا إليه و حالفوه، فلمّا رأى سالم ذلك رحل عنه عائدا إلى المدينة و عاد أمر قتاده قويا [١].

ذكر عدّة حوادث

فى هذه السنه، فى يوم الجمعة رابع عشر جمادى الآخرة، قطعت خطبة ولّى العهد، و أظهر خطّ قرئ بدار الوزير نصير الدين ناصر بن مهدى الرازى، و إذا هو خطّ ولّى العهد الأمير أبى نصر ابن الخليفة إلى أبيه الناصر

[١] قوى.

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٢٠٦

لدين الله أمير المؤمنين، يتضمّن العجز عن القيام بولاية العهد، و يطلب الإقالة، و شهد عدلان أنّه خطّه، و أنّ الخليفة أقاله، و عمل بذلك محضر شهد فيه القضاء و العدول و الفقهاء.

و فى هذه السنه ولدت امرأة ببغداد ولدا له رأسان و أربع أرجل و يدان، و مات فى يومه.

و فيها أيضا وقع الحريق فى خزائن السلاح التى للخليفة، فاحترق فيها منه شىء كثير، و بقيت النار يومين، و سار ذكر هذا الحريق فى البلدان، فحمل الملوک من السلاح إلى بغداد شيئا كثيرا.

و فى هذه السنه وقع الثلج بمدينة هراة أسبوعا كاملا، فلمّا سكن جاء بعده سيل من الجبل من باب سرا، خرّب كثيرا من البلد، و رمى من حصنه قطعة عظيمة، و جاء بعده برد شديد أهلك الثمار، فلم يكن بها تلك السنه شىء إلّا اليسير.

و فيها، فى شعبان، خرج عسكر من الغوريّة مقدّمهم الأمير زنكى بن مسعود إلى مدينة مرو، فلقيههم نائب خوارزم شاه بمدينة سرخس، و هو الأمير جقر، و كمن لهم كمينًا، فلمّا وصلوا إليه هزمهم، و أخذ وجوه الغوريّة أسرى، فلم يفلت منهم إلّا القليل، و أخذ أميرهم

زنكى أسيرا، فقتل صبيرا، وعلقت رؤوسهم بمرؤ أياما.

وفيها، فى ذى القعدة، سار الأمير عماد الدين عمر بن الحسين الغورى، صاحب بلخ، إلى مدينة ترمذ، وهى للأتراك الخطا، فافتتحها عنوة، وجعل بها ولده الأكبر، وقتل من بها من الخطا، ونقل العلويين منها إلى [بلخ] «١»، وصارت ترمذ دار إسلام، وهى من أمنع الحصون وأقواها.

وفىها توفى صدر الدين السجزي شيخ خانكاه السلطان بهراء.

(١). P.C.

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٢٠٧

وفىها، فى صفر، توفى أبو على الحسن بن محمد بن عبدوس الشاعر القفطى، وهو من الشعراء المجيدين، واجتمعت به بالموصل، وردها مادحا لصاحبها نور الدين أرسلان شاه وغيره من المقدمين، وكان نعم الرجل، حسن الصحبة والعشرة.

وفىها اجتمع ببغداد رجلان أعميان على رجل أعمى أيضا، وقتلاه بمسجد طمعا فى أن يأخذا منه شيئا، فلم يجدا معه ما يأخذانه، وأدركهما الصباح، فهربا من الخوف يريدان الموصل، ورئى الرجل مقتولا، ولم يعلم قاتله، فاتفق أن بعض أصحاب الشحنة اجتاز من الحريم فى خصومه جرت، فرأى الرجلين الضريرين، فقال لمن معه: هؤلاء الذين قتلوا الأعمى، يقوله مزحا، فقال أحدهما: هذا والله قتله، فقال الآخر: بل أنت قتلتها، فأخذا إلى صاحب الباب، فأقرا، فقتل أحدهما، وصلب الآخر على باب المسجد الذى قتل فيه الرجل.

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٢٠٨

٦٠٢ ثم دخلت سنة اثنتين و ستمائة

ذكر الفتنة بهراء

فى هذه السنة، فى المحرم، ثار العامة بهراء، وجرت فيه فتنة عظيمة بين أهل السوقين: الحدادين والصفارين، قتل فيها جماعة، ونهبت الأموال، وخربت الديار، فخرج أمير البلد ليكفهم، فضربه بعض العامة بحجر ناله منه ألم شديد، واجتمع الغوغاء عليه، فرفع إلى القصر الفيروزي، واختفى أياما إلى أن سكنت الفتنة ثم ظهر.

ذكر قتال شهاب الدين الغورى بنى كوكر

قد ذكرنا انهزام شهاب الدين محمد بن سام الغورى، صاحب غزنه، من الخطا الكفار، وأن الخبر ظهر ببلاده أنه عدم من المعركة ولم يقف أصحابه له على خبر، فلما اشتهر هذا الخبر ثار المفسدون فى أطراف البلاد، وكان ممن أفسد دانيال، صاحب جبل الجودى، فإنه كان قد أسلم، فلما بلغه الخبر ارتد عن الإسلام، وتابع بنى كوكر، وكان فى جملة الخارجين عليه بنو كوكر ومساكنهم فى جبال بين لهاوور والمولتان حصينة منيعة، وكانوا قد أطاعوا شهاب الدين، وحملوا له الخراج، فلما بلغهم خبر عدمه ثاروا فيمن معهم من قبائلهم وعشائريهم، وأطاعهم صاحب

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٢٠٩

جبل الجودى وغيره من القاطنين بتلك الجبال، ومنعوا الطريق من لهاوور وغيرها إلى غزنه.

فلما فرغ شهاب الدين من قتل مملوكه أيبك باك، وقد ذكرناه، أرسل إلى نائبة بلهاوور والمولتان، وهى محمد بن أبى على، يأمره بحمل المال لسنة ستمائة، وسنة إحدى و ستمائة، ليتجهز به لحرب الخطا، فأجاب أن أولاد كوكر قد قطعوا الطريق، ولا يمكنه إرسال

المال، و حضر جماعة من التجار، و ذكروا أنّ قفلا كبيرا أخذه أولاد كوكر، و لم ينج منه إلّا القليل، فأمر شهاب الدين مملوكه أيبك، مقدّم عساكر الهند، أن يرسل بنى كوكر يدعوهم إلى الطاعة، و يتهدّدهم إن لم يجيبوا إلى ذلك، ففعل ذلك، فقال ابن كوكر: لأى معنى لم يرسل السلطان إلينا رسولا؟ فقال له الرسول: و ما قدركم أنتم حتّى يرسل إليكم، و إنّما مملوكه يبصّركم رشدكم، و يهدّدكم.

فقال ابن كوكر: لو كان شهاب الدين حيّا لراسلنا، و قد كنّا ندفع الأموال إليه، فحيث عدم فقل لأيبك يترك لنا لهاوور و ما والاها، و فرشابور، و نحن نصالحه، فقال الرسول: أنفذ أنت جاسوسا تثق به فيأتيك [١] بخبر شهاب الدين من فرشابور، فلم يصغ إلى قوله، فردّه، فعاد و أخبر بما سمع و رأى، فأمر شهاب الدين مملوكه قطب الدين أيبك بالعود إلى بلاده، و جمع العساكر، و قاتل بنى كوكر، فعاد إلى دهلي، و أمر عساكره بالاستعداد، فأقام شهاب الدين فى فرشابور إلى نصف شعبان من سنه إحدى و ستّمائة، ثم عاد إلى غزنه فوصلها أوّل رمضان، و أمر بالنداء فى العساكر بالتجهّز لقتال الخطا، و أنّ المسير يكون أوّل شوال، فتجهّزوا لذلك. فاتفق أنّ الشكايات كثرت من بنى كوكر و ما يتعهدونه [٢] من إخافه السبل

[١] إليه يأتىك.

[٢] يعتهدونه.

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٢١٠

و أنّهم قد أنفذوا شحنة إلى البلاد، و وافقهم إلى البلاد، و وافقهم أكثر الهنود، و خرجوا من طاعة أمير لهاوور و المولتان و غيرهما. و وصل كتاب الوالى يذكر ما قد دهمه منهم، و أنّ عمّاله قد أخرجهم بنو كوكر، و جبوا الخراج، و أنّ ابن كوكر مقدّمهم أرسل إليه ليترك له لهاوور و البلاد و الفيلة و يقول أن يحضر شهاب و إلّا قتله، و يقول: إن لم يحضر السلطان شهاب الدين بنفسه و معه العساكر و إلّا خرجت البلاد من يده.

و تحدّث الناس بكثرة من معهم من الجموع، و ما لهم من القوّة، فتغير عزم شهاب الدين حينئذ عن غزو الخطا، و أخرج خيامه و سار عن غزنه خامس ربيع الأوّل سنة اثنتين و ستّمائة، فلما سار و أبعد انقطعت أخباره عن الناس بغزنه و فرشابور، حتّى أرجف الناس بانهزاه.

و كان شهاب الدين لما سار عن فرشابور أتاه خبر ابن كوكر أنّه نازل فى عساكره ما بين جيلم و سودره، فجذّ السير إليه، فدهمه قبل الوقت الذى كان يقدر وصوله فيه، فاقتلوا قتالا شديدا يوم الخميس لخمس بقين من ربيع الآخر، من بكرة إلى العصر، و اشتدّ القتال، فبينما هم فى القتال أقبل قطب الدين أيبك فى عساكره، فنادوا بشعار الإسلام، و حملوا حملة صادقة، فانهزم الكوكريّة و من انضم إليهم، و قتلوا بكلّ مكان، و قصدوا أجمه هناك، فاجتمعوا بها، و أضرموا نارا، فكان أحدهم يقول لصاحبه:

لا تترك المسلمين يقتلونك، ثم يلقى نفسه فى النار فيلقى صاحبه نفسه بعده فيها، فعصم الفناء قتلا و حرقا، ف بُعِدَ لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ «١».

و كان أهلهم و أموالهم معهم لم يفارقوها، فغنم المسلمون منهم ما لم يسمع بمثله، حتّى إنّ المماليك كانوا يباعون كلّ خمسة دينار ركنى و نحوه، و هرب

(١). ١٤ خ ١١. ROC

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٢١١

ابن كوكر بعد أن قتل إخوته و أهله.

و أما ابن دانيال، صاحب جبل الجودي، فإنه جاء ليلاً إلى قطب الدين أبيك، فاستجار به، فأجاره، و شفع فيه إلى شهاب الدين، فشفّعه فيه، و أخذ منه قلعة الجودي، فلما فرغ منهم سار نحو لهاور ليأمن أهلها و يسكن روعهم، و أمر الناس بالرجوع إلى بلادهم و التجهّز لحرب بلاد الخطا، و أقام شهاب الدين بلهاور إلى سادس عشر رجب، و عاد نحو غزنه، و أرسل إلى بهاء الدين سام، صاحب باميان، ليتجهّز للمسير إلى سمرقند، و يعمل جسراً ليعبر هو و عساكره عليه.

ذكر الظفر بالتيراهية

كان من جملة الخارجين المفسدين أيضاً على شهاب الدين التيراهية، فإنهم خرجوا إلى حدود سوران و مكرهان للغارة على المسلمين، فأوقع بهم نائب تاج الدين الدز، مملوك شهاب الدين بتلك الناحية، و يعرف بالحلحي، و قتل منهم خلقاً كثيراً، و حمل رءوس المعروفين فعلقت ببلاد الإسلام.

و كانت فتنة هؤلاء التيراهية على بلاد الإسلام عظيمة قديماً و حديثاً، و كانوا إذا وقع بأيديهم أسير من المسلمين عذبوه بأنواع العذاب. و كان أهل فرشابور معهم في ضرّ شديد لأنهم يحيطون بتلك الولاية من جوانبها، لا سيما آخر أيام بيت سبكتكين، فإن الملوك ضعفوا و قوى هؤلاء عليهم، و كانوا يغيرون على أطراف البلاد، و كانوا كفّاراً لا دين لهم يرجعون إليه، و لا مذهب يعتمدون عليه، إلّا أنهم كانوا إذا ولد لأحدهم بنت وقف على باب داره و نادى: من يتزوج هذه؟ من يقبلها؟ فإن أجابه

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٢١٢

أحد تركها، و إلّا قتلها، و يكون للمرأة عدّة أزواج، فإذا كان أحدهم عندها جعل مداسه على الباب، فإذا جاء غيره من أزواجها و رأى مداسه عاد.

و لم يزلوا كذلك حتّى أسلم طائفة منهم آخر أيام شهاب الدين الغوري، فكفّوا عن البلاد.

و سبب إسلامهم أنهم أسروا إنساناً من فرشابور، فعذبوه فلم يمت، و دامت أيامه عندهم، فأحضره يوماً مقدّمهم و سأله عن بلاد الإسلام، و قال له: لو حضرت أنا عند شهاب الدين ما ذا كان يعطيني؟ فقال له المعلم: كان يعطيك الأموال و الأقطاع و يرّد إليك حكم جميع البلاد التي لكم، فأرسله إلى شهاب الدين في الدخول في الإسلام، فأعاده و معه رسول بالخلع و المنشور بالأقطاع، فلما وصل إليه الرسول سار هو و جماعة من أهله إلى شهاب الدين، فأسلموا و عادوا، و كان للناس بهم راحة، فلما كانت هذه الفتنة و اختلفت البلاد نزل أكثرهم من الجبال، فلم يكن لهذه الطائفة بهم قدرة ليمنعوهم، فأفسدوا و عملوا [١] ما ذكرناه.

ذكر قتل شهاب الدين الغوري

في هذه السنة، أوّل ليلة من شعبان، قتل شهاب الدين أبو المظفر محمّد ابن سام الغوري، ملك غزنه و بعض خراسان، بعد عوده من لهاور، بمنزل يقال له دميل، وقت صلاة العشاء.

و كان سبب قتله أن نفرا من الكفار الكوكريّة لموا عسكره عازمين على قتله، لما فعل بهم من القتل و الأسر و السبي، فلما كان هذه الليلة تفرّق عنه

[١] و أعملوا.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٢١٣

أصحابه، و كان قد عاد و معه من الأموال ما لا يحّد، فإنه كان عازماً على قصد الخطا، و الاستكثار من العساكر، و تفريق المال فيهم، و قد أمر عساكره بالهند باللاحاق به، و أمر عساكره الخراسانية بالتجهّز إلى أن يصل إليهم، فأتاه الله من حيث لم يحتسب، و لم يغن عنه

ما جمع من مال و سلاح و رجال، لكن كان على نية صالحة من قتال الكفار.

فلما تفرق عنه أصحابه، و بقي وحده في خركاه، ثار أولئك نفر، فقتل أحدهم بعض الحراس بباب سرادق شهاب الدين، فلما قتلوه صاح، فثار أصحابه من حول السرادق لينظروا ما بصاحبهم، فأخلوا موافقهم [١]، و كثر الزحام، فاغتنم الكوكرية غفلتهم عن الحفظ، فدخلوا على شهاب الدين و هو في الخركاه، فضربوه بالسكاكين اثنتين و عشرين ضربة فقتلوه، فدخل عليه أصحابه، فوجدوه على مصلاه قتيلا و هو ساجد، فأخذوا أولئك الكفار فقتلوه، و كان فيهم اثنان مختونان.

و قيل إنما قتله الإسماعيلية لأنهم خافوا خروجه إلى خراسان، و كان له عسكر يحاصر بعض قلاعهم على ما ذكرناه.

فلما قتل اجتمع الأمراء عند وزيره مؤيد الملك بن خوجا سجستان، فتحالفوا على حفظ الخزانة و الملك، و لزوم السكينة إلى أن يظهر من يتولاه، و أجلسوا شهاب الدين و خيطوا جراحه و جعلوه في المحفة و ساروا به، و رتب الوزير الأمور، و سكن الناس بحيث لم ترق محجمة دم، و لم يوجد في أحد شيء.

و كانت المحفة محفوفة بالحشم، و الوزير، و العسكر، و الشمس، على حاله في حياته، و تقدم الوزير إلى أمير داذ العسكر بإقامته السياسة، و ضبط

[١] موافقهم.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٢١٤

العسكر، و كانت الخزانة التي في صحبته ألفى حمل و مائتي حمل، و شغب الغلمان الأتراك الصغار لينهبوا المال، فمنعهم الوزير و الأمراء الكبار من المماليك، و هو صونج صهر الدز و غيره، و أمروا كل من له إقطاع عند قطب الدين أبيك مملوك شهاب الدين ببلاد الهند بالعود إليه، و فرقوا فيهم أموالا كثيرة فعادوا.

و سار الوزير و معه من له إقطاع و أهل بغزنه، و علموا أنه يكون بين غياث الدين محمود بن غياث الدين أخى شهاب الدين الأكبر، و بين بهاء الدين صاحب باميان، و هو ابن أخت شهاب الدين، حروب شديدة، و كان ميل الوزير و الأتراك و غيرهم إلى غياث الدين محمود، و كان الأمراء الغورية يميلون إلى بهاء الدين سام، صاحب باميان، فأرسل كل طائفة إلى من يميلون إليه يعزفونه قتل شهاب الدين و جليته الأمور، و جاء بعض المفسدين من أهل غزنه، فقال للمماليك: إن فخر الدين الرازي قتل مولاكم لأنه هو أوصل من قتله، بوضع من خوارزم شاه، فثاروا به ليقتلوه، فهرب، و قصد مؤيد الملك الوزير، فأعلمه الحال فسيره سرا إلى مأمنه.

و لما وصل العسكر و الوزير إلى فرشابور اختلفوا، فالغورية يقولون نسير إلى غزنه على طريق مكرهان، و كان غرضهم أن يقربوا من باميان ليخرج صاحبها بهاء الدين سام فيملك الخزانة، و قال الأتراك بل نسير على طريق سوران، و كان مقصودهم أن يكونوا قريبا من تاج الدين الدز مملوك شهاب الدين، و هو صاحب كرمان، مدينة بين غزنه و لهاوور، و ليست بكرمان التي تجاور بلاد فارس، ليحفظ الدز الخزانة، و يرسلوا من كرمان إلى غياث الدين يستدعونه إلى غزنه و يملكونه.

و كثر بينهم الاختلاف، حتى كادوا يقتتلون [١]، فتوصل مؤيد الملك مع

[١] يختلفون.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٢١٥

الغورية حتى أذنوا له و للأتراك بأخذ الخزانة و المحفة التي فيها شهاب الدين و المسير على كرمان، و ساروا هم على طريق مكرهان، و لقي الوزير و من معه مشقة عظيمة، و خرج عليهم الأمم الذين في تلك الجبال التيراهية و أوغان و غيرهم، فنالوا من أطراف العسكر إلى أن وصلوا إلى كرمان، فخرج إليهم تاج الدين الدز يستقبلهم، فلما عين المحفة، و فيها شهاب الدين ميتا، نزل و قبل الأرض على

عادته في حياة شهاب الدين، و كشف عنه، فلما رآه ميتاً مَرَّق ثيابه و صاح و بكى فأبكى الناس، و كان يوماً مشهوداً.

ذكر ما فعله الدز

كان الدز من أوّل مماليك شهاب الدين و أكبرهم و أقدمهم، و أكبرهم محلاً عنده، بحيث إنّ أهل شهاب الدين كانوا يخدمونه و يقصدونه في أشغالهم، فلما قتل صاحبه طمع أن يملك غزنه، فأول ما عمل أنه سأل الوزير مؤيد الملك عن الأموال و السلاح و الدواب، فأخبره بما خرج من ذلك و بالباقي معه، فأنكر الحال، و أساء أدبه في الجواب، و قال: إنّ الغوريّة قد كاتبوا بهاء الدين سام صاحب باميان ليملكوه غزنه، و قد كتب إلى غياث الدين محمود، و هو مولاي، يأمرني أننى لا أترك أحداً يقرب من غزنه، و قد جعلني نائبة فيها و في سائر الولايات المجاورة لها لأنّه مشغول بأمر خراسان.

و قال للوزير: إنّّه قد أمرني أيضاً أن أتسلم الخزانة منك، فلم يقدر على الامتناع لميل الأتراك إليه، فسلمها إليه، و سار بالمحفّة و المماليك و الوزير إلى غزنه، فدفن شهاب الدين في التربة بالمدرسة التي أنشأها و دفن ابنته فيها، و كان وصوله إليها في الثاني و العشرين من شعبان من السنة.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٢١٦

ذكر بعض سيرة شهاب الدين

كان، رحمه الله، شجاعاً مقداماً، كثير الغزو إلى بلاد الهند، عادلاً في رعيته، حسن السيرة فيهم، حاكماً بينهم بما يوجب الشرع المطهر، و كان القاضي بغزنه يحضر داره كلّ أسبوع السبت و الأحد و الاثنين و الثلاثاء، و يحضر معه أمير حاجب، و أمير داذ، و صاحب البريد، فيحكم القاضي، و أصحاب السلطان ينقذون أحكامه على الصغير و الكبير، و الشريف و الوضيع، و إن طلب أحد الخصوم الحضور عنده أحضره و سمع كلامه، و أمضى عليه، أو له، حكم الشرع، فكانت الأمور جارية على أحسن نظام.

حكى لى عنه أنّه لقيه صبيّ علويّ، عمره نحو خمس سنين، فدعا له، و قال: لى خمسة أيام ما أكلت شيئاً، فعاد من الركوب لوقته، و معه الصبيّ، فنزل في داره، و أطعم العلويّ أطيب الطعام بحضرته، ثم أعطاه مالا، بعد أن أخضر أباه و سلّمه إليه، و فرّق في سائر العلويّين مالا عظيماً.

و حكى عنه أنّ تاجراً من مراغة كان بغزنه، و له على بعض مماليك شهاب الدين دين مبلغه عشرة آلاف دينار، فقتل المملوك في حرب كانت له، فرفع التاجر حاله، فأمر بأن يقرّ إقطاع المملوك بيد التاجر إلى أن يستوفى دينه، ففعل ذلك.

و حكى عنه أنّه كان يحضر العلماء بحضرته، فيتكلّمون في المسائل الفقهيّة و غيرها، و كان فخر الدين الرازى يعظ في داره، فحضر يوماً فوعظ، و قال في آخر كلامه: يا سلطان، لا سلطانك يبقى و لا تلبس الرازى، و إنّ مردّنا إلى الله! فبكى شهاب الدين حتّى رحمه الناس لكثرة بكائه.

و كان رقيق القلب، و كان شافعيّ المذهب مثل أخيه، قيل: و كان حنفيّاً، و الله أعلم.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٢١٧

ذكر مسير بهاء الدين سام إلى غزنه و موته

لما ملك غياث الدين باميان أقطعها ابن عمّه شمس الدين محمد بن مسعود، و زوّجه أخته، فأتاه منها ولد اسمه سام، فبقى فيها إلى أن توفّى، و ملك بعده ابنه الأكبر، و اسمه عباس، و أمّه تركيّة، فغضب غياث الدين و أخوه شهاب الدين من ذلك، و أرسلوا من أحضر عبّاساً عندهما، فأخذوا الملك منه، و جعلوا ابن أختهم سام ملكاً على باميان، و تلقّب بهاء الدين، و عظم شأنه و محلّه، و جمع الأموال

ليملك البلاد بعد خاليه، و أحبه الغوريّة حبّا شديداً و عظّمه.

فلما قتل خاله شهاب الدين سار بعض الأمراء الغوريّة إلى بهاء الدين سام فأخبره بذلك، فلما بلغه قتله كتب إلى من بغزته من الأمراء الغوريّة يأمرهم بحفظ البلد، و يعرفهم أنّه على الطريق سائر إليهم.

و كان والى قلعه غزنه، و يعرف بأمر داذ، قد أرسل ولده إلى بهاء الدين سام يستدعيه إلى غزنه، فأعاد جوابه أنّه تجهّز، و يصل إليه، و يعده الجميل و الإحسان.

و كتب بهاء الدين إلى علاء الدين محمد بن أبي عليّ ملك الغور يستدعيه إليه، و إلى غياث الدين محمود بن غياث الدين، و إلى ابن خرميل، و إلى هراء، يأمرهما بإقامة الخطبة له، و حفظ ما بأيديهما من الأعمال، و لم يظنّ أنّ أحدا يخالفه، فأقام أهل غزنه ينتظرون وصوله، أو وصول غياث الدين محمود، و الأتراك، و يقولون: لا نترك غير ابن سيدنا، يعنون غياث الدين، يدخل غزنه.

و الغوريّة يتظاهرون بالميل إلى بهاء الدين و منع غيره، فسار من باميان إلى

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٢١٨

غزنه في عساكره، و معه ولداه علاء الدين محمد و جلال الدين، فلما سار عن باميان مرحلتين وجد صداعا، فنزل يستريح، ينتظر خفته عنه، فزاد الصداع، و عظم الأمر عليه، فأيقن بالموت، فأحضر ولديه، و عهد إلى علاء الدين، و أمرهما بقصد غزنه، و حفظ مشايخ الغوريّة، و ضبط الملك، و بالرفق بالرعايا، و بذل الأموال، و أمرهما أن يصلحا غياث الدين على أن يكون له خراسان و بلاد الغور، و يكون لهما غزنه و بلاد الهند.

ذكر ملك علاء الدين غزنه و أخذها منه

لما فرغ بهاء الدين من وصيته توفّي، فسار [١] ولداه إلى غزنه، فخرج أمراء الغوريّة و أهل البلد فلقوهم، و خرج الأتراك معهم على كره منهم، و دخلوا البلد و ملكوه، و نزل علاء الدين و جلال الدين دار السلطنة مستهلّ رمضان، و كانوا قد وصلوا في ضرّ و قلّة من العسكر، و أراد الأتراك منعهم، فنهاهم مؤيد الملك وزير شهاب الدين لقلّتهم، و لاشتغال غياث الدين بابن خرميل، و إلى هراء، على ما نذكره، فلم يرجعوا عن ذلك.

و لما استقرّا بالقلعة، و نزلا بدار السلطانيّة، راسلها الأتراك بأن يخرجوا من الدار و إلّا قاتلوهما، ففرقا فيهم أموالا كثيرة، و استحلّفاهم فحلّفوا، و استثنوا غياث الدين محمودا [٢]، و أنفذوا خلعا إلى تاج الدين الدز، و هو بإقطاعه، مع رسول، و طلباه إلى طاعتها، و وعدها بالأموال و الزيادة في الإقطاع، و إمارة الجيش، و الحكم في جميع الممالك، فأتاه الرسول فلقيه و قد سار عن

[١] فسارا.

[٢] محمود.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٢١٩

كرمان في جيش كثير من الترك و الخلع و الغزّ و غيرهم يريد غزنه، فأبلغه الرسالة، فلم يلتفت إليه، و قال له: قل لهما أن يعودا إلى باميان، و فيها كفاية، فإنّي قد أمرني مولاي غياث الدين أن أسير إلى غزنه و أمنعهما عنها، فإن عادا إلى بلدهما، و إلّا فعلت بهما و بمن معهما ما يكرهون.

و ردّ ما معهما من الهدايا و الخلع، و لم يكن قصد الدز بهذا حفظ بيت صاحبه، و إنّما أراد أن يجعل هذا طريقا إلى ملك غزنه لنفسه. فعاد الرسول و أبلغ علاء الدين رسالة الدز، فأرسل وزيره، و كان قبله وزير أبيه، إلى باميان و بلخ و ترمذ و غيرها من بلادهم، ليجمع العساكر و يعود إليه، فأرسل الدز إلى الأتراك الذين بغزنه يعرفهم أنّ غياث الدين أمره أن يقصد غزنه و يخرج علاء الدين و أخاه

منها، فحضرُوا عند ابن وزير علاء الدين، و طلبوا منه سلاحاً، ففتح خزانة السلاح، و هرب ابن الوزير إلى علاء الدين و قال له: قد كان كذا و كذا، فلم يقدر [أن] يفعل شيئاً.

و سَمِعَ مؤيد الملك، وزير شهاب الدين، فركب و أنكر على الخازن تسليم المفاتيح، و أمره فاستردَّ [١] ما نهبه الترك جميعه، لأنَّه كان مطاعاً فيهم.

و وصل الدز إلى غزنه، فأخرج إليه علاء الدين جماعة من الغوريَّة و من الأتراك، و فيهم صونج صهر الدز، فأشار عليه أصحابه أن لا يفعل، و ينتظر العسكر مع وزيره، فلم يقبل منهم، و سَير العساكر، فالتقوا خامس رمضان، فلَمَّا لقوة خدمه الأتراك و عادوا معه على عسكر علاء الدين فقاتلوهم فهزموهم و أسروا مقدّمهم، و هو محمّد بن على بن حردون «١»، و دخل عسكر الدز المدينة فنهبوا بيوت الغوريَّة و الباميايَّة، و حصر الدز القلعة، فخرج جلال الدين منها

[١] و استردَّ.

(١). خروج A.

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٢٢٠

فى عشرين فارساً، و سار عن غزنه، فقالت له امرأة تستهزئ به: إلى أين تمضى؟ خذ الجتر و الشمسمة معك! ما أقبح خروج السلاطين هكذا! فقال لها:

إنك ستريين ذلك اليوم، و أفعل بكم ما تقرّون به بالسلطنة لى.

و كان قد قال لأخيه: احفظ القلعة إلى أن آتيك بالعساكر، فبقى الدز يحاصرها، و أراد من مع الدز نهب البلد، فنهاهم عن ذلك، و أرسل إلى علاء الدين يأمره بالخروج من القلعة، و يتهدّده إن لم يخرج منها، و تردّدت الرسل بينهما فى ذلك، فأجاب إلى مفارقتها و العود إلى بلده، و أرسل من حلّف له الدز أن لا يؤذيه، و لا يتعرّض له، و لا لأحد ممّن يحلف له.

و سار عن غزنه، فلَمَّا رآه الدز و قد نزل من القلعة عدل إلى تربّة شهاب الدين مولاه، و نزل إليها، و نهب الأتراك ما كان مع علاء الدين، و ألقوه عن فرسه، و أخذوا ثيابه، و تركوه عريانا بسرّاويله [١].

فلَمَّا سَمِعَ الدز ذلك أرسل إليه بدوّابّ و ثياب و مال، و اعتذر إليه، فأخذ ما لبسه و ردّ الباقي، فلَمَّا وصل إلى باميان لبس ثياب سوادى، و ركب حماراً، فأخرجوا له مراكب ملوكيَّة، و ملابس جميلة، فلم يركب، و لم يلبس، و قال: أريد [أن] يرانى الناس و ما صنع بى أهل غزنه، حتّى إذا عدت إليها و خرّبتها و نهبتها لا يلومنى أحد. و دخل دار الإمارة و شرع فى جمع العساكر.

ذكر ملك الدز غزنه

قد ذكرنا استيلاء الدز على الأموال و السلاح و الدوابّ و غير ذلك ممّا كان صحبة شهاب الدين و أخذه من الوزير مؤيد الملك، فجمع به العساكر

[١] بسرّويله.

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٢٢١

من أنواع الناس، الأتراك و الخلج و الغزّ و غيرهم، و سار إلى غزنه و جرى له مع علاء الدين ما ذكرنا.

فلَمَّا خرج علاء الدين من غزنه أقام الدز بداره أربعة أيام يظهر طاعة غياث الدين، إلّا أنّه لم يأمر الخطيب بالخطبة له و لا لغيره، و إنّما

يخطب للخليفة، و يترحم على شهاب الدين الشهيد حسب.

فلما كان في اليوم الرابع أحضر مقدّمى الغوريّة والأتراك، و ذمّ من كاتب علاء الدين و أخاه «١»، و قبض على أمير داذ والى غزنه، فلما كان الغد، و هو سادس عشر رمضان، أحضر القضاة و الفقهاء و المقدّمين، و أحضر أيضا رسول الخليفة، و هو الشيخ مجد الدين أبو عليّ «٢» بن الربيع، الفقيه الشافعيّ مدرّس النظاميّة ببغداد، و كان قد ورد إلى غزنه رسولا إلى شهاب الدين، فقتل شهاب الدين و هو بغزنه، فأرسل إليه و إلى قاضي غزنه يقول له: إنني أريد [أن] أنتقل إلى دار السلطانيّة، و أن أخاطب بالملك، و لا بدّ من حضورك، و المقصود من هذا أن تستقرّ أمور الناس، فحضر عنده، فركب الدز، و الناس في خدمته، و عليه ثياب الحزن، و جلس في الدار في غير المجلس [١] الذي كان يجلس فيه شهاب الدين، فتغيّرت لذلك نيات كثير من الأتراك، لأنّهم كانوا يطيعونه ظلّا منهم أنّه يريد الملك لغيث الدين، فحيث رأوه يريد الانفراد تغيّروا عن طاعته، حتّى إنّ بعضهم بكى غيظا من فعله، و أقطع الإقطاعات [٢] الكثيرة، و فرّق الأموال الجليّة.

و كان عند شهاب الدين جماعة من أولاد ملوك الغور و سمرقند و غيرهم،

[١]- مجلس.

[٢]- الإقطاعات.

(١). الدين و أباه. A.

(٢). أبو علي يحيى. A.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٢٢٢

فأنفوا من خدمه الدز، و طلبوا منه أن يقصد خدمه غياث الدين، فأذن لهم و فارقه كثير من أصحابه إلى غياث الدين و إلى علاء الدين و أخيه صاحبى باميان، و أرسل غياث الدين إلى الدز يشكره، و يثنى عليه لإخراج أولاد بهاء الدين من غزنه، و سير له الخلع، و طلب منه الخطبة و السكّة، فلم يفعل، و أعاد الجواب فغالطه، و طلب منه أن يخاطبه بالملك، و أن يعتقه من الرقّ لأنّ غياث الدين ابن أخى سيده لا وارث له سواه، و أن يزوّج ابنة بانبه الدز، فلم يجبه إلى ذلك.

و اتّفق أنّ جماعة من الغوريين، من عسكر صاحب باميان، أغاروا على أعمال كرمان و سوران، و هى أقطاع الدز القديمة، فغنموا، و قتلوا، فأرسل صهره صونج فى عسكر، فلقوا عسكر الباميان فظفر بهم، و قتل منهم كثيرا، و أنفذ رءوسهم إلى غزنه فنصبت بها. و أجرى الدز فى غزنه رسوم شهاب الدين، و فرّق فى أهلها أموالا جليّة المقدار، و ألزم مؤيد الملك أن يكون وزيرا له، فامتنع من ذلك، فألح عليه، فأجابه على كره منه، فدخل على مؤيد الملك، صديق له يهنئه، فقال: بما ذا تهنّئنى؟ من بعد ركوب الجواد بالحمار؟ و أنشد:

و من ركب الثور بعد الجواد أنكر إطلاقه و الغبب بينا الدز يأتى إلى بابى ألف مرّة حتّى آذن له فى الدخول أصبح على بابه! و لو لا حفظ النفس مع هؤلاء الأتراك لكان لى حكم آخر.

ذكر حال غياث الدين بعد قتل عمه

و أمّا غياث الدين محمود بن غياث الدين فإنّه كان فى إقطاعه، و هو بست و أسفرار، لمّا قتل عمه شهاب الدين، و كان الملك علاء الدين بن محمّد بن

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٢٢٣

أبى على قد ولاء شهاب الدين بلاد الغور وغيرها من أرض الراون «١»، فلمّا بلغه قتله سار إلى فيروزكوه خوفاً أن يسبقه إليها غياث الدين فيملك البلد و يأخذ الخزائن التي بها.

و كان علاء الدين حسن السيرة من أكابر بيوت الغوريّة، إلّا أنّ الناس كرهوه لميلهم إلى غياث الدين، و أنف الأمراء من خدمته مع وجود ولد غياث الدين سلطانهم، و لأنّه كان كرامياً مغالياً في مذهبه، و أهل فيروزكوه شافعيّة، و ألزمهم أن يجعلوا الإقامة مثني، فلمّا وصل إلى فيروزكوه أحضر جماعة من الأمراء منهم: محمّد المرغنيّ و أخوه، و محمّد بن عثمان، و هم من أكابر الأمراء، و حلّفهم على مساعدته على قتال خوارزم شاه و بهاء الدين، صاحب باميان، و لم يذكر غياث الدين احتقاراً له، فحلّفوا له و لولده من بعده.

و كان غياث الدين بمدينة بست لم يتحرّك في شيء انتظاراً لما يكون من صاحب باميان، لأنّهما كانا قد تعاهدا أيام شهاب الدين أن تكون خراسان لغياث الدين و غزنه و الهند لبهاء الدين، و كان بهاء الدين صاحب باميان بعد موت شهاب الدين أقوى منه، فلهذا لم يفعل شيئاً، فلمّا بلغه خبر موت بهاء الدين جلس على التخت، و خطب لنفسه بالسلطنة عاشر رمضان، و حلّف الأمراء الذين قصدوه، و هم إسماعيل الخلجيّ، و سونج أمير أشكار «٢»، و زنكي بن خرجوم «٣»، و حسين الغوريّ صاحب تكياباد «٤» و غيرهم، و تلقّب بألقاب أبيه غياث الدنيا و الدين، و كتب إلى علاء الدين محمّد بن أبى علىّ و هو بفروزكوه يستدعيه إليه، و يستعطفه ليصدر عن رأيّه، و يسلم مملكته إليه، و كتب إلى الحسين بن خرميل، و إلى هراء، مثل ذلك أيضاً، و وعده الزيادة في الإقطاع.

(١). الدوان.B. أرض الداوان.A

(٢). شكار.A. سكار: ٧٤٠. شكا:C. P

(٣) حرحوم:spU. بن مرحوم: ٧٤٠.C. P

(٤) نكباباد.yremerfeD ' ddoc

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٢٢٤

فأمّا علاء الدين فأغلظ له في الجواب، و كتب إلى الأمراء الذين معه يتهدّدهم، فرحل غياث الدين إلى فيروزكوه، فأرسل علاء الدين عسكرياً مع ولده، و فرّق فيهم مالا- كثيراً، و خلع عليهم ليمنعوا غياث الدين، فلقوه قريباً من فيروزكوه، فلمّا تراءى الجمعان كشف إسماعيل الخلجيّ المغفر عن وجهه و قال: الحمد لله إذ الأتراك الذين لا يعرفون آباءهم لم يضيّعوا حقّ التربيّة، و ردّوا ابن ملك باميان، و أنتم مشايخ الغوريّة الذين أنعم عليكم والد هذا السلطان، و ربّاكم، و أحسن إليكم كفرتم الإحسان، و جئتم تقاتلون ولده، أ هذا فعل الأحرار؟

فقال محمّد المرغنيّ، و هو مقدّم العسكر الذين يصدرون عن رأيّه: لا و الله! ثمّ ترجّل عن فرسه، و ألقى سلاحه، و قصد غياث الدين، و قبل الأرض بين يديه، و بكى بصوت عال، و فعل سائر الأمراء كذلك، فانهزم أصحاب علاء الدين مع ولده.

فلمّا بلغه الخبر خرج عن فيروزكوه هارباً نحو الغور، و هو يقول: أنا أمشي أجاور بمكّة، فأنفذ غياث الدين خلفه من ردّه إليه، فأخذه و حبسه، و ملك فيروزكوه، و فرح به أهل البلد، و قبض غياث الدين على جماعة من أصحاب علاء الدين الكراميّة، و قتل بعضهم.

و لمّا دخل غياث الدين فيروزكوه ابتدأ بالجامع فصلّى فيه، ثمّ ركب إلى دار أبيه فسكنها، و أعاد رسوم أبيه، و استخدم حاشيته، و قدم عليه عبد الجبار بن محمّد الكيرانيّ، وزير أبيه، و استوزره، و سلك طريق أبيه في الإحسان و العدل.

و لمّا فرغ غياث الدين من علاء الدين لم يكن له همّة إلّا ابن خرميل بهراء و اجتذابه إلى طاعته، فكاتبه و راسله، و اتّخذه أباً، و استدعاه إليه و كان ابن خرميل قد بلغه موت شهاب الدين ثامن رمضان، فجمع أعيان

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٢٢٥

الناس، منهم: قاضي هراء صاعد بن الفضل السيارى، و علىّ بن عبد الخلاق بن زياد مدرّس النظاميّة بهراء، و شيخ الإسلام رئيس هراء،

و نقيب العلويين، و مقدّمى المحالّ، و قال لهم: قد بلغنى وفاة السلطان شهاب الدين و أنا فى نحر خوارزم شاه، و أخاف الحصار، و أريد أن تحلفوا لى على المساعدة على كلّ من نازعنى. فأجابه القاضى و ابن زياد: إنّنا نحلف على كلّ الناس إلّا ولد غياث الدين، فحقدها عليهما، فلمّا وصل كتاب غياث الدين خاف ميل الناس إليه، فغالطه فى الجواب.

و كان ابن خرميل قد كاتب خوارزم شاه يطلب منه أن يرسل إليه عسكريا ليصير فى طاعته و يتمتع به على الغوريّة، فطلب منه خوارزم شاه إنفاذ ولده رهينة، و يرسل إليه عسكريا، فسير ولده إلى خوارزم شاه، فكتب خوارزم شاه إلى عسكريه الذين بنيسابور و غيرها من بلاد خراسان يأمرهم بالتوجّه إلى هراء، و أن يكونوا يتصرّفون بأمر ابن خرميل و يمثلون أمره. هذا و غياث الدين يتابع الرّسل إلى ابن خرميل، و هو يحتجّ بشيء بعد شيء انتظارا لعسكر خوارزم شاه، و لا يؤيسه من طاعته، و لا يخطب له و يطيعه طاعة غير مستوية.

ثمّ إنّ الأمير على بن أبى على، صاحب كالوين، أطلع غياث الدين على حال ابن خرميل، فعزم غياث الدين على التوجّه إلى هراء، فثبّطه بعض الأمراء الذين معه، و أشاروا عليه بانتظار آخر أمره و ترك محافّته. و استشار ابن خرميل التّياس فى أمر غياث الدين، فقال له على بن عبد الخلاق بن زياد، مدرّس النظاميّة بهراء، و هو متولّى وقوف خراسان التى بيد الغوريّة جميعها: ينبغى أن تخطب للسلطان غياث الدين، و تترك المغالطة، [فأجابه]: إنّنى أخافه على نفسى، فامض أنت و توثّق لى منه.

و كان قصده أن يبعده عن نفسه، فمضى برسالته إلى غياث الدين، و أطلعه

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٢٢٦

على ما يريد ابن خرميل بفعله من الغدر به، و الميل إلى خوارزم شاه. و حتّاه على قصد هراء، و قال له: أنا أسلمّها إليك ساعة تصل إليها، و وافقه بعض الأمراء، و خالفه غيرهم، و قال: ينبغى أن لا تترك له حجّة، فترسل إليه تقليدا بولايه هراء، ففعل ذلك، و سيره مع ابن زياد و بعض أصحابه.

ثمّ إنّ غياث الدين كاتب أميران بن قيصر، صاحب الطالقان، يستدعيه إليه، فتوقّف، و أرسل إلى صاحب مرو ليسير إليه، فتوقّف أيضا، فقال له أهل البلد: إن لم تسلم البلد إلى غياث الدين، و تتوجّه إليه، و إلّا سلّمناك، و قيدناك، و أرسلناك إليه، فاضطرّ إلى المجيء إلى فيروزكوه، فخلع عليه غياث الدين، و أقطعه إقطاعا، و أقطع الطالقان سونج مملوك أبيه المعروف بأمر أشكار.

ذكر استيلاء خوارزم شاه على بلاد الغوريّة بخراسان

قد ذكرنا مكاتبه الحسين بن خرميل، والى هراء، خوارزم شاه، و مراسلته فى الانتماء إليه و الطاعة له، و ترك طاعة الغوريّة، و خداعه لغياث الدين، و مغالطته له بالخطبة له و الطاعة، انتظارا لوصول عسكري خوارزم شاه، و وصول رسول غياث الدين و ابن زياد بالخلع إلى ابن خرميل، فلمّا وصلت الخلع إليه لبسها هو و أصحابه، و طالبه رسول غياث الدين بالخطبة، فقال: يوم الجمعة نخطب له.

فاتفق قرب عسكري خوارزم شاه منهم، فلمّا كان يوم الجمعة قيل له فى معنى الخطبة، فقال: نحن فى شغل أهمّ منها بوصول هذا العدو، فطالت المجادلات بينهم فى ذلك، و هو مصرّ على الامتناع منها، و وصل عسكري خوارزم شاه، فلقبهم ابن خرميل. و أنزلهم على باب البلد، فقالوا له: قد

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٢٢٧

أمرنا خوارزم شاه أن لا نخالف لك أمرا، فشكرهم على ذلك، و كان يخرج إليهم كلّ يوم، و أقام لهم الوظائف الكثيرة. و أتاه الخبر أنّ خوارزم شاه نزل على بلخ فحاصرها، فلقبها صاحبها، و قاتله بظاهر البلد، فلم ينزل بالقرب منها، فنزل على أربعة فراسخ،

فندم ابن خرميل على طاعة خوارزم شاه، و قال لخواصه: لقد أخطأنا حيث صرنا مع هذا الرجل، فإتني أراه عاجزا. و شرع في إعادة العسكر، فقال للأمرأء: إن خوارزم شاه قد أرسل إلى غياث الدين يقول له: إتنى على العهد الذى بيننا، و أنا أترك ما كان لأبيك بخراسان، و المصلحة أن ترجعوا حتى نلحقكم. فعدوا، و أرسل إليهم الهدايا الكثيرة. و كان غياث الدين حيث اتصل به وصول عسكر خوارزم شاه إلى هراء، فأخذ إقطاع ابن خرميل و أرسل إلى كرزبان و أخذ كل ما له بها من مال، و أولاد، و دواب، و غير ذلك، و أخذ أصحابه فى القيود، و أتاه كتب من يميل إليه من الغوريّة يقولون له: إن رآك غياث الدين قتلوك.

و لما سمع أهل هراء بما فعل غياث الدين بأهل ابن خرميل و ماله عزموا على قبضه و المكاتبه إلى غياث الدين بإنفاذ من يتسلم البلد، و كتب القاضي صاعد، قاضى هراء، و ابن زياد إلى غياث الدين بذلك، فلما سمع ابن خرميل بما فعله غياث الدين بأهله، و بما عزم عليه أهل هراء، خاف أن يعاجلوه بالقبض، فحضر عند القاضي، و أحضر أعيان البلد، و ألان لهم القول، و تقرب إليهم، و أظهر طاعة غياث الدين، و قال: قد رددت عسكر «١» خوارزم شاه، و أريد [أن] أرسل رسولا إلى غياث الدين بطاعتي «٢»، و الذى أوتره منكم أن

(١). قد وردت عساكر.

(٢). الدين بطاعتي. B. mo

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٢٢٨

تكتبوا معه كتابا بطاعتي. فاستحسنوا قوله، و كتبوا له بما طلب، و سیر رسوله إلى فيروز كوه، و أمره، إذا جنّه الليل، أن يرجع على طريق نيسابور يلحق عسكر خوارزم شاه و يجدّ السير فإذا لحقهم ردّهم إليه.

ففعل الرسول ما أمره، و لحق العسكر على يومين من هراء، فأمرهم بالعود، فعدوا، فلما كان اليوم الرابع من سير الرسول و صلوا إلى هراء و الرسول بين أيديهم، فلقبهم ابن خرميل، و أدخلهم البلد و الطبول تضرب بين أيديهم، فلما دخلوا أخذ ابن زياد الفقيه فسمله، و أخرج القاضي صاعدا من البلد، فسار إلى غياث الدين بفروز كوه، و أخرج من عنده من الغوريّة، و كل من يعلم أنه يريدهم، و سلم أبواب البلد إلى الخوارزميّة.

و أما غياث الدين فإنه برز عن فيروز كوه نحو هراء، و أرسل عسكرا، فأخذوا حشيرا كان لأهل هراء، فخرج الخوارزميّة، فشئوا الغارة على هراء الروذ و غيرها، فأمر غياث الدين عسكره بالتقدم إلى هراء، و جعل المقدم عليهم على بن أبى على، و أقام هو بفروز كوه لما بلغه أن خوارزم شاه على بلخ، فسار العسكر و على يزكه الأمير أميران بن قيصر الذى كان صاحب الطالقان، و كان منحرفا عن غياث الدين حيث أخذ منه الطالقان، فأرسل إلى ابن خرميل يعرفه أنه على اليزك، و يأمره بالمجىء إليه، فإنه لا يمنعه، و حلف له على ذلك.

فسار ابن خرميل فى عسكره، فكبس عسكر غياث الدين، فلم يلحقوا يركبون خيولهم حتى خالطوهم، فقتلوا فيهم، فكفّ ابن خرميل أصحابه عن الغوريّة خوفا أن يهلكوا، و غنم أموالهم و أسر إسماعيل الخلجى، و أقام بمكانه، و أرسل عسكره فشئوا الغارة على البلاد باذغيس [١] و غيرها.

[١] باذغيس.

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٢٢٩

و عظم الأمر على غياث الدين، فعزم على المسير إلى هراء بنفسه، فأتاه الخبر أن علاء الدين، صاحب باميان، قد عاد إلى غزنة على ما نذكره، فأقام ينتظر ما يكون منهم و من الدز.

و أمّا بلخ فإنّ خوارزم شاه لما بلغه قتل شهاب الدين أخرج من كان عنده من الغوريين الذين كان أسرهم في المصافّ على باب خوارزم، فخلع عليهم، و أحسن إليهم، و أعطاهم الأموال، و قال: إنّ غياث الدين أخى، و لا فرق بينى و بينه، فمن أحبّ منكم المقام عندى فليقم، و من أحبّ أن يسير إليه فإننى أسيره، و لو أراد منى مهما أراد نزلت له عنه.

و عهد إلى محمّد بن علىّ بن بشير، و هو من أكابر الأمراء الغوريّة، فأحسن إليه، و أقطعه استمالة للغوريّة، و جعله سفيرا بينه و بين صاحب بلخ، فسير أخاه علىّ شاه بين يديه فى عسكره إلى بلخ، فلما قاربها خرج إليه عماد الدين عمر بن الحسين الغورى أميرها، فدفعه عن النزول عليها، فنزل على أربعة فراسخ عنها، فأرسل إلى أخيه خوارزم شاه يعلمه قوتهم، فسار إليها فى ذى القعدة من السنة، فلما وصل إلى بلخ خرج صاحبها فقاتلهم، فلم يقو بهم لكثرتهم، فنزلوا فصار يوقع بهم ليلا، فكانوا معه على أقبح صورة، فأقام صاحب بلخ محاصرا، و هو ينتظر المدد من أصحابه أولاد بهاء الدين، صاحب باميان، و كانوا قد اشتغلوا عنه بغزنة على ما ذكره.

فأقام خوارزم شاه على بلخ أربعين يوما، كلّ يوم يركب إلى الحرب، فيقتل من أصحابه كثير، و لا يظفر بشيء، فراسل صاحبها عماد الدين مع محمّد بن علىّ بن بشير الغورى فى بذل بذله له ليسلم إليه البلد، فلم يجبه إلى ذلك، و قال: لا أسلم البلد إلّا إلى أصحابه، فعزم على المسير إلى هراء، فلمّا سار أصحابه أولاد بهاء الدين، صاحب باميان، إلى غزنة، المرّة الثانية، على ما ذكره إن شاء الله تعالى، و أسرهم تاج الدين الدز، عاد عن ذلك

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٢٣٠

العزم، و أرسل محمّد بن علىّ بن بشير إلى عماد الدين نائبة معرّفه حال أصحابه و أسرهم، و أنّه لم يبق عليه حجة، و لا له فى التآخر عنه عذر، فدخل إليه، و لم يزل يخدعه تارة يرغبه، و تارة يرهبه، حتّى أجاب إلى طاعة خوارزم شاه و الخطبة له، و ذكر اسمه على السكّة، و قال: أنا أعلم أنّه لا يفى لى، فأرسل من يستحلفه «١» على ما أراد، فتمّ الصلح، و خرج إلى خوارزم شاه، فخلع عليه، و أعاده إلى بلده، و كان سلخ ربيع الأوّل سنة ثلاث و ستمائة.

ثمّ سار خوارزم شاه إلى كرزبان ليحاصرها، و بها علىّ بن أبى علىّ، و أرسل إلى غياث الدين يقول: إنّ هذه كان قد أقطعها عمك لابن خرميل، فتنزل عنها، فامتنع، و قال: بينى و بينكم السيف، فأرسل إليه خوارزم شاه مع محمّد بن علىّ بن بشير فرغبه، و آيسه من نجدة غياث الدين، و لم يزل به حتّى نزل عنها و سلّمها، و عاد إلى فيروزكوه، فأمر غياث الدين بقتله، فشفع فيه الأمراء، فتركه، و سلّم خوارزم شاه كرزبان إلى ابن خرميل، ثمّ أرسل إلى عماد الدين، صاحب بلخ، يطلبه إليه، و يقول: قد حضر مهمّ و لا- غنى عن حضورك، فأتى اليوم من أخصّ أوليائنا، فحضر عنده، فقبض عليه و سيّره إلى خوارزم، و مضى هو إلى بلخ، فأخذها و استناب بها جعفرا «٢» [١] التركى.

[١]- جعفر.

(١). استحلفه A

(٢). حفر. B. جفر. A

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٢٣١

ذكر ملك خوارزم شاه ترمذ و تسليمها إلى الخطا

لما أخذ خوارزم شاه مدينة بلخ سار عنها إلى مدينة ترمذ مجدّا، و بها ولد عماد الدين كان صاحب بلخ، فأرسل إليه محمّد بن علىّ بن بشير يقول له: إنّ أباك قد صار من أخصّ أصحابى و أكابر أمراء دولتى، و قد سلّم إلى بلخ، و إنّما ظهر لى منه ما أنكرته، فسيرته

إلى خوارزم مكرّما محترما، و أمّا أنت فتكون عندى أّخا.

و وعده، و أقطعه الكثير، فخدعه محمّد بن علىّ، فرأى صاحبها أنّ خوارزم شاه قد حصّره من جانب و الخطأ قد حصّروه من جانب آخر، و أصحابه قد أسّره الدز بغزنة، فضعت نفسه، و أرسل من يستحلف له خوارزم شاه، فحلف له، و تسلّم منه ترمذ و سلّمها إلى الخطأ، فلقد اكتسب بها خوارزم شاه سبّة عظيمة، و ذكرّا قبيحا «١» فى عاجل الأمر، ثمّ ظهر للناس، بعد ذلك، أنّه إنّما سلّمها إليهم ليتمكّن بذلك من ملك خراسان، ثمّ يعود إليهم فيأخذها و غيرها منهم، لأنّه لمّا ملك خراسان و قصد بلاد الخطأ و أخذها و أفناهم علم الناس أنّه فعل ذلك خديعة و مكرا، غفر الله له.

ذكر عود أولاد صاحب باميان إلى غزنة

قد ذكرنا قبل وصول الدز التركيّ إلى غزنة، و إخراج علاء الدين و جلال الدين ولدى بهاء الدين سام، صاحب باميان، منها، بعد أن ملكها، و أقام هو فى غزنة من عاشر رمضان سنّة اثنتين و ستّمائة إلى خامس ذى القعدة من

(١). قبيحا و عقابا عظيما. A

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٢٣٢

السنّة، يحسن السيرة، و يعدل فى الرعيّة، و أقطع البلاد للأجناد، فبعضهم أقام، و بعضهم سار إلى غياث الدين بفيروزكوه، و بعضهم سار إلى علاء الدين، صاحب باميان، و لم يخطب لأحد، و لا لنفسه، و كان يعد الناس بأنّ رسولى عند مولاي غياث الدين، فإذا عاد خطبت له، ففرح الناس بقوله.

و كان يفعل ذلك مكرا و خديعة بهم و بغياث الدين، لأنّه لو لم يظهر ذلك لفارقه أكثر الأتراك و سائر الرعايا، و كان حينئذ يضعف عن مقاومته صاحب باميان، فكان يستخدم الأتراك و غيرهم بهذا القول و أشباهه.

فلمّا ظفر بصاحب باميان، على ما نذكره، أظهر ما كان يصمّره، فبينما هو فى هذا أتاه الخبر بقرب علاء الدين و جلال الدين ولدى بهاء الدين، صاحب باميان، فى العساكر الكثيرة، و أنّهم قد عزموا على نهب غزنة، و استباحة الأموال و الأنفس، فخاف الناس خوفا شديدا، و جهّز الدز كثيرا من عسكره و سيّرههم إلى طريقهم، فلقوا أوائل العسكر، فقتل من الأتراك [جماعة]، و أدركهم العسكر، فلم يكن لهم قوّة بهم، فانهزموا، و تبعهم عسكر علاء الدين يقتلون و يأسرون، فوصل المنهزمون إلى غزنة، فخرج عنها الدز منهزما يطلب بلده كرمان، فأدركه بعض عسكر باميان، نحو ثلاثة آلاف فارس، فقاتلهم قتالا شديدا، فردّهم عنه، و أحضر من كرمان مالا كثيرا، و سلاحا، ففرّقه فى العسكر.

و أمّا علاء الدين و أخوه فإنّهما تركا غزنة لم يدخلها، و سارا فى أثر الدز، فسمع بهم، فسار عن كرمان، فنهب الناس بعضهم بعضا، و ملك علاء الدين كرمان، و أمّنوا أهلها، و عزموا على العود إلى غزنة و نهبها، فسمع أهلها بذلك، فقصدوا القاضى سعيد بن مسعود و شكوا إليه حالهم، فمضى إلى وزير علاء الدين المعروف بالصاحب، و أخبره بحال الناس، فطيب قلوبهم،

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٢٣٣

و أخبرهم غيره ممّن يثقون به أنّهم مجمعون على النهب، فاستعدّوا، و ضيقوا أبواب الدروب و الشوارع، و أعدّوا العرّادات [١] و الأحجار، و جاءت التجار من العراق، و الموصل، و الشام، و غيرها، و شكوا إلى أصحاب السلطان، فلم يشكّهم أحد، فقصدوا دار مجد الدين بن الربيع، رسول الخليفة، و استغاثوا به، فسكّنهم، و وعدهم الشفاعة فيهم و فى أهل البلد، فأرسل إلى أمير كبير من الغوريّة يقال له سليمان بن سيس، و كان شيخا كبيرا يرجعون إلى قوله، يعرّفه الحال، و يقول له ليكتب إلى علاء الدين و أخيه يتشفّع فى الناس، ففعل، و بالغ فى الشفاعة، و خوّفهم من أهل البلد إن أصروا على النهب، فأجابوه إلى العفو عن الناس بعد مراجعات كثيرة.

و كانوا قد وعدوا من معهم من العساكر بنهب غزنة، فعوضوهم من الخزانة، فسكن الناس، و عاد العسكر إلى غزنة أواخر ذى القعدة و معهم الخزانة التي أخذها الدز من مؤيد الملك لما عاد و معه شهاب الدين قتيلًا، فكانت مع ما أضيف إليها من الثياب و العين تسع مائة حمل، و من جملة ما كان فيها من الثياب الممزج، المنسوج بالذهب، اثنا عشر ألف ثوب. و عزم علاء الدين [أن] يستوزر مؤيد الملك، فسمع أخوه جلال الدين، فأحضره و خلع عليه، على كراهة منه للخلة، و استوزره، فلما سمع علاء الدين بذلك قبض على مؤيد الملك، و قيده، و حبسه، فتغيرت نيات الناس، و اختلفوا، ثم إن علاء الدين و جلال الدين اقتسما الخزانة، و جرى بينهما من المشاحنة في القسمة ما لا يجرى بين التجار، فاستدلّ بذلك الناس على أنّهما لا يستقيم لهما حال لبخلهما، و اختلفاهما، و ندم الأمراء على ميلهم إليهما، و تركهم غياث الدين مع ما ظهر من كرمه و إحسانه.

[١] الغرادات.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٢٣٤

ثم إن جلال الدين و عمه عباسا سارا في بعض العسكر إلى باميان، و بقي علاء الدين بغزنة، فأساء وزيره عماد الملك السيرة مع الأجناد و الرعية، و نهبت أموال الأتراك، حتى إنهم باعوا أمهات أولادهم و هم يبكين و يصرخن و لا يلتفت إليهم.

ذكر عود الدز إلى غزنة

لما سار جلال الدين عن غزنة، و أقام بها أخوه علاء الدين، جمع الدز و من معه من الأتراك عسكرا كثيرا و عادوا إلى غزنة، فوصلوا إلى كلوا فملكوها و قتلوا جماعة من الغورية، و وصل المنهزمون منها إلى كرمان، فسار الدز إليهم، و جعل على مقدمته مملوكا كبيرا من مماليك شهاب الدين، اسمه أي دكر التتر «١»، في ألفى فارس من الخليج و الأتراك و الغز و الغورية و غيرهم. و كان بكرمان عسكر لعلاء الدين مع أمير يقال له ابن المؤيد، و معه جماعة من الأمراء، منهم أبو علي بن سليمان بن سيس، و هو و أبوه من أعيان الغورية، و كانا مشغولين باللعب و اللهو و الشرب، لا يفتريان عن ذلك، فقبل لهما: إن عسكر الأتراك قد قربوا منكم، فلم يلتفتا إلى ذلك، و لا تركا ما كانا عليه، فهجم عليهم أي دكر التتر «٢» و من معه من الأتراك، فلم يمهلهم يركبون خيولهم، فقتلوا عن آخرهم، منهم من قتل في المعركة، و منهم من قتل صبرا، و لم ينج إلّا من تركه الأتراك عمدا. و لما وصل الدز فرأى أمراء الغورية كلّهم قتلى قال: كلّ هؤلاء قاتلونا؟

(١-٢). أي دكر البشر: P.C. spU. ٠٤٧٤

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٢٣٥

فقال أي دكر التتر: لا بل قتلناهم صبرا، فلامه على ذلك، و وبّخه، و أحضر رأس ابن المؤيد بين يديه، فسجد شكرا لله تعالى، و أمر بالمقتولين فغسلوا و دفنوا، و كان في جملة القتلى أبو علي بن سليمان بن سيس. و وصل الخبر إلى غزنة في العشرين من ذى الحجة من هذه السنة، فصلب علاء الدين الذي جاء بالخبر، فتغيّمت السماء «١»، و جاء مطر شديد خرب بعض غزنة، و جاء بعده برد كبار مثل بيض الدجاج، فضجّ الناس إلى علاء الدين بإنزال المصلوب، فأنزله آخر النهار، فانكشفت الظلمة، و سكن ما كانوا فيه و ملك الدز كرمان، و أحسن إلى أهلها، و كانوا في ضرّ شديد مع أولئك. و لما صحّ الخبر عند علاء الدين أرسل وزيره صاحب إلى أخيه جلال الدين في باميان يخبره بحال الدز، و يستنجده، و كان قد أعدّ العساكر ليسير إلى بلخ يرحل عنها خوارزم شاه، فلما أتاه هذا الخبر ترك بلخ و سار إلى غزنة، و كان أكثر عسكره من الغورية قد فارقوه، و فارقوا أخاه، و قصدوا غياث الدين، فلما كان أواخر ذى الحجة وصل الدز إلى غزنة، و نزل هو و عسكره بإزاء قلعة غزنة، و

حصر علاء الدين، و جرى بينهم قتال شديد، و أمر الدز فنودي في البلد بالأمان، و تسكين الناس من أهل البلد، و الغوريّة، و عسكر باميان، و أقام الدز محاصرا للقلعة، فوصل جلال الدين في أربعة آلاف من عسكر باميان و غيرهم، فرحل الدز إلى طريقهم، و كان مقامه إلى أن سار إليهم أربعين يوما، فلما سار الدز سیر علاء الدين من كان عنده من العسكر، و أمرهم أن يأتوا الدز من خلفه، و يكون أخوه من بين يديه، فلا- يسلم من عسكره أحد. فلما خرجوا من القلعة سار سليمان بن سيس الغوريّ إلى غياث الدين بفيروزكوه، فلما وصل إليه أكرمه و عظّمه، و جعله أمير داذ فيروزكوه، و كان ذلك في صفر سنة ثلاث و ستمائة.

(١). السماء و أمطرت. B.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٢٣٦

و أما الدز فإنه سار إلى طريق جلال الدين، فالتقوا «١» بقرية بلق، فاقتتلوا قتالا صبروا فيه، فانهزم جلال الدين و عسكره، و أخذ جلال الدين أسيرا، و أتى به إلى الدز، فلما رآه ترجّل و قتل يده، و أمر بالاحتياط عليه، و عاد إلى غزنه و جلال الدين معه و ألف أسير من الباميان، و غنم أصحابه أموالهم.

و لما عاد إلى غزنه أرسل إلى علاء الدين يقول له ليسلم القلعة إليه، و إلّا قتل من عنده من الأسرى، فلم يسلمها، فقتل منهم أربع مائة أسير بإزاء القلعة، فلما رأى علاء الدين ذلك أرسل مؤيد الملك يطلب الأمان، فأمنه الدز، فلما خرج قبض عليه و وكل به و أخيه من يحفظهما، و قبض على وزيره عماد الملك لسوء سيرته، و كان هندوخان بن ملك شاه بن خوارزم شاه تكش مع علاء الدين بقلعة غزنه، فلما خرج منها قبض عليه أيضا، و كتب إلى غياث الدين بالفتح، و أرسل إليه الأعلام و بعض الأسرى.

ذكر قصد صاحب مراغة و صاحب إربل أذربيجان

في هذه السنة اتفق صاحب مراغة، و هو علاء الدين، و هو مظفر الدين كوكبرى «٢»، صاحب إربل، على قصد أذربيجان و أخذها من صاحبها أبي بكر بن البهلوان، لاشتغاله بالشرب ليلا- و نهارا، و تركه النظر في أحوال المملكة، و حفظ العساكر و الرعايا، فسار صاحب إربل إلى مراغة، و اجتمع هو و صاحبها علاء الدين، و تقدما نحو تبريز، فلما علم صاحبها أبو بكر

(١). الدين. daeuqsu.التقوا. aedni.mo

(٢). كوكبرى بن علي. B.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٢٣٧

أرسل إلى إيدغمش، صاحب بلاد الجبل، همذان و أصفهان و الرّي و ما «١» بينها من البلاد، و هو مملوك أبيه البهلوان، و هو في طاعة أبي بكر، إلّا أنه قد غلب على البلاد، فلا يلتفت إلى أبي بكر، فأرسل إليه أبو بكر يستنجد، و يعرفه الحال، و كان حينئذ ببلد الإسماعيلية، فلما أتاه الخبر سار إليه في العساكر الكثيرة.

فلما حضر عنده أرسل إلى صاحب إربل يقول له: إننا كنّا نسمع عنك أنك تحب أهل العلم و الخير و تحسن إليهم، فكنا نعتقد فيك الخير و الدين، فلما كان الآن ظهر لنا منك ضدّ ذلك لقصدك بلاد الإسلام، و قتال المسلمين، و نهب أموالهم، و إثارة الفتنة، فإذا كنت كذلك فما لك عقل، تجيء إلينا، و أنت صاحب قرية، و نحن لنا من باب خراسان إلى خلاط «٢» و إلى إربل «٣»، و أحسب أنك هزمت هذا، أما تعلم أن له مماليك، أنا أحدهم، و لو أخذ من كلّ قرية شحنة، أو من كلّ مدينة عشرة رجال، لاجتمع له أضعاف عسكرك، فالمصلحة أنك ترجع إلى بلدك، و إنّما أقول «٤» لك هذا إبقاء عليك.

ثم سار نحوه عقيب هذه الرسالة، فلما سمعها مظفر الدين و بلغه مسير إيدغمش عزم على العود، فاجتهد به صاحب مراغة ليقم

بمكانه، و يسلم عسكره إليه، و قال له: إنني قد كاتبنى جميع أمرائه ليكونوا معي إذا قصدتهم، فلم يقبل مظفر الدين من قوله، و عاد إلى بلده، و سلك الطريق الشاقفة، و المضايق الصعبة، و العقاب الشاهقة، خوفا من الطلب.

ثم إن أبا بكر و إيدغمش قصدا مراغة و حصارها، فصالحهما صاحبها على تسليم قلعة من حصونه إلى أبي بكر، هي كانت سبب الاختلاف، و أقطعه أبو بكر مدينتي أستوا «٥» و أرمية و عاد عنه.

(١). و أصفهان و الذي ما. B.

(٢). إلى بلاد خلاط. B.

(٣). إلى باب إربل. B.

(٤). بلدك و أنا أقول. B.

(٥). ٤٦٠. musnegel. nruojrfC. taisA. J. ٧٤٨١. p. J. ٧٤٨١. essatroF - أسنوا. B.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٢٣٨

ذكر إيقاع إيدغمش بالإسماعيلية

و في هذه السنة سار إيدغمش إلى بلاد الإسماعيلية المجاورة لقزوين، فقتل منهم مقتلة كبيرة، و نهب و سبي و حصر قلاعهم، ففتح منها خمس قلاع، و صمم العزم على حصر الموت، و استئصال «١» أهلها، فاتفق ما ذكرنا من حركة صاحب مراغة و صاحب إربل، و استدعاه الأمير أبو بكر، ففارق بلادهم و سار إلى أبي بكر كما ذكرناه.

ذكر وصول عسكر من خوارزم إلى بلد الجبل و ما كان منهم

و في هذه السنة سار من عسكر خوارزم طائفة كبيرة نحو عشرة آلاف فارس بأهليهم و أولادهم إلى بلد الجبل، فوصلوا إلى زنكان، و كان إيدغمش صاحبها مشغولا مع صاحب إربل و صاحب مراغة، و اغتتموا خلوا البلاد، فلما عاد مظفر الدين إلى بلده و انفصل الحال بين إيدغمش و صاحب مراغة سار إيدغمش نحو الخوارزمية فلقبهم و قاتلهم فاشتد القتال بين الطائفتين ثم انهزم الخوارزميون و أخذهم السيف فقتل منهم و أسر خلق كثير و لم ينج منهم إلّا الشريد و سبي سباؤهم و غنمت أموالهم، و كانوا قد أفسدوا في البلاد بالنهب و القتل فلقوا عاقبة فعلهم.

ذكر الغارة من ابن ليون على أعمال حلب

و في هذه السنة توالى الغارة من ابن ليون الأرمني، صاحب الدروب، على ولاية حلب، فنهب، و حرّق، و أسر، و سبي، فجمع الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين يوسف، صاحب حلب، عساكره، و استنجد غيره «٢»

(١). و استئصال الإسماعيلية فاتفق. B.

(٢). حلب و استمجد غيره. B.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٢٣٩

من الملوک، فجمع كثيرا من الفارس و الراجل، و سار عن حلب نحو ابن ليون.

و كان ابن ليون قد نزل في طرف بلاده ممّا يلي بلد حلب، فليس إليه طريق، لأنّ جميع بلاده لا طريق إليها إلّا من حبال و عرق، و

مضايق صعبة، فلا يقدر غيره على الدخول إليها «١»، لا سيما من ناحية حلب، فإن الطريق منها متعذر جدًا، فنزل الظاهر على خمسة فراسخ من حلب، وجعل على مقدمته جماعة من عسكره مع أمير كبير من مماليك أبيه، يعرف بميمون القصري، ينسب إلى قصر الخلفاء العلويين بمصر، لأن أباه منهم أخذه، فأنفذ الظاهر ميرة و سلاحا إلى حصن له مجاور لبلاد ابن ليون، اسمه دريساك، و أنفذ إلى ميمون ليرسل طائفة من العسكر الذين عنده إلى طريق هذه الذخيرة ليسيروا معها إلى دريساك، ففعل ذلك، و سير جماعة كثيرة من عسكره، و بقي في قلعة، فبلغ الخبر إلى ابن ليون، فجدد، فوافاه و هو مخف من العسكر، فقاتله، و اشتد القتال بينهم، فأرسل ميمون إلى الظاهر يعرفه «٢»، و كان بعيدا عنه، فطالت الحرب بينهم، و حمى ميمون نفسه و أثقاله على قلعة من المسلمين و كثرة من الأرمن، فانهزم المسلمون، و نال العدو منهم، فقتل و أسر، و كذلك أيضا فعل المسلمون بالأرمن من كثرة القتل.

و ظفر الأرمن بأثقال المسلمين فغنموها «٣» و ساروا بها، فصادفهم المسلمون الذين كانوا قد ساروا مع الذخائر إلى دريساك «٤»، فلم يشعروا بالحال، فلم يرعهم إلّا العدو و قد خالطهم و وضع السيف فيهم، فاقتتلوا أشد قتال، ثم انهزم المسلمون أيضا، و عاد الأرمن إلى بلادهم بما غنموا و اعتصموا بجبالهم و حصونهم.

(١). دخول الطريق إليها. B.

(٢). يعرفه الحال. B.

(٣). فنهبوا و غنموها. B.

(٤). إلى دريساك. B. mo

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٢٤٠

ذكر نهب الكرج أرمنية

في هذه السنة قصدت الكرج في جموعها ولاية خلط من أرمنية، و نهبوا و قتلوا، و أسروا و سبوا «١» أهلها كثيرا، و جاسوا خلال الديار «٢» آمنين، و لم يخرج إليهم من خلط من يمنهم، فبقوا متصرفين في النهب و السبي، و البلاد شاغرة لا مانع لها، لأن صاحبها صبي «٣»، و المدبر لدولته ليست له تلك الطاعة على الجند.

فلما اشتد البلاء على الناس تدامروا، و حرض بعضهم بعضا، و اجتمعت العساكر الإسلامية التي بتلك الولاية جميعها، و انضاف إليهم من المتطوعة كثير، فساروا جميعهم نحو الكرج و هم خائفون، فرأى بعض الصوفية الأخيار الشيخ محمدا [١] البستي، و هو من الصالحين، و كان قد مات، فقال له الصوفي: أراك هاهنا؟ فقال: جئت لمساعدة المسلمين على عدوهم. فاستيقظ فرحا بمحل البستي من الإسلام، و أتى إلى مدبر العسكر، و القيم بأمره، و قص عليه رؤياه، ففرح بذلك، و قوى عزمه على قصد الكرج، و سار بالعساكر إليهم فنزل منزلا.

فوصلت الأخبار إلى الكرج، فعزموا على كبس المسلمين، فانتقلوا من موضعهم بالوادي إلى أعلاه، فنزلوا فيه ليكبسوا المسلمين إذا أظلم الليل، فأتى المسلمين الخبر، فقصدوا الكرج و أمسكوا عليهم رأس الوادي و أسفله، و هو واد ليس إليه غير هذين [٢] الطريقين، فلما رأى الكرج ذلك

[١]- محمّد.

[٢]- هذه.

(١-٢). خلال تلك الديار.B. و سبوا من.B.

(٣). و لا مدبر له:tidda:

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٢٤١

أيقنوا بالهلاك، و سقط في أيديهم، و طمع المسلمون فيهم، و ضايقوهم، و قاتلوهم، فقتلوا منهم كثيرا، و أسروا مثلهم، و لم يفلت من الكرج إلّا القليل، و كفى الله المسلمين شرهم بعد أن كانوا أشرفوا على الهلاك.

ذكر عدة حوادث «١»

في هذه السنة، في جمادى الآخرة، توفي الأمير طاشتكين مجير الدين، أمير الحاج، بتستر [١]، و كان قد ولّاه الخليفة على جميع خوزستان، و كان أمير الحاج سنين كثيرة، و كان خيرا صالحا، حسن السيرة، كثير العبادة، يتشيع. و لما مات ولى الخليفة على خوزستان مملوكه سنجر، و هو صهر طاشتكين زوج ابنته.

و فيها «٢» قتل سنجر بن مقلد بن سليمان بن مهارش، أمير عبادة، بالعراق.

و كان سبب قتله أنه سعى «٣» بأبيه مقلد إلى الخليفة الناصر لدين الله، فأمر بالتوكيل على أبيه، فبقى مدة «٤» ثم أطلقه الخليفة، ثم إن سنجر قتل أخا له اسمه «٥» ...

فأوغر بهذه الأسباب صدور أهله و إخوته، فلما كان هذه السنة في شعبان نزل بأرض المعشوق، و ركب في بعض الأيام، و معه إخوته و غيرهم من أصحابه، فلما انفرد عن أصحابه ضربه أخوه علي بن مقلد بالسيف فسقط إلى الأرض، فنزل إخوته إليه فقتلوه.

[١] بتستر.

(١). ذكر وفاء صاحب مازندران و الخلف بين أولاده:mutpircsni :tatxe٤٤١.egap nidouqtupactidda

AmusrevcnuhetnA

(٢). العجائب:daeuqsu فيها:aedni

(٣). أنه كان قد سعى.B.

(٤). فبقى مدة.B.mo

(٥).nieuqouqsiS٧٤٠

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٢٤٢

و فيها تجهز غياث الدين خسرو شاه، صاحب مدينة الروم «١»، إلى مدينة طرابزون، و حصر صاحبها لأنه كان قد خرج عن طاعته، فضيق عليه، فانقطعت لذلك الطرق من بلاد الروم، و الروس، و قفجاق و غيرها، بزا و بحرا، و لم يخرج منهم أحد إلى بلاد غياث الدين، فدخل بذلك ضرر عظيم على الناس، لأنهم كانوا يتجرون معهم، و يدخلون بلادهم، و يقصدهم التجار من الشام، و العراق، و الموصل، و الجزيرة و غيرها، فاجتمع منهم بمدينة سيواس خلق كثير، فحيث لم يفتح الطريق تأذوا أذى كثيرا، فكان السعيد منهم من عاد إلى رأس ماله.

و فيها تزوج أبو بكر بن البهلوان، صاحب أذربيجان و أران، بابنة ملك الكرج، و سبب ذلك أن الكرج تابعت الغارات منهم على بلاده لما رأوا من عجزه و انهماكه كان في الشرب و اللعب و ما جانسهما، و إعراضه عن تدبير الملك و حفظ البلاد، فلما رأى هو أيضا ذلك، و لم يكن عنده من الحمية و الأنفة من هذه المناحس ما يترك ما هو مصر عليه، و أنه لا يقدر على الذب عن البلاد

[بالسيف]، عدل إلى الذب عنها بأيره، فخطب ابنه ملكهم، فتزوجها، فكف الكرج عن النهب والإغارة والقتل، فكان كما قيل: أعمد سيفه، و سلّ أيره.

و فيها حمل إلى أزبك «٢» خروف وجهه صورة آدمي، و بدنه بدن خروف، و كان هذا من العجائب.

و فيها توفي القاضي أبو حامد محمد بن محمد المانداي الواسطي بها.

و فيها، في شوال، توفي فخر الدين مبارك شاه بن الحسن المروزي، و كان حسن الشعر بالفارسيّة و العربيّة، و له منزلة عظيمة عند غياث الدين الكبير،

(١). بلاد الروم. B

(٢). إلى إربل. B

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٢٤٣

صاحب غزنه و هراء و غيرهما، و كان له دار ضيافته، فيها كتب و شطرنج، فالعلماء يطالعون الكتب، و الجهال يلعبون بالشطرنج. و فيها، في ذي الحجة، توفي أبو الحسن علي بن علي بن سعادة الفارقي، الفقيه الشافعي، ببغداد، و بقي مدّة طويلة معيدا بالنظاميّة، و صار مدرّسا بالمدرسة التي أحدثها «١» أمّ الخليفة الناصر لدين الله، و كان مع علمه صالحا، طلب للنيابة في القضاء ببغداد، فامتنع، فألزم بذلك، فوليه يسيرا، ثمّ في بعض الأيام مشى إلى جامع ابن المطلب، فنزل، و لبس مئزر صوف غليظ، و غير ثيابه، و أمر الوكلاء و غيرهم بالانصراف عنه، و أقام به حتّى سكن الطلب عنه، و عاد إلى منزله بغير ولاية.

و فيها وقع الشيخ أبو موسى المكي، المقيم بمقصورة جامع السلطان ببغداد، من سطح الجامع، فمات، و كان رجلا صالحا كثير العبادة. و فيها أيضا توفي العفيف أبو المكارم عرفه بن علي بن بصلا البندنجي ببغداد، و كان رجلا صالحا، منقطعا إلى العبادة، رحمه الله.

(١). التي أنشأتها. A

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٢٤٤

٦٠٣ ثم دخلت سنة ثلاث و ستمائة

ذكر ملك عباس باميان و عودها إلى ابن أخيه

في هذه السنة ملك عباس باميان من علاء الدين و جلال الدين ولدى أخيه بهاء الدين.

و سبب ذلك أن عسكر باميان لما انهزموا من الدز، و عادوا إليها، أخبروا أن علاء الدين و جلال الدين أسرا [١]، و أن الدز و من معه غنموا ما في العسكر فأخذ وزير أبيهما، المعروف بالصاحب، من الأموال كثيرا، و من الجواهر و غيرها من التحف، و أخذ فيلا، و سار إلى خوارزم شاه يستنجده على الدز ليستتر معه عسكرا يستخلص به صاحبيه.

فلما فارق باميان، و رأى عمهما عباس خلق البلد منه و من ابني أخيه، جمع أصحابه و قام في البلد فملكه، و صعد إلى القلعة فملكها، و أخرج أصحاب ابني أخيه علاء الدين و جلال الدين منها، فبلغ الخبر إلى الوزير السائر إلى خوارزم شاه، فعاد إلى باميان، و جمع الجموع الكثيرة، و حصر عباسا في القلعة، و كان مطاعا في جميع ممالك بهاء الدين و ولديه من بعده، و أقام عليه محاصرا، إلّا أنّه لم يكن معه من المال ما يقوم بما يحتاج إليه، إنّما كان معه ما أخذه ليحمّله إلى خوارزم شاه.

فلما خلص جلال الدين من أسر الدز، على ما ذكره، سار إلى باميان،

[١] أسروا.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٢٤٥

فوصل إلى أرسف، وهي مدينة باميان، وجاء إليه وزير أبيه صاحب، واجتمع به، و ساروا إلى القلاع، و راسلوا عباسا المتغلب عليها، و لطفوه، فسلم الجميع إلى جلال الدين و قال: إنما حفظتها خوفا أن يأخذها خوارزم شاه، فاستحسن فعله، و عاد إلى ملكه.

ذكر ملك خوارزم شاه الطالقان

لما سلم خوارزم شاه ترمذ إلى الخطا سار عنها إلى ميهنة «١» و أندخوى [و كتب] «٢» إلى سونج أمير أشكار «٣»، نائب غياث الدين محمود بالطالقان، يستميله، فعاد الرسول خائبا لم يجبه سونج إلى ما أراد منه، و جمع عسكره و خرج يحارب خوارزم شاه، فالتقوا بالقرب من الطالقان.

فلما تقابل العسكران حمل سونج وحده مجداً، حتى قارب عسكر خوارزم شاه، فألقى نفسه إلى الأرض، و رمى سلاحه عنه، و قبل الأرض، و سأل العفو، فظن خوارزم شاه أنه سكران، فلما علم أنه صاح ذمه و سبه، و قال: من يثق بهذا [١] و أشباهه! و لم يلتفت إليه، و أخذ ما بالطالقان من مال و سلاح و دواب و أنفذه إلى غياث الدين مع رسول، و حمّله رسالته تتضمن التقرب إليه و الملاطفة له، و استتاب بالطالقان بعض أصحابه، و سار إلى قلاع كالوين و بيوار، فخرج إليه حسام الدين علي بن أبي علي، صاحب كالوين، و قتله على رءوس الجبال، فأرسل إليه خوارزم شاه يتهدده إن لم يسلم إليه،

[١]- إلى هذا.

(١) ميمنه: ٧٤٠. ميمند. P.C.

(٢). P.C. ٧٤٠ te

(٣). شكار: P.C.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٢٤٦

فقال: أما أنا فمملوك، و أما هذه الحصون فهي أمانة بيدي، و لا أسلمها إلّا إلى صاحبها، فاستحسن خوارزم شاه منه هذا، و أثنى عليه، و ذم سونج.

و لما بلغ غياث الدين خبر سونج، و تسليمه الطالقان إلى خوارزم شاه، عظم عنده و شق عليه، فسلاه أصحابه، و هونوا الأمر. و لمّا فرغ خوارزم شاه من الطالقان سار إلى هراء، فنزل بظاهرها، و لم يمكن ابن خرميل أحدا من الخوارزميين أن يتطرق بالأذى إلى أهلها، و إنما كانوا يجتمع منهم الجماعة بعد الجماعة، فيقطعون الطريق، و هذه عادة الخوارزميين.

و وصل رسول غياث الدين إلى خوارزم شاه بالهدايا، و رأى الناس عجباً، و ذلك أن الخوارزميين لا يذكرون غياث الدين الكبير والد غياث الدين هذا، و لا يذكرون أيضا شهاب الدين أخاه، و هما حيّان، إلّا بالغوري، و صاحب غزنه، و كان وزير خوارزم شاه الآن، مع عظم شأنه و قلّة شأن غياث الدين هذا، لا يذكره إلّا بمولانا السلطان مع ضعفه و عجزه و قلّة بلاده.

و أما ابن خرميل فإنه سار من هراء في جمع من عسكره خوارزم شاه، فنزل على أسفرار في صفر، و كان صاحبها قد توجه إلى غياث الدين فحصرها و أرسل إلى من بها يقسم بالله لئن سلّموها أن يؤمنهم، و إن امتنعوا أقام عليهم إلى أن يأخذهم، فإذا أخذهم قهرا لا يبقى على كبير و لا صغير، فخافوا، فسلموها في ربيع الأوّل، فأمنهم و لم يتعرض إلى أهلها بسوء، فلما أخذها أرسل إلى حرب بن

محمد، صاحب سجستان، يدعوهُ إلى طاعة خوارزم شاه و الخطبة له ببلاده، فأجابه إلى ذلك، و كان غياث الدين قد راسله قبل ذلك في الخطبة و الدخول في طاعته، فغالطه و لم يجبه إلى ما طلب.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٢٤٧

و لما كان خوارزم شاه على هراء عاد إليها القاضي صاعد بن الفضل الذي كان ابن خرميل قد أخرجه من هراء في العام الماضي، و سار إلى غياث الدين، فعاد الآن من عنده، فلما وصل قال ابن خرميل لخوارزم شاه: إن هذا يميل إلى الغوريّة، و يريد دولتهم، و وقع فيه، فسجنه خوارزم شاه بقلعة زوزن، و ولي القضاء بهراء الصفي أبا بكر بن محمد السرخسي، و كان ينوب عن صاعد و ابنه في القضاء بهراء.

ذكر حال غياث الدين مع الدز و أبيك

لما عاد الدز إلى غزنه، و أسر علاء الدين و أخاه جلال الدين، كما ذكرناه، كتب إليه غياث الدين يطالبه بالخطبة له، فأجابه جواب مدافع، و كان جوابه في هذه المرة أشد منه فيما تقدّم، فأعاد غياث الدين إليه يقول: إمّا أن تخطب لنا، و إمّا أن تعرّفنا ما في نفسك، فلما وصل الرسول بهذا أحضر خطيب غزنه و أمره [أن] يخطب لنفسه بعد الترخّم على شهاب الدين، فخطب لتاج الدين الدز بغزنه. فلما سمع الناس ذلك ساءهم، و تغيّرت نياتهم، و نيات الأتراك الذين معه، و لم يروه أهلاً أن يخدموه، و إمّا كانوا يطيعونه ظناً منهم أنّه ينصر دولة غياث الدين، فلما خطب له أرسل إلى غياث الدين يقول له: بما ذا تشتطّ عليّ، و تتحكّم في هذه الخزائن؟ نحن جمعناها بأسيافنا، و هذا الملك قد أخذته، و أنت قد اجتمع عندك الذين هم أساس الفتنة، و أقطعتهم الإقطاعات، و وعدتني بأمور «١» لم تقف عليها، فإن أنت أعتقتني «٢» خطبت لك و حضرت خدمتك.

(١-٢). تعتقني. A. و أمرتني بأمور. A.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٢٤٨

فلما وصل الرسول اجابه غياث الدين إلى عتق الدز، بعد الامتناع الشديد، و العزم على مصالحة خوارزم شاه على ما يريد، و قصد غزنه و محاربته بها، فلما أجابه إلى العتق أشهد عليه به، و أشهد عليه أيضا بعتق قطب الدين أبيك، مملوك شهاب الدين و نائبة ببلاد الهند، و أرسل إلى كلّ واحد منهما ألف قباء، و ألف قلنسوة، و مناطق الذهب، و سيوف كثيرة و جترين، و مائة رأس من الخيل، و أرسل إلى كلّ واحد منهما رسولا، فقبل الدز الخلع، و ردّ الجتر، و قال:

نحن عبيد و مماليك، و الجتر له أصحاب.

و سار رسول أبيك إليه، و كان بفرشابور قد ضبط المملكة و حفظ البلاد، و منع المفسدين من الفساد و الأذى، و الناس معه في أمن، فلما قرب الرسول منه لقيه على بعد، و ترخّل و قبّل حافر الفرس، و لبس الخلعة، و قال: أمّا الجتر فلا يصلح للمماليك، و أمّا العتق فمقبول، و سوف أجازيه بعبودية الأبد.

و أمّا خوارزم شاه فإنّه أرسل إلى غياث الدين يطلب منه أن يتصاهرا، و يطلب منه ابن خرميل صاحب هراء إلى طاعته، و يسير معه في العساكر إلى غزنه، فإذا ملكها من الدز اقتسموا المال أثلاثا: ثلث لخوارزم شاه، و ثلث لغياث الدين، و ثلث للعسكر، فأجابه إلى ذلك، و لم يبق إلّا الصلح، فوصل الخبر إلى خوارزم شاه بموت صاحب مازندران، فسار عن هراء إلى مرو، و سمع الدز بالصلح، فجزع لذلك جزعا عظيما ظهر أثره [١] عليه، و أرسل إلى غياث الدين: ما حملك على هذا؟ فقال: حملني عليه عصيانك و خلافك عليّ.

فسار الدز إلى تكياباذ «١» فأخذها، و إلى بست و تلك الأعمال فملكها، و قطع خطبة غياث الدين منها، و أرسل إلى صاحب سجستان يأمره بإعادة الترخّم

[١] - أثر.

(١). div. gap بكناباذ

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٢٤٩

على شهاب الدين، و قطع خطبة خوارزم شاه، و أرسل إلى ابن خرميل، صاحب هراء، بمثل ذلك، و تهددهما بقصد بلادهما، فخافهما الناس.

ثم إن الدز أخرج جلال الدين، صاحب باميان، من أسره، و سیر معه خمسة آلاف فارس مع أي دكر التتر، مملوك شهاب الدين، إلى باميان ليعيدوه إلى ملكه و يزيلوا [١] ابن عمه عنه، و زوجته ابنته، و سار و معه أي دكر، فلما خلا به و بّخه على لبسه خلعة الدز و قال له: أنتم ما رضيتم [أن] تلبسوا خلعة غياث الدين، و هو أكبر سنًا منكم، و أشرف بيتًا، تلبس خلعة هذا المأبون! يعني الدز، و دعاه إلى العود معه إلى غزنه، و أعلمه أن الأتراك كلهم مجمعون على خلاف الدز.

فلم يجبه إلى ذلك، فقال أي دكر: فإنني لا أسير معك، و عاد إلى كابل، و هي إقطاعه، فلما وصل أي دكر إلى كابل لقيه رسول من قطب الدين أبيبك إلى الدز يقترح له فعله، و يأمره بإقامة خطبة غياث الدين، و يخبره أنه قد خطب له في بلاده، و يقول له إن لم يخطب له هو أيضا بغزنه و يعود إلى طاعته، و إلا قصده و حاربه.

فلما علم أي دكر ذلك قويت نفسه على مخالفة الدز، و صمم العزم على قصد غزنه. و وصل أيضا رسول أبيبك إلى غياث الدين بالهدايا و التحف، و يشير عليه بإجابة خوارزم شاه إلى ما طلب الآن، و عند الفراغ من أمر غزنه تسهل أمور خوارزم شاه و غيره، و أنفذ له ذهبا عليه اسمه، فكتب أي دكر إلى أبيبك يعرّفه عصيان الدز على غياث الدين و ما فعله في البلاد، و أنه على عزم مشاققة [٢] الدز، و هو ينتظر أمره، فأعاد أبيبك جوابه يأمره بقصد غزنه، فإن حصلت له القلعة أقام بها إلى أن يأتيه، و إن لم تحصل له القلعة

[١] و يزيلون.

[٢] مشاققة.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٢٥٠

و قصده الدز انحاز إليه، أو إلى غياث الدين، أو يعود إلى كابل.

فسار إلى غزنه، و كان جلال الدين قد كتب إلى الدز يخبره خبر أي دكر «١» و ما عزم عليه، فكتب الدز إلى نوابه بقلعة غزنه يأمرهم بالاحتياط منه، فوصلها أي دكر أول رجب من السنة، و قد حذروه فلم يسلموا إليه القلعة، و منعه عنها، فأمر أصحابه بنهب البلد، فنهبوا عدّة مواضع منه، فتوسط القاضي الحال بأن سلم إليه من الخزانة خمسين ألف دينار ركنية، و أخذ له من التجار شيئا آخر، و خطب أي دكر بغزنه لغياث الدين، و قطع خطبة الدز، ففرح الناس بذلك.

و كان مؤيد الملك ينوب عن الدز بالقلعة، و وصل الخبر إلى الدز بوصول أي دكر إلى غزنه، و وصول رسول أبيبك إليه، ففت في عضده، و خطب لغياث الدين في تكياباذ، و أسقط اسمه من الخطبة، فخطب له، و رحل إلى غزنه، فلما قاربها رحل أي دكر عنها إلى بلد الغور، فأقام في تمران، و كتب إلى غياث الدين يخبره بحاله، و أنفذ إليه المال الذي أخذه من الخزانة و من أموال الناس، فأرسل إليه خلعا و أعتقه، و خاطبه بملك الأمراء، و ردّ عليه المال الذي كان أخذه من الخزانة، و قال له: أما مال الخزانة فقد أعدناه إليك لتخرجه، و أما أموال التجار و أهل البلد فقد أرسلته مع رسولي ليعاد «٢» إلى أربابه لئلا نفتتح دولتنا بالظلم، و قد عوّضتك عنه ضعفه

«٣».

و أرسل أموال الناس إلى غزنه، إلى قاضى غزنه، و أمره أن يرّد المال المنفذ «٤» على أربابه، فأنهى القاضى الحال إلى الدز، و أشار عليه بالخطبة لغيث الدين، و قال: أنا أسعى فى الوصلة بينكما و الصّهر و الصّلع، فأمره بذلك، فبلغ الخبر إلى غياث الدين، فأرسل إلى القاضى ينهاه عن المجيء إليه، و قال: لا

(١). v. qds daeuqsu و ما aedni .mo

(٢). مع رسولى ليعاد. A. mo

(٣). ضعفيه. A.

(٤). المنفذ. A. mo

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٢٥١

تسأل فى عبد أبق قد بان فساد و اتّضح عناده، فأقام بغزنه هو و الدز، و سيّر غياث الدين عسكريا إلى أى ذكر التتر، فأقاموا معه، و سيّر الدز عسكريا إلى روين كان «١»، و هى لغيث الدين، و قد أقطعها لبعض الأمراء، فهجموا على صاحبها، فنهبوا ماله، و أخذوا أولاده، فنجا وحده إلى غياث الدين، فاقتضى الحال أن سار غياث الدين إلى بست و تلك الولاية، فاستردّها و أحسن إلى أهلها، و أطلق لهم خراج سنه لما نالهم من الدز من الأذى.

ذكر وفاة صاحب مازندران و الخلف بين أولاده

فى هذه السنه توفى حسام الدين أردشير «٢»، صاحب مازندران، و خلف ثلاثة أولاد، فملك بعده ابنه الأكبر، و أخرج أخاه الأوسط من البلاد، فقصّد جرجان، و بها الملك علىّ شاه بن خوارزم شاه تكش، أخو خوارزم شاه محمّد، و هو ينوب عن أخيه فيها، فشكا إليه ما صنع به أخوه من إخراجهم من البلاد، و طلب منه أن ينجده عليه، و يأخذ له البلاد ليكون فى طاعته «٣»، فكتب علىّ شاه إلى أخيه خوارزم شاه فى ذلك، فأمره بالمسير معه إلى مازندران، و أخذ البلاد له، و إقامة الخطبة لخوارزم شاه فيها. فساروا عن جرجان، فاتّفق أنّ حسام الدين، صاحب مازندران، مات فى ذلك الوقت، و ملك البلاد بعده أخوه الأصغر، و استولى على القلاع و الأموال، فدخل علىّ شاه البلاد، و معه صاحب «٤» مازندران، فنهبوا و خرّبوها، و امتنع منهم الأخ الصغير «٥» بالقلاع، و أقام بقلعه كورا، و هى

(١). روبر كان: spU. رومن كان: ٧٤٠. رور كان: P. C.

(٢) أردشير. A. mo

(٣). و؟ ب ... طاعته. A. mo

(٤-٥). الأخ الأصغر. A. ولد صاحب. A.

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٢٥٢

التي فيها الأموال و الذخائر، و حصروه فيها بعد أن ملكوا أسامه البلاد مثل:

ساريه و أمل و غيرهما من البلاد و الحصون، و خطب لخوارزم شاه فيها جميعها، فصارت فى طاعته، و عاد علىّ شاه إلى جرجان، و أقام ابن ملك مازندران فى البلاد مالكا لها جميعها، سوى القلعه التى فيها أخوه الأصغر، و هو يرأسله، و يستميله، و يستعطفه، و أخوه لا يرّد جوابا، و لا ينزل عن حصنه.

ذكر ملك غياث الدين كيخسرو مدينة أنطاكية

في هذه السنة، ثالث شعبان، ملك غياث الدين كيخسرو، صاحب قونية و بلد الروم، مدينة أنطاكية بالأمان، و هي للروم على ساحل البحر.

و سبب ذلك أنه كان حصرها قبل هذا التاريخ، و أطال المقام عليها، و هدم عدّة أبراج من سورها، و لم يبق إلّا فتحها عنوة، فأرسل من [بها من] الروم إلى الفرنج الذين بجزيرة قبرس، و هي قريبة منها، فاستنجدوهم، فوصل إليها جماعة منهم، فعند ذلك يئس غياث الدين منها، و رحل عنها، و ترك طائفة من عسكره بالقرب منها، بالجبال التي بينها و بين بلاده، و أمرهم بقطع الميرة منها. فاستمرّ الحال على ذلك مدّة حتّى ضاق بأهل البلد، و اشتدّ الأمر عليهم، فطلبوا من الفرنج الخروج لدفع المسلمين عن مضايقتهم، فظنّ الفرنج أنّ الروم يريدون إخراجهم من المدينة بهذا السبب، فوقع الخلف بينهم، فاقتتلوا، فأرسل الروم إلى المسلمين، و طلبوهم ليسلّموا إليهم البلد، فوصلوا إليهم، و اجتمعوا على قتال الفرنج، فانهزم الفرنج و دخلوا الحصن فاعتصموا به، فأرسل المسلمون يطلبون غياث الدين، و هو بمدينة قونية، فسار إليهم مجداً في طائفة من

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٢٥٣

عسكره، فوصلها ثاني شعبان، و تقرّر الحال بينه و بين الروم، و تسلّم المدينة ثالثة «١»، و حصر الحصن الذي فيه الفرنج، و تسلّمه و قتل كلّ من كان به من الفرنج.

ذكر عزل ولد بكتمر صاحب خلاط و ملك بلبان و مسير صاحب ماردین إلى خلاط و عوده

و في هذه السنة قبض عسكر خلاط على صاحبها ولد بكتمر، و ملكها بلبان مملوك شاه أرمن بن سکمان، و كتب أهل خلاط إلى ناصر الدين أرتق ابن إيلغازي بن البی بن تمر تاش بن إيلغازي بن أرتق يستدعونه إليها. و سبب ذلك أنّ ولد بكتمر كان صبيّاً جاهلاً، فقبض على الأمير شجاع الدين قتلغ، مملوك من مماليك شاه أرمن «٢»، و هو كان أتاكبه، و مدبّر بلاده، و كان حسن السيرة مع الجند و الرعيّة، فلمّا قتله اختلفت الكلمة عليه من الجند و العامّة، و اشتغل هو باللهو و اللعب و إدمان الشرب، فكتب جماعة من عامّة خلاط، و جماعة من جند [١] ناصر الدين، صاحب ماردین، يستدعونه إليهم، و إنّما كاتبوه دون غيره من الملوک لأنّ أباه قطب الدين إيلغازي كان ابن أخت شاه أرمن بن سکمان، و كان شاه أرمن قد حلّف له الناس في حياته لأنّه لم يكن له ولد، فلمّا تجددت بعده هذه الحادثة تذكروا تلك الأيمان، و قالوا: نستدعيه و نملكه، فإنّه من أهل بيت شاه أرمن، فكتبوه و طلبوه إليهم.

[١] الجند.

(١). ثالثة. A. mo

(٢). شجاع ... أرمن. A. mo

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٢٥٤

ثمّ إنّ بعض مماليك شاه أرمن، اسمه بلبان، و كان قد جاهر ولد بكتمر بالعداوة و العصيان، سار من خلاط إلى ملاز كرد و ملكها، و اجتمع الأجناد عليه، و كثر جمعه، و سار إلى خلاط فحصرها، و اتّفق وصول صاحب ماردین إليها، و هو يظنّ أنّ أحدا لا يمتنع عليه، و يسلمون إليه المدينة، فنزل قريبا من خلاط عدّة أيام، فأرسل إليه بلبان يقول له:

إِنَّ أَهْلَ خِلَاطٍ قَدْ أَتَّهُمُونِي بِالْمِيلِ إِلَيْكَ، وَ هُمْ يَنْفِرُونَ مِنَ الْعَرَبِ، وَ الرَّأْيُ أَنَّكَ تَرْحَلُ عَائِدًا مَرَحَلَةً وَاحِدَةً وَ تَقِيمُ، فَإِذَا تَسَلَّمْتَ الْبَلَدَ سَلَّمْتَهُ إِلَيْكَ، لِأَنَّنِي لَا يُمْكِنُنِي أَنْ أَمْلِكُهُ أَنَا.

فَفَعَلَ صَاحِبُ مَارْدِينَ ذَلِكَ، فَلَمَّا أَبْعَدَ عَنْ خِلَاطٍ أَرْسَلَ إِلَيْهِ يَقُولُ لَهُ:

تَعُودُ إِلَى بَلَدِكَ، وَ إِلَّا جِئْتُ إِلَيْكَ وَ أَوْقَعْتُ بِكَ وَ بَمَنْ مَعَكَ. وَ كَانَ فِي قَلْعِهِ مِنَ الْجَيْشِ، فَعَادَ إِلَى مَارْدِينَ.

وَ كَانَ الْمَلِكُ الْأَشْرَفُ مُوسَى بْنُ الْعَادِلِ أَبِي بَكْرٍ بْنُ أَيُّوبَ، صَاحِبُ حَرَّانَ وَ دِيَارِ الْجَزِيرَةِ، قَدْ أَرْسَلَ إِلَى صَاحِبِ مَارْدِينَ، لَمَّا سَمِعَ أَنَّهُ يَرِيدُ قَصْدَ خِلَاطٍ، يَقُولُ لَهُ: إِنْ سَرْتُ إِلَى خِلَاطٍ قَصَدْتَ بَلَدَكَ، وَ إِنَّمَا خَافَ أَنْ يَمْلِكَ خِلَاطٌ فَيَقْوَى عَلَيْهِمْ، فَلَمَّا سَارَ إِلَى خِلَاطٍ جَمَعَ الْأَشْرَفُ الْعَسَاكِرَ وَ سَارَ إِلَى وَلايَةِ مَارْدِينَ، فَأَخَذَ دَخْلَهَا، وَ أَقَامَ بِدَنيسَرٍ يَجِبِي الْأَمْوَالِ إِلَيْهِ، فَلَمَّا فَرَّغَ مِنْهُ عَادَ إِلَى حَرَّانَ، فَكَانَ مِثْلَ صَاحِبِ مَارْدِينَ كَمَا قِيلَ: خَرَجَتْ النَّعَامَةُ تَطْلُبُ قَرْنَيْنِ فَعَادَتْ بِلَا أَذْنَيْنِ.

وَ أَمَّا بَلْبَانُ فَإِنَّهُ جَمَعَ الْعَسْكَرَ وَ حَشَدَهُ، وَ حَصَرَ خِلَاطَ وَ ضَيَّقَ عَلَى أَهْلِهَا، وَ بِهَا وَلَدَ بِكَتْمَرٍ، فَجَمَعَ مِنْ عِنْدِهِ بِالْبَلَدِ مِنَ الْأَجْنَادِ وَ الْعَامَّةِ، وَ خَرَجَ إِلَيْهِ، فَالْتَقَوْا، فَانْهَزَمَ بَلْبَانُ وَ مِنْ مَعَهُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ، وَ عَادَ إِلَى الْوَدِيِّ بِيَدِهِ مِنَ الْبَلَادِ، وَ هُوَ: مَلَاذُكَرْدُ وَ أَرْجِشُ وَ غَيْرُهُمَا مِنَ الْحِصُونِ، وَ جَمَعَ الْعَسَاكِرَ، وَ اسْتَكْثَرَ مِنْهَا، وَ عَاوَدَ حَصَارَ خِلَاطٍ وَ ضَيَّقَ عَلَى أَهْلِهَا، فَاضْطَرَّهُمْ إِلَى خِذْلَانِ

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٢٥٥

وَلَدَ بِكَتْمَرٍ لَصْغَرِهِ، وَ جَهْلِهِ بِالْمَلِكِ، وَ اسْتِغَالَهُ بِلَهْوِهِ وَ لَعِبِهِ، ثُمَّ قَبِضُوا عَلَيْهِ فِي الْقَلْعَةِ، وَ أَرْسَلُوا إِلَى بَلْبَانٍ وَ حَلَفُوهُ عَلَى مَا أَرَادُوا، وَ سَلَّمُوا إِلَيْهِ الْبَلَدَ وَ ابْنَ بِكَتْمَرٍ، وَ اسْتَوْلَى عَلَى جَمِيعِ أَعْمَالِ خِلَاطٍ، وَ سَجَنَ ابْنَ بِكَتْمَرٍ فِي قَلْعَةٍ هُنَاكَ، وَ اسْتَقَرَّ مَلِكُهُ، فَسَبَحَانَ مِنْ إِذَا أَرَادَ أَمْرًا هَيَأُ أَسْبَابَهُ، بِالْأَمْسِ يَقْصِدُهَا شَمْسُ الدِّينِ مُحَمَّدُ الْبَهْلَوَانُ وَ صَلاَحُ الدِّينِ يُوسُفُ بْنُ أَيُّوبَ، فَلَمْ يَقْدِرْ أَحَدُهُمَا عَلَيْهَا، وَ الْآنَ يَظْهَرُ هَذَا الْمَمْلُوكُ الْعَاجِزُ، الْقَاصِرُ عَنِ الرِّجَالِ وَ الْبِلَادِ وَ الْأَمْوَالِ، فَيَمْلِكُهَا صَفْوًا عَفْوًا.

ثُمَّ إِنَّ نَجْمَ الدِّينِ أَيُّوبَ بْنَ الْعَادِلِ، صَاحِبَ مِثَافَارِقِينَ، سَارَ نَحْوَ وَلايَةِ خِلَاطٍ، وَ كَانَ قَدْ اسْتَوْلَى [عَلَى] عِدَّةٍ حِصُونٍ مِنْ أَعْمَالِهَا مِنْهَا: حِصْنُ مُوسَى «١» وَ مَدِينَتُهُ، فَلَمَّا قَارَبَ خِلَاطَ أَظْهَرَ لَهُ بَلْبَانُ الْعَجْزَ عَنْ مِقَابِلَتِهِ، فَطَمَعَ، وَ أَوْغَلَ فِي الْقَرْبِ، فَأَخَذَ عَلَيْهِ بَلْبَانُ الطَّرِيقَ وَ قَاتَلَهُ فَهَزَمَهُ، وَ لَمْ يَفْلِتْ مِنْ أَصْحَابِهِ إِلَّا الْقَلِيلُ وَ هُمُ جَرَحَى، وَ عَادَ إِلَى مِثَافَارِقِينَ.

ذكر ملك الكرج مدينة قرس و موت ملك الكرج

فِي هَذِهِ السَّنَةِ مَلَكَ الْكَرْجَ حِصْنُ قَرَسٍ، مِنْ أَعْمَالِ خِلَاطٍ، وَ كَانُوا قَدْ حَصَرُوهُ مَدَّةً طَوِيلَةً، وَ ضَيَّقُوا عَلَى مَنْ فِيهِ، وَ أَخَذُوا دَخْلَ الْوَلَايَةِ عِدَّةَ سِنِينَ، وَ كُلٌّ مِنْ يَتَوَلَّى خِلَاطَ لَا يَنْجِدُهُمْ، وَ لَا يَسْعَى فِي رَاحَةٍ تَصِلُ إِلَيْهِمْ. وَ كَانَ الْوَالِي بِهَا يُوَاصِلُ رِسْلَهُ فِي طَلَبِ النِّجْدَةِ، وَ إِزَاحَةٍ مِنْ عَلَيْهِ مِنَ الْكَرْجِ، فَلَا يَجَابُ «٢» لَهُ دَعَاءٌ، فَلَمَّا طَالَ الْأَمْرُ عَلَيْهِ، وَ رَأَى أَنْ لَا نَاصِرَ لَهُ، صَالَحَ الْكَرْجَ عَلَى تَسْلِيمِ الْقَلْعَةِ عَلَى مَالٍ كَثِيرٍ وَ إِقْطَاعِ يَأْخُذُهُ مِنْهُمْ، وَ صَارَتْ دَارُ

(١). حصن موس. B. حصن موش. A.

(٢). فلا يخاف. A.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٢٥٦

شَرَكٌ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ دَارُ تَوْحِيدٍ، فِإِنَّا لِلَّهِ وَ إِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، وَ نَسَأَلُ اللَّهَ أَنْ يَسْهَلَ لِلْإِسْلَامِ وَ أَهْلِهِ نَصْرًا مِنْ عِنْدِهِ، فَإِنَّ مَلُوكَ زَمَانِنَا قَدْ اسْتَغْلَوْا بِلَهْوِهِمْ وَ لَعِبِهِمْ وَ ظَلَمِهِمْ عَنْ سَدِّ الثُّغُورِ وَ حِفْظِ الْبِلَادِ.

ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى نَظَرَ إِلَى قَلْعِهِ نَاصِرَ الْإِسْلَامِ، فَتَوَلَّاهُ هُوَ، فَأَمَاتَ مَلِكَةَ الْكَرْجِ، وَ اخْتَلَفُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ وَ كَفَى اللَّهَ شَرَّهُمْ إِلَى آخِرِ السَّنَةِ.

ذكر الحرب بين عسكر الخليفة و صاحب لرستان

في هذه السنة، في رمضان، سار عسكر الخليفة من خوزستان مع مملوكه سنجر، و هو كان المتولّى لتلك الأعمال، وليها بعد موت طاشتكين أمير الحاج، لأنّه زوج ابنة طاشتكين، إلى جبال لرستان، و صاحبها يعرف بأبي طاهر، و هي جبال منيعة بين فارس و أصبهان و خوزستان، فقاتلوا أهلها و عادوا منهزمين.

و سبب ذلك أنّ مملوكا للخليفة الناصر لدين الله اسمه قشتمر من أكابر مماليكه كان قد فارق الخدمة لتقصير رآه من الوزير نصير الدين العلوي الرازي، و اجتاز بخوزستان، و أخذ منها ما أمكنه «١» و لحق بأبي طاهر صاحب لرستان، فأكرمه و عظّمه و زوّجه ابنته، ثمّ توفّي أبو طاهر فقوى أمر قشتمر، و أطاعه أهل تلك الولاية.

فأمر سنجر بجمع العساكر و قصده و قتاله، ففعل سنجر ما أمر به، و جمع العساكر و سار إليه، فأرسل قشتمر يعتذر، و يسأل أن لا يقصد و لا يخرج عن العبوديّة، فلم يقبل عذره، فجمع أهل تلك الأعمال، و نزل إلى

(١). العلوي ... أمكنه. B. mo

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٢٥٧

العسكر، فلقبهم، فهزمهم، و أرسل إلى صاحب فارس بن دكلا و شمس الدين إيدغمش، صاحب أصبهان و همذان و الرّي، يعرفهما الحال، و يقول: إنني لا قوة لي بعسكر الخليفة، و ربّما أضيف إليهم عساكر أخرى من بغداد و عادوا إلى حربي، و حينئذ لا أقدر بهم، و طلب منهما النجدة، و خوّفهما من عسكر الخليفة إن ملك تلك الجبال، فأجاباه إلى ما طلب، فقوى جنانه، و استمرّ على حاله.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة قتل صبي صبيّا آخر ببغداد، و كانا يتعاشران، و عمر كل واحد منهما يقارب عشرين سنة، فقال أحدهما للآخر: الساعة أضربك بهذه السكين، يمازحه بذلك أهوى نحوه بها، فدخلت في جوفه فمات، فهرب القاتل ثمّ أخذ و؟ أمر؟ به ليقتل، فلمّا أرادوا قتله طلب دواء و [ورقة] بيضاء، و كتب فيها من دوله؟

قدمت على الكريم بغير زاد من الأعمال بالقلب السليم [١]

و سوء الظنّ أن تشدّ زادا إذا كان القدوم على كريم و فيها حجّ برهان الدين صدر جهان محمّد بن أحمد بن عبد العزيز بن مارة «١» البخاري رأس الحنفية ببخارى، و هو كان صاحبها على الحقيقة، يؤدى الخراج إلى الخطأ، و ينوب عنهم في البلد، فلمّا حجّ لم تحمد سيرته في الطريق،

[١]- بل قلب سليم.

(١). مازة: P. C.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٢٥٨

و لم يصنع معروفا، و كان قد أكرم ببغداد عند قدومه من بخارى، فلمّا عاد لم يلتفت إليه لسوء سيرته مع الحاج، و سمّاه الحجاج صدر جهنم.

و فيها، في شوال، مات شيخنا أبو الحرم مكى بن ريان «١» بن شبة النحوي المقرئ بالموصل، و كان عارفا بالنحو و اللغة و القراءات،

لم يكن في زمانه مثله، و كان ضريرا، و كان يعرف سوى هذه العلوم من الفقه و الحساب و غير ذلك معرفة حسنة، و كان من خيار عباد الله و صالحهم، كثير التواضع، لا يزال الناس يشتغلون عليه من بكرة إلى الليل.

و فيها فارق أمير الحاج مظفر الدين سنقر مملوك الخليفة المعروف بوجه السبع الحاج بموضع يقال له المرجوم، و مضى في طائفة من أصحابه إلى الشام، و سار الحاج و معهم الجند، فوصلوا سالمين، و وصل هو إلى الملك العادل أبي بكر بن أيوب، فأقطعه إقطاعا كثيرا بمصر، و أقام عنده إلى أن عاد إلى بغداد سنة ثمان و ستمائة في جمادى الأولى، فإنه لما قبض الوزير أمن على نفسه، و أرسل يطلب العود، فأجيب إليه، فلما وصل أكرمه الخليفة و أقطعه الكوفة.

و فيها، في جمادى الآخرة، توفي أبو الفضل عبد المنعم بن عبد العزيز الإسكندراني، المعروف بابن النطروني، في مارستان بغداد، و كان قد مضى إلى المايورقي في رسالته بإفريقية، فحصل له منه عشرة آلاف دينار مغربية، فرّقها جميعها في بلده على معارفه و أصدقائه، و كان فاضلا خيرا، نعم الرجل، رحمه الله، و له شعر حسن، و كان قيما بعلم الأدب، و أقام بالموصل مدة، و اشتغل على الشيخ أبي الحرم، و اجتمعت به كثيرا عنده.

(١). سكي بن ريان: spU. ملّى بن ريان: P.C.٧٤٠

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٢٥٩

٦٠٤ ثم دخلت سنة أربع و ستمائة

ذكر ملك خوارزم شاه ما وراء النهر و ما كان بخراسان من الفتن و إصلاحها

في هذه السنة عبر علاء الدين محمد بن خوارزم شاه نهر جيحون لقتال الخطا.

و سبب ذلك أن الخطا كانوا قد طالت أيامهم ببلاد تركستان، و ما وراء النهر، و ثقلت و طأنهم على أهلها، و لهم في كلّ مدينة نائب يجبي إليهم الأموال، و هم يسكنون الخركاهات على عادتهم قبل أن يملكوا، و كان مقامهم بنواحي أوزكند، و بلاساغون، و كاشغر، و تلك النواحي، فاتفق أن سلطان سمرقند و بخارى، و يلقب خان خانان، يعنى سلطان السلاطين، و هو من أولاد الخائية، عريق النسب في الإسلام و الملك، أنف و ضجر من تحكّم الكفار على المسلمين، فأرسل إلى خوارزم شاه يقول له: إن الله، عزّ و جلّ، قد أوجب عليك بما أعطاك من سعة الملك و كثرة الجنود أن تستنقذ المسلمين و بلادهم من أيدي الكفار، و تخلصهم ممّا يجرى عليهم من التحكّم في الأموال و الأبخار، و نحن نتفق معك على محاربة الخطا، و نحمل إليك ما نحمله إليهم، و نذكر اسمك في الخطبة و على السكّة، فأجابه إلى ذلك، و قال: أخاف أنكم لا تفون لى.

فسير إليه صاحب سمرقند وجوه أهل بخارى و سمرقند، بعد أن حلّفوا صاحبهم على الوفاء بما تضمّنه، و ضمنوا عنه الصدق و الثبات على ما

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٢٦٠

بذل، و جعلوا عنده رهائن، فشرع في إصلاح أمر خراسان، و تقرير قواعدها.

فولّى أخاه على شاه طبرستان مضافه إلى جرجان، و أمره بالحفظ و الاحتياط، و ولّى الأمير كزلك خان، و هو من أقارب أمّه و أعيان دولته، بنيسابور، و جعل معه عسكريا، و ولّى الأمير جلدك مدينة الخام، و ولّى الأمير أمين الدين أبا بكر مدينة زوزن.

و كان أمين الدين هذا حمّالا، ثم صار أكبر الأمراء، و هو الذى ملك كرمان، على ما ذكره إن شاء الله تعالى، و أقرّ الأمير الحسين «١» على هراء، و جعل معه فيها ألف فارس من الخوارزميّة، و صالح غياث الدين محمودا على ما بيده من بلاد الغور، و كرمسير، و

استتاب في مرو و سرخس و غيرهما من خراسان نوابا، و أمرهم بحسن السياسة، و الحفظ، و الاحتياط، و جمع عساكره جميعها، و سار إلى خوارزم، و تجهز منها، و عبّر جيحون، و اجتمع بسلطان سمرقند، و سمع الخطأ، فحشدوا، و جمعوا، و جاءوا إليه فجرى بينهم وقعت كثيرة و مغاورات، فتارة له و تارة عليه.

ذكر قتل ابن خرميل و حصر هراء

ثم إن ابن خرميل، صاحب هراء، رأى سوء معاملته عسكر خوارزم شاه للرعية، و تعدّاهم إلى الأموال، فقبض عليهم و حبسهم، و بعث رسولا إلى خوارزم شاه يعتذر، و يعرفه ما صنعوا، فعظم عليه، و لم يمكنه محاqqته [١] لاشتغاله.

[١] محاqqته.

(١) الحسين بن خرميل. B.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٢٦١

بقتال الخطأ «١»، فكتب إليه يستحسن فعله، و يأمره بإنفاذ الجند الذين قبض عليهم لحاجته إليهم، و قال له: إنني قد أمرت عز الدين جلدك بن طغرل، صاحب الخام، أن يكون عندك لما أعلمه من عقله، و حسن سيرته، و أرسل إلى جلدك يأمره بالمسير إلى هراء و أسر إليه أن يحتاج في القبض على حسين بن خرميل و لو أول ساعة يلقاه.

فسار جلدك في ألفى فارس، و كان أبوه طغرل، أيام السلطان سنجر، واليا بهراء، فهوى [١] إليها بالأشواق يختارها على جميع خراسان، فلما قارب هراء أمر ابن خرميل الناس بالخروج لتلقيته [٢]، و كان للحسين وزير يعرف بخواجه صاحب، و كان كبيرا [٣] قد حنكته التجارب، فقال لابن خرميل: لا تخرج إلى لقائه، و دعه يدخل إليك منفردا، فإنني أخاف أن يغدر بك، و أن يكون خوارزم شاه أمر بذلك. فقال: لا يجوز أن يقدم مثل هذا الأمير و لا ألتقيه، و أخاف أن يضطغن ذلك عليّ «٢» خوارزم شاه، و ما أظنه يتجاسر عليّ.

فخرج إليه الحسين بن خرميل، فلما بصر كل واحد منهما [٤] بصاحبه ترجل للالتقاء، و كان جلدك قد أمر أصحابه بالقبض عليه، فاختلفوا بهما، و حالوا بين ابن خرميل و أصحابه، و قبضوا عليه، فانهزم أصحابه و دخلوا المدينة و أخبروا الوزير بالحال، فأمر بإغلاق الباب و الطلوع إلى الأسوار، و استعدّ للحصار، و نزل جلدك على البلد، و أرسل إلى الوزير يتهدده، إن لم يسلم

[١] - فهو.

[٢] - بتلقيه.

[٣] - كثيرا.

[٤] - منها.

(١). لاشتغاله بالخطأ. B.

(٢). يصعب ذلك عليّ. B.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٢٦٢

البلد، بقتل ابن خرميل، فنادى الوزير بشعار غياث الدين محمود «١» الغوري، و قال لجلدك: لا أسلم البلد إليك، و لا إلى الغادر ابن

خرمیل، و إنما هو لغياث الدين، ولأبيه قبله.

فقدّموا ابن خرميل إلى السور، فخطب الوزير، وأمره بالتسليم، فلم يفعل، فقتل ابن خرميل، وهذه عاقبة الغدر، فقد تقدّم من أخباره عند شهاب الدين الغوري ما يدلّ على غدره، وكفرانه الإحسان ممّن أحسن إليه.

فلما قتل ابن خرميل كتب جلدك إلى خوارزم شاه بجلية الحال، فأنفذ خوارزم شاه إلى كزلك خان، وإلى نيسابور، وإلى أمين الدين أبي بكر، صاحب زوزن، يأمرهما بالمسير إلى هراء و حصارها و أخذها، فسارا في عشرة آلاف فارس، فنزلوا على هراء، و راسلوا الوزير بالتسليم، فلم يلتفت إليهم، وقال: ليس لكم من المحلّ ما يسلم إليكم مثل هراء، لكن إذا وصل السلطان خوارزم شاه سلّمها إليه. فقاتلوه، و جدّوا في قتاله، فلم يقدرُوا عليه.

و كان ابن خرميل قد حصّن هراء، و عمل لها أربعة أسوار محكمة، و حفر خندقها، و شحنها بالميرة، فلما فرغ من كلّ ما أراد قال: بقيت أخاف على هذه المدينة شيئا واحدا، و هو أن تسكّر المياه التي لها أياما كثيرة «٢»، ثم ترسل دفعة واحدة فتخرق أسوارها. فلما حصرها هؤلاء سمعوا قول ابن خرميل، فسكروا المياه حتّى اجتمعت كثيرا، ثم أطلقوها على هراء فأحاطت بها و لم تصل إلى السور لأنّ أرض المدينة مرتفعة، فامتلا الخندق ماء، و صار حولها وحلا، فانتقل العسكر عنهم، و لم يمكنهم القتال لبعدهم عن المدينة. و هذا كان قصد ابن خرميل: أن يمتلئ الخندق ماء، و يمنع الوحل «٣» من القرب من المدينة، فأقاموا مدّة حتّى نشف الماء، فكان قول ابن خرميل

(١). محمود بن غياث الدين. B.

(٢). كثيرة حتى تجتمع. B.

(٣). و يمتلئ الوحل. B.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٢٦٣

من أحسن الحيل.

و نعود إلى قتال خوارزم شاه الخطا و أسره، و أمّا خوارزم شاه فإنّه دام القتال بينه و بين الخطا، ففي بعض الأيام اقتتلوا، و اشتدّ القتال، و دام بينهم، ثم انهزم المسلمون هزيمة قبيحة، و أسر كثير منهم، و قتل كثير. و كان من جملة الأسرى خوارزم شاه، و أسر معه أمير كبير يقال له فلان بن شهاب الدين [مسعود] أسرها رجل واحد.

و وصلت العساكر الإسلامية إلى خوارزم، و لم يروا السلطان معهم، فأرسلت أخت كزلك خان، صاحب نيسابور «١»، و هو يحاصر هراء، و أعلمته الحال، فلما أتاه الخبر سار عن هراء ليلا إلى نيسابور، و أحسّ به الأمير أمين الدين أبو بكر، صاحب زوزن، فأراد هو و من عنده من الأمراء منعه، مخافة أن «٢» يجرى بينهم حرب يطمع بسببها أهل هراء فيهم، فيخرجون إليهم فيبلغون منهم ما يريدونه، فأمسكوا عن معارضته.

و كان خوارزم شاه قد خرّب سور نيسابور لما ملكها من الغوريّة، فشرع كزلك خان يعمره، و أدخل إليها الميرة، و استكثر من الجند، و عزم على الاستيلاء على خراسان إن صحّ فقد السلطان.

و بلغ خبر عدم السلطان إلى أخيه عليّ شاه و هو بطبرستان، فدعا إلى نفسه، و قطع خطبة أخيه و استعدّ لطلب السلطنة، و اختلطت خراسان اختلاطا عظيما.

و أمّا السلطان خوارزم شاه، فإنّه لما أسر قال له ابن شهاب الدين مسعود:

يجب أن تدع السلطنة في هذه الأيام، و تصير خادما لعلّي أحتال في خلاصك، فشرع يخدم ابن مسعود، و تقدّم له الطعام، و يخلعه ثيابه و خفّه، و يعظّمه،

(١). نيسابور إلى أخيه و هو. B

(٢). فخافوا أن. B

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٢٦٤

فقال الرجل الذي أسرهما لابن مسعود: أرى هذا الرجل يعظمك، فمن أنت؟ فقال: أنا فلان، وهذا غلامى، فقام إليه و أكرمه، و قال: لو لا أن القوم عرفوا بمكانك عندى لأطلقتك، ثم تركه أيّاماً، فقال له ابن مسعود:

إنى أخاف أن يرجع المنهزمون، فلا- يرانى أهلى معهم، فيظنون أنى قتلت، فيعملون العزاء و المأتم، و تضيق صدورهم لذلك، ثم يقتسمون مالى فأهلك، و أحب أن تقرّر علىّ شيئاً من المال حتّى أحمله إليك، فقرّر عليه مالا، و قال له: أريد أن تأمر رجلاً عاقلاً يذهب بكتابتى إلى أهلى و يخبرهم بعافيتى، و يحضر معه من يحمل المال.

ثم قال: إنّ أصحابكم لا يعرفون أهلنا، و لكن هذا غلامى أثق به، و يصدّقه أهلى «١»، فأذن له الخطائى بإنفاذه، فسيرّه و أرسل معه الخطائى فرسا، و عدّة من الفرسان يحمونه، فساروا حتّى قاربوا خوارزم، و عاد الفرسان عن خوارزم شاه، و وصل خوارزم شاه إلى خوارزم، فاستبشر به الناس و ضربت البشائر، و زيّنوا البلد، و أتته الأخبار بما صنع كزلك بنيسابور، و بما صنع أخوه علىّ شاه بطبرستان.

ذكر ما فعله خوارزم شاه بخراسان

لَمّا وصل خوارزم شاه إلى خوارزم أتته الأخبار بما فعله كزلك خان و أخوه علىّ شاه و غيرهما «٢» [١]، فسار إلى خراسان، و تبعته العساكر، فتقطّعت، و وصل هو إليها فى اليوم السادس و معه ستّة فرسان، و بلغ كزلك خان وصوله،

[١]- و غيرهم

(١). أهلى بسلامتى. B

(٢). و غيرهم فعاد إلى نيسابور و تبعته. B

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٢٦٥

فأخذ أمواله و عساكره و هرب نحو العراق، و بلغ أخاه علىّ شاه، فخافه، و سار على طريق قهستان ملتجئاً إلى غياث الدين محمود الغورى، صاحب فيروزكوه، فتلّقه، و أكرمه «١»، و أنزله عنده.

و أمّا خوارزم شاه فإنّه دخل نيسابور، و أصلح أمرها، و جعل فيها نائباً و سار إلى هراء، فنزل عليها مع عسكره الذين يحاصرونه، و أحسن إلى أولئك الأمراء، و وثق بهم لأنّهم صبروا على امتثال أمره فى تلك الحال و لم يتغيّروا، و لم يبلغوا من هراء غرضاً بحسن تدبير ذلك الوزير، فأرسل خوارزم شاه إلى الوزير يقول له: إنك وعدت عسكرى أنك تسلم المدينة إذا حضرت، و قد حضرت فسلم. فقال: لا أفعل، لأننى أعرف أنّكم غدارون، لا تبقون على أحد، و لا أسلم البلد إلّا إلى غياث الدين محمود.

فغضب خوارزم شاه من ذلك، و زحف إليه بعساكره، فلم يكن فيه حيلة، فاتفق جماعة من أهل هراء و قالوا: هلك الناس من الجوع و القلّة، و قد تعطلت علينا معاشنا، و قد مضى سنة و شهر، و كان الوزير يعد بتسليم البلد إلى خوارزم شاه إذا وصل إليه، و قد حضر خوارزم شاه و لم يسلم، و يجب أن نحتال فى تسليم البلد و الخلاص من هذه الشدّة التى نحن فيها.

فانتهى ذلك إلى الوزير، فبعث إليهم جماعة من عسكره، و أمرهم بالقبض عليهم، فمضى الجند إليهم، فثارت فتنة فى البلد عظم

خطبها، فاحتاج الوزير إلى تداركها بنفسه، فمضى لذلك، فكتب من البلد إلى خوارزم شاه بالخبر، و زحف إلى البلد و أهله مختلطون، فحربوا برجين من السور، و دخلوا البلد فملكوه، و قبضوا على الوزير، فقتله خوارزم شاه، و ملك البلد، و ذلك سنة خمس و ستمائة، و أصلح حاله، و سلمه إلى خاله أمير ملك، و هو من

(١). فتلقاء غياث الدين و أكرمه. B.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٢٦٦

أعيان أمراءه، فلم يزل [١] بيده حتى هلك خوارزم شاه.

و أما ابن شهاب الدين مسعود فإنه أقام عند الخطا مديدة، فقال له الذي استأسره يوما: إن خوارزم شاه قد عدم فأيش عندك من خبره؟ فقال له: أما تعرفه؟ قال: لا! قال: هو أسيرك الذي كان عندك. فقال «١»:

لم لم تعرفني [٢] حتى كنت أخدمه، و أسير بين يديه إلى مملكته؟ قال:

خفتكم عليه. فقال الخطائي: سر بنا إليه، فسارا إليه، فأكرمهما، و أحسن إليهما، و بالغ في ذلك.

ذكر قتل غياث الدين محمود

لما سلم خوارزم شاه هراة إلى خاله أمير ملك و سار إلى خوارزم، أمره أن يقصد غياث الدين محمود بن غياث الدين محمد بن سام الغوري، صاحب الغور و فيروزكوه، و أن يقبض عليه و على أخيه علي شاه بن خوارزم شاه، و يأخذ فيروزكوه من غياث الدين. فسار أمير ملك إلى فيروزكوه، و بلغ ذلك إلى محمود، فأرسل يبذل الطاعة و يطلب الأمان، فأعطاه ذلك، فنزل إليه محمود «٢»، فقبض عليه أمير ملك، و على علي شاه أخى خوارزم شاه، فسألاه أن يحملهما إلى خوارزم شاه ليرى فيهما رأيه، فأرسل إلى خوارزم شاه يعرفه الخبر، فأمره بقتلهما، فقتلا في

[١]- تزل.

[٢]- لا عرفتني.

(١).

(٢). محمود من فيروزكوه. B.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٢٦٧

يوم واحد، و استقامت خراسان كلها لخوارزم شاه، و ذلك سنة خمس و ستمائة أيضا. الكامل في التاريخ ج ١٢ ٢٦٧ ذكر قتل غياث الدين محمود ص: ٢٦٦

و غياث الدين هذا هو آخر ملوك الغورية، و لقد كانت دولتهم من أحسن الدول سيرة، و أعدلها و أكثرها جهادا، و كان محمود هذا عادلا، حلما كريما، من أحسن الملوك سيرة و أكرمهم أخلاقا، رحمه الله تعالى.

ذكر عود خوارزم شاه إلى الخطا

لما استقر أمر خراسان لخوارزم شاه و عبر نهر جيحون، جمع له الخطا جمعا عظيما و ساروا إليه، و المقدم عليهم شيخ دولتهم، القائم مقام الملك فيهم، المعروف بطاينكوه «١»، و كان عمره قد جاوز مائة سنة، و لقي حروبا كثيرة، و كان مظفرا، حسن التدبير و العقل، و

اجتمع خوارزم شاه و صاحب سمرقند، و تصافوا هم و الخطا سنة ست و ستمائة، فجرت حروب لم يكن مثلها شدة و صبرا، فانهزم الخطا هزيمة منكرة، و قتل منهم و أسر خلق لا يحصى.

و كان فيمن أسر طينكوه «٢» مقدمهم، و جرى به إلى خوارزم شاه، فأكرمه، و أجلسه على سريره، و سيره إلى خوارزم، ثم قصد خوارزم شاه إلى بلاد ما وراء النهر، فملكها مدينة مدينة، و ناحية ناحية، حتى بلغ إلى مدينة أوزكند، و جعل نوابه فيها و عاد إلى خوارزم و معه سلطان سمرقند، و كان من أحسن الناس صورة، فكان أهل خوارزم يجتمعون حتى ينظروا [١] إليه، فزوجه

[١]- ينظرون.

(١-٢). طينكوا. B.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٢٦٨

خوارزم شاه بابتته، و رده إلى سمرقند، و بعث معه شحنة يكون بسمرقند على ما كان رسم الخطا.

ذكر غدر صاحب سمرقند بالخوارزميين

لما عاد صاحب سمرقند إليها، و معه شحنة لخوارزم شاه، أقام معه نحو سنة، فرأى [من] سوء سيرة الخوارزميين، و قبح معاملتهم، ما ندم [معه] على مفارقة الخطا، فأرسل إلى ملك الخطا يدعوه إلى سمرقند ليسلمها إليه، و يعود إلى طاعته، و أمر بقتل كل من في سمرقند من الخوارزميين ممن سكنها قديما و حديثا، و أخذ أصحاب خوارزم شاه، فكان يجعل الرجل منهم قطعتين و يعلقهم في الأسواق كما يعلق القصاب اللحم، و أساء غاية الإساءة، و مضى إلى القلعة ليقول زوجته ابنة خوارزم شاه، فأغلقت الأبواب، و وقفت بجوارها تمنعه، و أرسلت إليه تقول: أنا امرأة و قتل مثلي قبيح و لم يكن مني إليك ما أستوجب به هذا منك، و لعل تركي أحمد عاقبة، فاتق الله في! فتركها و وكل بها من يمنعها التصرف في نفسها.

و وصل الخبر إلى خوارزم شاه فقامت قيامته، و غضب غضبا شديدا، و أمر بقتل كل من بخوارزم من الغرباء، فمنعته أمه عن ذلك، و قالت: إن هذا البلد قد أتاه الناس من أقطار الأرض، و لم يرض كلهم بما كان من هذا الرجل، فأمر بقتل أهل سمرقند، فنهته أمه، فانتهى، و أمر عساكره بالتجهز إلى ما وراء النهر، و سيرهم أرسالا، كلما تجهز جماعة عبروا جيحون، فعبر منهم خلق كثير لا يحصى، ثم عبر هو بنفسه في آخرهم، و نزل على سمرقند، و أنفذ إلى صاحبها يقول له: قد فعلت ما لم يفعله مسلم، و استحلت

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٢٦٩

من دماء المسلمين ما لا يفعله عاقل لا مسلم و لا كافر، و قد عفا [١] الله عما سلف، فأخرج من البلاد و امض حيث شئت، فقال: لا أخرج و افعل ما بدا لك.

فأمر عساكره بالزحف، فأشار عليه بعض من معه بأن يأمر بعض الأمراء، إذا فتحوا البلد، أن يقصدوا الدرب الذي يسكنه التجار، فيمنع من نهبه و التطرق إليهم بسوء، فإنهم غرباء، و كلهم كارهون لهذا الفعل. فأمر بعض الأمراء بذلك، و زحف، و نصب السلايل على السور، فلم يكن بأسرع من أن أخذوا البلد، و أذن لعساكره بالنهب، و قتل من يجدونه من أهل سمرقند، فنهب البلد، و قتل أهله، ثلاثة أيام، فيقال إنهم قتلوا منهم مائتي ألف إنسان، و سلم ذلك الدرب الذي فيه الغرباء، فلم يعد منهم الفرد و لا «١» الآدمي الواحد.

ثم أمر بالكف عن النهب و القتل، ثم زحف إلى القلعة فرأى صاحبها ما ملأ قلبه هيبه و خوفا، فأرسل يطلب الأمان، فقال: لا أمان لك عندي، فزحفوا عليها فملكوها، و أسروا صاحبها، و أحضره عند خوارزم شاه، فقبل الأرض و طلب العفو، فلم يعف عنه، و أمر بقتله، فقتل صبورا، و قتل معه جماعة من أقاربه، و لم يترك أحدا ممن ينسب إلى الخاتية، و رتب فيها و في سائر البلاد نوابه، و لم يبق لأحد

معه فى البلاد حكم.

ذكر الواقعة التى أفنت الخطا

لما فعل خوارزم شاه بالخطا ما ذكرناه مضى من سلم منهم إلى ملكهم، فإنه لم يحضر الحرب، فاجتمعوا عنده، و كان طائفة عظيمة من التتر قد خرجوا

[١]- عفى.

(١). منه الحجة و لا B.

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٢٧٠

من بلادهم، حدود الصين قديما، و نزلوا وراء بلاد تركستان، و كان بينهم و بين الخطا عداوة و حروب، فلما سمعوا بما فعله خوارزم شاه بالخطا قصدوهم مع ملكهم كشلى خان، فلما رأى ملك الخطا ذلك أرسل إلى خوارزم شاه يقول له: أمّا ما كان منك من أخذ بلادنا و قتل رجالنا فعفو عنه، و قد أتى [١] من هذا العدو من لا قبل لنا به، و إنهم إن انتصروا علينا، و ملكونا، فلا دافع لهم عنك، و المصلحة أن تسير إلينا بعساكرك و تنصرنا على قتالهم، و نحن نحلف لك أننا إذا ظفروا بهم لا نتعرض [٢] إلى ما أخذت من البلد، و نقنع بما فى أيدينا.

و أرسل إليه كشلى خان ملك التتر [يقول]: إن هؤلاء الخطا أعداؤك و أعداء آبائك و أعداؤنا، فساعدنا عليهم، و نحلف أننا إذا انتصروا عليهم لا نقرب بلادك، و نقنع بالمواضع التى ينزلونها «١»، فأجاب كلا منهما: إننى معك، و معاضدك على خصمك. و سار بعساكره إلى أن نزل قريبا من الموضع الذى تصافوا فيه، فلم يخالطهم مخالطة يعلم بها أنه من أحدهما، فكانت كل طائفة منهم تظن أنه معها «٢»، و توقع الخطا و التتر، فانهزم الخطا هزيمة عظيمة، فمال حينئذ خوارزم شاه، و جعل يقتل، و يأسر، و ينهب، و لم يترك أحدا ينجو منهم، فلم يسلم منهم إلّا طائفة يسيرة مع ملكهم فى موضع من نواحي الترك يحيط به جبل [٣] ليس إليه طريق إلّا من جهة واحدة، تحصّوا فيه، و انضمّ إلى خوارزم شاه منهم طائفة، و ساروا فى عسكره، و أنفذ خوارزم شاه إلى كشلى خان ملك التتر

[١] أنا.

[٢] نعترض.

[٣] جبال.

(١). ينزلونها و المراعى التى ترعونها. B.

(٢). أنه مع B.

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٢٧١

يمن [١] عليه بأنّه حضر لمساعدته، و لولاه لما تمكّن من الخطا، فاعترف له كشلى خان بذلك مدّة، ثمّ أرسل إليه يطلب منه المقاسمة على بلاد الخطا، و قال:

كما أننا اتّفقنا على إبادتهم ينبغى أن نفتسم بلادهم، فقال: ليس لك عندى غير السيف، و لستم بأقوى من الخطا شوكة، و لا أعزّ

ملكا، فإن قنعت بالمساكنة، وإلا سرت إليك، وفعلت بك شراً مما فعلت بهم.

و تجهّز و سار حتّى نزل قريبا منهم، و علم خوارزم شاه أنّه لا طاقة له به، فكان يراوغه، فإذا سار إلى موضع قصد خوارزم شاه أهله و أثقالهم فينهبها، و إذا سمع أنّ طائفة سارت عن موطنهم سار إليها فأوقع بها، فأرسل إليه كشلى خان يقول له: ليس هذا فعل الملوك! هذا فعل اللصوص، و إلّا إن كنت سلطانا، كما تقول، فيجب أن نلتقى، فإمّا أن تهزمنى و تملك البلاد التى بيدى، و إمّا أن أفعل أنا بك ذلك.

فكان يغالطه و لا- يجيبه إلى ما طلب، لكنّه أمر أهل الشاش و فرغانة و أسفيجاب و كاسان، و ما حولها من المدن التى لم يكن فى الدنيا أنزه منها، و لا أحسن عمارة، بالجلء منها، و اللحاق ببلاد الإسلام، ثمّ خرّبها جميعها خوفا من التتر أن يملكوها. ثمّ اتّفق خروج هؤلاء التتر الآخر الذين خرّبوا الدنيا و ملكهم جنكزخان النهرجى على كشلى خان [ملك] التتر الأوّل، فاشتغل بهم كشلى خان عن خوارزم شاه، فخلا وجهه، فعبّر النهر إلى خراسان.

[١] يمتّ.

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٢٧٢

ذكر ملك نجم الدين ابن الملك العادل خلّاط

فى هذه السنّة ملك الملك الأوحّد نجم الدين أيّوب ابن الملك العادل أبى بكر ابن أيّوب مدينة خلّاط. و سبب ذلك أنّه كان بمدينة ميّافارقين من أبيه، فلمّا كان من ملك بلبان خلّاط ما ذكرناه، قصد هو «١» مدينة موش، و حصرها، و أخذها، و أخذ معها ما يجاورها. و كان بلبان لم تثبت قدمه حتّى يمنعه، فلمّا ملكها طمع فى خلّاط، فسار إليها، فهزّمه بلبان، كما ذكرناه أيضا، فعاد إلى بلده، و جمع و حشد، و سيّر إليه أبوه جيشا، فقصد خلّاط، فسار إليه بلبان، فتصافّا و اقتتلا، فانهزم بلبان، و تمكّن نجم الدين من البلاد، و ازداد منها.

و دخل بلبان خلّاط و اعتصم بها، و أرسل رسولا إلى مغيث الدين طغرل شاه بن قلعج أرسلان، و هو صاحب أرزن الروم، يستنجده على نجم الدين، فحضر بنفسه و معه عسكره، فاجتمعا، و هزّما نجم الدين، و حصرا موش، فأشرف الحصن على أن يملك، فغدر ابن قلعج أرسلان بصاحب خلّاط و قتله طمعا فى البلاد، فلمّا قتله سار إلى خلّاط، فمنعه أهلها عنها، فسار إلى ملاز كرد، فردّه أهلها أيضا، و امتنعوا عليه، فلمّا لم يجد فى شىء من البلاد مطمعا عاد إلى بلده.

فأرسل أهل خلّاط إلى نجم الدين يستدعونه إليهم ليملكوه، فحضر عندهم، و ملك خلّاط و أعمالها سوى اليسير منها، و كره الملوك المجاورون له ملكه لها خوفا من أبيه، و كذلك أيضا خافه الكرج و كرهوه، فتابعوا الغارات على أعمال

(١). حصر هو A.

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٢٧٣

خلّاط و بلادها، و نجم الدين مقيم بخلّاط لا يقدر على مفارقتها، فلقى المسلمون من ذلك أذى شديدا. و اعتزل جماعة من عسكر خلّاط، و استولوا على حصن و ان، و هو من أعظم الحصون و أمنعها، و عصوا على نجم الدين، و اجتمع إليهم جمع كثير، و ملكوا مدينة أرجيش، فأرسل نجم الدين إلى أبيه الملك العادل يعرّفه الحال، و يطلب منه أن يمده بعسكر، فسيّر إليه أخاه الملك الأشرف موسى بن العادل فى عسكر، فاجتمعا فى عسكر كثير، و حصرا قلعة و ان و بها الخلاطية، و جدّوا فى قتالهم، فضعف أولئك عن مقاومتهم، فسلموها صلحا و خرجوا منها، و تسلّمها نجم الدين، و استقرّ ملكه بخلّاط و أعمالها، و عاد أخوه

الأشرف إلى بلده حران و الرها.

ذكر غارات الفرنج بالشام

و في هذه السنة كثر الفرنج الذين بطرابلس و حصن الأكراد، و أكثروا الإغارة على بلد حمص و ولاياتها، و نازلوا مدينة حمص، و كان جمعهم كثيرا فلم يكن لصاحبها أسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه بهم قوة و لا يقدر على دفعهم و منعهم، فاستنجد الظاهر غازي، صاحب حلب، و غيره من ملوك الشام، فلم ينجده إلّا الظاهر، فإنه سیر له عسكرا أقاموا عنده، و منعوا الفرنج عن ولايته. ثم إن الملك العادل خرج من مصر بالعساكر الكثيرة، و قصد مدينة عكا، فصالحه صاحبها الفرنجي على قاعدة استقرت من إطلاق أسرى من المسلمين و غير ذلك، ثم سار إلى حمص، فنزل على بحيرة قدس، و جاءته عساكر الشرق و ديار الجزيرة، و دخل إلى بلاد طرابلس، و حاصر موضعا

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٢٧٤

يسمى القليعات، و أخذه صلحا، و أطلق صاحبه، و غنم ما فيه من دواب و سلاح، و خرّبه، و تقدّم إلى طرابلس، فنهب، و أحرق، و سبى، و غنم و عاد، و كانت مدّة مقامه في بلد الفرنج اثني عشر يوما، و عاد إلى بحيرة قدس. و ترددت الرسل بينه و بين الفرنج في الصلح، فلم تستقرّ قاعدة، و دخل الشتاء، و طلبت العساكر الشرقية العود إلى بلادهم قبل البرد الشدید، فنزل طائفة من العسكر بحمص عند صاحبها، و عاد إلى دمشق فشتى بها، و عادت عساكر ديار الجزيرة إلى أماكنها. و كان سبب خروجه من مصر بالعساكر أن أهل قبرس من الفرنج أخذوا عدّة قطع من أسطول مصر، و أسروا من فيها، فأرسل العادل إلى صاحب عكا في ردّ ما أخذ، و يقول: نحن صلح، فلم غدرتم بأصحابنا؟ فاعتذر بأن أهل قبرس ليس لى عليهم حكم، و أن مرجعهم إلى الفرنج الذين بالقسطنطينية، ثم إن أهل قبرس ساروا إلى القسطنطينية بسبب غلاء كان عندهم و تعدّرت عليهم الأقوات، و عاد حكم قبرس إلى صاحب عكا، و أعاد العادل مراسلته فلم ينفصل حال، فخرج بالعساكر، و فعل بعكا ما ذكرنا، فأجابه حينئذ صاحبها إلى ما طلب و أطلق الأسرى.

ذكر الفتنة بخلاط و قتل كثير من أهلها

لمّا تمّ ملك خلاط و أعمالها للملك الأوحّد بن العادل سار عنها إلى ملازكرد ليقرّر قواعدها أيضا، و يفعل ما ينبغي أن يفعله فيها، فلما فارق خلاط و ثب أهلها على من بها من العسكر فأخرجوه من عندهم، و عصوا، و حصروا القلعة و بها أصحاب الأوحّد، و نادوا بشعار شعار أرمن، و إن كان ميتا، يعنون بذلك ردّ الملك إلى أصحابه و مماليكه.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٢٧٥

فبلغ الخبر إلى الملك الأوحّد، فعاد إليهم و قد وافاه عسكر من الجزيرة فقوى بهم، و حصر خلاط، فاختلف أهلها، فمال إليه بعضهم حسدا للآخرين، فملكها، و قتل بها خلقا كثيرا من أهلها، و أسر جماعة من الأعيان، فسيرهم إلى ميافارقين، و كان كلّ يوم يرسل إليهم يقتل منهم جماعة، فلم يسلم إلّا القليل، و ذلّ أهل خلاط بعد هذه الواقعة، و تفرقت كلمة الفتیان و كان الحكم إليهم، و كفى الناس شرهم، فإنهم كانوا قد صاروا يقيمون ملكا و يقتلون آخر، و السلطنة عندهم لا حكم لها و إنّما الحكم لهم و إليهم.

ذكر ملك أبي بكر بن البهلوان مراغة

في هذه السنة ملك الأمير نصره الدين أبو بكر بن البهلوان، صاحب أذربيجان، مدينة مراغة. و سبب ذلك أن صاحبها علاء الدين قراسنقر مات هذه السنة، و ولى بعده ابن له طفل، و قام بتدبير دولته و تربيته خادم كان لأبيه،

فعصى عليه أمير كان مع أبيه و جمع جمعا كثيرا، فأرسل إليه الخادم من عنده من العسكر، فقاتلهم ذلك الأمير، فانهزموا، و استقر ملك ولد علاء الدين، إلّا أنه لم تطل أيامه حتى توفي فى أول «١» سنة خمس و ستمائة، و انقرض أهل بيته، و لم يبق منهم أحد. فلما توفي سار نصره الدين أبو بكر من تبريز إلى مراغة فملكها، و استولى على جميع مملكة آل قراسنقر، ما عدا قلعة روين دز «٢» فإنها اعتصم بها الخادم، و عنده الخزائن و الذخائر، فامتنع بها على الأمير أبى بكر.

(١) فى أوائل B.

(٢). زوقدر: spU. رويدر: P.C.٧٤٠

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٢٧٦

ذكر عزل نصير الدين وزير الخليفة

كان نصير الدين ناصر بن مهدي العلويّ هذا من أهل الرّى، من بيت كبير «١»، فقدم بغداد لما ملك مؤيد الدين بن القصاب وزير الخليفة الرّى «٢»، و لقي من الخليفة قبولا، فجعله نائب الوزارة، ثم جعله وزيرا، و حكمه و جعل ابنه صاحب المخزن. فلما كان فى الثانى و العشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة عزل، و أغلق بابه، و كان سبب عزله أنّه أساء السيرة مع أكابر مماليك الخليفة، فمنهم أمير الحاج مظفر الدين سنقر المعروف بوجه السبع «٣»، فإنّه هرب من يده إلى الشام سنة ثلاث و ستمائة، فارق الحاج بالمرخوم «٤»، و أرسل يعتذر من هربه و يقول: إننى هربت من يد الوزير، ثم أتبعه الأمير جمال الدين قشتمر، و هو أخص المماليك و آثرهم عنده، و مضى إلى لرستان و أرسل يعتذر و يقول: إنّ الوزير يريد أن لا يبقى فى خدمة الخليفة أحدا من مماليكه، و لا شكّ [أنّه] يريد [أن] يدعى الخلافة، و قال الناس فى ذلك فأكثروا، و قالوا الشعر، فمن ذلك قول بعضهم:

ألا مبلغ عني الخليفة أحمداتوق [١] و قيت السوء ما أنت صانع

وزيرك هذا بين أمرين فيهما فعالك، يا خير البرية، ضائع

فإن كان حقّا من سلالة أحمد فهذا وزير فى الخلافة طامع

[١] - أتوقّ.

(١). من بيت كبير. A. mo

(٢). لما ملك ... الرى. A. mo

(٣). السبع أمير الحاج. B.

(٤). بالمرجوم. P.C.

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٢٧٧ و إن كان فيما يدعى غير صادق فأضيع ما كانت لديه الصّنائع فعزله، و قيل فى سبب ذلك غيره، و لما عزل أرسل إلى الخليفة يقول:

إننى قدمت إلى هاهنا و ليس لى دينار و لا- درهم، و قد حصل لى من الأموال و الأعلاق النفيسة و غير ذلك ما يزيد على خمسة آلاف «١» دينار، و يسأل أن يؤخذ منه الجميع و يفرج عنه و يمكن من المقام بالمشهد أسوة ببعض العلويين.

فأجابه: إنّنا ما أنعمنا عليك بشيء فنوينا استعادته منك، و لو كان ملء الأرض ذهباً، و نفسك فى أمان الله و أماننا، و لم يبلغنا عنك ما تستوجب به ذلك، غير أنّ الأعداء قد أكثروا فيك، فاختر لنفسك موضعا تنتقل إليه موفورا محترما.

فاختار أن يكون تحت الاستظهار من جانب الخليفة لئلا يتمكن منه العدو فتذهب نفسه، ففعل به ذلك.

و كان حسن السيرة، قريبا إلى الناس، حسن اللقاء لهم و الانبساط معهم، عفيفا عن أموالهم غير ظالم لهم، فلما قبض عاد أمير الحاج من مصر و كان في الخدمة العادلة، و عاد أيضا قشتمر، و أقيم في النيابة في الوزارة فخر الدين أبو البدر محمد بن أحمد بن أمسينا الواسطي إلا أنه لم يكن متحكما.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة ليلة الأربعاء لخمس بقين من رجب زلزلت الأرض وقت السحر، و كنت حينئذ بالموصل، و لم تكن بها شديدة، و جاءت الأخبار من كثير من البلاد بأنها زلزلت و لم تكن بالقوية.

(١). خمسمائة ألف. B.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٢٧٨
و فيها أطلق الخليفة الناصر لدين الله جميع حق البيع و ما يؤخذ من أرباب الأمتعة من المكوس من سائر المبيعات، و كان مبلغا كثيرا. و كان سبب ذلك أن بنتا عز الدين نجاح شرابي الخليفة توفيت، فاشتري لها بقر لتذبح و يتصدق بلحمها عنها، فرفعوا في حساب ثمنها مئونة البقر، فكانت كثيرة، فوقف الخليفة على ذلك «١»، و أمر بإطلاق المئونة جميعها.
و فيها، في شهر رمضان، أمر الخليفة ببناء دور في المحال ببغداد ليفطر فيها الفقراء، و سميت دور الضيافة، يطبخ فيها اللحم الضأن، و الخبز الجيد، عمل ذلك في جانبي بغداد، و جعل في كل دار من يوثق بأمانته، و كان يعطي كل إنسان قدحا مملوءا من الطبخ و اللحم، و منا من الخبز، فكان يفطر كل ليلة على طعامه خلق لا يحصون كثرة.
و فيها زادت دجلة زيادة كثيرة، و دخل الماء في خندق بغداد من ناحية باب كلواذي، فخيف على البلد من الغرق، فاهتم الخليفة بسد الخندق، و ركب فخر الدين نائب الوزارة و عز الدين الشرايبي و وقفا ظاهر البلد، فلم يبرحا حتى سد الخندق.
و فيها توفي الشيخ حنبل بن عبد الله بن الفرج الكبير بجامع الرصافة، و كان عالي الإسناد، روى عن ابن الحصين مسند أحمد بن حنبل، و له إسناد حسن، و قدم الموصل، و حدث بها و غيرها.

(١). فوقف ... ذلك. A. mo

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٢٧٩

٦٠٥ ثم دخلت سنة خمس و ستمائة

ذكر ملك الكرج أرجيش و عودهم عنها

في هذه السنة سارت الكرج في جموعها إلى ولاية خلاط، و قصدوا مدينة أرجيش، فحاصروها و ملكوها عنوة، و نهبوا جميع ما بها من الأموال و الأمتعة و غيرها، و أسروا و سبوا أهلها، و أحرقوها، و خرّبوها بالكليّة، و لم يبق بها من أهلها أحد، فأصبحت خاوية على عروشها كأن لم تغن بالأمس.

و كان نجم الدين أيوب، صاحب أرمينية، بمدينة خلاط، و عنده كثير من العساكر، فلم يقدم على الكرج لأسباب: منها كثرتهم، و خوفه من أهل خلاط لما كان أسلف إليهم من القتل و الأذى، خاف أن يخرج منها فلا يمكن من العود إليها، فلما لم يخرج إلى قتال

الكرج، عادوا إلى بلادهم سالمين، لم يذعرهم ذاعر، وهذا جميعه، وإن كان عظيما شديدا على الإسلام وأهله، فإنه يسير بالنسبة إلى ما كان مّا نذكره سنة أربع عشرة إلى سنة سبع عشرة و ستمائة.

ذكر قتل سنجر شاه و ملك ابنه محمود

في هذه السنة قتل سنجر شاه بن غازي بن مودود بن زنكي بن آقسنقر، صاحب جزيرة ابن عمر، وهو ابن عم نور الدين، صاحب الموصل، قتله ابنه

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٢٨٠

غازي، و لقد سلك ابنه في قتله طريقا عجيبا يدل على مكر و دهاء.

و سبب ذلك أن سنجر كان سىء السيرة مع الناس كلهم من الرعية و الجند و الحريم و الأولاد، و بلغ «١» من قبح فعله مع أولاده أنه سير ابنه محمودا و مودودا إلى قلعة فرح من بلد الزوزان، و أخرج ابنه هذا إلى دار بالمدينة أسكنه فيها، و وكل به من يمنعه من الخروج.

و كانت الدار إلى جانب بستان لبعض الرعية، فكان يدخل إليه منها الحيات، و العقارب، و غيرهما من الحيوان المؤذى «٢»، ففي بعض الأيام اصطاد حية و سيرها في منديل إلى أبيه لعله يرق له، فلم يعطف عليه، فأعمل الحيلة حتى نزل من الدار التي كان بها و اختفى، و وضع إنسانا كان يخدمه، فخرج من الجزيرة و قصد الموصل، و أظهر أنه غازي بن سنجر، فلما سمع نور الدين بقربه منها أرسل نفقه، و ثيابا، و خيلا، و أمره بالعود، و قال: إن أباك يتجنى لنا الذنوب التي لم نعملها، و يقبح ذكرنا، فإذا صرت عندنا جعل ذلك ذريعة للشناعات و البشاعات [١]، و نقع معه في صراع لا ينادى وليده، فسار إلى الشام.

و أمّا غازي بن سنجر فإنه تسلق إلى دار أبيه، و اختفى عند بعض سراريه، و علم به أكثر من بالدار، فسترت «٣» عليه بغضا لأبيه، و توقعا للخلاص منه لشدة عليه، فبقى كذلك، و ترك أبوه الطلب له ظنا منه أنه بالشام، [فاتفق] أن أباه، في بعض الأيام، شرب الخمر بظاهر البلد مع ندمائه، فكان يقترح على المغنيين أن يغنوا في الفراق و ما شاكل ذلك، و يبكي، و يظهر في قوله قرب الأجل، و دنو الموت، و زوال ما هو فيه، فلم يزل

[١] - و الشفاعات.

(١). و الحريم و الأموال و بلغ. B.

(٢). من الحيوانات المؤذية. B.

(٣). فسترت. B.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٢٨١

كذلك إلى آخر النهار، و عاد إلى داره، و سكر عند بعض حظايه، ففي الليل دخل الخلاء، و كان ابنه عند تلك الحظية، فدخل إليه داره فضربه بالسكين أربع عشرة ضربة، ثم ذبحه، و تركه ملقى، و دخل الحمام «١» و قعد يلعب مع الجوارى، فلو فتح باب الدار و أحضر الجند و استحلهم لملك البلد، لكنه أمن و اطمأن، و لم يشك في الملك.

فاتفق أن بعض الخدم الصغار خرج إلى الباب و أعلم أستاذ دار سنجر «٢» الخبر، فأحضر أعيان الدولة و عرفهم ذلك، و أغلق الأبواب على غازي، و استحلف الناس لمحمود بن سنجر شاه، و أرسل إليه فأحضره من فرح و معه أخوه مودود، فلما حلف الناس و سكنوا فتحو باب الدار على غازي، و دخلوا عليه ليأخذوه، فمانعهم عن نفسه، فقتلوه و ألقوه «٣» على باب الدار، فأكلت الكلاب بعض لحمه،

ثم دفن باقيه.

و وصل محمود إلى البلد و ملكه، و لُقّب بمعزّ الدين، لقب أبيه، فلما استقرّ أخذ كثيرا من الجوارى اللواتي لأبيه فغرقهنّ في دجلة. و لقد حدّثني صديق لنا أنّه رأى بدجلة في مقدار غلوة سهم سبع جوار [١] مغرقات، منهنّ ثلاث قد أحرقت وجوههنّ بالنار، فلم أعلم سبب ذلك الحريق حتّى حدّثني [٢] جاريه اشتريتها بالموصل من جواريه، أنّ محمودا كان يأخذ الجارية فيجعل وجهها في النار، فإذا احترقت ألقاها في دجلة، و باع من لم يغرقه منهنّ، فتفرّق أهل تلك الدار أيدي سبا. و كان سنجر شاه قبيح السيرة، ظالما، غاشما، كثير المخاتلة و الموارد،

[١]- جوارى.

[٢]- حدّثني.

(١). و دخل الحمام. B. mo

(٢). سنجر شاه. B

(٣). فقتل و ألقى. B

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٢٨٢

و النظر في دقيق الأمور و جليلها، لا يمتنع من قبيح يفعله مع رعيته و غيرهم، من أخذ الأموال و الأملاك، و القتل، و الإهانة، و سلك معهم طريقا و عرا من قطع الألسنة و الأنوف و الآذان، و أمّا اللّحي [١] فإنّه حلق منها ما لا يحصى. و كان جلّ فكره في ظلم يفعله.

و بلغ من شدّة ظلمه أنّه كان إذا استدعى إنسانا ليحسن إليه لا يصل إلّا و قد قارب الموت من شدّة الخوف، و استعلى في أيّامه السفهاء، و نفقت سوق الأشرار و الساعين بالناس، فخرّب البلد، و تفرّق أهله، لا جرم سلّط الله عليه أقرب الخلق إليه فقتله ثمّ قتل ولده غازى، و بعد قليل قتل ولده محمود أخاه مودودا، و جرى في داره من التحريق و التغريق و التفريق ما ذكرنا بعضه، و لو رمنا شرح قبح سيرته لطال «١»، و الله تعالى بالمرصاد لكلّ [٢] ظالم.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة، ثانی المحرّم، توفّي أبو الحسن «٢» ورام بن أبي فراس الزاهد بالحلّة السيفيّة، و هو منها، و كان صالحا.

و في صفر توفّي الشيخ مصدق بن شبيب النحويّ، و هو من أهل واسط.

و في شعبان توفّي القاضي محمّد بن أحمد بن المندائي، الواسطيّ، بها، و كان كثير الرواية للحديث، و له إسناد عال، و هو آخر من حدّث بمسند

[١] اللّحا.

[٢] كلّ.

(١). لطال الأمر. B

(٢). الحسين. P. C.

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٢٨٣

أحمد بن حنبل عن ابن الحصين.

وفيه توفى القوام أبو الفوارس نصر بن ناصر بن مكى المدائنى، صاحب المخزن ببغداد، و كان أدبيا، فاضلا، كامل المروءة، يحب الأدب و أهله، و يحب الشعر، و يحسن الجوائز عليه، و لما توفى ولى بعده أبو الفتوح المبارك ابن الوزير عضد الدين أبى الفرج بن رئيس الرؤساء، و أكرم، و أعلى محلّه، فبقى متوليا إلى سابع ذى القعدة و عزل لعجزه.

و فيها كانت زلزلة عظيمة بنيسابور و خراسان، و كان أشدها بنيسابور و خرج أهلها إلى الصحراء، أياما حتى سكنت و عادوا إلى مساكنهم.

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٢٨٤

٦٠٦ ثم دخلت سنة ست و ستمائة

ذكر ملك العادل الخابور و نصيبين و حصره سنجار و اتفاق نور الدين أرسلان شاه و مظفر الدين

فى هذه السنة ملك العادل أبو بكر بن أيوب بلد الخابور و نصيبين، و حصر مدينة سنجار، و الجميع من أعمال الجزيرة، و هو بيد قطب الدين محمد بن زنكى بن مودود.

و سبب ذلك أن قطب الدين المذكور كان بينه و بين ابن عمّه نور الدين أرسلان شاه بن مسعود بن مودود، صاحب الموصل، عداوة مستحكمة، و قد تقدّم ذكر ذلك، فلما كان سنة خمس و ستمائة حصلت مصاهرة بين نور الدين و العادل، فإن ولدا للعادل تزوج بابنة لنور الدين، و كان لنور الدين وزراء يحبون أن يشتغل عنهم «١»، فحسّنوا له مراسلة العادل و الاتفاق معه على أن يقتسما بالبلاد التى لقطب الدين، و بالولاية التى لولد سنجر شاه «٢» بن غازى بن مودود، و هى جزيرة ابن عمر و أعمالها، فيكون ملك قطب الدين للعادل، و تكون الجزيرة لنور الدين.

فوافق هذا القول هوى نور الدين، فأرسل إلى العادل فى المعنى، فأجابه إلى ذلك مستبشرا، و جاءه ما لم يكن يرجوه لأنه علم أنه متى ملك هذه البلاد

(١). و كان ... عنهم. A. mo

(٢). التى لسنجر شاه. A.

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٢٨٥

أخذ الموصل و غيرها، و أطمع نور الدين أيضا فى أن يعطى هذه البلاد، إذا ملكها، لولده الذى هو زوج ابنة نور الدين، و يكون مقامه فى خدمته بالموصل، و استقرت القاعدة على ذلك، و تحالفا عليها، فبادر العادل إلى المسير من دمشق إلى الفرات [١] فى عساكره، و قصد الخابور فأخذه.

فلما سمع نور الدين بوصوله كأنه خاف و استشعر، فأحضر من يرجع إلى رأيهم و قولهم، و عرفهم وصول العادل، و استشارهم فيما يفعل، فأما من أشاروا عليه بذلك فسكتوا، و كان فيهم من لم يعلم هذه الحال، فعظم الأمر و أشار بالاستعداد للحصار، و جمع الرجال، و تحصيل الذخائر و ما يحتاج إليه.

فقال نور الدين: نحن فعلنا ذلك، و خبره الخبر. فقال: بأى رأى تجيء إلى عدوّ لك هو أقوى منك، و أكثر جمعا، و هو بعيد منك، متى تحرّك لقصدك تعلم به، فلا يصل إلّا و قد فرغت من جميع ما تريده، تسعى حتى يصير قريبا منك، و يزداد قوة إلى قوّته.

ثم إن الذي استقر بينكما أنه له يملكه أولاً بغير تعب ولا مشقة، و تبقى أنت لا يمكنك أن تفارق الموصل إلى الجزيرة و تحصرها و العادل هاهنا، هذا إن وفي لك بما استقرت القاعدة عليه لا يجوز أن تفارق الموصل، و إن عاد إلى الشام، لأنه قد صار له ملك خلاط و بعض ديار بكر و ديار الجزيرة جميعها و الجميع بيد أولاده، متى سرت عن الموصل أمكنهم أن يحولوا بينك و بينها، فما زدت على أن آذيت نفسك و ابن عمك، و قويت عدوك، و جعلته شعارك، و قد فات الأمر، و ليس يجوز إلا أن تقف معه على ما استقر بينكما لئلا يجعل لك حجة و يتدئ بك.

هذا و العادل قد ملك الخابور و نصيبين، و سار إلى سنجار فحصرها.

[١] الفراء.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٢٨٦

و كان في عزم صاحبها قطب الدين أن يسلمها إلى العادل بعوض يأخذها عنها، فمنعه من ذلك أمير كان معه، اسمه أحمد بن يرنقش، مملوك أبيه زنكي، و قام بحفظ المدينة و الذب عنها، و جهز نور الدين عسكريا مع ولده الملك القاهر ليسيروا إلى الملك العادل. فبينما الأمر على ذلك إذ جاءهم أمر لم يكن لهم في حساب، و هو أن مظفر الدين كوكبرى، صاحب إربل، أرسل وزيره [إلى] نور الدين يبذل من نفسه المساعدة على منع العادل عن سنجار، و أن الاتفاق معه على ما يريده، فوصل الرسول ليلا فوقف [١] مقابل دار «١» نور الدين و صاح، فعبر إليه سفينة عبر فيها، و اجتمع بنور الدين ليلا و أبلغه الرسالة، فأجاب نور الدين إلى ما طلب من الموافقة، و حلف له على ذلك، و عاد الوزير من ليلته، فسار مظفر الدين، و اجتمع هو و نور الدين، و نزلا بعساكرهما بظاهر الموصل. و كان سبب ما فعله مظفر الدين أن صاحب سنجار أرسل ولده إلى مظفر الدين يستشفع به إلى العادل ليبقى عليه سنجار [٢]، و كان مظفر الدين يظن أنه لو شفع في نصف ملك العادل لشفعه، لأثره الجميل في خدمته، و قيامه في الذب عن ملكه غير مرة كما تقدم، فشفع «٢» إليه فلم يشفعه العادل، ظنا منه أنه بعد اتفاه مع نور الدين لا يبالى بمظفر الدين، فلما رد العادل شفاعته راسل نور الدين في الموافقة عليه.

و لئلا وصل إلى الموصل، و اجتمع بنور الدين «٣»، أرسل إلى الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين، و هو صاحب حلب، و إلى كيخسرو بن قلع

[١]- فوقب.

[٢]- سنجارا.

(١). دار. A. mo

(٢). فشفع فيه. A.

(٣). بنور الدين أرسلان و راسلا الملك. B.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٢٨٧

أرسلان، صاحب بلاد الروم، بالاتفاق معهما، فكلاهما أجاب إلى ذلك، فتواعدوا على الحركة و قصد بلاد العادل إن امتنع من الصلح و الإبقاء على صاحب سنجار، و أرسل أيضا إلى الخليفة الناصر لدين الله ليرسل رسولا إلى العادل في الصلح أيضا، فقويت حينئذ نفس صاحب سنجار على الامتناع، و وصلت رسل الخليفة، و هو هبة الله بن المبارك بن الضحّاك، أستاذ الدار، و الأمير آق باش، و هو من خواص ممالك الخليفة و كبارهم، فوصلا إلى الموصل، و سارا منها إلى العادل و هو يحاصر سنجار، و كان من معه لا

يناصحونه في القتال لا سيما أسد الدين شيركوه، صاحب حمص و الرحبة، فإنه كان يدخل إليها الأغنام وغيرها من الأقوات ظاهراً، و لا يقاتل عليها، و كذلك غيره.

فلما وصلت رسل الخليفة إلى العادل أجاب أولاً إلى الرحيل، ثم امتنع عن ذلك، و غلط، و أطال الأمر لعله يبلغ منها غرضاً، فلم ينل منها ما أمله، و أجاب إلى الصلح على أن يكون له ما أخذ و تبقى سنجار لصاحبها. و استقرت القاعدة على ذلك، و تحالفوا على هذا كلهم، و على أن يكونوا يدا واحدة على الناكث منهم، و رحل العادل عن سنجار إلى حران، و عاد مظفر الدين إلى إربل، و بقي كل واحد من الملوك في بلده، و كان مظفر الدين عند مقامه بالموصل قد زوج ابنتين له بولدين لنور الدين، و هما عز الدين مسعود، و عماد الدين زنكي.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة، في ربيع الأول، عزل فخر الدين بن أمسينا عن نيابة الوزارة للخليفة، و ألزم بيته، ثم نقل إلى المخزن على سبيل الاستظهار عليه، و ولى

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٢٨٨

بعده نيابة الوزارة مكي الدين محمد بن محمد بن محمد بن برز «١» القمي، كاتب الإنشاء، و لقب مؤيد الدين، و نقل إلى دار الوزارة مقابل باب النوبى.

و فيها، في شوال، توفى مجد الدين يحيى بن الربيع، الفقيه الشافعى، مدرّس النظامية ببغداد. و فيها توفى فخر الدين أبو الفضل محمد بن عمر ابن خطيب الرى، الفقيه الشافعى، صاحب التصانيف المشهورة في الفقه و الأصولين وغيرهما، و كان إمام الدنيا في عصره، و بلغنى أن مولده سنة ثلاث و أربعين و خمسمائة. و فيها، سلخ ذى الحجة، توفى أخى مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن عبد الكريم الكاتب، مولده في أحد الربيعين سنة أربع و أربعين [و خمسمائة]، و كان عالماً في عدة علوم مبرزاً فيها، منها: الفقه، و الأصولان [١]، و النحو، و الحديث، و اللغة، و له تصانيف مشهورة في التفسير و الحديث، و النحو، و الحساب، و غريب الحديث، و له رسائل مدونة، و كان كاتباً مفلحاً يضرب به المثل، ذا دين متين، و لزوم طريق مستقيم، رحمه الله و رضى عنه، فلقد كان من محاسن الزمان، و لعل «٢» من يقف على ما ذكرته يتهمنى في قولى، و من عرفه من أهل عصرنا يعلم أنى مقصر.

و فيها «٣» توفى المجد المطرزي، النحوي الخوارزمي، و كان إماماً في النحو، له فيه تصانيف حسنة.

و فيها توفى المؤيد بن عبد الرحيم بن الإخوة بأصفهان، و هو من أهل الحديث، رحمه الله.

[١]- و الأصولين.

(١). برز: P.C. ٠٤٧. spUte.

(٢). sit ipacmenifdaeuqsu لعل A. aedni. mo

(٣). و فيها في ذى الحجة. B.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٢٨٩

ذكر عصيان سنجر مملوك الخليفة بخوزستان و مسير العساكر إليه «١»

كان قطب الدين سنجر، مملوك الخليفة الناصر لدين الله، قد ولّاه الخليفة خوزستان، بعد طاشتكين أمير الحاج كما ذكرناه، فلما كان سنة ست و ستمائة بدا منه تغير عن الطاعة، فروسل في القدوم إلى بغداد، فغالط و لم يحضر، و كان يظهر الطاعة، و يبطن التغلب على البلاد، فبقى الأمر كذلك إلى ربيع الأول من هذه السنة، فتقدم الخليفة إلى مؤيد الدين، نائب الوزارة، و إلى عز الدين بن نجاح الشرابي، خاص الخليفة، بالمسير بالعساكر إليه بخوزستان و إخراجها عنها، فسارا في عساكر كثيرة إلى خوزستان، فلما تحقق سنجر قصدهم إليه فارق البلاد، و لحق بصاحب شيراز، و هو أتابك عز الدين سعد ابن دكلا «٢»، ملتجئاً إليه، فأكرمه و قام دونه. و وصل عسكر الخليفة إلى خوزستان في ربيع الآخر «٣» بغير ممانعة، فلما استقرّوا في البلاد راسلوا سنجر يدعونه إلى الطاعة، فلم يجب إلى ذلك، فساروا إلى أركان عازمين على قصد صاحب شيراز، فأدرّكهم الشتاء، فأقاموا شهوراً و الرسل مترددة بينهم و بين صاحب شيراز «٤»، فلم يجبههم

(١). و تسير. A.

(٢). و هو ... دكلا. A. mo

(٣). في ربيع الآخر. A. mo

(٤). فأدرّكهم الشتاء فأقاموا شهوراً: rutnutepeR

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٢٩٠

إلى تسليمه، فلما دخل شوال رحلوا يريدون شيراز، فحينئذ أرسل صاحبها إلى الوزير و الشرابي يشفع فيه، و يطلب العهد له على أن لا يؤذى، فأجيب إلى ذلك، و سلّمه إليهم هو و ماله و أهله، فعادوا إلى بغداد و سنجر معهم تحت الاستظهار، و ولّى الخليفة بلاد خوزستان مملوكه ياقوتا [١] أمير الحاج.

و وصل الوزير إلى بغداد في المحرم سنة ثمان و ستمائة هو و الشرابي و العساكر، و خرج أهل بغداد إلى تلقّيه، فدخلوها و سنجر معهم راكبا على بغل ياكاف، و في رجله سلسلتان، في يد كل جندى سلسلة، و بقي محبوساً إلى أن دخل صفر، فجمع الخلق الكثير من الأمراء و الأعيان إلى دار مؤيد الدين نائب الوزارة، فأحضر سنجر، و قرّر بأمور نسبت إليه منكرة، فأقرّ بها، فقال مؤيد الدين للناس: قد عرفتم ما تقتضيه [٢] السياسة من عقوبة هذا الرجل، و قد عفا أمير المؤمنين عنه، و أمر بالخلع عليه، فلبسها و عاد إلى داره، فعجب الناس من ذلك.

و قيل «١» إن أتابك سعد نهب مال سنجر و خزانته و دوابه، و كل ما له و لأصحابه، و سيّرهم، فلما وصل سنجر إلى الوزير و الشرابي طلبوا المال، فأرسل شيئاً يسيراً، و الله أعلم.

[١] ياقوت.

[٢] يقتضيه.

(١). aedni. mo. A. قيل. men ifsitipacdaeusq.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٢٩١

ذكر وفاة نور الدين أرسلان شاه و شيء من سيرته

فى هذه السنة، أواخر رجب، توفى نور الدين أرسلان شاه بن مسعود بن مودود بن زنكى بن آقسنقر، صاحب الموصل، و كان مرضه قد طال، و مزاجه قد فسد، و كانت مدّة ملكه سبع عشرة سنة و أحد عشر شهرا، و كان شهما شجاعا، ذا سياسة للرعايا، شديدا على أصحابه، فكانوا يخافونه خوفا شديدا، و كان ذلك مانعا من تعدى «١» بعضهم على بعض، و كان له همّة عالية، أعاد ناموس البيت الأتابكى و جاهه، و حرّمته، بعد أن كانت قد ذهبت، و خافه الملوك، و كان سريع الحركة فى طلب الملك إلّا أنّه لم يكن له صبر، فلهذا لم يتّسع ملكه، و لو لم يكن له من الفضيلة إلّا أنّه لمّا رحل الكامل بن العادل عن مardin، كما ذكرناه سنة خمس و تسعين و خمسمائة، عفّ عنها «٢»، و أبقاها على صاحبها، و لو قصدها و حصرها لم يكن فيها قوّة الامتناع، لأنّ من كانوا بها كانوا قد هلكوا و ضجروا، و لم يبق لهم رمق، فأبقاها على صاحبها.

و لمّا ملك استغاث به [١] إنسان من التجار، فسأل عن حاله، فقيل إنّّه قد أدخل قماشه إلى البلد لبيعه، فلم يتمّ له البيع، و يريد إخراجها، و قد منع من ذلك، فقال: من منعه؟ فقيل: ضامن البرّ يريد منه ما جرت به العادة من المكس، و كان القيم بتدبير مملكته مجاهد الدين قايمار، و هو إلى جانبه، فسأله عن العادة كيف هي؟ [فقال] «٣»: إن اشترط «٤» صاحبه «٥» إخراج متاعه «٦» مكن من إخراجها، و إن لم يشترط ذلك لم يخرج حتّى يؤخذ ما جرت العادة

[١] إليه.

(١). ذلك سبب تعدى A.

(٢). عف عنها. A. mo

(٣). P. C. te.

(٤). شرط: P. C. ٠٤٧te. spU.

(٥). صاحبه. A. mo

(٦). ان: spU. tidda

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٢٩٢

بأخذه. فقال: و الله إنّ هذه العادة مدبّرة، إنسان لا يبيع متاعه لأشئ شىء يؤخذ منه ماله؟ فقال مجاهد الدين: لا شكّ فى فساد هذه العادة، فقال: إذا قلت أنا و أنت إنّها عادة فاسدة، فما المانع من تركها؟ و تقدّم بإخراج مال الرجل، و أن لا يؤخذ إلّا ممّن باع. و سمعت أخى مجد الدين أبا السعادات، رحمه الله، و كان من أكثر الناس اختصاصا به، يقول: ما قلت له يوما فى فعل خير فامتنع منه بل بادر إليه بفرح و استبشار، و استدعى فى بعض الأيام أخى المذكور، فركب إلى داره، فلمّا كان بباب الدار لقّيته امرأة و بيدها رقعة، و هى تشكو، و تطلب عرضها على نور الدين، فأخذها، فلمّا دخل إليه جراه فى مهمّ له، فقال: قبل كلّ شىء تقف على هذه الرقعة، و تقضى شغل صاحبته، فقال: لا- حاجة إلى الوقوف عليها، عرفنا أيش فيها. فقال: و الله لا أعلم إلّا أنّنى رأيت امرأة بباب الدار، و هى متظلمة، شاكية.

فقال: نعم عرفت حالها، ثم انزعج فظهر منه الغيظ و الغضب، و عنده رجلاّن هما القيّمان [١] بأمور دولته، فقال لأخى: أبصر إلى أى شىء قد دفعت مع هذين. هذه المرأة كان لها ابن، و قد مات من مدّة فى الموصل، و هو غريب، و خلف قماشاً و مملوكين، فاحتاط نواب بيت المال على القماش، و أحضروا المملوكين إلينا، فبقيا عندنا ننتظر حضور من يستحقّ التركة ليأخذها، فحضرت هذه المرأة و معها كتاب حكمى بأنّ المال الذى مع ولدها لها، فتقدّمنا بتسليم مالها إليها، و قلت لهذين: اشترى المملوكين منها، و أنصفاها فى الثمن، فعادا و قالان: لم يتمّ بيننا بيع، لأنّها طلبت ثمننا كثيرا، فأمرتهما بإعادة المملوكين إليها من مدّة شهرين و أكثر، و إلى الآن ما

عدت «١» سمعت لها حديثاً،

[١] المقيماني.

(١). عدت. B. mo

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٢٩٣

وظننت أنها أخذت مالها، ولا شكّ أنّهما لم يسلمّا المملوكين إليها، وقد استغاثت بهما [١]، فلم ينصفاها، فجاءت إليك، وكلّ من رأى هذه المرأة تشكو وتستغيث يظنّ أنّي أنا منعتها عن مالها، فيذمّني، وينسبني إلى الظلم، وليس لي علم، وكلّ هذا فعل هذين، أشتهى أن تتسلّم أنت المملوكين وتسلمهما إليها، فأخذت المرأة مالها، وعادت شاكرة داعية، وله من هذا الجنس كثير لا نطوّل بذكره.

ذكر ولاية ابنه الملك القاهر

لما حضر نور الدين الموت أمر أن يرتّب في الملك بعده ولده الملك القاهر عزّ الدين مسعود، وحلف له الجند وأعيان الناس، وكان قد عهد إليه قبل موته بمدة، فجدد العهد له عند وفاته، وأعطى ولده الأصغر عماد الدين زنكي قلعة عقر الحميدية، وقلعة شوش، ولايتهما، وسيّره إلى العقر، وأمر أن يتولّى تدبير مملكتهما، ويقوم بحفظهما، والنظر في مصالحهما، فتاه الأمير بدر الدين لؤلؤ لما رأى من عقله وسداده، وحسن سياسته «١» وتديره، وكمال خلال السيادة فيه، وكان عمر القاهر حينئذ [عشر سنين]. ولما اشتدّ مرضه وأيس من نفسه أمره الأطباء بالانحدار إلى الحامية المعروفة بعين القتيارة، وهي بالقرب من الموصل، فانحدر إليها، فلم يجد بها راحة، وازداد ضعفاً، فأخذه بدر الدين وأصعده في الشبارة إلى الموصل، فتوفّي في الطريق ليلاً ومعه الملاحون والأطباء، بينه وبينهم ستر.

[١] إليهما.

(١). و حسن سيرته. A.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٢٩٤

وكان مع بدر الدين، عند نور الدين، مملوكان، فلما توفّي نور الدين قال لهما: لا يسمع أحد بموته، وقال للأطباء والملاحين: لا يتكلّم أحد، فقد نام السلطان، فسكتوا، ووصلوا إلى الموصل في الليل، فأمر الأطباء والملاحين بمفارقة الشبارة لئلا يروه ميتاً، وأبعدوا، فحملة هو والمملوكان، وأدخله الدار، وتركه في الموضع الذي كان فيه ومعه المملوكان، ونزل على «١» بابه من يثق به [١] لا يمكن أحداً من الدخول والخروج، وقعد مع الناس يمضي أمورا كان يحتاج إلى إتمامها. فلما فرغ من جميع ما يريد أن يظهر موته وقت العصر، ودفن ليلاً بالمدرسة التي أنشأها مقابل داره، وضبط البلد تلك الليلة ضبطاً جيّداً بحيث إنّ الناس في الليل لم يزلوا متردّدين لم يعدم من أحد ما مقداره الحيّة الفرد، واستقرّ الملك لولده، وقام بدر الدين بتدبير الدولة والنظر في مصالحها.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة، في شهر ربيع الآخر، درّس القاضي أبو زكريا يحيى بن القاسم ابن المفرج، قاضي تكريت، بالمدرسة النظامية ببغداد، استدعى من تكريت إليها.

و فيها «٢» نقصت دجلة بالعراق نقصا كثيرا، حتّى كان الماء يجري ببغداد في نحو خمسة أذرع، و أمر الخليفة أن يكرى دجلة، فجمع الخلق الكثير،

[١]- إليه.

(١). و ترك على A.

(٢). مثله daeuqsu وفيها aedni

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٢٩٥

و كانوا كلّما حفروا شيئا عاد الرمل فغطاه، و كان الناس يخوضون دجلة فوق بغداد، و هذا لم يعهد مثله.

و حجّ بالناس هذه السنة علاء «١» الدين محمّد ولد الأمير مجاهد الدين ياقوت أمير الحاج، و كان أبوه قد ولّاه الخليفة خوزستان، و جعله هو أمير الحاج، و جعل معه من يدبّر الحاج، لأنّه كان صبيّا.

و فيها، في العشرين من ربيع الآخر، توفّي ضياء الدين أبو أحمد عبد الوهاب ابن عليّ بن عبد الله الأمير البغدادي ببغداد، و هو سبط صدر الدين إسماعيل شيخ الشيوخ، و عمره سبع و ثمانون سنة و شهور، و كان صوفيا، فقيها، محدّثا، سمعنا منه الكثير «٢»، رحمه الله، و كان من عباد الله الصالحين كثير العبادة و الصلاح.

و فيها «٣» توفّي شيخنا أبو حفص عمر بن محمّد بن المعمر بن طبرزد البغدادي، و كان عالي الإسناد.

(١). علاء ... الأمير A. mo

(٢). منه الحديث B.

(٣). في الحديث سمعنا منه كثيرا: B. tsopالإسناد وفيها ... الإسناد A. mo

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٢٩٦

٦٠٨ ثم دخلت سنة ثمان و ستمائة

ذكر استيلاء منكلي على بلاد الجبل و أصفهان و غيرها و هرب إيدغمش

في هذه السنة، في شعبان، قدم إيدغمش، صاحب همذان و أصفهان و الرّي و ما بينها [١] من البلاد، إلى بغداد، هاربا من منكلي.

و سبب ذلك أن إيدغمش كان قد تمكّن في البلاد، و عظم شأنه، و انتشر صيته، و كثر عسكره، حتّى إنّه حصر صاحبه أبا بكر بن البهلوان، صاحب هذه البلاد: أذربيجان و أزان، كما ذكرناه.

فلَمّا كان الآن خرج عليه مملوك اسمه منكلي، و نازعه «١» في البلاد، و كثر أتباعه، و أطاعه المماليك البهلوانية، فاستولى عليها، و هرب منه شمس الدين إيدغمش إلى بغداد، فلَمّا وصل إليها أمر الخليفة بالاحتفال له في اللقاء، فخرج الناس كافّة، و كان يوم وصوله مشهودا، ثمّ قدمت زوجته في رمضان في محمل، فأكرمت و أنزلت عند زوجها، و أقام ببغداد إلى سنة عشر و ستمائة، فسار عنها، فكان من أمره ما نذكره.

[١] - بينهما.

(١). aedni .mo A نازعه men ifsitipacdaeuqsu.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٢٩٧

ذكر نهب الحاج بمنى

و في هذه السنة نهب الحاج بمنى، و سبب ذلك أن باطنيًا وثب على بعض أهل الأمير قتادة، صاحب مكة، فقتله بمنى ظنًا منه أنه قتادة، فلما سمع قتادة ذلك جمع الأشراف و العرب و العبيد و أهل مكة، و قصدوا الحاج، و نزلوا عليهم من الجبل، و رموهم بالحجارة و النبل و غير ذلك، و كان أمير الحاج ولد الأمير ياقوت المقدّم ذكره، و هو صبي لا يعرف كيف يفعل، فخاف و تحير، و تمكن أمير مكة من نهب الحاج، فنهبوا منهم من كان في الأطراف، و أقاموا على حالهم إلى الليل.

فاضطرب الحاج، و باتوا بأسوأ حال من شدة الخوف من القتل و النهب.

فقال بعض الناس لأمر الحاج لينتقل بالحجاج إلى منزله حجاج الشام، فأمر بالرحيل، فرفعوا أثقالهم على الجمال، و اشتغل الناس بذلك، فطمع العدو فيهم، و تمكن من النهب كيف أراد، فكانت الجمال تؤخذ بأحمالها، و التحق من سلم بحجاج الشام، فاجتمعوا بهم، ثم رحلوا إلى الزاهر، و منعوا من دخول مكة، ثم أذن لهم في ذلك، فدخلوها و تمّموا حجهم و عادوا.

ثم أرسل قتادة ولده و جماعة من أصحابه إلى بغداد، فدخلوها و معهم السيوف مسلولة و الأكفان، فقبلوا العتبة، و اعتذروا ممّا [١] جرى على الحجاج.

[١] بما.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٢٩٨

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة أظهر الإسماعيلية، و مقدّمهم الجلال بن الصباح، الانتقال عن فعل المحرّمات و استحلالها، و أمر بإقامة الصلوات و شرائع الإسلام ببلادهم من خراسان و الشام، و أرسل مقدّمهم رسلا إلى الخليفة، و غيره من ملوك الإسلام، يخبرهم بذلك، و أرسل والدته إلى الحج، فأكرمت ببغداد إكراما عظيما، و كذلك بطريق مكة.

و فيها، سلخ جمادى «١» الآخرة، توفّي أبو حامد محمّد بن يونس بن ميعه، الفقيه الشافعي، بمدينة الموصل، و كان إماما فاضلا، إليه انتهت رئاسة الشافعية، لم يكن في زمانه مثله، و كان حسن الأخلاق، كثير التجاوز عن الفقهاء و الإحسان إليهم، رحمه الله.

و في شهر ربيع الأول توفّي القاضي أبو الفضائل عليّ بن يوسف بن أحمد بن الأمدى الواسطي، قاضيا، و كان نعم الرجل.

و في شعبان توفّي المعين أبو الفتوح عبد الواحد بن أبي أحمد بن عليّ الأمين، شيخ الشيوخ ببغداد، و كان موته بجزيرة كاس «٢»، مضى إليها رسولا من الخليفة، و كان من أصدقائنا، و بيننا و بينه مودة متأكدة، و صحبة كثيرة، و كان من عباد الله الصالحين، رحمه الله و رضى عنه، و له كتابة حسنة، و شعر جيّد، و كان عالما بالفقه و غيره، و لما توفّي رتب أخوه زين الدين عبد الرزاق ابن أبي أحمد، و كان ناظرا على المارستان العضدي، فتركه و اقتصر على الرباط.

و في ذى الحجة توفّي محمّد بن يوسف بن محمّد بن عبيد الله النيسابوري

(١) وفيها في جمادى. B.

(٢). بجزيرة قيس. A.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٢٩٩

الكاتب الحسن الخطّ، و كان يؤدّي طريقة ابن البوّاب، و كان فقيها، حاسبا، متكّما.

و توفّي عمر بن مسعود أبي العزّ أبو القاسم البزاز البغداديّ بها، و كان من الصالحين، يجتمع إليه الفقراء كثيرا، و يحسن إليهم.

و توفّي أيضا أبو سعيد الحسن بن محمّد بن الحسن بن حمدون الثعلبيّ العدويّ، و هو ولد مصنّف التذكرة، و كان عالما.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٣٠٠

٦٠٩ ثم دخلت سنة تسع و ستمائة

ذكر قدوم ابن منكلى بغداد «١»

في هذه السنة، في المحرم، قدم محمّد بن منكلى المستولى على بلاد الجبل إلى بغداد. و سبب ذلك أنّ أباه منكلى لما استولى على بلاد الجبل و هرب إيدغمش صاحبها منها إلى بغداد خاف أن يساعده الخليفة، و يرسل معه العساكر، فيعظم الأمر عليه، لأنّه لم يكن قد تمكّن في البلاد، فأرسل ولده محمّدا و معه جماعة من العسكر، فخرج الناس ببغداد على طبقاتهم يلتقونه، و أنزل و أكرم، و بقى ببغداد إلى أن قتل إيدغمش، فخلع عليه و على من معه، و أكرموا، و سيّروهم إلى أبيه.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة قبض الملك العادل أبو بكر بن أيّوب، صاحب مصر و الشام، على أمير اسمه أسامة، كان له إقطاع كثير من جملته حصن كوكب من أعمال الأردنّ بالشام «٢»، و أخذ منه حصن كوكب و خرّبه و عفى أثره، و من بعده بنى حصنا بالقرب من عكا على جبل يسمّى الطور، و هو معروف هناك، و شحنه بالرجال و الذخائر و السلاح. و فيها «٣» توفّي الفقيه محمّد بن إسماعيل بن أبي الصيف اليمنى، فقيه الحرم الشريف بمكة «٤».

(١). B. mo

(٢). و الشام. A.

(٣). فيها ... بمكة. A. mo

(٤). و كان شافعيّا توفّي في ذى الحجة. B. Bda بمكة. B. tsop

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٣٠١

٦١٠ ثم دخلت سنة عشر و ستمائة

ذكر قتل إيدغمش

في هذه السنة، في المحرم، قتل إيدغمش الذي كان صاحب همذان، و قد ذكرنا سنة ثمان أنّه قدم إلى بغداد و أقام بها، فأنعم عليه الخليفة، و شرفه بالخلع، و أعطاه الكوسات و ما يحتاج إليه، و سيّره إلى همذان، فسار في جمادى الآخرة «١» عن بغداد قاصدا إلى

همذان، فوصل إلى بلاد ابن ترجم «٢» واجتمعا، و أقام ينتظر وصول عساكر بغداد إليه ليسير معه على قاعدة استقرت بينهم. و كان الخليفة قد عزل سليمان بن ترجم «٣» عن الإمارة على عشيرته من التركمان الإيوانية «٤»، و ولى أخاه الأصغر، فأرسل سليمان إلى منكلى يعزفه بحال إيدغمش، و مضى هو على وجهه، فأخذوه فقتلوه، و حملوا رأسه إلى منكلى، و تفرق من معه من أصحابه فى البلاد لا يلوى أخ على أخيه. و وصل الخبر بقتله إلى بغداد، فعظم على الخليفة ذلك، و أرسل إلى منكلى ينكر عليه ما فعل، فأجاب جوابا شديدا، و تمكن من البلاد، و قوى أمره، و كثرت جموع عساكره، و كان من أمره ما نذكره إن شاء الله.

(١). فى ... الآخرة. mo A.

(٢-٣). برجم. I. p. ٨٧١. A-; B. tcnupenis. div. ١٨٤٧. taisA. nruoj. برجم ues

(٤). الإيوانية. mo. B; A. tcnupenis.

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٣٠٢

ذكر عدة حوادث

حج بالناس فى هذه السنة أبو فراس بن جعفر بن فراس الحلّى، نيابة عن أمير الحاجّ ياقوت، و منع ابن ياقوت عن الحج لما جرى للحاجّ فى ولايته «١». و فيها، فى المحرم، توفى الحكيم المهدّب على بن أحمد بن هبل، الطيب المشهور، كان أعلم أهل زمانه بالطب، روى الحديث، و كان مقيما بالموصل، و بها مات، و كان كثير الصدقة، حسن الأخلاق، و له تصنيف حسن فى الطب «٢». و فيه توفى الضياء أحمد بن على البغداديّ، الفقيه الحنبليّ، صاحب ابن المنى «٣». و فيه توفى أيضا أحمد بن مسعود التركستانيّ، الفقيه الحنفى ببغداد، و هو مدرّس مشهّد أبى حنيفة. و فيها، فى جمادى الأولى، توفى معزّ الدين أبو المعانى سعد بن علىّ المعروف بابن حديد «٤» الذى كان وزير الخليفة الناصر لدين الله، و كان قد ألزم بيته، و لما توفى حمل تابوته إلى مشهّد أمير المؤمنين علىّ، عليه السلام، بالكوفة، و كان حسن السيرة فى وزارته، كثير الخير و النفع للناس.

(١). لما ... ولايته. mo A.

(٢). و له ... بالطب. mo A.

(٣). المنى. spU. P. C.

(٤). حديدة. A.

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٣٠٣

٦١١ ثم دخلت سنة إحدى عشرة و ستمائة

ذكر ملك خوارزم شاه علاء الدين كرمات و مكرات و السند

هذه الحادثة لا أعلم الحقيقة أىّ سنة كانت، إنّما هى إمّا هذه السنة، أو قبلها بقليل، أو بعدها بقليل، لأنّ الذى أخبر بها كان من أجناد

الموصل، و سافر إلى تلك البلاد و أقام بها عدّة سنين، و سار «١» مع الأمير أبي بكر الذي فتح كرمان ثم عاد فأخبرني بها على شكّ من وقتها، و قد حضرها فقال: خوارزم شاه محمّد بن تكش كان من جملة أمراء أبيه أمير اسمه أبو بكر، و لقبه تاج الدين «٢».

و كان في ابتداء أمره جمّالا يكرى الجمال في الأسفار، ثم جاءته السعادة، فأتصل بخوارزم شاه، و صار سيروان جماله، فرأى منه جلدا و أمانة، فقدّمه إلى أن صار من أعيان أمراء عسكره، فولّاه مدينة زوزن، و كان عاقلا ذا رأى، و حزم، و شجاعة، فتقدّم عند خوارزم شاه تقدّما كثيرا، فوثق به أكثر من جميع أمراء دولته، فقال أبو بكر لخوارزم شاه: إنّ بلاد كرمان مجاورة لبلدي، فلو أضاف السلطان إلّي عسكرا لملكها في أسرع وقت. فسير معه عسكرا كثيرا فمضى إلى كرمان، و صاحبها اسمه حرب بن محمّد بن أبي الفضل الذي كان صاحب سجستان أيام السلطان سنجر، فقاتله، فلم يكن له به قوّة، و ضعف، فملك أبو بكر بلاده في أسرع وقت، و سار منها إلى نواحي مكران فملكها كلّها إلى السند، من حدود كابل، و سار إلى هرمز، مدينة على ساحل بحر مكران، فأطاعه صاحبها، و اسمه ملنك، و خطب بها لخوارزم شاه، و حمل

(١). و صار B.

(٢). أمين الدين B.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٣٠٤

عنها مالا، و خطب له بقلهات، و بعض عمان، لأنّ أصحابها كانوا يطيعون صاحب هرمز.

و سبب طاعتهم له، مع بعد الشقّة، و البحر يقطع بينهم، أنّهم يتقرّبون إليه بالطاعة ليأمن أصحاب المراكب التي تسير إليهم عنده، فإنّ هرمز مرسى عظيم، و مجمع للتجار من أفاصي الهند و الصين «١» و اليمن، و غيرها من البلاد، و كان بين صاحب هرمز و بين صاحب كيش «٢» حروب و مغاورات، و كلّ منهما ينهى أصحاب المراكب أن ترسى ببلد خصمه، و هم كذلك إلى الآن، و كان خوارزم شاه يصيف «٣» بنواحي سمرقند لأجل التتر أصحاب كشلي خان، لئلا يقصد بلاده، و كان سريع السير، إذا قصد جهة سبق خبره إليها.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة قتل مؤيد الملك الشّجری «٤»، و كان قد وزر لشهاب الدين الغوری، و لتاج الدين الدز بعده، و كان حسن السيرة، جميل الاعتقاد، محسنا إلى العلماء، و أهل الخير و غيرهم، يزورهم و يبرّهم، و يحضر الجمعة ماشيا وحده.

و كان سبب قتله أنّ بعض عسكر الدز كرهوه، و كان كلّ سنة يتقدّم إلى البلاد الحارة بين يدي الدز، أوّل الشتاء، فسار هذه السنة كعادته، فجاء أربعون نفرا أتراكا و قالوا له: السلطان يقول لك تحضر جريدة في عشرة نفر لمهمّ تجدد، فسار معهم جريدة في عشرة مماليك، فلمّا وصلوا إلى نهوند «٥»،

(١). و اليمن و الحبش B. و الصين B. mo

(٢). كيش الجزيرة المعروفة B.

(٣). يصيف B. mo

(٤) الملك محمد السجری B.

(٥). إلى مهوبد B.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٣٠٥

بالقرب من ماء السند، قتلوه و هربوا، ثمّ إنهم ظفر بهم خوارزم شاه محمّد فقتلهم.

و فيها، في رجب، توفي الركن أبو منصور عبد السلام بن عبد الوهاب بن عبد القادر الجيلّي، البغداديّ، ببغداد، و كان قد ولي عدّة ولايات، و كان يتّهم بمذهب الفلاسفة، حتّى أنّه رأى أبوه يوما عليه قميصا بخاريّا، فقال:

ما هذا القميص؟ فقال: بخاريّ، فقال أبوه: هذا عجب! ما زلنا نسمع:

مسلم و البخاريّ، و أمّا كافر و البخاريّ فما سمعنا.

و أخذت كتبه قبل موته بعدة سنين، و أظهرت في ملا من الناس، و رثى فيها من تبخير النجوم و مخاطبة زحل بالالهية، و غير ذلك من الكفريات، ثمّ أحرقت بباب العامة، و حبس، ثمّ أفرج عنه بشفاعه أبيه، و استعمل بعد ذلك.

و فيها أيضا توفي أبو العباس أحمد بن هبة الله بن العلاء المعروف بابن الزاهد ببغداد، و كان عالما بالنحو و اللغة.

و في شعبان منها توفي أبو المظفر محمّد بن عليّ بن البلّ «١» اللوريّ «٢» الواعظ، و دفن برباط على نهر عيسى، و مولده سنة عشر و خمسمائة.

و في شوال منها توفي عبد العزيز بن محمود «٣» بن الأخضر، و كان من فضلاء المحدثين، و له سبع و ثمانون سنة.

(١) البل: spU. اللنل:

(٢). اللوزي: ٧٤٠. الدوري: P.C.

(٣). محمد. B.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٣٠٦

٦١٢ ثم دخلت سنة اثنى عشرة و ستمائة

ذكر قتل منكلى و ولاية أغلمش ما كان بيده من الممالك

في هذه السنة، في جمادى الأولى، انهزم منكلى، صاحب همذان و أصفهان و الرّى و ما بينها من البلاد، و مضى هاربا، فقتل.

و سبب ذلك أنّه كان قد ملك البلاد، كما ذكرناه، و قتل إيدغمش فأرسل إليه من الديوان الخليفىّ رسول ينكر ذلك عليه، و كان قد أوحش الأمير أوزبك ابن البهلوان، صاحب أذربيجان، و هو صاحبه و مخدومه، فأرسل الخليفة إليه يحرضه على منكلى و يعده النصره، و أرسل أيضا إلى جلال الدين الإسماعيلى، صاحب قلاع الإسماعيلية ببلاد العجم، الموت و غيرها، يأمره بمساعدة أوزبك على قتال منكلى، و استقرّت القواعد بينهم على أن يكون للخليفة بعض البلاد، و لأوزبك بعضها، و يعطى جلال الدين بعضها، فلمّا استقرّت القواعد على ذلك جهّز الخليفة عسكريا كثيرا، و جعل مقدّمهم مملوكه مظفر الدين سنقر، الملقّب بوجه السبع، و أرسل إلى مظفر الدين كوكبرى بن زين الدين علىّ كوجك، و هو إذ ذاك صاحب إربل و شهرزور و أعمالها، يأمره أن يحضر بعساكره، و يكون مقدّم العساكر جميعها، و إليه المرجع فى الحرب.

فحضر، و حضر معه عسكر الموصل و ديار الجزيرة، و عسكر حلب «١»، فاجتمعت عساكر كثيرة و ساروا إلى همذان، فاجتمعت العساكر كلّها فانزاح

(١). و عسكر حلب. A. mo

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٣٠٧

منكلى من بين أيديهم و تعلّق بالجبال، و تبعوه، فتزلوا بسفح جبل هو فى أعلاه بالقرب من مدينه كرج، و ضاقت الميرة و الأقوات

على العسكر الخليفى جميعه و من معهم، فلو أقام منكلى بموضعه لم يمكنهم المقام عليه أكثر من عشرة أيام، لكنّه طمع فنزل ببعض عسكره من الجبل مقابل الأمير أوزبك، فحملوا عليه، فلم يثبت أوزبك، و مضى منهزماً، فعاد أصحاب منكلى و صعدوا الجبل، و عاد أوزبك إلى خيامه، فطمع منكلى حينئذ، و نزل من الغد فى جميع عسكره، و اصطفت العساكر للحرب، و اقتتلوا أشد قتال يكون، فانهمز منكلى و صعد الجبل، فلو أقام بمكانه لم يقدر أحد على الصعود إليه، و كان قصاراهم العود عنه، لكنّه اتّخذ الليل جملاً، و فارق موضعه و مضى منهزماً، فتبعه نفر يسير من عسكره، و فارقه الباقون و تفرّقوا أيدي سباً.

و استولى عسكر الخليفة و أوزبك على البلاد، فأعطى جلال الدين، ملك الإسماعيلية، من البلاد ما كان استقرّ له، و أخذ «١» الباقي أوزبك، فسلمه إلى أغلمش مملوك أخيه، و كان قد توجه إلى خوارزم شاه علاء الدين محمد، و بقى عنده، ثم عاد عنه، و شهد الحرب و أبلى فيها، فولّاه أوزبك البلاد «٢»، و عاد كلّ طائفة من العسكر إلى بلادهم.

و أمّا منكلى فإنّه مضى منهزماً إلى مدينة ساوة، و بها شحنة هو صديق له، فأرسل إليه يستأذنه فى الدخول إلى البلد، فأذن له، و خرج إليه فلقه، و قبل الأرض بين يديه، و أدخله البلد، و أنزله فى داره، ثم أخذ سلاحه، و أراد أن يقّيده و يرسله إلى أغلمش، فسأله أن يقتله هو لا- يرسله، فقتله، و أرسل رأسه إلى أوزبك، و أرسله أوزبك إلى بغداد، و كان يوم دخولها يوماً مشهوداً إلّا أنّه لم تتمّ المسرة للخليفة بذلك، فإنّه وصل و مات ولده فى تلك الحال، فأعيد و دفن.

(١). الإسماعيلية بعض البلاد و أخذ. A.

(٢). فولاه ... البلاد. B. mo

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٣٠٨

ذكر وفاة ابن الخليفة

فى هذه السنة، فى العشرين من ذى القعدة، توفى ولد الخليفة، و هو الأصغر، و كان يلقب الملك المعظم، و اسمه أبو الحسن على، و كان أحبّ ولدى الخليفة إليه، و قد رشّحه لولاية العهد بعده، و عزل ولده الأكبر عن ولاية العهد و أطّرحه لأجل هذا الولد. و كان، رحمه الله، كريماً، كثير الصدقة و المعروف، حسن السيرة، محبوباً إلى الخاصّ و العام، و كان سبب موته أنّه أصابه إسهال فتوفى، و حزن عليه الخليفة حزناً لم يسمع بمثله، حتّى أنّه أرسل إلى أصحاب الأطراف ينهّاهم عن إنفاذ رسول إليه يعزيه بولده، و لم يقرأ كتاباً، و لا سمع رسالة، و انقطع، و خلا بهومومه و أحزانه، و رثى عليه من الحزن و الجزع ما لم يسمع بمثله.

ولمّا توفى أخرج نهاراً، و مشى جميع الناس بين يدى تابوته إلى تربة جدّته عند قبر معروف الكرخى، فدفن عندها، و لمّا أدخل التابوت أغلقت الأبواب، و سمع الصراخ العظيم من داخل التربة، فقل إن ذلك صوت الخليفة «١».

و أمّا العامة ببغداد فإنّهم وجدوا عليه وجداً شديداً، و دامت المناحات عليه فى أقطار بغداد ليلاً و نهاراً، و لم يبق ببغداد محلّة إلّا و فيها التّوح، و لم تبق امرأة إلّا و أظهرت الحزن، و ما سمع ببغداد مثل ذلك فى قديم الزّمان و حديثه.

و كان موته وقت وصول رأس منكلى إلى بغداد، فإنّ الموكب أمر بالخروج إلى لقاء الرأس، فخرج الناس كافّة، فلمّا دخلوا بالرأس إلى رأس درب

(١). فقل ... الخليفة. A. mo

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٣٠٩

حبيب وقع الصوت بموت ابن الخليفة، فأعيد الرأس، و هذا دأب الدنيا، لا يصفو «١» أبداً فرحها من ترح، و قد تخلص مصائبها من

شائبة الفرح.

ذكر ملك خوارزم شاه غزنه و أعمالها

في هذه السنة، في شعبان، ملك خوارزم شاه محمد بن تكش مدينة غزنه و أعمالها. و سبب ذلك أن خوارزم شاه لما استولى على عامية خراسان و ملك باميان و غيرها، أرسل إلى تاج الدين «٢»، صاحب غزنه، و قد تقدمت أخباره حتى ملكها «٣»، يطلب منه أن يخطب له، و يضرب السكة باسمه، و يرسل إليه فيلا واحدا ليصالحه و يقر بيده غزنه، و لا يعارضه فيها، فأحضر الأمراء و أعيان دولته و استشارهم. و كان فيهم أكبر أمير اسمه قتلغ تكين، و هو من مماليك شهاب الدين الغوري أيضا، و إليه الحكم في دوله الدز، و هو النائب عنه بغزنه، فقال:

أرى أن تخطب له، و تعطيه ما طلب، و تستريح من الحرب و القتال، و ليس لنا بهذا السلطان قوة. فقال الجماعة مثل قوله، فأجاب إلى ما طلب منه، و خطب لخوارزم شاه، و ضرب السكة باسمه، و أرسل إليه فيلا، و أعاد رسوله إليه، و مضى إلى الصيد.

فأرسل قتلغ تكين، والى غزنه، إلى خوارزم شاه يطلبه ليسلم إليه غزنه،

(١). لا يخلص. A.

(٢). الدين الدز. B.

(٣). حين ملكها. A.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٣١٠

فسار مجداً، و سبق خبره، فسلم إليه قتلغ تكين غزنه و قلعتها، فلما دخل إليها قتل من بها من عسكر الغوري لا سيما الأتراك، فوصل الخبر إلى الدز بذلك، فقال: ما فعل قتلغ تكين، و كيف ملك القلعة مع وجوده فيها؟ فقيل: هو الذي أحضره و سلم إليه، فمضى هاربا هو و من معه إلى لهاوور، و أقام خوارزم شاه بغزنه، فلما تمكن منها أحضر قتلغ تكين فقال له: كيف حالك مع الدز؟ و كان عالما به، و إنما أراد أن تكون له الحجة عليه. فقال:

كلانا مماليك شهاب الدين، و لم يكن الدز يقيم بغزنه إلا أربعة أشهر الصيف، و أنا الحاكم فيها، و المرجع، إلى في كل الأمور [١]. فقال له خوارزم شاه: إذا كنت لا ترعى لرفيقتك «١» و من أحسن إليك صحبتته و إحسانه، فكيف يكون حالي أنا معك، و ما الذي تصنع مع ولدي إذا تركته عندك؟

فقبض عليه، و أخذ منه أموالا جمّة حملها ثلاثون دابة من أصناف الأموال و الأمتعة، و أحضر أربع مائة مملوك، فلما أخذ ماله قتله و ترك ولده جلال الدين بغزنه مع جماعة من عسكره و أمرائه. و قيل إن ملك خوارزم شاه غزنه كان سنة ثلاث عشرة و ستمائة «٢».

[١] أمور.

(١). ترعى لرفيقتك. A.

(٢). و قيل ... ستمائة. A. mo

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٣١١

ذكر استيلاء الدز على لهاوور و قتله

لَمَّا هرب الدز من غزنه إلى لهاوور لقيه صاحبها ناصر الدين قباچه «١»، و هو من مماليك شهاب الدين الغوري أيضا «٢»، و له من البلاد لهاوور، و ملتان، و أوجه، و ديل «٣»، و غير ذلك، إلى ساحل البحر، و معه نحو خمسة عشر ألف فارس، و كان قد بقي مع الدز نحو ألف و خمسمائة فارس، فوقع بينهما مصاف، و اقتتلوا، فانهزمت ميمنة الدز و ميسرته، و أخذت الفيلة التي معه، و لم يبق له غير فيلين معه في القلب.

فقال الفيال: إذا أخطرت بسعادتك، و أمر أحد الفيلين أن يحمل على العلم الذي لقباچه يأخذه، و أمر الفيل الآخر «٤» الذي له أيضا أن يأخذ الجتر الذي له، فأخذه أيضا، و الفيلة المعلمة تفهم ما يقال لها، هذا رأينا، فحمل [١] الفيال، و حمل معها الدز فيمن بقي عنده من العسكر، و كشف رأسه، و قال بالعجمية ما معناه: إِمَّا ملك، و إِمَّا هلك! و اختلط الناس بعضهم ببعض، و فعل الفيال ما أمرهما الفيال من أخذ العلم و الجتر، فانهزم قباچه و عسكره، و ملك الدز مدينة لهاوور.

ثم سار إلى بلاد الهند ليملك مدينة دهله و غيرها ممّا بيد المسلمين، و كان صاحب دهله أمير اسمه الترمش، و لقبه شمس الدين، و هو من مماليك قطب الدين أيبك، مملوك شهاب الدين أيضا، كان قد ملك الهند بعد سيده،

[١]- فحملت.

(١). قراچه. P.C.

(٢). أيضا و حاربه فانهزم قراچه و مضى هاربا و استولى الدز على لهاوور. A.

(٣). ملتان واحه و الديبل: ٧٤٠. و ملتا واجر و الرمل: spU

(٤). الآخر أن يحمل على الجتر الذي له و يأخذه أيضا. B.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٣١٢

فلَمَّا سمع به الترمش سار إليه في عساكره كلّها، فلقيه عند مدينة سماتا، فاقتتلوا، فانهزم الدز و عسكره، و أخذ و قتل. و كان الدز محمود السيرة في ولايته، كثير العدل و الإحسان إلى الرعية، لا سيما التجار و الغرباء، و من محاسن أعماله أنّه كان له أولاد، و لهم معلّم يعلمهم، فضرب المعلم أحدهم فمات، فأحضره الدز و قال له: يا مسكين! ما حملك على هذا؟ فقال: و الله ما أردت إلّا تأديبه، فاتفق أن مات. فقال: صدقت، و أعطاه نفقة، و قال له: تغيب، فإنّ أمّه لا تقدر على الصبر، فربّما أهلكتك، و لا أقدر أمّنع عنك. فلَمَّا سمعت أمّ الصبي بموته طلبت الأستاذ لتقتله، فلم تجده، فسلم، و كان هذا من أحسن ما يحكى عن أحد من الناس.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة توفّي الوجه المبارك بن أبي الأزهر سعيد «١» بن الدّهان الواسطي النحويّ، الضرير، كان نحريرا فاضلا، قرأ على الكمال بن الأنباري و على غيره، و كان حنبليّا، فصار حنفيّا، ثم صار شافعيّا، فقال فيه أبو البركات بن زيد التكريتي:

ألا مبلغا «٢» عتّى الوجه رسالته وإن كان لا تجدى لديه الرسائل

تمذهبت للنعمان من بعد حنبل و فارقت إذ غورتك المآكل

و ما اخترت رأى الشافعيّ تدنّوا لكنّما تهوى الذي هو حاصل

و عمّا قليل أنت لا شكّ صائر إلى مالك، فافطن لما أنا قائل

(١). أبى طالب المبارك بن أبى الأريم سعيد.B

(٢). ألا من مبلغ.B

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٣١٣

٦١٣ ثم دخلت سنة ثلاث عشرة و ستمائة

ذكر وفاة الملك الظاهر صاحب حلب

فى هذه السنة، فى جمادى الآخرة، توفى الملك الظاهر غازى بن صلاح الدين يوسف بن أيوب، وهو صاحب مدينة حلب و منبج و غيرهما من بلاد الشام، و كان مرضه إسهالا، و كان شديد السيرة، و ضابطا لأمواره كلها، كثير الجمع للأموال من غير جهاتها المعتادة، عظيم العقوبة على الذنب، لا يرى الصفح، و له مقصد يقصده كثير من أهل البيوتات من أطراف البلاد «١»، و الشعراء، و أهل الدين و غيرهم، فيكرمهم، و يجرى عليهم الجارى الحسن.

و لما اشتدت علته عهد بالملك بعده لولد له صغير اسمه محمد، و لقبه الملك العزيز غياث الدين «٢»، عمره ثلاث سنين، و عدل عن ولد كبير لأن الصغير كانت أمه ابنة عمه الملك العادل أبى بكر بن أيوب «٣»، صاحب مصر و دمشق و غيرهما من البلاد، فعهد بالملك له ليقبى عمه البلاد عليه، و لا ينازعه فيها.

و من أعجب ما يحكى أن الملك الظاهر، قبل مرضه، أرسل رسولا إلى عمه العادل بمصر، يطلب منه أن يحلف لولده الصغير، فقال العادل: سبحان الله! أى حاجة إلى هذه اليمين؟ الملك الظاهر مثل بعض أولادى. فقال الرسول:

(١). من أهل البلاد.A

(٢). اسمه ... الدين.A mo

(٣). أبى ... أيوب.A mo

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٣١٤

قد طلب هذا و اختاره، و لا بد من إجابته إليه. فقال العادل: كم من كبش فى المرعى و خروف عند القصاب «١»، و حلف. فاتفق فى تلك الأيام أن توفى الملك الظاهر و الرسول فى الطريق، و لما «٢» عهد الظاهر إلى ولده بالملك جعل أتابعه و مربيه خادما «٣» روميا، اسمه طغرل، و لقبه شهاب الدين، و هو من خيار عباد الله، كثير الصدقة و المعروف.

و لما توفى الظاهر أحسن شهاب الدين هذا السيرة فى الناس، و عدل فيهم، و أزال كثيرا من السنن الجارية، و أعاد أملاكا كانت قد أخذت من أربابها، و قام بتربية الطفل أحسن قيام، و حفظ بلاده، و استقامت الأمور بحسن سيرته و عدله، و ملك ما كان يتعذر على الظاهر ملكه، فمن ذلك تلّ باشر، كان الملك الظاهر لا يقدر [أن] يتعرض إليه، فلما توفى ملكها «٤» كيكافوس، ملك الروم، كما نذكره إن شاء الله تعالى، انتقلت إلى شهاب الدين، و ما أقبح بالملوك و أبناء الملوك أن يكون هذا الرجل الغربى المنفرد أحسن سيرة، و أعف عن أموال الرعية، و أقرب إلى الخير منهم، و لا أعلم اليوم فى ولاه أمور المسلمين أحسن سيرة منه، فالله يبقيه، و يدفع عنه، فلقد بلغنى عنه كل حسن و جميل.

ذكر عدة حوادث

فى هذه السنة، فى المحرم، وقع بالبصرة برد كثير، و هو مع كثرته عظيم القدر، قيل: كان أصغره مثل النارجة الكبيرة، وقيل فى أكبره ما يستحى

(١). عند الشوا. B.

(٢). و الرسول عند الملك العادل و لما. A.

(٣). خادم خصى. A.

(٤). ملكها الروم و أخذها. B.

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٣١٥

الإنسان [أن] يذكره، فكسر كثيرا من رءوس النخيل.

و فى المحرم أيضا سىّر الخليفة الناصر لدين الله ولدى ابنه المعظم على إلى تستر، و هما المؤيد و الموفق، و سار معهما مؤيد الدين النائب عن الوزارة، و عزّ الدين الشرابي، فأقاما بها يسيرا، ثم عاد الموفق مع الوزير و الشرابي إلى بغداد أواخر ربيع الآخر. و فيها، فى صفر، هبّت ببغداد ريح سوداء شديدة، كثيرة الغبار و القتام، و ألقت رملا كثيرا، و قلعت كثيرا من الشجر، فخاف الناس و تضرّعوا، و دامت من العشاء الآخرة إلى ثلث الليل و انكشفت.

و فيها توفى التاج زيد بن الحسن بن زيد الكندى أبو اليمن، البغدادى المولد و المنشأ، انتقل إلى الشام فأقام بدمشق، و كان إماما فى النحو و اللغة، و له الإسناد العالى فى الحديث، و كان ذا فتون كثيرة من أنواع العلوم، رحمه الله.

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٣١٦

٦١٤ ثم دخلت سنة أربع عشرة و ستمائة

ذكر ملك خوارزم شاه بلد الجبل

فى هذه السنة سار خوارزم شاه علاء الدين محمد بن تكش إلى بلاد الجبل فملكها.

و كان سبب حركته، فى هذا الوقت، أشياء، أحدها: أنه كان قد استولى على ما وراء النهر، و ظفر بالخطا، و عظم أمره، و علا شأنه، و أطاعه القريب و البعيد، و منها: أنه كان يهوى أن يخطب له ببغداد، و يلقّب بالسلطان، و كان الأمر بالضدّ لأنّه كان «١» لا يجد من ديوان الخلافة قبولا، و كان سبيله إذا ورد إلى بغداد [أن] يقدم غيره عليه، و لعلّ فى عسكره مائة مثل الذى يقدم سبيله عليه، فكان إذا سمع ذلك يغضبه، و منها: أن أغلمش لما ملك بلاد الجبل خطب له فيها جميعها، كما ذكرناه، فلما قتله الباطنية غضب له، و خرج لنلّا تخرج البلاد عن طاعته، فسار مجدا فى عساكر تطبق الأرض، فوصل إلى الرى فملكها.

و كان أتابك سعد بن دكلا، صاحب بلاد فارس، لما بلغه مقتل أغلمش جمع عساكره و سار نحو بلاد الجبل طمعا فى تملكها لخلوها عن حام و ممانع، فوصل إلى أصفهان، فأطاعه أهلها، و سار منها يريد الرى، و لم يعلم بقدوم خوارزم شاه، فلقية مقدّمة خوارزم شاه فظنّها عساكر تلك الديار قد اجتمعت

(١). لأنه كان. B. mo

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٣١٧

لقتاله و منعه عن البلاد، فقاتلهم، و جدّ فى محاربتهم حتى كاد يهزمهم [١].

فبينما هو كذلك إذ هو قد ظهر له جتر خوارزم شاه، فسأل عنه، فأخبر به فاستسلم، وانهزمت عساكره، وأخذ أسيرا، وحمل إلى بين يدي خوارزم شاه، فأكرمه، ووعده الإحسان والجميل، وأمنه على نفسه، واستحلفه على طاعته، واستقرت القاعدة بينهما على أن يسلم بعض البلاد إليه، ويبقى بعضها «١»، وأطلقه وسير معه جيشا إلى بلاد فارس ليسلم إليهم ما استقرت القاعدة عليه، فلما قدم على ولده الأكبر رآه قد تغلب على بلاد فارس، فامتنع من التسليم إلى أبيه.

ثم إنّه ملك البلاد، كما نذكره، وخطب فيها لخوارزم شاه، و سار خوارزم شاه إلى ساوة فملكها، وأقطعها لعماد الملك عارض جيشه، وهو من أهلها، ثم سار إلى قزوین و زنجان و أبهر، فملكها كلها بغير ممانع ولا مدافع، ثم سار إلى همذان فملكها، وأقطع البلاد لأصحابه، و ملك أصفهان، وكذلك قم و قاشان، واستوعب ملك جميع البلاد، واستقرت القاعدة بينه وبين أوزبك بن البهلوان، صاحب أذربيجان و آران «٢»، بأن يخطب له أوزبك في بلاده و يدخل في طاعته.

ثم إنّه عزم على المسير إلى بغداد، فقدم بين يديه أميرا كبيرا في خمسة عشر ألف فارس، وأقطعه حلوان، فسار حتى وصل إليها، ثم أتبعه بأمر آخر، فلما سار عن همذان يومين أو ثلاثة سقط عليهم من الثلج ما لم يسمع بمثله، فهلك دوابهم، و مات كثير منهم، و طمع فيمن بقي بنو ترجم الأتراک، و بنو هكار الأكراد، فتخطفوهم، فلم يرجع منهم إلى خوارزم

[١]- يهزمهم.

(١). و يبقى معه. B.

(٢). أذربيجان و أراد أن. B.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٣١٨

شاه إلما اليسير، فتطير خوارزم شاه من ذلك الطريق، و عزم على العود إلى خراسان خوفا من التتر، لأنه ظن أنه يقضى حاجته، و يفرغ من إرادته في المدة اليسيرة، فخاب ظنه، و رأى اليكار بين يديه طويلا، فعزم على العود، فولّى همذان أميرا من أقاربه من جهة والدته، يقال له طائيسى «١»، و جعل في البلاد جميعها ابنه ركن الدين، و جعل معه متوليا لأمر دولته عماد الملك الساوى، و كان عظيم القدر عنده، و كان يحرص على قصد العراق.

و عاد خوارزم شاه إلى خراسان، فوصل إلى مرو في المحرم سنة خمس عشرة و ستمائة، و سار من وجهه إلى ما وراء النهر، و لما قدم إلى نيسابور جلس يوم الجمعة عند المنبر، و أمر الخطيب بترك الخطبة للخليفة الناصر لدين الله، و قال: إنّه قد مات، و كان ذلك في ذى القعدة سنة أربع عشرة و ستمائة، و لما قدم مرو قطع الخطبة بها، و كذلك ببلخ و بخارى و سرخس، و بقى خوارزم و سمرقند «٢» و هراة لم تقطع الخطبة فيها إلّا عن قصد لتركها، لأن البلاد كانت لا تعارض من أشباه هذا، إن أحبوا «٣» خطبوا، و إن أرادوا قطعوا، فبقيت كذلك إلى أن كان منه ما كان.

و هذه من جملة سعادات هذا البيت الشريف العباسى لم يقصده أحد بأذى إلّا لقيه فعله، و خبت نيته، لا جرم لم يمهل خوارزم شاه هذا حتى جرى له ما نذكره ممّا لم يسمع «٤» بمثله في الدنيا قديما و لا حديثا.

(١). طالشين: spU. طانسی:

(٢). و سمرقند. B. mo

(٣). أحبوا و ان. B.

(٤). جرى ما جرى ما لم يسمع. B.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٣١٩

ذكر ما جرى لأتابك سعد مع أولاده

لَمَّا قُتِلَ أَغْلَمُش، صاحب بلاد الجبل، همدان و أصفهان «١» و ما بينهما من البلاد، جمع أتابك سعد بن دكلا صاحب فارس، عساكره و سار عن بلاده إلى أصفهان فملكها و أطاعه أهلها، فطمع في تلك البلاد «٢» جميعها، فسار عن أصفهان إلى الرّي، فَلَمَّا وَصَلَ إِلَيْهَا لَقِيَ عَسَاكِرَ خَوَارِزْمِ شَاهٍ قَدْ وَصَلَتْ، كَمَا ذَكَرْنَاهُ، فَعَزَمَ عَلَى مُحَارَبَةِ مَقْدَمَةِ الْعَسْكَرِ، فَقَاتَلَهَا حَتَّى كَادَ يَهْزِمُهَا، فَظَهَرَتْ عَسَاكِرُ خَوَارِزْمِ شَاهٍ، وَرَأَى الْجِتْرَ، فَسَقَطَ فِي يَدِهِ، وَ أَلْقَى نَفْسَهُ، وَ ضَعَفَتْ قُوَّتُهُ وَ قُوَّةُ عَسْكَرِهِ، فَوَلَّوْا الْأَدْبَارَ، وَ أَخَذَ أَتَابِكُ سَعْدٍ أُسِيرًا، وَ أَحْضَرَ بَيْنَ يَدَيِ خَوَارِزْمِ شَاهٍ، فَأَكْرَمَهُ، وَ طَيَّبَ نَفْسَهُ، وَ وَعَدَهُ الْإِحْسَانَ وَ اسْتَصْحَبَهُ [١] مَعَهُ، إِلَى أَنْ وَصَلَ إِلَى أَصْفَهَانَ، فَسَيَّرَهُ مِنْهَا إِلَى بِلَادِهِ، وَ هِيَ تَجَاوِرُهَا، وَ سَيَّرَ مَعَهُ عَسْكَرًا مَعَ أَمِيرٍ كَبِيرٍ لِيَتَسَلَّمَ مِنْهُ مَا كَانَ اسْتَقَرَّ بَيْنَهُمَا، فَإِنَّهُمَا اتَّفَقَا عَلَى أَنْ يَكُونَ لَخَوَارِزْمِ شَاهٍ بَعْضُ الْبِلَادِ وَ لِأَتَابِكِ سَعْدٍ بَعْضُهَا، وَ تَكُونَ الْخُطْبَةُ لَخَوَارِزْمِ شَاهٍ فِي الْبِلَادِ جَمِيعُهَا.

وَ كَانَ أَتَابِكُ سَعْدٍ قَدْ اسْتَخْلَفَ ابْنًا لَهُ عَلَى الْبِلَادِ، فَلَمَّا سَمِعَ الْإِبْنَ بِأَسْرِ أَبِيهِ خَطَبَ لِنَفْسِهِ بِالْمَمْلَكَةِ وَ قَطَعَ خُطْبَةَ أَبِيهِ، فَلَمَّا وَصَلَ أَبُوهُ وَ مَعَهُ عَسْكَرُ خَوَارِزْمِ شَاهٍ امْتَنَعَ الْإِبْنَ مِنْ تَسْلِيمِ الْبِلَادِ إِلَى أَبِيهِ، وَ جَمَعَ الْعَسَاكِرَ وَ خَرَجَ يُقَاتِلُهُ، فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ انْحَاذَتْ عَسَاكِرُ فَارِسَ إِلَى صَاحِبِهِمْ أَتَابِكِ سَعْدٍ، وَ تَرَكَوا ابْنَهُ فِي خَاصَّتِهِ، فَحَمَلَ عَلَى أَبِيهِ، فَلَمَّا رَأَاهُ أَبُوهُ ظَنَّ أَنَّهُ لَمْ يَعْرِفْهُ، فَقَالَ لَهُ: أَنَا

[١]- وَ اسْتَصْحَبَ

(١). و أصفهان و غيرها و جمع. B

(٢). فطمع أن يملك البلاد B

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٣٢٠

فلان: فقال: إياك أردت، فحينئذ امتنع منه و ولي الابن منهزما.

وَ وَصَلَ أَتَابِكُ سَعْدٍ إِلَى الْبِلَادِ فَدَخَلَهَا مَالِكًا لَهَا وَ أَخَذَ ابْنَهُ أُسِيرًا، فَسَجَنَهُ إِلَى الْآنَ، إِلَّا أَنَّنِي سَمِعْتُ الْآنَ، وَ هُوَ سَنَةُ عَشْرِينَ وَ سِتِّمِائَةَ، أَنَّهُ قَدْ خَفَّفَ حَبْسَهُ وَ وَسَّعَ عَلَيْهِ.

وَ لَمَّا عَادَ خَوَارِزْمِ شَاهٍ إِلَى خِرَاسَانَ غَدَرَ سَعْدٌ بِالْأَمِيرِ الَّذِي عِنْدَهُ فَقَتَلَهُ، وَ رَجَعَ عَنْ طَاعَةِ خَوَارِزْمِ شَاهٍ، وَ اشْتَغَلَ خَوَارِزْمِ شَاهٌ بِالْحَادِثَةِ الْعَظْمَى الَّتِي شَغَلَتْهُ عَنْ هَذَا وَ غَيْرِهِ، وَ لَكِنَّ اللَّهَ انْتَقَمَ لَهُ بِابْنِهِ غِيَاثِ الدِّينِ، كَمَا ذَكَرْنَاهُ سَنَةَ عَشْرِينَ وَ سِتِّمِائَةَ، لِأَنَّ سَعْدًا كَفَرَ إِحْسَانَ خَوَارِزْمِ شَاهٍ وَ كَفَرَ الْإِحْسَانَ [١] عَظِيمَ الْعُقُوبَةِ «١».

مدينة دمياط و عودها إلى المسلمين

كَانَ مِنْ أَوَّلِ هَذِهِ الْحَادِثَةِ إِلَى آخِرِهَا أَرْبَعُ سِنِينَ غَيْرَ شَهْرٍ «٢»، وَ إِنَّمَا ذَكَرْنَاهَا هَاهُنَا لِأَنَّ ظُهُورَهُمْ كَانَ فِيهَا، وَ سَقَنَاهَا سِيَاقَهُ مُتَتَابِعَةً لِيَتَلَوْا بَعْضُهَا بَعْضًا، فَنَقُولُ: فِي هَذِهِ السَّنَةِ وَصَلَتْ أُمْدَادُ الْفَرَنْجِ فِي الْبَحْرِ مِنْ رُومِيَةِ الْكِبَرَى وَ غَيْرِهَا مِنْ بِلَادِ الْفَرَنْجِ فِي الْغَرْبِ وَ الشَّمَالِ، إِلَّا أَنَّ الْمُتَوَلَّى لَهَا كَانَ صَاحِبَ رُومِيَةِ «٣»، لِأَنَّهُ يَتَنَزَّلُ عِنْدَ الْفَرَنْجِ بِمَنْزِلَةٍ عَظِيمَةٍ، لَا يَرُونَ مَخَالَفَةَ أَمْرِهِ وَ لَا الْعُدُولَ عَنْ حُكْمِهِ فِيمَا سَرَّهُمْ وَ سَاءَهُمْ، فَجَهَّزَ الْعَسَاكِرَ مِنْ عِنْدِهِ مَعَ جَمَاعَةٍ مِنْ مَقْدَمِيِّ الْفَرَنْجِ، وَ أَمَرَ غَيْرَهُ مِنْ مُلُوكِ الْفَرَنْجِ إِمَّا أَنْ يَسِيرَ بِنَفْسِهِ، أَوْ يَرْسِلَ جِيشًا، فَفَعَلُوا مَا

[١] - الأحسن.

(١). والعقوبة عليه لازمة. B

(٢) سنين و شهور. Ani.caI - أربع orp

(٣). Ani.caI. ورومية ocoI

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٣٢١

أمرهم، فاجتمعوا بعكا من ساحل الشام.

و كان الملك العادل أبو بكر بن أيوب بمصر، فسار منها إلى الشام، فوصل إلى الرملة، و منها إلى لد، و برز «١» الفرنج من عكا ليقتصدوه، فسار العادل نحوهم «٢»، فوصل إلى نابلس عازما على أن يسبقهم إلى أطراف البلاد ممّا يلى عكا ليحميها منهم، فساروا هم فسبقوه «٣»، فنزل على بيسان من الأردن، فتقدم الفرنج إليه فى شعبان عازمين على محاربتة لعلمهم أنه فى قلبه من العسكر، لأنّ العساكر كانت متفرقة فى البلاد.

فلما رأى العادل قربهم منه لم ير أن يلقاهم فى الطائفة التى معه، خوفا من هزيمة تكون عليه، و كان حازما، كثير الحذر، ففارق بيسان نحو دمشق ليقيم بالقرب «٤» منها، و يرسل إلى البلاد و يجمع العساكر، فوصل إلى مرج الصفر فنزل فيه.

و كان أهل بيسان، و تلك الأعمال، لما رأوا الملك العادل عندهم اطمأنوا، فلم يفارقوا بلادهم ظنا منهم أنّ الفرنج لا يقدمون عليه، فلما أقدموا سار على غفلة من الناس، فلم يقدر على النجاة إلّا القليل، فأخذ الفرنج كلّ ما فى بيسان من ذخائر قد جمعت، و كانت كثيرة، و غنموا شيئا كثيرا، و نهبوا البلاد من بيسان إلى بانياس، و بثوا السرايا فى القرى فوصلت إلى خسفين، و نوى و أطراف البلاد، و نازلوا بانياس، و أقاموا عليها ثلاثة أيام، ثم عادوا عنها إلى مرج عكا و معهم من الغنائم و السبى و الأسرى ما لا يحصى كثرة، سوى ما قتلوا، و أحرقوا، و أهلكوا، فأقاموا أياما استراحوا [خلالها].

ثم جاءوا إلى صور، و قصدوا بلد الشقيف، و نزلوا بينهم «٥» و بين بانياس

(١). إلى البيت المقدس و برز. A

(٢). فسار من القدس نحوهم. A

(٣). إلى الماء بمكان يعرف بخربة اللصوص فسبقوه A

(٤). ليلقاهم بالقرب. A

(٥). و بقى بينهم. B

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٣٢٢

مقدار فرسخين «١»، فنهبوا البلاد: صيدا و الشقيف، و عادوا إلى عكا، و كان هذا من نصف رمضان إلى العيد، و الذى سلم من تلك البلاد كان مخفّا حتّى قدر على النجاة.

و لقد بلغنى أنّ العادل لما سار إلى مرج الصفر رأى فى طريقه رجلا يحمل شيئا، و هو يمشى تارة، و تارة يقعد ليستريح، فعدل العادل إليه وحده، فقال له:

يا شيخ لا تعجل، و ارفق بنفسك! فعرفه الرجل، فقال: يا سلطان المسلمين! أنت لا تعجل، فإنّا «٢» إذا رأيناك قد سرت إلى بلادك و تركتنا مع الأعداء كيف لا نعجل! و بالجملة الذى فعله العادل هو الحزم و المصلحة لئلا يخاطر باللقاء على حال تفزق من العساكر «٣»، و لما نزل العادل على مرج الصفر سار ولده الملك المعظم عيسى، و هو صاحب دمشق، فى قطعة صالحه من الجيش إلى نابلس ليمنع

الفرنج عن البيت المقدس.

ذكر حصر الفرنج قلعة الطور و تخريبها

لَمَّا نَزَلَ الْفَرَنْجُ بِمَرْجٍ عَكَا تَجَهَّزُوا، وَ أَخَذُوا مَعَهُمْ آلَةَ الْحَصَارِ مِنْ مِجَانِيْقٍ وَ غَيْرِهَا، وَ قَصَدُوا قَلْعَةَ الطُّورِ، وَ هِيَ قَلْعَةٌ مَنِيعَةٌ عَلَى رَأْسِ جَبَلٍ بِالْقَرْبِ مِنْ عَكَا كَانَ الْعَادِلُ قَدْ بَنَاهَا عَنْ قَرِيبٍ، فَتَقَدَّمُوا إِلَيْهَا وَ حَصَرُوهَا وَ زَحَفُوا إِلَيْهَا، وَ صَعَدُوا فِي جِبْلِهَا حَتَّى وَصَلُوا إِلَى سُورِهَا وَ كَادُوا يَمْلِكُونَهَا. فَاتَّفَقَ أَنَّ بَعْضَ الْمُسْلِمِينَ مِمَّنْ فِيهَا قَتَلَ بَعْضَ مُلُوكِهِمْ، فَعَادُوا عَنْ الْقَلْعَةِ فَتَرَكَوْهَا، وَ قَصَدُوا عَكَا، وَ كَانَتْ مَدَّةَ مَقَامِهِمْ عَلَى الطُّورِ سَبْعَةَ عَشَرَ يَوْمًا.

(١). قَرِيبُ فَرَسَخِينَ. B.

(٢). أَوَانَا. A.

(٣). وَ بِالْجَمْلَةِ ... الْعَسَاكِرُ. A. mo

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٣٢٣

وَلَمَّا فَارَقُوا الطُّورَ أَقَامُوا قَرِيبًا، ثُمَّ سَارُوا فِي الْبَحْرِ إِلَى دِيَارِ مِصْرَ، عَلَى مَا نَذَرَهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، فَتَوَجَّهَ الْمَلِكُ الْمَعْظَمُ إِلَى قَلْعَةِ الطُّورِ فَخَرَّبَهَا إِلَى أَنْ أَحْقَقَهَا بِالْأَرْضِ لِأَنَّهَا بِالْقَرْبِ مِنْ عَكَا وَ يَتَعَذَّرُ حِفْظُهَا.

ذكر حصر الفرنج دمياط إلى أن ملكوها

لَمَّا عَادَ الْفَرَنْجُ مِنْ حَصَارِ الطُّورِ أَقَامُوا بَعَكَا إِلَى أَنْ دَخَلَتْ سَنَةٌ خَمْسَ عَشْرَةٍ وَ سِتِّمِائَةٍ، فَسَارُوا فِي الْبَحْرِ إِلَى دِمِيَاطَ، فَوَصَلُوا فِي صَفَرٍ، فَأَرْسَلُوا عَلَى بَرِّ الْجِيزَةِ، بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ دِمِيَاطِ النَّيْلِ، فَإِنَّ بَعْضَ «١» النَّيْلِ يَصُبُّ فِي الْبَحْرِ الْمَالِحِ عِنْدَ دِمِيَاطَ، [وَ قَدْ بَنَى فِي النَّيْلِ بَرَجٌ كَبِيرٌ مَنِيعٌ، وَ جَعَلُوا فِيهِ سُلَاسِلَ مِنْ حَدِيدٍ غَلَاظَ، وَ مَدَّوْهَا فِي النَّيْلِ إِلَى سُرِّ دِمِيَاطَ] «٢» لَتَمْنَعُ «٣» الْمَرَاقِبَ الْوَاصِلَةَ فِي الْبَحْرِ الْمَالِحِ أَنْ تَصْعَدَ فِي النَّيْلِ إِلَى دِيَارِ مِصْرَ، وَ لَوْ لَا هَذَا الْبَرَجُ وَ هَذِهِ السُّلَاسِلُ لَكَانَتْ مَرَاقِبُ الْعَدُوِّ لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ عَلَى مَنَعِهَا عَنْ أَقْصَى دِيَارِ مِصْرَ وَ أَدَانِيَهَا.

فَلَمَّا نَزَلَ الْفَرَنْجُ عَلَى بَرِّ الْجِيزَةِ، وَ بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ دِمِيَاطِ النَّيْلِ، بَنَوْا عَلَيْهِ [١] سُورًا، وَ جَعَلُوا خَنْدَقًا يَمْنَعُهُمْ مِمَّنْ يَرِيدُهُمْ، وَ شَرَعُوا فِي قِتَالِ مَنْ بِدِمِيَاطَ، وَ عَمَلُوا آلَاتَ، وَ مَرَمَاتَ، وَ أَبْرَاجًا يَزْحَفُونَ بِهَا فِي الْمَرَاقِبِ إِلَى هَذَا الْبَرَجِ لِيَقَاتِلُوهُ وَ يَمْلِكُوهُ. وَ كَانَ الْبَرَجُ مَشْحُونًا بِالرِّجَالِ، وَ قَدْ نَزَلَ الْمَلِكُ الْكَامِلُ ابْنُ الْمَلِكِ الْعَادِلِ،

[١]- عَلَيْهِم.

(١). بِحَرْ: P. C. ٠٢٧٤٤ spU.

(٢). P. C.

(٣). لِيَمْنَعُ. P. C.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٣٢٤

وَ هُوَ صَاحِبُ دِيَارِ مِصْرَ، بِمَنْزِلَةٍ تُعْرَفُ بِالْعَادِلِيَّةِ، بِالْقَرْبِ مِنْ دِمِيَاطَ، وَ الْعَسَاكِرُ مُتَّصِلَةٌ مِنْ عِنْدِهِ إِلَى دِمِيَاطَ، لِيَمْنَعَ الْعَدُوَّ مِنَ الْعُبُورِ إِلَى

أرضها.

و أدام الفرنج قتال البرج و تابعوه، فلم يظفروا منه بشىء، و كسرت مرمايتهم و آلاتهم، و مع هذا فهم ملازمون لقتاله، فبقوا كذلك أربعة أشهر و لم يقدروا على أخذه، فلما ملكوه قطعوا السلاسل لتدخل مراكبهم من البحر المالح فى النيل و يتحكموا فى البر، فنصب الملك الكامل عوض السلاسل جسرا عظيما امتنعوا به من سلوك النيل، ثم إنهم قاتلوا عليه أيضا قتالا شديدا، كثيرا، متتابعات حتى قطعوه، فلما قطع أخذ الملك الكامل عدّة مراكب كبار و ملأها و خرقتها و غرقها فى النيل، فمنعت المراكب من سلوكه.

فلما رأى الفرنج ذلك قصدوا خليجا هناك يعرف بالأزرق، كان النيل يجرى فيه قديما، فحفروا ذلك الخليج و عمّقه فوق المراكب التى جعلت فى النيل، و أجروا الماء فيه إلى البحر المالح، و أصعدوا مراكبهم فيه إلى موضع يقال له بورة، على أرض الجيزة أيضا، مقابل المنزلة التى فيها الملك الكامل ليقاتلوه من هناك، فإنهم لم يكن لهم إليه طريق يقاتلونه فيها، كانت دمياط تحجز بينهم و بينه، فلما صاروا فى بورة حاذوه فقاتلوه فى الماء، و زحفوا غير مرّة، فلم يظفروا بطائل.

و لم يتغير على أهل دمياط شىء لأنّ الميرة و الأمداد متصلة بهم، و النيل يحجز بينهم و بين الفرنج، فهم ممتنعون لا يصل إليهم أذى، و أبوابها مفتحة، و ليس عليها من الحصر ضيق و لا ضرر.

فاتفق، كما يريد الله عزّ و جلّ، أنّ الملك العادل توفى فى جمادى الآخرة من سنة خمس عشرة و ستمائة، على ما ذكره إن شاء الله، فضعفت نفوس الناس لأنّه السلطان حقيقة، و أولاده، و إن كانوا ملوكا إلّا أنّهم بحكمه، و الأمر إليه، و هو ملكهم البلاد، فاتفق موته و الحال هكذا من مقاتلة العدو.

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٣٢٥

و كان من جملة الأمراء بمصر أمير يقال له عماد الدين أحمد بن على، و يعرف بابن المشطوب، و هو من الأكراد الهكاريّة، و هو أكبر أمير بمصر، و له لفيف كثير، و جميع الأمراء ينقادون إليه و يطيعونه لا سيّما الأكراد، فاتفق هذا الأمير مع غيره من الأمراء، و أرادوا أن يخلعوا الملك الكامل من الملك و يملّكوا أخاه الملك الفائز بن العادل ليصير الحكم إليهم عليه و على البلاد، فبلغ الخبر إلى الكامل، ففارق المنزلة ليلا جريده، و سار إلى قرية يقال لها أشموم طّاح، فنزل عندها، و أصبح العسكر و قد فقدوا سلطانهم، فركب كلّ إنسان منهم هواه، و لم يقف الأخ على أخيه، و لم يقدروا على أخذ شىء من خيامهم و ذخائرهم و أموالهم و أسلحتهم إلّا اليسير الذى يخفّ حمله، و تركوا الباقي بحاله من ميرة، و سلاح، و دوابّ، و خيام و غير ذلك، و لحقوا بالكامل.

و أمّا الفرنج فإنهم أصبحوا من الغد، فلم يروا من المسلمين أحدا على شاطئ النيل كجارى عادتهم، فبقوا لا يدرون ما الخبر، و إذ قد أتاهم من أخبرهم الخبر على حقيقته، فعبروا حينئذ النيل إلى برّ دمياط آمنين بغير منازع و لا ممانع، و كان عبورهم فى العشرين من ذى القعدة سنة خمس عشرة و ستمائة، فغنموا ما فى معسكر المسلمين، فكان عظيما يعجز العادّين.

و كان الملك الكامل يفارق الديار المصريّة لأنّه لم يثق بأحد من عسكره، و كان [١] الفرنج ملكوا الجميع بغير تعب و لا مشقّة، فاتفق من لطف الله تعالى بالمسلمين أنّ الملك المعظم عيسى بن الملك العادل وصل إلى أخيه الكامل بعد هذه الحركة ييومين، و الناس فى أمر مريح، فقوى به قلبه، و اشتدّ ظهره، و ثبت جنانه، و أقام بمنزلته، و أخرجوا ابن المشطوب إلى الشام، فاتصل بالملك الأشرف و صار من جنده.

[١] و كانوا.

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٣٢٦

فلما عبر الفرنج إلى ارض دمياط اجتمعت العرب على اختلاف قبائلها، و نهبوا البلاد المجاورة لدمياط، و قطعوا الطريق، و أفسدوا، و بالغوا فى الإفساد، فكانوا أشدّ على المسلمين من الفرنج، و كان أضرب شىء على أهل دمياط أنّها لم يكن بها من العسكر أحد لأنّ

السلطان و من معه من العساكر كانوا عندها يمنعون العدو عنها، فأتتهم هذه الحركة بغتة، فلم يدخلها أحد من العسكر، و كان ذلك من فعل ابن المشطوب، لا جرم لا يمهله الله، و أخذه أخذه رابية، على ما ذكره إن شاء الله.

و أحاط الفرنج بدمياط، و قاتلوها بزا و بحرا، و عملوا عليهم خندقا يمنعهم ممن يريدهم من المسلمين، و هذه كانت عادتهم، و أداموا القتال، و اشتد الأمر على أهلها، و تعذرت عليهم الأقوات و غيرها، و سئمو القتال و ملازمته، لأن الفرنج كانوا يتناوبون القتال عليهم لكثرتهم، و ليس بدمياط من الكثرة ما يجعلون القتال بينهم مناوبة، و مع هذا فقد صبروا صبرا لم يسمع بمثله، و كثر القتل فيهم و الجراح و الموت و الأمراض، و دام الحصار عليهم إلى السابع و العشرين من شعبان سنة ست عشرة و ستمائة، فعجز من بقي من أهلها عن الحفاظ لقلتهم، و تعذر القوت عندهم، فسلموا البلد إلى الفرنج، في هذا التاريخ، بالأمان، فخرج منهم قوم و أقام آخرون لعجزهم عن الحركة، فتفرقوا أيدي سبا.

ذكر ملك المسلمين دمياط من الفرنج

لَمَّا ملك الفرنج دمياط أقاموا بها، و بثوا سراياهم في كل ما جاورهم من البلاد، ينهبون و يقتلون، فجلا أهلها عنها، و شرعوا في عمارتها و تحصينها، و بالغوا في ذلك حتى إنها بقيت لا ترام.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٣٢٧

و أما الملك الكامل فإنه أقام بالقرب منهم في أطراف بلاده يحميها منهم.

و لَمَّا سمع الفرنج في بلادهم بفتح دمياط على أصحابهم أقبلوا إليهم يهرعون من كل فج عميق، و أصبحت دار هجرتهم، و عاد الملك المعظم صاحب دمشق إلى الشام فخرّب البيت المقدس، و إنما فعل ذلك لأن الناس كآفة خافوا الفرنج، و أشرف الإسلام و جميع أهله و بلاده على خطّة خسف في شرق الأرض و غربها: أقبل التتر من المشرق حتى وصلوا إلى نواحي العراق و أذربيجان و أَرَّان و غيرها، على ما ذكره إن شاء الله تعالى، و أقبل الفرنج من المغرب فملكوا مثل دمياط في الديار المصرية، مع عدم الحصون المانعة بها من الأعداء، و أشرف سائر البلاد بمصر و الشام على أن تملك، و خافهم الناس كآفة، و صاروا يتوقعون البلاء صباحا و مساء.

و أراد أهل مصر الجلاء عن بلادهم خوفا من العدو، و لَاتَ حِينَ مَنَاصٍ «١»، و العدو قد أحاط بهم من كل جانب، و لو مكّنتهم الكامل من ذلك لتركوا البلاد خاوية على عروشها، و إنما منعوا منه فثبتوا.

و تابع الملك الكامل كتبه إلى أخويه المعظم صاحب دمشق، و الملك الأشرف موسى بن العادل، صاحب ديار الجزيرة «٢» و أرمينية و غيرهما، يستنجدهما، و يحتّهما على الحضور بأنفسهما، فإن لم يكن فيرسلان العساكر إليه، فسار صاحب دمشق إلى «٣» الأشرف بنفسه بحرّان فرآه مشغولا عن إنجازهم بما دهمه من اختلاف الكلمة عليه، و زوال الطاعة عن كثير ممن كان يطيعه، و نحن نذكر ذلك سنة خمس عشرة و ستمائة إن شاء الله عند وفاة الملك القاهر، صاحب الموصل، فليطلب من هناك، فعذره، و عاد عنه، و بقي الأمر كذلك مع الفرنج.

(١). ٢ خ ٣٨.ROC

(٢). ديار مصر. B

(٣). فسار المعظم إلى. A

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٣٢٨

فأما الملك الأشرف فزال الخلف من بلاده، و رجع الملوك الخارجون عن طاعته إليه، و استقامت له الأمور إلى سنة ثمانى عشرة و

سَمَاءَهُ، و الملك الكامل مقابل الفرنج.

فلَمَّا دخلت سنة ثمانى عشرة و سَمَاءَهُ علم بزوال مانع الملك الأشرف عن إنجاده، فأرسل يستنجده و أخاه، صاحب دمشق، فصار صاحب دمشق المعظم إلى الأشرف يحثه على المسير، ففعل، و سار إلى دمشق فيمن معه من العساكر، و أمر الباقين باللاحق به إلى دمشق و أقام بها ينتظرهم، فأشار عليه بعض أمرائه و خواصه بإنفاذ العساكر و العود إلى بلاده خوفا من اختلاف يحدث بعده، فلم يقبل قولهم، و قال: قد خرجت للجهاد، و لا بدّ من إتمام ذلك العزم، فصار إلى مصر.

و كان الفرنج قد ساروا عن دمياط في الفارس و الراجل، و قصدوا الملك الكامل، و نزلوا مقابله، بينهما خليج من النيل يسمّى بحر أشموم، و هم يرمون بالمنجنيق و الجرخ إلى عسكر المسلمين، و قد تيقنوا هم و كلّ الناس أنّهم يملكون الديار المصريّة. و أمّا الأشرف فإنّه سار حتّى وصل مصر، فلَمَّا سمع أخوه الكامل بقربه منهم توجه إليه، فلقه، و استبشر هو و سائر المسلمين باجتماعهما، لعلّ الله يحدث بذلك نصبا و ظفرا.

و أمّا الملك المعظم، صاحب دمشق، فإنّه سار أيضا إلى ديار مصر، و قصد دمياط ظنّا منه أنّ أخويه و عسكريهما «١» قد نازلوها، و قيل بل أخبر في الطريق أنّ الفرنج قد توجهوا إلى دمياط، فسابقهم إليها ليلقاهم من بين أيديهم، و أخواه من خلفهم، و الله أعلم.

(١). و عسكريهما. mo.A

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٣٢٩

و لما اجتمع الأشرف بالكامل استقرّ الأمر بينهما على التقدّم إلى خليج من النيل يعرف ببحر المحلّة، فتقدّموا إليه، فقاتلوا الفرنج، و ازدادوا قربا، و تقدّمت شوانى المسلمين من النيل، و قاتلوا شوانى الفرنج، فأخذوا منها ثلاث قطع بمن فيها من الرجال، و ما فيها من الأموال و السلاح، ففرح المسلمون بذلك، و استبشروا، و تفاءلوا، و قويت نفوسهم، و استطالوا على عدوّهم. هذا يجرى و الرسل متردّدة بينهم فى تقرير قاعدة الصلح، و بذل المسلمون لهم تسليم البيت المقدّس، و عسقلان، و طبريّة، و صيدا، و جبلة، و اللاذقيّة، و جميع ما فتحه صلاح الدين من الفرنج بالسّاحل و قد تقدّم ذكره ما عدا الكرك، ليسلّموا دمياط، فلم يرضوا و طلبوا ثلاثمائة ألف دينار عوضا عن تخريب القدس ليعمره بها، فلم يتمّ بينهم أمر و قالوا: لا بدّ من الكرك.

فبينما الأمر فى هذا، و هم يمتنعون، اضطّر المسلمون إلى قتالهم، و كان الفرنج لا اعتدادهم بنفوسهم [١] لم يستصحبوا معهم ما يقوتهم عدّة أيّام، ظلّنا منهم أنّ العساكر الإسلاميّة لا تقوم لهم، و أنّ القرى و السواد جميعه يبقى بأيديهم، يأخذون منه ما أرادوا من الميرة، لأمر يريده الله تعالى بهم، فعبر طائفة من المسلمين إلى الأرض التى عليها الفرنج، ففجروا النيل، فركب الماء أكثر تلك الأرض، و لم يبق للفرنج جهة يسلكون [٢] منها غير جهة واحدة فيها ضيق، فنصب الكامل حينئذ الجسور على النيل، عند أشموم، و عبرت العساكر عليها، فملك الطريق الذى يسلكه الفرنج إن أرادوا العود إلى دمياط، فلم يبق لهم خلاص.

و اتّفق فى تلك الحال أنّه وصل إليهم مركب كبير للفرنج من أعظم المراكب يسمّى مرميّة، و حوله عدّة حرّاقات تحميه، و الجميع مملوء من الميرة و السلاح،

[١] لاقتدارهم فى نفوسهم.

[٢] يسلكوا.

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٣٣٠

و ما يحتاجون إليه، فوقع عليها شوانى المسلمين، و قاتلوهم، فظفروا بالمرمّة و بما معها من الحرّاقات و أخذوها، فلَمَّا رأى الفرنج ذلك سقط فى أيديهم، و رأوا أنّهم قد ضلّوا الصواب بمفارقة دمياط فى أرض يجهلونّها.

هذا و عساكر المسلمين محيطه بهم يرمونهم بالنشاب، و يحملون على أطرافهم، فلمّا اشتدّ الأمر على الفرنج أحرقوا خيامهم، و مجانيقهم، و أثقالهم، و أرادوا الزحف إلى المسلمين و مقاتلتهم، لعلهم يقدرون على العود إلى دمياط، فرأوا ما أمّلوه بعيدا، و حيل بينهم و بين ما يشتهون، لكثرة الوحل و المياه حولهم، و الوجه الذي يقدرون على سلوكه قد ملكه المسلمون. فلمّا تيقنوا أنّهم قد أحيط بهم من سائر جهاتهم، و أنّ ميرتهم قد تعذّر عليهم وصولها، و أنّ المنايا قد كثرت لهم عن أنيابها، ذلت نفوسهم، و تكسّرت صلبانهم، و ضلّ عنهم شيطانهم، فراسلوا الملك الكامل و الأشرف يطلبون الأمان ليسلموا دمياط بغير عوض، فبينما المراسلات مترددة إذ أقبل جمع كبير، لهم رهج شديد، و جبله عظيمه، من جهة دمياط، فظنّه المسلمون نجدة أتت للفرنج، فاستشعروا، و إذا هو الملك المعظم، صاحب دمشق، قد وصل إليهم، و كان قد جعل طريقه على دمياط، لما ذكرناه، فاشتدتّ ظهور المسلمين، و ازداد الفرنج خذلا و هنا، و تمّموا الصلح على تسليم دمياط، و استقرّت القاعدة و الأيمان سابع رجب من سنة ثمانى عشرة و ستّمائة، و انتقل ملوك الفرنج، و كنودهم، و قمامصتهم إلى الملك الكامل و الأشرف «١» رهائن على تسليم دمياط ملك عكا، و نائب باب صاحب روميّة، و كندريش، و غيرهم، و عدّتهم عشرون ملكا، و راسلوا قسوسهم و رهبانهم إلى دمياط فى التسليم، فلم يمتنع من بها، و سلّموها إلى المسلمين تاسع رجب المذكور، و كان يوما مشهودا.

(١). و الأشرف. mo.A

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٣٣١

و من العجب ان المسلمين لما تسلّموها وصلت للفرنج بجدة فى البحر، فلو سبقوا المسلمين إليها لامتنعوا من تسليمها، و لكن سبقهم المسلمون ليقضى الله أمرا كان مفعولا، و لم يبق بها من أهلها إلّا آحاد، و تفرّقوا أيدي سبا، بعضهم سار عنها باختياره، و بعضهم مات، و بعضهم أخذه «١» الفرنج. و لمّا دخلها المسلمون رأوها و قد حصّنها الفرنج تحصينا عظيما بحيث بقيت لا ترام، و لا يوصل إليها، و أعاد الله، سبحانه و تعالى، الحقّ إلى نصابه، و ردّه إلى أربابه، و أعطى المسلمين ظفرا لم يكن فى حسابهم، فإنّهم كانت غاية أمانهم أن يسلموا البلاد التى أخذت منهم بالشام ليعيدوا دمياط، فرزقهم الله إعادة دمياط، و بقيت البلاد بأيديهم على حالها، فالله المحمود المشكور على ما أنعم به على الإسلام و المسلمين من كفّ عاديه هذا العدو، و كفاهم شرّ التتر، على ما نذكره إن شاء الله تعالى «٢».

ذكر عدّة حوادث «٣»

فى هذه السنة، فى المحرم، كانت ببغداد فتنة بين أهل المأموئيّة و بين أهل باب الأزج بسبب قتل سبع، و زاد الشرّ بينهم، و اقتتلوا، فجرح بينهم كثير، فحضر نائب الباب و كفّهم عن ذلك، فلم يقبلوا ذلك، و أسمعوه ما يكره، فأرسل من الديوان أمير من مماليك الخليفة، فردّ أهل كلّ محلّة إلى محلّتهم، و سكنت الفتنة. و فيها كثر الفأر ببلدة دجيل من أعمال بغداد، فكان الإنسان لا يقدر

(١) أخذهم. A.

(٢). و كفاهم ... تعالى. mo.A

(٣). mo.A. menifinnadaeuqsu

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٣٣٢

[أن] يجلس إلّا و معه عصا «١» يرذّ الفأر عنه، و كان يرى الكثير منه ظاهرا يتبع بعضه بعضا.

و فيها زادت دجلة زيادة عظيمة لم يشاهد في قديم الزمان مثلها، و أشرفت بغداد على الغرق، فركب الوزير و الأمراء و الأعيان كافة، و جمعوا الخلق العظيم من العامة و غيرهم لعمل القورج حول البلد، و قلق الناس لذلك، و انزعجوا، و عاينوا الهلاك، و أعدوا السفن لينجوا فيها، و ظهر الخليفة للناس و حثهم على العمل، و كان ممّا قال لهم: لو كان يفدى ما أرى بمال أو غيره لفعلت، و لو دفع بحرب لفعلت، و لكنّ أمر الله لا يردّ.

و نبع الماء من البلاليع و الآبار من الجانب الشرقي، و غرق كثير منه، و غرق مشهد أبي حنيفة، و بعض الرّصافه، و جامع المهدي، و قرية الملكيه، و الكشك، و انقطعت الصلاة بجامع السلطان. و أمّا الجانب [١] الغربي، فتهدّم أكثر القرية، و نهر عيسى، و الشطيات، و خربت البساتين، و مشهد باب التبن، و مقبرة أحمد ابن حنبل، و الحريم الطاهري، و بعض باب البصرة و الدور التي على نهر عيسى، و أكثر محلّة قطفتا.

و فيها توفّي أحمد بن أبي الفضائل عبد المنعم بن أبي البركات محمّد بن طاهر ابن سعيد بن فضل الله بن سعيد بن أبي الخير «٢» الميهني «٣»، الصوفي، أبو الفضل شيخ رباط الخليفة ببغداد، و كان صالحا من بيت التّصوّف و الصّلاح.

[١] جانب.

(١). عساه. B.

(٢). الحبر: spU.

(٣). المهى: spU. المنهى:

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٣٣٣

٦١٥ ثم دخلت سنه خمس عشرة و ستمائة

ذكر وفاة الملك القاهر و ولاية ابنه نور الدين و ما كان من الفتن بسبب موته إلى أن استقرت الأمور «١»

في هذه السنه توفّي الملك القاهر عزّ الدين مسعود بن أرسلان شاه بن مسعود ابن مودود بن زنكي بن آقسنقر، صاحب الموصل، ليلة الاثنين لثلاث بقين من شهر ربيع الأول، و كانت ولايته سبع سنين و تسعة أشهر.

و كان سبب موته أنّه أخذته حمى، ثم فارقت الغد، و بقي يومين موعوكا، ثم عاودته الحمى مع فء كثير، و كرب شديد، و قلق متتابع، ثم برد بدنه، و عرق، و بقي كذلك إلى وسط الليل، ثم توفّي.

و كان كريما، حلّما، قليل الطمع في أموال الرعيه، كافّا عن أذى يوصله إليهم، مقبلا [١] على لذاته كأنما ينهاها و يبادر بها الموت، و كان عنده رقه شديدة، و يكثر ذكر الموت.

حكى لي بعض من كان يلازمه قال: كنّا ليلة، قبل وفاته بنصف شهر، عنده، فقال لي: قد وجدت ضجرا من القعود، فقم بنا نتمشّي إلى الباب العمادي، قال: فقمنا، فخرج من داره نحو الباب العمادي، فوصل التربة التي عملها لنفسه عند داره «٢»، فوقف عندها مفكرا لا يتكلّم، ثم قال لي:

[١] مقبلا.

(١). بسبب ... الأمور. mo A.

(٢). عند داره. mo A.

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٣٣٤

و الله ما نحن فى شىء! أليس مصيرنا إلى هاهنا، و ندفن تحت الأرض؟ و أطال الحديث فى هذا و نحوه، ثم عاد إلى الدار، فقلت له: ألا نمشى إلى الباب العمادى؟ فقال: ما بقى عندى نشاط إلى هذا و لا إلى غيره، و دخل داره و توفى بعد أيام. و أصيب أهل بلاده بموته، و عظم عليهم فقده، و كان محبوبا إليهم، قريبا من قلوبهم، ففى كل دار لأجله رنة و عويل، و لما حضرته الوفاة أوصى بالملك لولده الأكبر نور الدين أرسلان شاه، و عمره حينئذ نحو عشر سنين، و جعل الوصى عليه و المدبر لدولته بدر الدين لؤلؤ، و هو الذى كان يتولى دولة القاهرة و دولة أبيه نور الدين قبله، و قد تقدّم من أخباره ما يعرف به محلّه، و سيرد منها أيضا ما يزيد الناظر بصيرة فيه.

فلما قضى نجه قام بدر الدين بأمر نور الدين، و أجلسه فى مملكه أبيه، و أرسل إلى الخليفة يطلب له التقليد و التشريف، و أرسل إلى الملوك، و أصحاب الأطراف المجاورين لهم، يطلب [منهم] تجديد العهد لنور الدين على القاعدة التى كانت بينهم و بين أبيه، فلم يصبح إلّا و قد فرغ من كل ما يحتاج إليه، و جلس للعرش، و حلف الجند و الرعايا، و ضبط المملكه من التزلزل و التغير مع صغر السلطان و كثرة الطامعين فى الملك، فإنّه كان معه فى البلد أعمام أبيه، و كان عمّه عماد الدين زنكى بن أرسلان شاه بولايته، و هى قلعه عقر الحميدية، يحدث نفسه بالملك، لا يشكّ فى أنّ الملك يصير إليه بعد أخيه، فرقع بدر الدين ذلك الخرق، و رتق ذلك الفتق، و تابع الإحسان و الخلع على الناس كافّة، و غير ثياب الحداد عنهم، فلم يخصّ بذلك شريفا دون مشروف، و لا كبيرا دون صغير، و أحسن السيرة، و جلس لكشف ظلمات الناس، و إنصاف بعضهم من بعض.

و بعد أيام وصل التقليد من الخليفة لنور الدين بالولاية، و لبدر الدين بالنظر

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٣٣٥

فى امر دولته، و التشريفات لهما أيضا، و أتهما رسل الملوك بالتعزية، و بذل ما طلب منهم من العهود، و استقرت القواعد لهما.

ذكر ملك عماد الدين زنكى قلاع الهكارية و الزوزان

قد ذكرنا عند وفاة نور الدين سنة سبع و ستمائة أنّه أعطى ولده الأصغر زنكى قلعتى العقر و شوش، و هما بالقرب من الموصل، فكان تارة يكون بالموصل، و تارة بولايته، متجنّيا لكثرة تلوّنه، و كان بقلعه العمادية مستحفظ من مماليك جدّه عزّ الدين مسعود بن مودود، قيل إنّ جرى له مع زنكى مراسلات فى معنى تسليم العمادية إليه، فسمى الخبر بذلك إلى بدر الدين، فبادره بالعزل مع أمير كبير و جماعة من الجند لم يمكنه الامتناع، و سلّم القلعة إلى نائب بدر الدين كذلك، و جعل بدر الدين فى غير العمادية من القلاع نوابا له. و كان نور الدين بن القاهر لا يزال مريضا من جروح [١] كانت به، و غيرها من الأمراض، و كان يبقى المدة الطويلة لا يركب، و لا يظهر للناس، فأرسل زنكى إلى من بالعمادية من الجند يقول: إنّ ابن أخى توفى، و يريد بدر الدين [أن] يملك البلاد، و أنا أحقّ بملك آبائى و أجدادى، فلم يزل حتّى استدعاه [٢] الجند منها، و سلّموا «١» إليه، ثامن عشر رمضان سنة خمس عشرة و ستمائة «٢»، و قبضوا على النائب البدرى و على من معه.

[١] خروج.

[٢] استدعاه.

(١). و سلموها. B.

(٢). ثامن ... و ستمائة. A. mo

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٣٣٦

فوصل الخبر إلى بدر الدين ليلا فجذ في الأمر، و نادى في العسكر لوقته بالرحيل، فساروا مجدين إلى العماديّة و بها زنكى ليحصره فيها، فلم يطلع الصبح إلّا و قد فرغ من تسيير العساكر، فساروا إلى العماديّة و حصروها، و كان الزمان شتاء، و البرد شديد، و الثلج هناك كثير، فلم يتمكّنوا من قتال من بها، لكنّهم أقاموا يحصرونها، و قام مظفر الدين كوكبرى بن زين الدين، صاحب إربل، في نصر عماد الدين، و تجرّد لمساعدته، فراسله بدر الدين يذكره الأيمان و العهود التي من جملتها أنّه لا- يتعرّض إلى شيء من أعمال الموصل، و منها قلاع الهكاريّة و الزوزان بأسمائها، و متى تعرّض إليها أحد من الناس، من كان، منعه بنفسه و عساكره، و أعان نور الدين و بدر الدين على منعه، و يطالبه بالوفاء بها.

ثمّ نزل عن هذا، و رضى منه بالسكوت لا لهم و لا عليهم، فلم يفعل، و أظهر معاضدة عماد الدين زنكى، فحينئذ لم يمكن مكاثرة زنكى بالرجال و العساكر لقرب هذا الخصم من الموصل و أعمالها، إلّا أنّ العسكر البدرى محاصر للعماديّة و بها زنكى.

ثمّ إنّ بعض الأمراء من عسكر الموصل، ممّن لا علم له بالحرب، و كان شجاعا و هو جديد الإمارة أراد أن يظهر شجاعته ليزداد بها تقدّمًا، أشار على من هناك من العسكر بالتقدّم إليها و مباشرتها بالقتال، و كانوا قد تأخّروا عنها شيئا يسيرا لشدة البرد و الثلج، فلم يوافقوه، و قبحوا رأيه، فتركهم و رحل متقدّمًا إليهم ليلا، فاضطّروا إلى اتّباعه خوفا عليه من أذى يصيبه و من معه، فساروا إليه على غير تعبئة لضيق المسلك، و لأنّه أعجلهم عن ذلك، و حكم الثلج عليهم أيضا.

فسمع زنكى و من معه، فنزلوا، و لقوا أوائل الناس، و أهل مكّة أخبر بشعابها، فلم يثبتوا لهم، و انهزموا و عادوا إلى منزلتهم، و لم يقف العسكر

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٣٣٧

عليهم، فاضطّروا إلى العود، فلمّا عادوا راسل زنكى باقى قلاع الهكاريّة و الزوزان، و استدعاهم إلى طاعته، فأجابوه، و سلّموا إليه، فجعل فيها الولاية، و تسلّمها و حكم فيها.

ذكر اتفاق بدر الدين مع الملك الأشرف

لمّا رأى بدر الدين خروج القلاع عن يده، و اتفاق مظفر الدين و عماد الدين عليه، و لم ينفع معهما اللين و لا الشدة، و أنّهما لا يزالان يسعيان فى أخذ بلاده، و يتعرّضان إلى أطرافها بالنهب و الأذى، أرسل إلى الملك الأشرف موسى ابن الملك العادل، و هو صاحب ديار الجزيرة كلّها، إلّا القليل، و صاحب خلاط و بلادها، يطلب منه الموافقة و المعاضدة، و انتمى إليه، و صار فى طاعته منخرطا فى سلك موافقته، فأجابه الأشرف بالقبول لذلك و الفرح به و الاستبشار، و بذل له المساعدة و المعاضدة، و المحاربة دونه، و استعادة ما أخذ من القلاع التي كانت له.

و كان الملك الأشرف حينئذ يحلب، نازلا بظاهرها، لما ذكرناه من تعرّض كيكاس، ملك بلاد الروم التي بيد المسلمين، قونية و غيرها، إلى أعمالها، و ملكه بعض قلاعها، فأرسل إلى مظفر الدين يقبّح هذه الحالة، و يقول له: إنّ هذه القاعدة تقرّرت بين جميعنا بحضور رسلك، و إنّنا نكون على الناكث إلى أن يرجع الحقّ، و لا- بدّ من إعادة ما أخذ من بلد الموصل لندوم على اليمين التي استقرّت بيننا، فإن امتنعت، و أصررت على معاضدة زنكى و نصرته، فأنا أجيء بنفسى و عساكرى، و أقصد بلادك و غيرها، و أسترّد ما أخذتموه و أعيده إلى أصحابه، و المصلحة أنّك توافق، و تعود إلى الحقّ، لنجعل شغلنا جمع العساكر، و قصد الديار المصريّة، و

إجلاء الفرنج

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٣٣٨

عنها قبل أن يعظم خطبهم ويستطير شرهم «١».

فلم تحصل الإجابة منه إلى شىء من ذلك، وكان ناصر الدين محمود، صاحب الحصن و آمد، قد امتنع عن موافقة الأشرف، وقصد بعض بلاده ونهبها، وكذلك صاحب ماردین، و اتفقا مع مظفر الدين، فلما رأى الأشرف ذلك جهّز عسكرا و سيّره إلى نصيبين نجدة لبدر الدين إن احتاج إليهم. الكامل فى التاريخ ج ١٢ ٣٣٨ ذكر انهزام عماد الدين زنكى من العسكر البدرى ص : ٣٣٨

ذكر انهزام عماد الدين زنكى من العسكر البدرى

لما عاد العسكر البدرى من حصار العمادية و بها زنكى، كما ذكرناه، قويت نفسه، و فارقها، و عاد إلى قلعة العقرة التى له ليتسلط على أعمال الموصل بالصحراء، فإنّ بلد الجبل كان قد فرغ منه، و أمده مظفر الدين بطائفة كثيرة من العسكر. فلما اتّصل الخبر ببدر الدين سيّر طائفة من عسكره إلى أطراف بلد الموصل يحمونها، فأقاموا على أربعة فراسخ من الموصل، ثم إنّهم اتّفقوا بينهم على المسير إلى زنكى، و هو عند العقرة فى عسكره و محاربته، ففعلوا ذلك، و لم يأخذوا أمر بدر الدين بل أعلموه بمسيرهم جريده ليس معهم إلّا سلاحهم، و دوابّ يقاتلون عليها، فساروا ليلتهم، و صبحوا زنكى بكرة الأحد لأربع بقين من المحرم من سنة ستّ عشرة و ستمائة، فالتقوا و اقتتلوا تحت العقرة، و عظم الخطب بينهم، فأنزل الله نصره على العسكر البدرى، فانهزم عماد الدين و عسكره، و سار إلى إربل منهزما، و عاد العسكر البدرى إلى منزلته التى كان بها، و حضرت الرسل من الخليفة الناصر لدين الله و من الملك الأشرف فى تجديد الصلح، فاصطلحوا، و تحالفوا بحضور الرسل.

(١). شرهم. A.

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٣٣٩

ذكر وفاة نور الدين صاحب الموصل و ملك أخيه

و لما تقرّر الصلح توفى نور الدين أرسلان شاه ابن الملك القاهر، صاحب الموصل، و كان لا يزال مريضا بعدّة أمراض، فرتب بدر الدين فى الملك بعده أخاه ناصر الدين محمودا و له من العمر نحو ثلاث سنين، و لم يكن للقاهر ولد غيره، و حلف له الجند، و ركبّه، فطابت نفوس الناس، لأنّ نور الدين كان لا يقدر على الركوب لمرضه، فلما ركبوا هذا علموا أنّ لهم سلطانا من البيت الأتابكى، فاستقروا و اطمأنوا، و سكن كثير من الشغب بسببه.

ذكر انهزام بدر الدين من مظفر الدين

لما توفى نور الدين، و ملك أخوه ناصر الدين، تجدد لمظفر الدين و لعماذ الدين طمع لصغر سنّ ناصر الدين، فجمعما الرجال، و تجهّزا للحركة، فظهر ذلك، و قصد بعض أصحابهم طرف ولاية الموصل بالنهب و الفساد. و كان بدر الدين قد سيّر ولده الأكبر فى جمع صالح من العسكر إلى الملك الأشرف بحلب، نجدة له بسبب اجتماع الفرنج بمصر، و هو يريد أن يدخل بلاد الفرنج التى بساحل الشام ينهبها، و يخربها، ليعود بعض من بدمياط إلى بلادهم، فيخفّ الأمر على الملك الكامل، صاحب مصر، فلما رأى بدر الدين تحرّك مظفر الدين و عماد الدين، و أنّ بعض عسكره بالشام، أرسل إلى عسكر الملك الأشرف الذى بنصيبين يستدعيهم ليعتضد بهم، و كان المقدّم عليهم مملوك الأشرف، اسمه أيبك، فساروا إلى الموصل رابع رجب سنة ستّ عشرة.

فلما رأهم بدر الدين استقلهم لأنهم كانوا أقل من العسكر الذى له

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٣٤٠

بالشام، أو مثلهم، فالح ابيك على عبور دجلة و قصد بلاد إربل، فمنعه بدر الدين من ذلك، و أمره بالاستراحة، فنزل بظاهر الموصل أياما، و أصر على عبور دجلة، فعبرها بدر الدين موافقة له، و نزلوا على فرسخ من الموصل، شرقي دجلة، فلما سمع مظفر الدين ذلك جمع عسكره و سار إليهم و معه زنكى، فعبر الزاب و سبق خبره، فسمع به بدر الدين فعبا أصحابه، و جعل أيبك فى الجالشيء، و معه شجعان أصحابه، و أكثر معه منهم، بحيث إنه لم يبق معه إلّا اليسير، و جعل فى ميسرته أميرا كبيرا، و طلب الانتقال عنها إلى الميمنة، فنقله.

فلما كان وقت العشاء الآخرة أعاد ذلك الأمير الطلب بالانتقال من الميمنة إلى الميسرة، و الخصم بالقرب منهم، فمنعه بدر الدين، و قال: متى انتقلت أنت و من معك فى هذا الليل، ربما ظنه الناس هزيمة فلا يقف أحد، فأقام بمكانه، و هو فى جمع كبير من العسكر، فلما انتصف الليل سار أيبك، فأمره بدر الدين بالمقام إلى الصبح لقرب العدو منهم، فلم يقبل لجهله بالحرب، فاضطر الناس لاتباعه، فتقطعوا فى الليل و الظلمة، و التقوا هم و الخصم فى العشرين من رجب على ثلاثة فراسخ من الموصل، فأما عز الدين فإنه تيامن و التحق بالميمنة، و حمل فى أطلابه هو و الميمنة على ميسرة مظفر الدين، فهزمها و بها زنكى.

و كان الأمير الذى انتقل إلى الميمنة قد أبعد عنها، فلم يقاتل، فلما رأى أيبك قد هزم الميسرة تبعه و التحق به و انهزمت ميسرة بدر الدين فبقى هو فى الثفر الذين معه، و تقدم إليه مظفر الدين فيمن معه فى القلب لم يتفرقوا، فلم يمكنه الوقوف، فعاد إلى الموصل، و عبر دجلة إلى القلعة، و نزل منها إلى البلد، فلما رآه الناس فرحوا به، و ساروا معه، و قصد باب الجسر، و العدو بإزائه، بينهما دجلة، فنزل مظفر الدين فيمن سلم معه من عسكره

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٣٤١

وراء تل حصن نينوى، فأقام ثلاثة أيام.

فلما رأى اجتماع العسكر البدرى بالموصل، و أنهم لم يفقد منهم إلّا اليسير، و بلغه الخبر أن بدر الدين يريد العبور إليه ليلا بالفارس و الراجل، على الجسور و فى السفن، و يكبسه، رحل [١] ليلا- من غير أن يضرب كوسا أو بوقا، و عادوا نحو إربل، فلما عبروا الزاب نزلوا، ثم جاءت الرسل وسعوا فى الصلح، فاصطلحوا على أن كل من بيده شيء هو له، و تقررت العهود و الأيمان على ذلك.

ذكر ملك عماد الدين قلعة كواشى و ملك بدر الدين تل يعفر و ملك الملك الأشرف سنجار

كواشى هذه من أحصن قلاع الموصل و أعلاها و أمنعها، و كان الجند الذين بها، لما رأوا ما فعل أهل العمادية و غيرها من التسليم إلى زنكى، و أنهم قد تحكّموا فى القلاع، لا يقدر أحد على الحكم عليهم، أحبوا أن يكونوا كذلك، فأخرجوا نواب بدر الدين عنهم، و امتنعوا بها، و كانت رهائنهم بالموصل، و هم يظهرون طاعة بدر الدين، و يبطنون المخالفة، فترددت الرسل فى عودهم إلى الطاعة، فلم يفعلوا، و راسلوا زنكى فى المجيء إليهم، فسار إليهم و تسلّم القلعة، و أقام عندهم، فروسل مظفر الدين يذكر بالأيمان القريبة العهد، و يطلب منه إعادة كواشى، فلم تقع الإجابة إلى ذلك، فأرسل حينئذ بدر الدين إلى الملك الأشرف، و هو بحلب، يستنجد به، فسار و عبر الفرات [٢] إلى حران، و اختلفت عليه الأمور من عدة جهات منعه من سرعة السير.

[١] فرحل.

[٢] الفراء.

و سبب هذا الاختلاف أن مظفر الدين كان يرسل الملوك أصحاب الأطراف ليستميلهم، و يحسن لهم الخروج على الأشرف، و يخوفهم منه، إن خلا وجهه، فأجابه إلى ذلك عز الدين كيكافوس بن كيخسرو بن قلع أرسلان، صاحب بلاد الروم، [و صاحب آمد]، و حصن كيفا، و صاحب ماردین، و اتفقوا كلهم على طاعة كيكافوس، و خطبوا له في بلادهم، و نحن نذكر ما «١» كان بينه و بين الأشرف عند منبج لما قصد بلاد حلب، فهو موغر الصدر عليه.

فاتفق أن كيكافوس مات في ذلك الوقت، و كفى الأشرف و بدر الدين شره، و لا جد إلا ما أقعص عنك الرجال، و كان مظفر الدين قد راسل جماعة من الأمراء الذين مع الأشرف، و استمالهم، فأجابوه، منهم: أحمد بن علي بن المشطوب، الذي ذكرنا أنه فعل على دمياط ما فعل، و هو أكبر أمير معه، وافقه غيره، منهم: عز الدين محمد بن بدر الحميدى و غيرهما، و فارقوا الأشرف، و نزلوا بدنيسر، تحت ماردین، ليجتمعوا مع صاحب آمد، و يمنعوا الأشرف من العبور إلى الموصل لمساعدة بدر الدين.

فلما اجتمعوا هناك عاد صاحب آمد إلى موافقة الأشرف، و فارقهم، و استقر الصلح بينهما، و سلم إليه الأشرف مدينة حاني، و جبل جور، و ضمن له أخذ دارا و تسليمها إليه، فلما فارقهم صاحب آمد انحل أمرهم، فاضطر بعض أولئك الأمراء إلى العود إلى طاعة الأشرف، و بقي ابن المشطوب وحده، فسار إلى نصيبين ليسيير إلى إربل، فخرج إليه شحنة نصيبين فيمن عنده من الجند، فاقتتلوا، فانهزم ابن المشطوب، و تفرق من معه من الجمع، و مضى منهزما، فاجتاز بطرف بلد سنجان، فسير إليه صاحبها فروخ شاه بن زنكي ابن مودود بن زنكي عسكرا فهزموه و أخذوه أسيرا و حملوه إلى سنجان، و كان صاحبها موافقا للأشرف و بدر الدين.

(١). قد ذكرنا ما. A.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٣٤٣

فلما صار عنده ابن المشطوب حسن عنده مخالفة الأشرف، فأجابه إلى ذلك و أطلقه، فاجتمع معه من يريد الفساد، فقصدوا البقعاء من أعمال الموصل، و نهبوا فيها عدة قرى، و عادوا إلى سنجان، ثم ساروا و هو معهم إلى تل يعفر، و هي لصاحب سنجان، ليقصدوا بلد الموصل و ينهبوا في تلك الناحية، فلما سمع بدر الدين بذلك سير إليه عسكرا، فقاتلوهم، فمضى منهزما، و صعد إلى تل يعفر، و احتوى بها منهم، و نازلوه و حصروه فيها، فسار بدر الدين من الموصل إليه يوم الثلاثاء لتسع بقين من ربيع الأول سنة سبع عشرة و ستمائة، و جد في حصره، و زحف إليها مرة بعد أخرى، فملكها سابع عشر ربيع الآخر من هذه السنة، و أخذ ابن المشطوب معه إلى الموصل فسجنه بها، ثم أخذه منه الأشرف فسجنه بحران إلى أن توفي في ربيع الآخر سنة تسع عشرة و ستمائة، و لقاء الله عقوبة ما صنع بالمسلمين بدمياط.

و أميا الملك الأشرف، فإنه لما أطاعه صاحب الحصن و آمد، و تفرق الأمراء [عنه] كما ذكرناه، رحل من حران إلى دنيسر، فنزل عليها، و استولى على بلد ماردین، و شجن عليه، و أقطعه، و منع الميرة عن ماردین، و حضر معه صاحب «١» آمد و ترددت الرسل بينه و بين صاحب ماردین في الصلح، فاصطلحوا على أن يأخذ الأشرف رأس عين، و كان هو قد أقطعها لصاحب ماردین، و يأخذ منه أيضا ثلاثين ألف دينار، و يأخذ منه صاحب آمد الموزر، من بلد [شبختان] «٢».

فلما تم الصلح سار الأشرف من دنيسر إلى نصيبين يريد الموصل «٣»، فبينما هو في الطريق لقيه رسل صاحب سنجان يبذل تسليمها إليه، و يطلب العوض عنها مدينة الرقة.

(١). و حضره صاحب. A.

(٢) سحطان: C. ٧٤٠ P.

(٣). يريد الموصل. A. mo

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٣٤٤

و كان السبب في ذلك أخذ تلّ يعفر منه، فانخلع قلبه، و؟ انضاف إلى ذلك أن ثقاته و نصحاءه خانوه، و زادوه رعبا و خوفا، لأنّه تهدّدهم، فتغدّوا به قبل أن يتعشّى بهم، و لأنّه قطع رحمه، و قتل أخاه الذي ملك سنجار بعد أبيه «١»، قتله كما نذكره إن شاء الله «٢»، و ملكها، فلحقاه الله سوء فعله، و لم يمتعه بها، فلمّا تيقّن رحيل الأشرف تحيّر في أمره، فأرسل في التسليم إليه، فأجابه الأشرف إلى العوض، و سلّم إليه الرقّة، و تسلّم سنجار مستهلّ جمادى الأولى سنة سبع عشرة و ستمائة، و فارقها صاحبها و إخوته بأهليهم و أموالهم، و كان هذا آخر ملوك البيت الأتابكيّ بسنجار، فسبحان الحيّ الدائم الذي ليس لملكه آخر. و كان مدّة ملكهم لها أربعا و تسعين سنة، و هذا دأب الدنيا بأبنائها، فتعسا [١] لها من دار ما أغدرها بأهلها!

ذكر وصول الأشرف إلى الموصل و الصلح مع مظفر الدين

لَمّا ملك الملك الأشرف سنجار سار يريد الموصل ليجتاز منها، فقدّم بين يديه عساكره، فكان يصل كلّ يوم منهم جمع كثير، ثمّ وصل هو في آخرهم يوم الثلاثاء تاسع عشر جمادى الأولى من السنة المذكورة، و كان يوم وصوله مشهودا، و أتاه رسل الخليفة و مظفر الدين في الصلح، و بذل تسليم القلاع المأخوذة جميعها إلى بدر الدين، ما عدا قلعة العماديّة فإنّها تبقى بيد زنكي، و إنّ المصلحة قبول هذا لتزول الفتنة، و يقع الاشتغال بجهاد الفرنج. و طال الحديث في ذلك نحو شهرين، ثمّ رحل الأشرف يريد مظفر الدين

(١). بعد أخيه. A.

(٢). قتله ... الله. A. mo

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٣٤٥

صاحب إربل، فوصل إلى قرية السّلاميّة، بالقرب من نهر الرّاب، و كان مظفر الدين نازلا عليه من جانب إربل، فأعاد الرسل، و كان العسكر قد طال بيكاره، و الناس قد ضجروا، و ناصر الدين صاحب آمد يميل إلى مظفر الدين، فأشار بالإجابة إلى ما بذل، و أعانه عليه غيره، فوقعت الإجابة إليه، و اصطلحوا على ذلك، و جعل لتسليمها أجل، و حمل زنكي إلى الملك الأشرف يكون عنده «١» رهينة إلى حين تسليم القلاع.

و سلّمت قلعة العقير، و قلعة شوش أيضا، و هما لزنكي، إلى نواب الأشرف، رهنا على تسليم ما استقرّ من القلاع، فإذا سلّمت أطلق زنكي، و أعيد عليه قلعة العقير، و قلعة شوش، و حلفوا على هذا، و سلّم الأشرف زنكي القلعتين و عاد إلى سنجار، و كان رحيله عن الموصل ثاني شهر رمضان من سنة سبع عشرة و ستمائة، فأرسلوا إلى القلاع لتسلّم إلى نواب بدر الدين، فلم يسلم إليه غير قلعة جلّ صورا، من أعمال الهكاريّة، و أمّا باقي القلاع فإنّ جندها أظهرها الامتناع من ذلك، و مضى الأجل و لم يسلم غير جلّ صورا. و لزم عماد الدين زنكي لشهاب الدين غازي ابن الملك العادل، و خدمه، و تقرب إليه، فاستعطف له [١] أخاه الملك الأشرف، فمال إليه و أطلقه، و أزال نوابه من قلعة العقير و قلعة شوش، و سلّمهما إليه.

و بلغ بدر الدين عن الملك الأشرف ميل إلى قلعة تلّ يعفر، و إنّها كانت لسنجار من قديم الزمان و حديثه، و طال الحديث في ذلك «٢»، فسلمها إليه بدر الدين.

(١). يكون عنده. mo.B

(٢). ذلك وقصر. A.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٣٤٦

ذكر عود قلاع الهكاريّة والزوزان إلى بدر الدين

لَمَّا ملك زنكى قلاع الهكاريّة والزوزان لم يفعل مع أهلها ما ظنّه من الإحسان والإنعام، بل فعل ضدّه، وضيّق عليهم، و كان يبلغهم أفعال بدر الدين مع جنده و رعاياه، و إحسانه إليهم، و بذله الأموال لهم، و كانوا يريدون العود إليه، و يمنعهم الخوف منه لما أسلفوه من ذلك «١»، فلمّا كان الآن أعلنوا [١] بما فعل معهم، فأرسلوا إلى بدر الدين في المحرم سنة ثمانى عشرة و ستمائة في التسليم إليه، و طلبوا منه اليمين، و العفو عنهم، و ذكروا شيئاً من إقطاع يكون لهم، فأجابهم إلى ذلك، و أرسل إلى الملك الأشرف يستأذنه في ذلك، فلم يأذن له.

و عاد زنكى من عند الأشرف، فجمع جموعاً، و حصر قلعة العماديّة، فلم يبلغ منهم غرضاً، و أعادوا مراسلة بدر الدين في التسليم إليه، فكتب إلى الملك الأشرف في المعنى، و بذل له قلعة جديدة نصيبين، و ولاية بين النهرين ليأذن له في أخذها، فأذن له، فأرسل إليها كلّها الثّواب و تسلّموها، و أحسن إلى أهلها، و رحل زنكى عنها، و وفى له بدر الدين بما بذله لهم. فلمّا سمع جند باقى القلاع بما فعلوا و ما وصلهم من الإحسان و الزيادة، رغبوا كلّهم في التسليم إليه، فسير إليهم الثّواب، و اتّفقت كلمة أهلها على طاعته و الانقياد إليه، و العجب أنّ العساكر اجتمعت من الشام، و الجزيرة، و ديار بكر، و خلاط، و غيرها، في استعادة هذه القلاع، فلم يقدرُوا على

[١] - علّبو.

(١). و كانوا ... من ذلك. mo.B

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٣٤٧

ذلك، فلمّا تفرّقوا حضر أهلها و سألوا أن تؤخذ منهم، فعادت صفوا عفوا بغير منّة، و لقد أحسن من قال: لا سهل إلّا ما جعلت سهلاً و إن تشأ تجعل بحزن و حلاً فتبارك الله الفعّال لما يريد، لا مانع لما أعطى، و لا معطى لما منع، و هو على كلّ شيء قدير.

ذكر قصد كيكاس و ولاية حلب و طاعة صاحبها للأشرف و انهزام كيكاس

في هذه السنّة سار عزّ الدين كيكاس بن كيخسرو ملك الروم إلى ولاية حلب، قصداً للتغلّب عليها، و معه الأفضل بن صلاح الدين يوسف.

و سبب ذلك أنّه كان بحلب رجلان فيهما شرّ كثير و سعاية بالناس، فكانا ينقلان إلى صاحبها الملك الظاهر بن صلاح الدين عن رعيتّه، فأوغرا صدره «١»، فلقى الناس منهما شدّة، فلمّا توفّى الظاهر و لى الأمر شهاب الدين طغرل «٢» أبعدهما و غيرهما ممّن يفعل مثل فعلهما، و سدّ هذا الباب على فاعله، و لم يطرق إليه أحداً من أهله، فلمّا رأى الرجلان كساد سوقهما لزمّا بيوتهما، و ثار بهما الناس، و آذوهما، و تهدّدوهما لما كانا أسلفاه من الشرّ، فخافا، ففارقا حلب، و قصداً كيكاس فأطمعا [١] فيها، و قرّرا في نفسه أنّه متى قصدها لا تثبت بين يديه، و أنّه يملكها، و يهون عليه ملك ما بعدها.

[١] فأطعماه.

(١). صدورهم. A.

(٢). طغرل الخادم. A.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٣٤٨

فلما عزم على ذلك أشار عليه ذوو الرأي من أصحابه، وقالوا له: لا يتم لك هذا إلا بأن يكون معك أحد من بيت أيوب ليسهل على أهل البلاد وجندها الانقياد إليه، وهذا الأفضل بن صلاح الدين هو في طاعتك، والمصلحة أنك تستصحبه معك، وتقرّر بينكما قاعدة فيما تفتحانه من البلاد، فمتى كان معك أطاعك الناس وسهل عليك ما تريد.

فأحضر الأفضل من سميساط إليه، وأكرمه، وحمل إليه شيئاً كثيراً من الخيل والخيام والسلاح وغير ذلك، واستقرت القواعد بينهما أن يكون ما يفتحه من حلب وأعمالها للأفضل، وهو في طاعة كيكافوس، والخطبة له في ذلك أجمع، ثم يقصدون ديار الجزيرة، فما يفتحونه ممياً بيد الملك الأشرف مثل: حرّان والزها من البلاد الجزرية، تكون لكيكافوس. و جرت الأيمان على ذلك، وجمعوا العساكر و ساروا، فملكوا قلعة رعبان، فتسلمها الأفضل، فمال الناس حينئذ إليهما.

ثم سارا إلى قلعة تلّ باشر، وفيها صاحبها «١» ولد بدر الدين دلدردم الياوقى، فحصره، وضيّقوا عليه، وملكوها منه، فأخذها كيكافوس لنفسه، ولم يسلمها إلى الأفضل، فاستشعر الأفضل من ذلك، وقال: هذا أول الغدر، وخاف أنه إن ملك حلب يفعل به هكذا، فلا يحصل إلا أن يكون قد قلع بيته لغيره، ففترت نيته، وأعرض عما كان يفعله، وكذلك أيضاً أهل البلاد، فكانوا يظنون أن الأفضل يملكها، فيسهل عليهم الأمر، فلما رأوا ضد ذلك وقفوا.

وأما شهاب الدين أتابك ولد الظاهر، صاحب حلب، فإنه ملازم قلعة حلب لا ينزل منها، ولا يفارقها البتة، وهذه كانت عادته مذ مات الظاهر، خوفاً من نائير يثور به، فلما حدث هذا الأمر خاف أن يحصره، وربما سلم

(١). صاحبها فتح الدين. B.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٣٤٩

أهل البلد والجند المدينة إلى الأفضل لميلهم إليه، فأرسل إلى الملك الأشرف ابن الملك العادل، صاحب الديار الجزرية وخلاط وغيرها، يستدعيه إليه لتكون طاعتهم له، ويخطبون له، ويجعل السكة باسمه، يأخذ من أعمال حلب ما اختار، ولأن ولد الظاهر هو ابن أخته، فأجاب إلى ذلك، و سار إليهم في عساكره التي عنده، وأرسل إلى الباقيين يطلبهم إليه، و سرّه ذلك للمصلحة العامة لجميعهم، وأحضر إليه العرب من طيئ وغيرهم، ونزل بظاهر حلب.

ولما أخذ كيكافوس تلّ باشر كان الأفضل يشير بمعالجة حلب قبل اجتماع العساكر بها، وقبل أن يحتاطوا ويتجهّزوا، فعاد عن ذلك، وصار يقول: الرأي أننا نقصد منبج وغيرها لئلا يبقى لهم وراء ظهورنا شيء، قصداً للتمادي و مرور الزمان في لا شيء، فتوجهوا من تلّ باشر إلى جهة منبج، وتقدّم الأشرف نحوهم، و سارت العرب في مقدمته، و كان طائفة من عسكر كيكافوس، نحو ألف فارس، قد سبقت مقدمته له، و فالتقوا هم و العرب و من معهم من العسكر الأشرفي، فاقتتلوا، فانهزم عسكر كيكافوس، و عادوا إليه منهزمين، و أكثر العرب الأسر منهم و النهب لجودة خيلهم و دبر خيل الروم.

فلما وصل إليه أصحابه منهزمين لم يثبت، بل ولّى على أعقابهم يطوى المراحل إلى بلاده خائفاً يترقب، فلما وصل إلى أطرافها «١» أقام. و إنما فعل هذا لأنه صبيّ غرّ لا معرفة له بالحرب، وإلا، فالعساكر ما برحت تقع مقدماتها بعضها على بعض، فسار حينئذ الأشرف،

فملك رعبان، و حصر تلّ «٢» باشر، و بها جمع من عسكر كيكائوس، فقاتلوه حتّى غلبوا، فأخذت القلعة منهم، و أطلقهم الأشرف، فلما وصلوا إلى كيكائوس جعلهم في دار و أحرقها عليهم، فهلكوا، فعظم ذلك على الناس

(١). طرفها. A.

(٢) و قصد تل. A.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٣٥٠

كافّة، و استقبحوه، و استضعفوه، لا جرم لم يمهله الله تعالى لعدم الرحمة في قلبه، و مات عقيب هذه الحادثة. و سلّم الأشرف تلّ باشر و غيرها من بلد حلب إلى شهاب الدين أتابك، صاحب حلب، و كان عازما على اتّباع كيكائوس، و دخول [١] بلاده، فأتاه الخبر بوفاء أبيه الملك العادل، فاقتضت المصلحة العود إلى حلب، لأنّ الفرنج بديار مصر، و مثل ذلك السلطان العظيم إذا توفّى ربّما جرى خلل في البلاد لا تعرف العاقبة فيه، فعاد إليها، و كفى كلّ منهما أذى صاحبه.

ذكر وفاة الملك العادل و ملك أولاده بعده

«١» توفّى الملك العادل أبو بكر بن أيّوب سابع جمادى الآخرة من سنة خمس عشرة و ستّمائة، و قد ذكرنا ابتداء دولتهم عند ملك عمّه أسد الدين شيركوه ديار مصر سنة أربع و ستّين و خمسمائة، و لما ملك أخوه صلاح الدين يوسف بن أيّوب ديار مصر، بعد عمّه، و سار إلى الشام استخلفه [٢] بمصر ثقة به، و اعتمادا عليه، و علما بما هو عليه من توفّر العقل و حسن السيرة. فلما توفّى أخوه صلاح الدين ملك دمشق و ديار مصر، كما ذكرناه، و بقي مالكا للبلاد إلى الآن، فلما ظهر الفرنج، كما ذكرناه سنة أربع عشرة و ستّمائة، قصد هو مرج الصّفّر، فلما سار الفرنج إلى ديار مصر انتقل هو

[١] و يدخل.

[٢] يستخلفه.

(١). لما. dda.spu

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٣٥١

إلى عالقين، فأقام به، و مرض، و توفّى، و حمل إلى دمشق، فدفن بالتربة التي له بها. و كان عاقلا، ذا رأى سديد، و مكر شديد، و خديعة، صبرا، حليما، ذا أناء، يسمع ما يكره، و يغضى عليه حتّى كأنّه لم يسمعه، كثيرا الحرج «١» وقت الحاجة لا يقف في شيء و إذا لم تكن حاجة فلا.

و كان عمره خمسا و سبعين سنة و شهورا لأنّ مولده كان في المحرم من سنة أربعين و خمسمائة، و ملك دمشق في شعبان سنة اثنتين و تسعين و خمسمائة [من الأفضل ابن أخيه، و ملك مصر في ربيع الآخر من سنة ستّ و تسعين] «٢» منه أيضا. و من أعجب ما رأيت من منافاة الطوالع أنّه لم يملك الأفضل مملكة قطّ إلّا و أخذها منه عمّه العادل، فأول ذلك أنّ صلاح الدين أقطع ابنه الأفضل حرّان، و الرها، و ميفارقين، سنة ستّ و ثمانين، بعد وفاة تقي الدين، فسار إليها، فلما وصل إلى حلب أرسل أبوه الملك العادل بعده، فردّه من حلب، و أخذ هذه البلاد منه.

ثمّ ملك الأفضل بعد وفاة أبيه مدينه دمشق فأخذها منه، ثمّ ملك مصر بعد وفاة أخيه الملك العزيز فأخذها أيضا منه، ثمّ ملك صرخد فأخذها منه.

و أعجب من هذا أننى رأيت بالبيت المقدس سارية من الرخام ملقاة في بيعه صهيون، ليس مثلها، فقال القس الذى بالبيعة: هذه كان قد أخذها الملك الأفضل لينقلها إلى دمشق، ثم إن العادل أخذها بعد ذلك من الأفضل، طلبها منه فأخذها. و هذا غاية «٣»، و هو من أعجب ما يحكى.

و كان العادل قد قسم البلاد في حياته بين أولاده، فجعل بمصر الملك الكامل

(١). كثير الخرج. A.

(٢). P.C.

(٣). غاية في الطوالع. B.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٣٥٢

محمّدا، و بدمشق، و القدس، و طبرية، و الأردنّ و الكرك و غيرها من الحصون المجاورة لها، ابنه المعظم عيسى، و جعل بعض ديار الجزيرة و ميفارقين و خلاط و أعمالها لابنه الملك الأشرف موسى، و أعطى الزها لولده شهاب الدين غازي، و أعطى قلعة جعبر لولده الحافظ أرسلان شاه، فلمّا توفى ثبت كلّ منهم في المملكة التي أعطاه «١» أبوه، و اتفقوا اتفاقا حسنا لم يجر بينهم من الاختلاف ما جرت العادة أن يجرى بين أولاد الملوك بعد آبائهم، بل كانوا كالنفس الواحدة، كلّ منهم يثق بالآخر [١] بحيث يحضر عنده منفردا من عسكره و لا يخافه، فلا جرم زاد ملكهم، و رأوا من نفاذ الأمر و الحكم ما لم يره أبوهم. و لعمري إنهم نعم الملوك، فيهم الحلم، و الجهاد، و الذبّ عن الإسلام، و في نوبة دمياط كفاية، و أمّا الملك الأشرف «٢» فليس للمال عنده محلّ، بل يطره مطرا كثيرا لعفته عن أموال الرعيّة، دائم الإحسان، لا يسمع سعاية ساع.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة، في ذى القعدة، رحل الملك الكامل بن العادل عن أرض دمياط، لأنّه بلغه أنّ جماعة من الأمراء قد اجتمعوا على تملك أخيه الفائز عوضه، فخافهم، ففارق منزلته، فانتقل الفرنج إليها، و حصروا حينئذ دمياط

[١] إلى الآخر.

(١). أعطاه لها. B.

(٢). الأشرف فإنه كريم. A.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٣٥٣

برا و بحرا، و تمكّنوا من ذلك، و قد تقدّم مستقصى سنه أربع عشرة و ستمائة. و فيها «١»، في المحرم، توفى شرف الدين محمّد بن علوان بن مهاجر، الفقيه الشافعي، و كان مدرّسا في عدّة مدارس بالموصل، و كان صالحا كثير الخير و الدين، سليم القلب، رحمه الله. و فيها توفى عزّ الدين نجاح الشرابي خاصّ الخليفة، و أقرب الناس إليه، و كان الحاكم في دولته، كثير العدل و الإحسان و المعروف و العصبية للناس، و أمّا عقله و تدبيره فإليه كانت النهاية و به يضرب المثل. و فيها توفى عليّ بن نصر بن هارون أبو الحسن الحلّي، النحوي، الملقّب بالحجّة، قرأ على ابن الخشاب و غيره.

(١).menifsitipacda. و فيها a.mo

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٣٥٤

٦١٦ ثم دخلت سنة ست عشرة و ستمائة**ذكر وفاة كيكافوس و ملك كيقباز أخيه**

في هذه السنة توفي الملك الغالب عز الدين كيكافوس بن كيخسرو بن قلعج أرسلان، صاحب قونية، و أقصرا و ملطية و ما بينهما من بلد الروم، و كان قد جمع عساكره، و حشد، و سار إلى ملطية على قصد بلاد الملك الأشرف لقاعدة استقرت بينه و بين ناصر الدين، صاحب آمد، و مظفر الدين، صاحب إربل، و كانوا قد خطبوا له، و ضربوا اسمه على السكة في بلادهم، و اتفقوا على الملك الأشرف و بدر الدين بالموصل.

فسار كيكافوس إلى ملطية ليمنع الملك الأشرف بها [١] عن المسير إلى الموصل نجدة لصاحبها بدر الدين، لعل مظفر الدين يبلغ من الموصل غرضاً، و كان قد علق به السل، فلما اشتد مرضه عاد عنها، فتوفي و ملك بعده أخوه كيقباز، و كان محبوساً، قد حبسه أخوه كيكافوس لما أخذ البلاد منه، و أشار عليه بعض أصحابه بقتله، فلم يفعل، فلما توفي لم يخلف ولدا يصلح للملك لصغرهم، فأخرج الجند كيقباز و ملكوه. و من بُغِيَ عَلَيْهِ لِيُنْصَرَّتْهُ اللَّهُ «١».

و قيل بل أرسل كيكافوس لما اشتد مرضه، فأحضره عنده من السجن،

[١] - به.

(١). ٥٩ خ ٢٢. roc

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٣٥٥

و وصي له بالملك و حلف الناس له، فلما ملك خالفه عمه صاحب أرزن الروم، و خاف أيضا من الروم المجاورين لبلاده، فأرسل إلى الملك الأشرف و صالحه، و تعاهدا على المصافاة و التعاضد، و تصاهرا، و كفى الأشرف شر تلك الجهة، و تفرغ باله لإصلاح ما بين يديه، و لقد صدق القائل: لا جد إلا ما أقعص عنك الرجال، و كأنه بقوله أراد: و جدك طعان «١» بغير سنان. و هذا ثمره حسن التية، فإنه حسن التية لرعيته و أصحابه، كاف عن أذى يتطرق إليهم منه، غير قاصد إلى البلاد المجاورة لبلاده بأذى و ملك مع ضعف أصحابها و قوته، لا جرم تأتيه البلاد صفوا عفوا.

ذكر موت صاحب سنجان و ملك ابنه ثم قتل ابنه و ملك أخيه

و في هذه السنة، ثامن صفر، توفي قطب الدين محمد بن زكي بن مودود ابن زكي، صاحب سنجان، و كان كريماً، حسن السيرة في رعيته، حسن المعاملة مع التجار، كثير الإحسان إليهم، و أما أصحابه فكانوا معه في أرغد عيش يعمهم بإحسانه، و لا يخافون أذاه، و كان عاجزاً عن حفظ بلده، مسلماً الأمور إلى نوابه.

و لما توفي ملك بعده ابنه عماد الدين شاهنشاه، و ركب الناس معه، و بقي مالكا لسنجان عدة شهور، و سار إلى تل أعفر و هي له، فدخل عليه أخوه عمر بن محمد بن زكي، و معه جماعة، فقتلوه، و ملك أخوه عمر بعده فبقى كذلك إلى أن سلم سنجان إلى الملك الأشرف، على ما ذكره إن شاء الله تعالى،

(١). وجد كطعان.A

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٣٥٦
و لم يمتّع بملكه الذي قطع رحمه، و أراق الدم الحرام لأجله.
و لما سلّم سنجار أخذ عوضها الرّقة، ثم أخذت منه عن قريب، و توفّي بعد أخذها منه بقليل، و عدم روحه و شبابه. و هذه عاقبة قطيعه
الرحم، فإنّ صلتها تزيد في العمر و قطيعتها تهدم العمر.

ذكر إجلاء بنى معروف عن البطائح و قتلهم

في هذه السنة، في ذى القعدة، أمر الخليفة الناصر لدين الله الشريف معداً [١]، متولّي بلاد واسط، أن يسير إلى قتال بنى معروف،
فتجهّز، و جمع معه من الرجاله من تكريت، و هيت، و الحديثه، و الأنبار، و الحلّه، و الكوفة، و واسط، و البصرة، و غيرها، خلقاً كثيراً، و
سار إليهم، و مقدّمهم حيثنّد معلّى بن معروف، و هم قوم من ربيعة.
و كانت بيوتهم غربى الفرات [٢]، تحت سورها، و ما يتّصل بذلك من البطائح «١»، و كثر فسادهم و أذاهم لما يقاربهم من القرى، و
قطعوا الطريق، و أفسدوا في «٢» النواحي المقاربة لبطيحة العراق، فشكا أهل تلك البلاد إلى الديوان منهم، فأمر معداً أن يسير إليهم في
الجموع، فسار إليهم، فاستعدّ بنو معروف لقتاله، فاقتتلوا بموضع يعرف بالمقبر، و هو تلّ كبير بالبطيحة بقرب العراق، و كثر القتل
بينهم، ثم انهزم بنو معروف، و كثر القتل فيهم،

[١] معد.

[٢] الفراء.

(١). إلى البطائح.B

(٢). في.B.mo

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٣٥٧
و الأسر، و الغرق، و أخذت أموالهم، و حملت رعوس كثيرة من «١» القتلى إلى بغداد في ذى الحجة من السنة.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة، في المحرم، انهزم عماد الدين زنكى من عسكر بدر الدين.
و فيها، في العشرين من رجب، انهزم بدر الدين من مظفر الدين، صاحب إربل، و عاد مظفر الدين إلى بلده، و قد تقدّم ذلك مستوفى
في سنة خمس عشرة و ستّمائة.
و فيها، ثامن صفر، توفّي قطب الدين محمد بن زنكى بن مودود ابن زنكى، صاحب سنجار، و ملك بعده ابنه شاهنشاه.
و فيها، في التاسع و العشرين من شعبان، ملك الفرنج مدينة دمياط، و قد ذكر سنة أربع عشرة [و ستّمائة] مشروحاً.
و فيها توفّي افتخار الدين عبد المطلب بن الفضل الهاشمي العباسي، الفقيه الحنفي، رئيس الحنفية بحلب، روى الحديث عن عمر
البسطاميّ نزيل بلخ، و عن أبي سعد السمعانيّ و غيرهما.
و فيها توفّي أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري، الضرير، النحويّ و غيره.

وفيهما توفي أبو الحسن علي بن أبي محمد القاسم بن علي بن الحسن بن عبد الله الدمشقي، الحافظ ابن الحافظ، المعروف بابن عساكر، وكان قد قصد خراسان وسمع بها الحديث فأكثر، وعاد إلى بغداد، فوقع على القفل حرامية، فجرح، وبقي ببغداد، وتوفي في جمادى الأولى، رحمه الله.

(١). كثيرة من mo.B.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٣٥٨

٦١٧ ثم دخلت سنة سبع عشرة وستمائة

ذكر خروج التتر إلى بلاد الإسلام

لقد بقيت عدة سنين معرضا عن ذكر هذه الحادثة استعظاما لها، كارها لذكرها، فأنا أقدم إليه [رجلا] وأؤخر أخرى، فمن الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين، ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك؟ فيا ليت أمي لم تلدني، ويا ليتني مت قبل حدوثها و كنت نسيا منسيا، إلا أنني حثني جماعة من الأصدقاء على تسطيرها وأنا متوقف، ثم رأيت أن ترك ذلك لا يجدي نفعا، فنقول: هذا «١» الفعل يتضمن ذكر الحادثة العظمى، والمصيبة الكبرى التي عقت الأيام «٢» والليالي عن مثلها، عمت الخلائق، وخصت المسلمين، فلو قال قائل: إن العالم مذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم، وإلى الآن، لم يتلوا بمثلها، لكان صادقا، فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها.

ومن أعظم ما يذكرون من الحوادث ما فعله بخت نصير بنى إسرائيل من القتل، وتخریب البيت المقدس، وما البيت المقدس بالنسبة إلى ما خرب هؤلاء الملاعين من البلاد، التي كل مدينة منها أضعاف البيت المقدس، وما بنو إسرائيل بالنسبة إلى من قتلوا، فإن أهل مدينة واحدة ممن قتلوا أكثر

(١). إن هذا.B

(٢) عقت الأيام.A

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٣٥٩

من بنى إسرائيل، ولعل الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة إلى أن ينقرض [١] العالم، وتفتني الدنيا، إلا بأجوج ومأجوج. وأما الدجال فإنه يبقى على من اتبعه، ويهلك من خالفه، وهؤلاء لم يبقوا على أحد، بل قتلوا النساء والرجال والأطفال، وشقوا بطون الحوامل، وقتلوا الأجنة، فإنا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

لهذه الحادثة التي استطار شررها، وعم ضررها، وسارت في البلاد كالسحاب استدبته الرياح، فإن قوما خرجوا من أطراف الصين، فقصدوا بلاد تركستان مثل كاشغر وبلاساغون، ثم منها إلى بلاد ما وراء النهر، مثل سمرقند وبخارى وغيرهما، فيملكونها، ويفعلون بأهلها ما نذكره، ثم تعبر طائفة منهم إلى خراسان، فيفرغون منها ملكا، وتخريبها، وقتلها، ونهبها، ثم يتجاوزونها إلى الرى، وهمذان، و بلد الجبل وما فيه من البلاد «١» إلى حد العراق، ثم يقصدون بلاد أذربيجان وأرائية، ويخربونها، ويقتلون أكثر أهلها، ولم ينج إلا الشريد النادر في «٢» أقل من سنة، هذا ما لم يسمع بمثله.

ثم لما فرغوا من أذربيجان وأرائية ساروا إلى دربند شروان فملكوا مدنه، ولم يسلم غير القلعة التي بها ملكهم، وعبروا عندها إلى بلد اللان، واللكز، ومن في ذلك الصقع من الأمم المختلفة، فأوسعوهم [٢] قتلا، ونهبها، وتخريبها، ثم قصدوا بلاد قفجاق، وهم من أكثر

الترك عددا، فقتلوا

[١] يتعرّض.

[٢] فأوسعهم.

(١). و ما ... البلاد. mo A.

(٢). النافر فى. A.

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٣٦٠

كل من وقف لهم، فهرب الباقون إلى الغياض و رؤوس الجبال، و فارقوا بلادهم، و استولى هؤلاء التتر عليها، ففعلوا هذا فى أسرع زمان، لم يلبثوا إلّا بمقدار مسيرهم لا غير. و مضى طائفة أخرى غير هذه الطائفة إلى غزنه و أعمالها، و ما يجاورها من بلاد الهند و سجستان و كرمان، ففعلوا فيه مثل فعل هؤلاء و أشدّ.

هذا ما لم يطرق الأسماع مثله، فإنّ الإسكندر الذى اتفق المؤرخون على أنّه ملك الدنيا لم يملكها فى هذه السرعة، إنّما ملكها فى نحو عشر سنين، و لم يقتل أحدا، إنّما رضى من الناس بالطاعة، و هؤلاء قد ملكوا أكثر المعمور من الأرض و أحسنه، و أكثره عمارة و أهلا، و أعدل أهل الأرض أخلاقا و سيرة، فى نحو سنه، و لم يبق أحد فى البلاد التى لم يطرقوها إلّا و هو خائف يتوقّعهم، و يترقب وصولهم إليه.

ثمّ إنّهم لا يحتاجون إلى ميرة و مدد يأتهم، فإنّهم معهم الأغنام، و البقر، و الخيل، و غير ذلك من الدوابّ، يأكلون لحومها لا غير، و أمّا دوابّهم التى يركبونها فإنّها تحفر الأرض بحوافرها، و تأكل عروق النبات لا تعرف الشعير، فهم إذا نزلوا منزلا لا يحتاجون إلى شىء من خارج.

و أمّا ديانتهم، فإنّهم يسجدون للشمس عند طلوعها، و لا يحرمون شيئا، فإنّهم يأكلون جميع الدوابّ، حتّى الكلاب، و الخنازير، و غيرها، و لا يعرفون نكاحا بل المرأة يأتها غير واحد من الرجال، فإذا جاء الولد لا يعرف أباه.

و لقد بلى الإسلام و المسلمون فى هذه المدة بمصائب لم يبتل بها أحد من الأمم، منها هؤلاء التتر، قبحهم الله، أقبلوا من المشرق، ففعلوا الأفعال التى يستعظمها كلّ من سمع بها، و سترها مشروحة متّصلة، إن شاء الله تعالى.

و منها خروج الفرنج، لعنهم الله، من المغرب إلى الشام، و قصدهم ديار

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٣٦١

مصر، و ملكهم ثغر دمياط منها، و أشرفت ديار مصر و الشام و غيرها على أن يملكوها لو لا لطف الله تعالى و نصره عليهم، و قد ذكرناه سنه أربع عشرة و ستّمائة.

و منها أن الّذى سلم من هاتين الطائفتين فالسيف بينهم مسلول، و الفتنة قائمة على ساق، و قد ذكرناه أيضا، ف إنّنا لله و إنّنا إليه راجعون، نسأل الله أن ييسّر للإسلام و المسلمين نصرا من عنده، فإنّ الناصر، و المعين، و الذابّ عن الإسلام معدوم، و إذا أراد الله بقوم سوء فلا مردّ له و ما لهم من دونه من وال، فإنّ هؤلاء التتر إنّما استقام لهم هذا الأمر لعدم المانع.

و سبب عدمه أنّ خوارزم شاه محمّدا كان قد استولى على البلاد، و قتل ملوكها، و أفناهم، و بقى هو وحده سلطان البلاد جميعها، فلمّا انهزم منهم لم يبق فى البلاد من يمنعهم، و لا من يحميها ليقتضى الله أمرا كان مفعولا، و هذا حين نذكر ابتداء خروجهم إلى البلاد.

ذكر خروج التتر إلى تركستان و ما وراء النهر و ما فعلوه

في هذه السنة ظهر التتر إلى بلاد الإسلام، وهم نوع كثير من الترك، و مساكنهم جبال طمغاج من نحو الصين، و بينها و بين بلاد الإسلام ما يزيد على ستّة أشهر.

و كان السبب في ظهورهم أنّ ملكهم، و يسمّى بجنكزخان، المعروف بتموجين، كان قد فارق بلاده و سار إلى نواحي تركستان، و سیر جماعة من التجار و الأتراك، و معهم شيء كثير من النّقرة و القندر و غيرهما،

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٣٦٢

إلى بلاد ما وراء النهر سمرقند و بخارى ليشتروا له «١» ثيابا للكسوة.

فوصلوا إلى مدينة من بلاد الترك تسمّى أوترار، و هي آخر ولاية خوارزم شاه، و كان له نائب هناك، فلمّا ورد عليه هذه الطائفة من التتر أرسل إلى خوارزم شاه يعلمه بوصولهم و يذكر له ما معهم من الأموال، فبعث إليه خوارزم شاه يأمره بقتلهم و أخذ ما معهم من الأموال و إنفاذه إليه، فقتلهم، و سیر ما معهم، و كان شيئا كثيرا، فلمّا وصل إلى خوارزم شاه فرّقه على تجار بخارى، و سمرقند، و أخذ ثمنه منهم.

و كان بعد أن ملك ما وراء النهر من الخطا قد سدّ الطرق عن بلاد تركستان و ما بعدها من البلاد، و إنّ طائفة من التتر أيضا كانوا قد خرجوا قديما و البلاد للخطأ، فلمّا ملك خوارزم شاه البلاد بما وراء النهر من الخطا، و قتلهم، و استولى هؤلاء التتر على تركستان: كاشغار، و بلاساغون و غيرهما، و صاروا يحاربون عساكر خوارزم شاه، فلذلك منع الميرة عنهم من الكسوات و غيرها.

و قيل في سبب خروجهم إلى بلاد الإسلام غير ذلك ممّا لا يذكر في بطون الدفاتر «٢»:

فكان ما كان ممّا لست أذكره فظنّ خيرا و لا- تسأل عن الخبر فلمّا قتل نائب خوارزم شاه أصحاب جنكزخان أرسل جواسيس إلى جنكزخان لينظر ما هو، و كم مقدار ما معه من التّرك، و ما يريد أن يعمل، فمضى الجواسيس، و سلّكوا المفازة و الجبال التي على طريقهم، حتّى وصلوا إليه، فعادوا بعد مدّة طويلة و أخبروه بكثرة عددهم، و أنّهم يخرجون عن الإحصاء، و أنّهم من أصبر خلق الله على القتال لا- يعرفون هزيمة، و أنّهم يعملون ما يحتاجون إليه من السلاح بأيديهم، فندم خوارزم شاه على قتل أصحابهم و أخذ أموالهم، و حصل عنده فكر زائد، فأحضر الشهاب الخيوقي، و هو فقيه

(١). به. A.

(٢). الدفاتر و الأوراق. B.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٣٦٣

فاضل، كبير المحلّ عنده، لا يخالف ما يشير به، فحضر عنده، فقال له:

قد حدث أمر عظيم لا بدّ من الفكر فيه و أخذ [١] رأيك في الذي نفعله، و ذاك أنّه قد تحرّك إلينا خصم من ناحية الترك في كثرة لا تحصى.

فقال له: في عساكر كثره و نكاتب الأطراف، و تجمع العساكر، و يكون النفير عاما، فإنّه يجب على المسلمين كافّة مساعدتك بالمال و النفس، ثمّ نذهب بجميع العساكر إلى جانب سيحون، و هو نهر كبير يفصل بين بلاد الترك و بلاد الإسلام، فنكون هناك، فإذا جاء العدو، و قد سار مسافة بعيدة، لقيناه و نحن مستريحون، و هو و عساكره قد مسّهم التّصب و التعب.

فجمع خوارزم شاه أمراءه و من عنده من أرباب المشورة، فاستشارهم، فلم يوافقوه على رأيه، بل قالوا: الرأى أن نتركهم يعبرون سيحون إلينا، و يسلكون هذه الجبال و المضائق، فإنّهم جاهلون بطرقهم، و نحن عارفون بها، فنقوى حينئذ عليهم، و نهلكهم فلا ينجو منهم أحد.

فبينما هم كذلك إذ ورد رسول من هذا اللعين جنكزخان معه جماعة يتهدد خوارزم شاه، و يقول: تقتلون أصحابي و تخياري و تأخذون مالي منهم! استعدوا للحرب فإنني واصل إليكم بجمع لا قبل لكم به.

و كان جنكزخان قد سار إلى تركستان، فملك كاشغار، و بلاساغون، و جميع تلك البلاد، و أزال عنها التتر الأولى، فلم يظهر لهم خبر، و لا- بقي لهم أثر، بل بادوا كما أصاب الخطأ، و أرسل الرسالة المذكورة إلى خوارزم شاه، فلما سمعها خوارزم شاه أمر بقتل رسوله، فقتل، و أمر بحلق لحي [٢] الجماعة الذين كانوا معه، و أعادهم إلى أصحابهم جنكزخان يخبرونه بما فعل

[١] فأخذ.

[٢] لحا.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٣٦٤

بالرسول، و يقولون له: إن خوارزم شاه يقول لك: انا «١» سائر إليك و لو أنك في آخر الدنيا، حتى أنتقم، و أفعل بك كما فعلت بأصحابك.

و تجهز خوارزم شاه، و سار بعد الرسول مبادرا ليسبق خبره و يكبسهم، فأدمن السير، فمضى، و قطع مسيرة أربعة أشهر، فوصل إلى بيوتهم، فلم ير فيها إلا النساء و الصبيان و الأثقال، فأوقع بهم و غنم الجميع، و سبي النساء و الذرية.

و كان سبب غيبة الكفار عن «٢» بيوتهم أنهم ساروا إلى محاربة ملك من ملوك الترك يقال له كشلوخان «٣»، فقاتلوه، و هزموه، و غنموا أمواله و عادوا، فلقبهم في الطريق الخبر بما فعل خوارزم شاه بمخلفيهم، فجدوا السير، فأدركوه قبل أن يخرج عن بيوتهم، و تصافوا للحرب، و اقتتلوا قتالا لم يسمع بمثله، فبقوا في الحرب ثلاثة أيام بلياليها، فقتل من الطائفتين ما لا يعد، و لم ينهزم أحد منهم.

أما المسلمون فإنهم صبروا حمية للدين، و علموا أنهم إن انهزموا لم يبق للمسلمين باقية، و أنهم يؤخذون لبعدهم عن بلادهم.

و أما الكفار فصبروا لاستنقاذ أهليهم و أموالهم، و اشتد بهم الأمر، حتى إن أحدهم كان ينزل عن فرسه و يقاتل قرنه راجلا و يتضاربون بالسكاكين، و جرى الدم على الأرض، حتى صارت الخيل تزلق من كثرتهم، و استنفذ الطائفتان وسعهم في الصبر و القتال.

هذا القتال جميعه مع ابن جنكزخان و لم يحضر أبوه الوقعة، و لم يشعر بها، فأحصى من قتل من المسلمين في هذه الوقعة فكانوا عشرين ألفا، و أما من الكفار فلا يحصى من قتل منهم.

فلما كان الليلة الرابعة افترقوا، فنزل بعضهم مقابل بعضهم، فلما أظلم

(١). يقول لك أنا. B. mo

(٢) التتر عن. A

(٣). كشلي خان. A; B. p.s

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٣٦٥

الليل أوقد الكفار نيرانهم و تركوها بحالها و ساروا، و كذلك فعل المسلمون أيضا، كل منهم سئم القتال، فأما الكفار فعادوا إلى ملكهم جنكزخان، و أما المسلمون فرجعوا إلى بخارى، فاستعد للحصار لعلمه بعجزه، لأن طائفة عسكره لم يقدر خوارزم شاه على أن يظفر بهم، فكيف إذا جاءوا جميعهم مع ملكهم؟ فأمر أهل بخارى و سمرقند بالاستعداد [١] للحصار، و جمع الذخائر للامتناع، و جعل في بخارى عشرين ألف فارس من العسكر يحمونها، و في سمرقند خمسين ألفا، و قال لهم: احفظوا البلد حتى أعود إلى خوارزم و خراسان و أجمع العساكر و أستنجد بالمسلمين و أعود إليكم.

فلما فرغ من ذلك رحل عائدا إلى خراسان، فعبر جيحون، و نزل بالقرب من بلخ فعسكر هناك.

و أمّا الكفّار فإنّهم رحلوا بعد أن استعدّوا يطلبون ما وراء النهر، فوصلوا إلى بخارى بعد خمسة أشهر من وصول خوارزم شاه، و حصروها، و قاتلوا ثلاثه أيام قتالا شديدا «١» متتابعاً، فلم يكن للعسكر الخوارزمي بهم قوّة، ففارقوا البلد عائدين إلى خراسان، فلمّا أصبح أهل البلد و ليس عندهم من العسكر أحد ضعفت نفوسهم، فأرسلوا القاضي، و هو بدر الدين «٢» قاضي خان، ليطلب الأمان للناس، فأعطوهم الأمان.

و كان قد بقي من العسكر طائفة لم يمكنهم الهرب مع أصحابهم، فاعتصموا بالقلعة، فلمّا أجابهم جنكزخان إلى الأمان فتحت أبواب المدينة يوم الثلاثاء رابع ذى الحجة من سنة ستّ عشرة و ستمائة، فدخل الكفّار «٣» بخارى، و لم يتعرّضوا لأحد «٤» بل قالوا لهم: كلّ ما هو للسلطان عندكم

[١] بالاستعداد.

(١). شديدا. A. mo

(٢). الدين بن. A.

(٣-٤). فدخل التتر. A.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٣٦٦

من ذخيرة و غيره أخرجه إلينا، و ساعدونا على قتال من بالقلعة، و أظهروا عندهم العدل و حسن السيرة، و دخل جنكزخان بنفسه و أحاط بالقلعة، و نادى فى البلد بأن لا يتخلّف أحد و من تخلف قتل، فحضرهم جميعهم، فأمرهم بطمّ الخندق، فطمّوه بالأخشاب و التراب و غير ذلك، حتّى إنّ الكفّار كانوا يأخذون المنابر و ربعات القرآن فيلقونها فى الخندق، ف إنّنا لله و إنّنا إليه راجعون، و بحقّ سمّى الله نفسه صبورا حليما، و إلّا كان خسف بهم الأرض عند فعل مثل هذا.

ثمّ تابعوا الزحف إلى القلعة و بها نحو أربع مائة فارس من المسلمين، فبذلوا جهدهم، و منعوا القلعة اثني عشر يوما يقاتلون جمع الكفّار و أهل البلد، فقتل بعضهم، و لم يزلوا كذلك حتّى زحفوا إليهم، و وصل النّقابون إلى سور القلعة فنقبوه، و اشتدّ حينئذ القتال، و من بها من المسلمين يرمون ما يجدون من حجارة و نار و سهام، فغضب اللعين، و ردّ أصحابه ذلك اليوم، و باكرهم من الغد، فجدّوا فى القتال، و قد تعب من بالقلعة و نصبوا، و جاءهم ما لا قبل لهم به، فقهرهم الكفّار و دخلوا القلعة، و قاتلهم المسلمون الذين فيها حتّى قتلوا عن آخرهم، فلمّا فرغ من القلعة نادى أن يكتب له وجوه التّياس و رؤسائهم، ففعلوا ذلك، فلمّا عرضوا عليه أمر بإحضارهم فحضرهم، فقال: أريد منكم التّقرة التى باعكم خوارزم شاه، فإنّها لى، و من أصحابى أخذت، و هى عندكم.

فأحضر كلّ من كان عنده شىء منها بين يديه، ثمّ أمرهم بالخروج من البلد، فخرجوا من البلد مجرّدين من أموالهم، ليس مع أحد منهم غير ثيابه التى عليه، و دخل الكفّار البلد فنهبوه و قتلوا من وجدوا فيه، و أحاط بالمسلمين، فأمر أصحابه أن يقتسموهم، فاقسموهم.

و كان يوما عظيما من كثرة البكاء من الرجال و النساء و الولدان، و تفرّقوا

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٣٦٧

أيدي سبا، و تمزّقوا كلّ ممزّق، و اقتسموا النساء أيضا، و أصبحت بخارى خاوية على عروشها كأن لم تغن بالأمس، و ارتكبوا من النساء العظيم، و الناس ينظرون و يبكون، و لا يستطيعون أن يدفعوا عن أنفسهم شيئا ممّا نزل بهم، فمنهم من لم يرض بذلك، و اختار الموت على ذلك، فقاتل حتّى قتل، و ممّن فعل ذلك و اختار أن يقتل و لا يرى ما نزل بالمسلمين، الفقيه الإمام ركن الدين إمام زاده و ولده، فإنّهما لمّا رأيا ما يفعل بالحرّم قاتلا حتّى قتل.

و كذلك فعل القاضي صدر الدين خان، و من استسلم أخذ أسيرا، و ألقوا النار في البلد، و المدارس، و المساجد، و عذبوا الناس بأنواع العذاب في طلب المال، ثم رحلوا نحو سمرقند و قد تحققوا عجز خوارزم شاه عنهم، و هم بمكانه بين ترمذ و بلخ، و استصحبوا معهم من سلم من أهل بخارى أسارى، فساووا بهم مشاة على أقبح صورة، فكل من أعي و عجز عن المشي قتلوه، فلما قاربوا سمرقند قدّموا الخيالة، و تركوا الرّجاله و الأسارى و الأثقال وراءهم، حتّى تقدّموا شيئا فشيئا، ليكون أربع لقلوب المسلمين، فلما رأى أهل البلد سوادهم استعظموه.

فلما كان اليوم الثاني وصل الأسارى و الرّجاله و الأثقال، و مع كلّ عشرة من الأسارى علم، فظنّ أهل البلد أنّ الجميع عساكر مقاتلة، و أحاطوا بالبلد و فيه خمسون ألف مقاتل من الخوارزميّة، و أمّا عامّة البلد فلا يحصون كثرة، فخرج إليهم شجعان أهله، و أهل الجلد و القوّة رجالة، و لم يخرج معهم من العسكر الخوارزميّ أحد لما في قلوبهم من خوف هؤلاء الملاحين، فقاتلهم الرّجاله بظاهر البلد، فلم يزل التتر يتأخرون، و أهل البلد يتبعونهم، و يطعمون فيهم، و كان الكفّار قد كمنوا لهم كميناً، فلما جاوزوا الكمين خرج عليهم و حال بينهم و بين البلد، و رجع الباقون الذين أنشبو القتال أولاً، فبقوا في الوسط، و أخذهم السيف من كلّ جانب، فلم يسلم منهم الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٣٦٨

أحد، قتلوا عن آخرهم شهداء، رضى الله عنهم [١]، و كانوا سبعين ألفاً على ما قيل. فلما رأى الباقون من الجند و العامّة ذلك ضعفت نفوسهم و أيقنوا بالهلاك، فقال الجند، و كانوا أتراكاً: نحن من جنس هؤلاء و لا يقتلوننا، فطلبوا الأمان، فأجابوهم إلى ذلك، ففتحوا أبواب البلد، و لم يقدر العامّة على منعهم، و خرجوا إلى الكفّار بأهلهم و أموالهم، فقال لهم الكفّار: ادفعوا إلينا سلاحكم و أموالكم و دوابكم و نحن نسيركم إلى مأمّنكم، ففعلوا ذلك، فلما أخذوا أسلحتهم و دوابهم وضعوا السيف فيهم و قتلوهم عن آخرهم، و أخذوا أموالهم و دوابهم و نساءهم.

فلما كان اليوم الرابع نادوا في البلد أن يخرج أهله جميعهم، و من تأخّر قتلوه، فخرج جميع «١» الرجال و النساء و الصبيان، ففعلوا مع أهل سمرقند مثل فعلهم مع أهل بخارى من النهب، و القتل، و السبي، و الفساد، و دخلوا البلد فنهبوا ما فيه، و أحرقوا الجامع و تركوا باقى البلد على حاله، و افتضّوا الأبرار، و عذبوا الناس بأنواع العذاب في طلب المال، و قتلوا من لم يصلح للسبي، و كان ذلك في المحرم سنة سبع عشرة و ستّمائة.

و كان خوارزم شاه بمنزلته كلّما اجتمع إليه عسكر سيّره إلى سمرقند، فيرجعون و لا- يقدرّون على الوصول إليها، نعوذ بالله من الخذلان، سيّر مرّة عشرة آلاف فارس فعادوا كالمنهزمين من غير قتال، و سيّر عشرين ألفاً فعادوا أيضاً.

[١] منهم.

(١). الجميع. B. جميع. A. mo

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٣٦٩

ذكر مسير التتر الكفّار إلى خوارزم شاه و انهزامه و موته

لَمّا ملك الكفّار سمرقند عمد جنكزخان، لعنه الله، و سيّر عشرين ألف فارس، و قال لهم: اطلبوا خوارزم شاه أين كان، و لو تعلق بالسماء، حتّى تدركوه و تأخذوه.

و هذه الطائفة تسمّيها التتر المغربة «١» لأنّها سارت نحو غرب خراسان ليقع الفرق بينهم و بين غيرهم منهم، لأنّهم هم الذين أوغلوا في البلاد، فلما أمرهم جنكزخان بالمسير ساروا و قصدوا موضعاً يسمّى بنج [١] آب، و معناه خمسة [٢] مياه، فوصلوا إليه، فلم يجدوا

هناك سفينة، فعملوا من الخشب مثل الأحواض «٢» الكبار و ألبسوها جلود البقر لئلا يدخلها [٣] الماء، و وضعوا فيها سلاحهم و أمتعتهم و ألقوا الخيل في الماء، و أمسكوا أذنايها، و تلك الحياض التي من الخشب مشدودة إليهم، فكان الفرس يجذب الرجل و الرجل يجذب الحوض المملوء من السلاح و غيره، فعبروا كلهم دفعة واحدة، فلم يشعر خوارزم شاه إلا و قد صاروا معه على أرض واحدة.

و كان المسلمون قد ملئوا منهم رعبا و خوفا، و قد اختلفوا فيما بينهم، إلا أنهم كانوا يتماسكون بسبب أن نهر جيحون بينهم، فلما عبروه إليهم لم يقدروا على الثبات، و لا على المسير مجتمعين، بل تفرقوا أيدي سبا، و طلب

[١]- فنج.

[٢]- خمس.

[٣]- يدخاها.

(١). المغريبة. A.

(٢). مثل الحياض. A.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٣٧٠

كل طائفة منهم جهة، و رحل خوارزم شاه لا يلوى على شيء في نفر من خاصيته، و قصدوا نيسابور «١»، فلما دخلها اجتمع عليه بعض العسكر، فلم يستقر حتى وصل أولئك التتر إليها.

و كانوا لا يتعزّضون في مسيرهم لشيء لا ينهب و لا قتل بل يجدّون السير في طلبه لا يمهّلونه حتى يجمع لهم، فلما سمع بقربهم منه رحل إلى مازندران، و هي له أيضا، فرحل التتر المغربون في أثره، و لم يعرجوا على نيسابور بل تبعوه، فكان كلما رحل عن منزلة نزّلوها، فوصل إلى مرسى من بحر طبرستان يعرف بباب سكون، و له هناك قلعة في البحر، فلما نزل هو و أصحابه في السفن وصلت التتر، فلما رأوا خوارزم شاه و قد دخل البحر وقفوا على ساحل البحر، فلما أيسوا من لحاق خوارزم شاه رجعوا، فهم الذين قصدوا الرّي و ما بعدها، على ما ذكره إن شاء الله.

هكذا ذكر لي بعض الفقهاء ممّن كان ببخارى و أسروه معهم إلى سمرقند، ثمّ نجا منهم و وصل إلينا، و ذكر غيره من التجار أنّ خوارزم شاه سار من مازندران حتى وصل إلى الرّي، ثمّ منها إلى همذان، و التتر في أثره، ففارق همذان في نفر يسير، جريده، ليستر نفسه و يكتم خبره، و عاد إلى مازندران و ركب في البحر إلى هذه القلعة.

و كان هذا هو الصحيح، فإنّ الفقيه كان حينئذ مأسورا، و هؤلاء التجار أخبروا أنّهم كانوا بهمذان، و وصل خوارزم شاه، ثمّ وصل بعده من أخبره بوصول التتر، ففارق همذان، و كذلك أيضا هؤلاء التجار فارقوها، و وصل التتر «٢» إليها بعدهم ببعض نهار، فهم يخبرون عن مشاهدته، و لما وصل خوارزم شاه إلى هذه القلعة المذكورة توفّي فيها.

(١). و قصد نشاور. A.

(٢). ففارق ... و وصل التتر. B. mo

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٣٧١

ذكر صفة خوارزم شاه و شيء من سيرته

هو علاء الدين محمد بن علاء الدين تكش، و كان مدّة ملكه إحدى [١] وعشرين سنة و شهورا تقريبا، و اتّسع ملكه، و عظم محلّه، و أطاعه العالم بأسره، و لم يملك بعد السلجوقيّة أحد مثل ملكه، فإنّه ملك من حدّ العراق إلى تركستان، و ملك بلاد غزنه و بعض الهند، و ملك سجستان و كرمان و طبرستان و جرجان و بلاد الجبال و خراسان و بعض فارس، و فعل بالخطا الأفاعيل العظيمة، و ملك بلادهم.

و كان فاضلا، عالما بالفقه و الأصول و غيرهما، و كان مكرما للعلماء محبا لهم محسنا إليهم، يكثر مجالستهم و مناظراتهم بين يديه، و كان صبورا على التعب و إدمان السير، غير متنعّم، و لا مقبل على اللذات، إنّما همّه في الملك و تدبيره، و حفظه و حفظ رعاياه، و كان معظما لأهل الدين، مقبلا عليهم، متبرّكا بهم.

حكى لى بعض خدام حجره النّبى، صلّى الله عليه و سلّم، و قد عاد من خراسان، قال: وصلت إلى خوارزم، فنزلت و دخلت الحمام، ثم قصدت باب السلطان علاء الدين، فحين حضرت لقيني إنسان، فقال: ما حاجتك؟

فقلت له: أنا من خدم حجره النّبى، صلّى الله عليه و سلّم، فأمرني بالجلوس، و انصرف عني [قليلا]، ثم عاد إليّ و أخذني و أدخلني إلى دار السلطان، فتسلّمني منه حاجب «١» من حجاب السلطان «٢»، و قال لى: قد أعلمت السلطان

[١]- واحدا.

(١). فتسلّمني منه حاجب. B. mo

(٢). من ... السلطان. B. mo

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٣٧٢

خبرك فأمر بإحضارك عنده، فدخلت إليه و هو جالس في صدر إيوان كبير، فحين توسّطت صحن الدار قام قائما، و مشى إلى بين يديّ، فأسّرت السير فلقيته في وسط الإيوان، فأردت أن أقبل يده، فمنعني، و اعتنقني، و جلس و أجلسني إلى جانبه، و قال لى: أنت تخدم حجره النّبى، صلّى الله عليه و سلّم؟ فقلت: نعم، فأخذ يديّ و أمرّها على وجهه «١»، و سألني عن حالنا و عيشنا، و صفه المدينة، و مقدارها، و أطال الحديث معي، فلمّا خرجت من عنده قال: لو لا أنّنا على عزم السفر هذه الساعة لما ودّعتك، إنّما نريد [أن] نعبّر جيحون إلى الخطا، و هذا طريق مبارك حيث رأينا من يخدم حجره النّبى، صلّى الله عليه و سلّم، ثم ودّعني «٢» و أرسل إليّ جملة كثيرة من النفقة، و مضى، و كان منه و من الخطا ما ذكرناه، و بالجملة فاجتمع فيه ما تفرّق في غيره من ملوك العالم، رحمه الله، و لو أردنا ذكر مناقبه لطال [ذلك].

ذكر استيلاء التتر المغرّبة على مازندران

لَمّا أيس التتر المغرّبة من إدراك خوارزم شاه، عادوا [١] فقصدوا بلاد مازندران، فملكوها في أسرع وقت، مع حصانتها و صعوبة الدخول إليها، و امتناع قلاعها، فإنّها لم تزل ممتعة قديم الزمان و حديثه، حتّى إنّ المسلمين لمّا ملكوا بلاد الأكاسرة جميعها، من العراق إلى أقاصى خراسان، بقيت أعمال مازندران يؤخذ منهم «٣» الخراج، و لا يقدرّون على دخول البلاد، إلى أن ملكت

[١] فعادوا.

(١). على جسده و وجهه. B.

(٢). من يخدم ملك الحجرة الشريفة ثم ودعنى. B.

(٣). منها. A.

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٣٧٣

أيام سليمان بن عبد الملك سنة تسعين، وهؤلاء الملاعين ملكوها صفوا عفوا لأمر يريد الله تعالى.

ولما ملكوا بلد مازندران قتلوا، وسبوا، ونهبوا، وأحرقوا البلاد، ولما فرغوا من مازندران سلكوا نحو الرى، فرأوا فى الطريق والدة خوارزم شاه ونساءه، وأموالهم، وذخائرهم التى لم يسمع بمثلها من الألق النفيسة، وكان سبب ذلك أن والدة خوارزم شاه لما سمعت بما جرى على ولدها خافت، ففارقت خوارزم وقصدت نحو الرى لتصل إلى أصفهان وهمدان وبلد الجبل تمتنع فيها، فصادفوها فى الطريق، فأخذوها وما معها قبل وصولهم إلى الرى، فكان فيه ما ملأ عيونهم وقلوبهم، وما لم يشاهد الناس مثله من كل غريب من المتاع، ونفيس من الجوهر، وغير ذلك، وسيروا الجميع إلى جنكزخان بسمرقند.

ذكر وصول التتر إلى الرى وهمدان

فى سنة سبع عشرة وستمائة وصل التتر، لعنهم الله، إلى الرى فى طلب خوارزم شاه محمّد، لأنهم بلغهم أنه مضى منهزما منهم نحو الرى، فجدّوا السير فى أثره، وقد انضاف إليهم كثير من عساكر المسلمين والكفار، وكذلك أيضا من المفسدين من يريد النهب والشر، فوصلوا إلى الرى على حين غفلة من أهلها، فلم يشعروا بهم إلّا وقد وصلوا إليها، وملكوها، ونهبوها، وسبوا الحريم، واسترقوا الأطفال، وفعلوا الأفعال التى لم يسمع بمثلها، ولم يقيموا، ومضوا مسرعين فى طلب خوارزم شاه، فنهبوا فى طريقهم كلّ مدينه وقرية مرّوا عليها، وفعلوا فى الجميع أضعاف ما فعلوا فى الرى، وأحرقوا، وخربوا ووضعوا السيف فى الرجال والنساء والأطفال، فلم يبقوا على شيء.

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٣٧٤

وتموا على حالهم إلى همدان، وكان خوارزم شاه قد وصل إليها فى نفر من أصحابه، ففارقها وكان آخر العهد به، فلا يدري ما كان منه فيما حكاه بعضهم عنه، وقيل غير ذلك، وقد ذكرناه «١».

فلما قاربوا همدان خرج رئيسها ومعها الحمل من الأموال والثياب والدواب وغير ذلك، يطلب الأمان لأهل البلد، فأمنوهم «٢»، ثم فارقوها وساروا إلى زنجان ففعلوا أضعاف ذلك، وساروا ووصلوا إلى قزوین، فاعتصم أهلها منهم بمدینتهم، فقاتلوهم، وجدّوا فى قتالهم، ودخلوها عنوة بالسيف، فاقتتلوا هم وأهل البلد فى باطنه، حتّى صاروا يقتتلون بالسكاكين، فقتل من الفريقين ما لا يحصى، ثم فارقوا قزوین، فعاد القتلى من أهل قزوین، فزادوا على أربعين ألف قتيل.

ذكر وصول التتر إلى أذربيجان

لما هجم الشتاء على التتر فى همدان، وبلد الجبل، رأوا بردا شديدا، وثلجا متراكما، فساروا إلى أذربيجان، ففعلوا فى طريقهم بالقرى والمدن الصغار من القتل والنهب مثل ما تقدّم منهم، وخربوا وأحرقوا، ووصلوا إلى تبريز وبها صاحب أذربيجان أوزبك بن البهلوان، فلم يخرج إليهم، ولا حدث نفسه بقتالهم لاشتغاله بما هو بصدد من إمدان الشرب ليلا ونهارا لا يفيق، وإنما أرسل إليهم وصالحهم على مال، وثياب، ودواب، وحمل الجميع إليهم، فساروا من عنده يريدون ساحل البحر، لأنّه يكون قليل البرد، ليشتوا عليه و المراعى به كثيرة لأجل دوابهم، فوصلوا إلى موقان، وتطرقوا

(٢). فأنهم و حيث لم يعلموا خبر خوارزم شاه فارقوها. A.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٣٧٥

في طريقهم إلى بلاد الكرج، فجاء إليهم من الكرج جمع كثير من العسكر، نحو عشرة آلاف مقاتل، فقاتلوهم، فانهزمت الكرج، و قتل أكثرهم.

و أرسل الكرج إلى أوزبك، صاحب أذربيجان، يطلبون منه الصلح و الاتفاق معهم على دفع التتر، فاصطلحوا ليجتمعوا إذا انحسر الشتاء، و كذلك أرسلوا إلى الملك الأشرف ابن الملك العادل، صاحب خلاط و ديار الجزيرة، يطلبون منه الموافقة عليهم، و ظنوا جميعهم أن التتر يصبرون في الشتاء إلى الربيع، فلم يفعلوا كذلك، بل تحرّكوا و ساروا نحو بلاد الكرج، و انضاف إليهم مملوك تركي من مماليك أوزبك، اسمه أقوش، و جمع أهل تلك الجبال و الصحراء من التركمان و الأكراد و غيرهم، فاجتمع معه خلق كثير، و راسل التتر في الانضمام إليهم، فأجابوه إلى ذلك، و مالوا إليه للجنسية، فاجتمعوا و ساروا في مقدّمه التتر إلى الكرج، فملكوا حصنا من حصونهم و خرّبوها، و نهبوا البلاد و خرّبوها، و قتلوا أهلها، و نهبوا أموالهم، حتّى وصلوا إلى قرب تفليس.

فاجتمعت الكرج و خرجت بحدّها و حديدها إليهم، فلقبهم أقوش أولاً فيمن اجتمع إليه، فاقتتلوا قتالا شديدا صبروا فيه كلّهم، فقتل من أصحاب أقوش خلق كثير، و أدركهم التتر و قد تعب الكرج من القتال، و قتل منهم أيضا كثير، فلم يثبتوا للتتر، و انهزموا أقبح هزيمة، و ركبهم السيف من كلّ جانب، فقتل منهم ما لا يحصى كثرة، و كانت الوقعة في ذى القعدة من هذه السنة و نهبوا من البلاد ما كان سلم منهم.

و لقد جرى لهؤلاء التتر ما لم يسمع بمثله من قديم الزمان و حديثه: طائفه تخرج من حدود الصين لا تنقضى عليهم سنة حتّى يصل بعضهم إلى بلاد أرمينية من هذه الناحية، و يجاوزوا العراق من ناحية همذان، و تالّله لا شكّ أنّ من يجيء بعدنا، إذا بعد العهد، و يرى هذه الحادثة مسطورة ينكرها،

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٣٧٦

و يستبعدها، و الحقّ بيده، فمتى استبعد ذلك فلينظر أنّا سطرنا نحن، و كلّ من جمع التاريخ في أزماننا هذه في وقت كلّ من فيه يعلم هذه الحادثة، استوى في معرفتها العالم و الجاهل لشهر بها، يسر الله للمسلمين و الإسلام من يحفظهم و يحوطهم، فلقد دفعوا من العدو إلى عظيم، و من الملوك المسلمين إلى من لا تتعدى همته بطنه و فرجه، و لم ينل المسلمين أذى و شدّة مذ جاء النبي، صلى الله عليه و سلّم، إلى هذا الوقت مثل ما دفعوا إليه الآن.

هذا العدو الكافر التتر قد وطّأ بلاد ما وراء النهر و ملكوها و خرّبوها، و ناهيك به [سعة] بلاد، و تعدّت هذه الطائفة منهم النهر إلى خراسان فملكوها و فعلوا مثل ذلك، ثمّ إلى الرّي و بلد الجبل و أذربيجان، و قد اتّصلوا بالكرج فغلبوهم على بلادهم «١». و العدو الآخر الفرنج قد ظهروا من بلادهم في أقصى بلاد الروم، بين الغرب و الشمال، و وصلوا إلى مصر فملكوا مثل دمياط، و أقاموا فيها، و لم يقدر المسلمون على إزعاجهم عنها، و لا إخراجهم منها، و باقى ديار مصر على خطر، ف إنا لله و إنا إليه راجعون، و لا حول و لا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم.

و من أعظم الأمور على المسلمين أنّ سلطانهم خوارزم شاه محمّدا قد عدم لا يعرف حقيقة خبره، فتارة يقال مات عند همذان و أخفى موته، و تارة دخل أطراف بلاد فارس و مات هناك و أخفى موته لئلا يقصدها التتر في أثره، و تارة يقال عاد إلى طبرستان و ركب البحر، فتوفّي في جزيرة هناك، و بالجملة فقد عدم، ثمّ صحّ موته ببحر طبرستان، و هذا عظيم، إنّ مثل خراسان و عراق العجم أصبح سائبا لا مانع له، و لا سلطان يدفع عنه، و العدو يجوس البلاد، يأخذ ما أراد و يترك ما أراد، على أنّهم لم يبقوا على مدينته

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٣٧٧

إلّا خربوا كلّ ما مرّوا عليه، و أحرّقوه، و نهّبوه، و ما لا يصلح لهم أحرّقوه، فكانوا يجمعون الإبريسم تلالا و يلقون فيه النار، و كذلك غيره من الأمتعة.

ذكر ملك التتر مراغة

في صفر سنة ثمانى عشرة و ستمائة ملك التتر مدينة مراغة من أذربيجان.

و سبب ذلك أنّنا ذكرنا سنة سبع عشرة و ستمائة ما فعله التتر بالكرج، و انقضت تلك السنة و هم في بلاد الكرج، فلما دخلت سنة ثمانى عشرة و ستمائة ساروا من ناحية الكرج لأنهم رأوا أنّ بين أيديهم شوكة قويّة، و مضايق تحتاج إلى قتال و صراع، فعدّلوا عنهم، و هذه كانت عادتهم، إذا قصدوا مدينة و رأوا عندها امتناعا عدّلوا عنها، فوصلوا إلى تبريز، و صانعهم صاحبها بمال و ثياب و دوابّ، فساروا عنه إلى مدينة مراغة، فحاصروها و ليس بها صاحب يمنعها، لأنّ صاحبها كانت امرأة، و هى مقيمة بقلعة رويندز، و قد قال النّبىّ، صلّى الله عليه و سلّم: لن يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة.

فلما حاصروها قاتلهم أهلها، فنصبوا عليها المجانيق، و زحفوا إليها، و كانت عادتهم إذا قاتلوا مدينة قدّموا من معهم من أسارى المسلمين بين أيديهم يزحفون و يقاتلون، فإن عادوا قتلهم، فكانوا يقاتلون كرها، و هم المساكين، كما قيل: كالأشقر إن تقدّم ينحر و إن تأخّر يعقر، و كانوا هم يقاتلون وراء المسلمين، فيكون القتل فى المسلمين الأسارى، و هم بنجوة منه. فأقاموا عليها عدّة أيام، ثمّ ملكوا المدينة عنوة و قهرا رابع صفر، و وضعوا السيف فى أهلها، فقتل منهم ما يخرج عن الحدّ و الإحصاء، و نهّبوا كلّ ما

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٣٧٨

يصلح لهم، و ما لا يصلح لهم أحرّقوه، و اختفى بعض الناس منهم، فكانوا يأخذون الأسارى و يقولون لهم: نادوا فى الدروب أنّ التتر قد رحلوا. فإذا نادى أولئك خرج من اختفى فيؤخذ و يقتل.

و بلغنى أنّ امرأة من التتر دخلت دارا و قتلت جماعة من أهلها و هم يظنونها رجلا فوضعت السلاح و إذا هى امرأة، فقتلها رجل أخذته أسيرا، و سمعت من بعض أهلها أنّ رجلا من التتر دخل دربا فيه مائة رجل، فما زال يقتلهم واحدا واحدا حتّى أفناهم، و لم يمدّ أحد يده إليه بسوء، و وضعت الدّلة على الناس فلا يدفعون عن نفوسهم قليلا و لا كثيرا، نعوذ بالله من الخذلان.

ثمّ رحلوا عنها نحو مدينة إربل، و وصل الخبر إلينا بذلك بالموصل، فخفنا، حتّى إنّ بعض الناس همّ بالجلاء خوفا من السيف، و جاءت كتب مظفر الدين، صاحب إربل، إلى بدر الدين، صاحب الموصل، يطلب منه نجدة من العساكر، فسير إليه جمعا صالحا من عسكره، و أراد أن يمضى إلى طرف بلاده من جهة التتر، و يحفظ المضايق لئلا يجوزها أحد، فإنّها جميعها جبال و عرة و مضايق لا يقدر [أن] يجوزها إلّا الفارس بعد الفارس، و يمنعهم من الجواز إليه.

و وصلت كتب الخليفة و رسله إلى الموصل و إلى مظفر الدين يأمر الجميع بالاجتماع مع عساكره بمدينة دقوقا ليمنعوا التتر، فإنّهم ربّما عدّلوا عن جبال إربل، لصعوبتها، إلى هذه الناحية، و يطرقون العراق، فسار مظفر الدين من إربل فى صفر، و سار إليهم جمع من عسكر الموصل، و تبعهم من المتطوعة كثير.

و أرسل الخليفة أيضا إلى الملك الأشرف يأمره بالحضور بنفسه فى عساكره ليجتمع الجميع على قصد التتر و قتالهم، فاتّفق أنّ الملك المعظم ابن الملك العادل وصل من دمشق إلى أخيه الأشرف و هو بحرّان يستنجده على الفرنج الذين

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٣٧٩

بمصر، و طلب منه أن يحضر بنفسه ليسيروا كلّهم إلى مصر ليستنقذوا دمياط من الفرنج، فاعتذر إلى الخليفة بأخيه، و قوّة الفرنج، و إن

لم يتداركها، وإلا خرجت هي وغيرها، و شرع يتجهز للمسير إلى الشام ليدخل مصر. و كان ما ذكرناه من استنقاذ دمياط. فلما اجتمع مظفر الدين و العساكر بدقوقا سير الخليفة إليهم مملوكه قشتمر، و هو أكبر أمير بالعراق، و معه غيره من الأمراء، في نحو ثمانى مائة فارس، فاجتمعوا هناك ليتصل بهم باقى عسكر الخليفة «١»، و كان المقدم على الجميع مظفر الدين، فلما رأى قلّة العسكر لم يقدم على قصد التتر.

و حكى مظفر الدين قال: لما أرسل إلى الخليفة فى معنى قصد التتر قلت له: إن العدو قوى، و ليس لى من العسكر ما ألقاه به، فإن اجتمع معى [١] عشرة آلاف فارس استنقذت ما أخذ من «٢» البلاد، فأمرنى بالمسير، و وعدنى بوصول العسكر، فلما سرت لم يحضر عندى غير عدد لم يبلغوا ثمانى مائة طواشى، فأقمت، و ما رأيت المخاطرة بنفسى و بالمسلمين. و لما سمع التتر باجتماع العساكر لهم رجعوا القهقرى ظنا منهم أن العسكر يتبعهم، فلما لم يروا أحدا يطلبهم أقاموا، و أقام العسكر الإسلامى عند دقوقا، فلما لم يروا العدو يقصدهم، و لا المدد يأتيهم، تفرقوا، و عادوا إلى بلادهم.

[١] مع

(١). ليتصل ... الخليفة. A. mo

(٢). أخذوه من. A.

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٣٨٠

ذكر ملك التتر همذان و قتل أهلها

لما تفرق العسكر الإسلامى عاد التتر إلى همذان، فنزلوا بالقرب منها، و كان لهم بها شحنة يحكم فيها، فأرسلوا إليه ليطلب من أهلها مالا و ثيابا، و كانوا قد استنقذوا أموالهم فى طول المدّة، و كان رئيس همذان شريفا علويّا، و هو من بيت رئاسة قديمة لهذه المدينة، هو الذى يسعى فى أمور أهل البلد مع التتر، و يوصل إليهم ما يجمعه من الأموال، فلما طلبوا الآن منهم المال لم يجد أهل همذان ما يحملونه إليهم، فحضرُوا عند الرئيس و معه إنسان فقيه قد قام فى اجتماع الكلمة على الكفار قياما مرضيا، فقالوا لهما: هؤلاء الكفار قد أفنوا أموالنا، و لم يبق لنا ما نعطيههم، و قد هلكنا من أخذهم أموالنا، و ما يفعله النائب عنهم بنا من الهوان. و كانوا قد جعلوا بهمذان شحنة لهم يحكم فى أهلها بما يختاره، فقال الشريف:

إذا كنّا نعجز عنهم فكيف الحيلة؟ فليس لنا إلا مصانعتهم بالأموال، فقالوا له: أنت أشد علينا من الكفار! و أغلظوا له فى القول، فقال: أنا واحد منكم، فاصنعوا ما شئتم. فأشار الفقيه بإخراج شحنة التتر من البلد و الامتناع فيه، و مقاتلة التتر، فوثب العامة على الشحنة فقتلوه و امتنعوا فى البلد، فتقدم التتر إليهم و حصروهم، و كانت الأقوات متعذرة فى تلك البلاد جميعها، لخرابها، و قتل أهلها، و جلاء من سلم منهم، فلا- يقدر أحد على الطعام إلا قليلا، و أما التتر فلا يبالون بعدم الأقوات لأنهم لا يأكلون إلا اللحم، و لا تأكل دوابهم إلا نبات الأرض، حتّى إنّها تحفر بحوافرها الأرض عن عروق النبات فتأكلها.

فلما حصروا همذان قاتلهم أهلها و الرئيس و الفقيه فى أوائلهم، فقتل من

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٣٨١

التتر خلق كثير، و جرح الفقيه عدّة جراحات، و افترقوا، ثم خرجوا «١» من الغد فاقتتلوا أشد من القتال الأول، و قتل أيضا من التتر أكثر من اليوم الأول، و جرح الفقيه أيضا عدّة جراحات و هو صابر، و أرادوا أيضا الخروج، اليوم الثالث، فلم يطق الفقيه الركوب، و طلب الناس الرئيس العلوى فلم يجدوه، كان قد هرب فى سرب صنعه إلى ظاهر البلد هو و أهله إلى قلعة هناك على جبل عال فامتنع فيها.

فلما فقدته الناس بقوا حيارى لا يدرون ما يصنعون، إلّا أنّهم اجتمعت كلمتهم على القتال إلى أن يموتوا، فأقاموا فى البلد و لم يخرجوا منه.

و كان التتر قد عزموا على الرحيل عنهم لكثرة من قتل منهم، فلما لم يروا أحدا خرج إليهم من البلد طمعوا و استدّلوا على ضعف أهله، فقصدهم و قاتلوهم فى رجب من سنة ثمانى عشرة و ستمائة، و دخلوا المدينة بالسيف، و قاتلهم الناس فى الدروب، فبطل السلاح للزحمة، و اقتتلوا بالسكاكين، فقتل من الفريقين ما لا يحصىه إلّا الله تعالى، و قوى التتر على المسلمين فأفنوهم قتلا، و لم يسلم إلّا من كان عمل له نفقا يختفى فيه، و بقى القتل فى المسلمين عدّة أيام، ثم ألقوا النار فى البلد فأحرقوه و رحلوا عنه إلى مدينة أردويل «٢».

و قيل كان السبب فى ملكها أنّ أهل البلد لما شكوا إلى الرئيس الشريف ما يفعل بهم الكفار، أشار عليهم بمكاتبة الخليفة لينفذ إليهم عسكرا مع أمير يجمع كلمتهم، فاتفقوا على ذلك، فكتب إلى الخليفة ينهى إليه ما هم عليه من الخوف و الذلّ، و ما يركبهم به العدو من الصغار و الخزى، و يطلب نجدة و لو ألف فارس مع أمير يقاتلون معه و يجتمعون عليه، فلما سار القصاد بالكتب أرسل بعض من علم بالحال إلى التتر يعلمهم ذلك، فأرسلوا إلى الطريق فأخذوهم و أخذوا الكتب منهم، و أرسلوا إلى الرئيس ينكرون عليه الحال، فبحمد،

(١). ثم خرجوا. A. mo

(٢). أردويل. A.

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٣٨٢

فأرسلوا إليه كتبه و كتب الجماعة، فسقط فى أيديهم، و تقدّم إليهم التتر حينئذ و قاتلوهم، و جرى فى القتال كما ذكرنا.

ذكر مسير التتر إلى أذربيجان و ملكهم أردويل و غيرها

لما فرغ التتر من همدان ساروا إلى أذربيجان، فوصلوا إلى أردويل فملكوها و قتلوا فيها و أكثروا، و خربوا أكثرها، و ساروا منها إلى تبريز، و كان قد قام بأمرها شمس الدين الطغرائى «١»، و جمع كلمة أهلها، و قد فارقها صاحبها أوزبك بن البهلوان، و كان أميراً متخلّفاً، لا يزال منهمكا فى الخمر ليلا و نهارا، يبقى الشهر و الشهرين لا يظهر، و إذا سمع هبة طار مجفلا لها، و له جميع أذربيجان و أَران، و هو أعجز خلق الله عن حفظ البلاد من عدوّ يريدّها و يقصدها.

فلما سمع بمسير التتر من همدان فارق هو تبريز و قصد نقجوان، و سیر أهله و نساءه إلى خوى ليبعد عنهم، فقام هذا الطغرائى بأمر البلد، و جمع الكلمة و قوى نفوس الناس على الامتناع، و حذرهم عاقبة التخاذل و التوانى، و حصّن البلد بجهده و طاقته، فلما قاربه التتر، و سمعوا بما أهل البلد عليه من اجتماع الكلمة على قتالهم، و أنّهم قد حصّينوا المدينة، و أصلحوا أسوارها و خندقها، أرسلوا يطلبون منهم مالا و ثيابا، فاستقرّ الأمر بينهم على قدر معلوم من ذلك، فسوّروه إليهم، فأخذوه و رحلوا إلى مدينة سراو «٢» فنهبوا، و قتلوا كلّ من فيها.

و رحلوا منها إلى بيلقان، من بلاد أَران، فنهبوا كلّ ما مرّوا به من البلاد

(١). عثمان الطغراى. A.

(٢). سراو. A.

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٣٨٣

و القرى، و خرّبوا، و قتلوا من ظفروا به من أهلها، فلما وصلوا إلى بيلقان حصروها، فاستدعى أهلها منهم رسولا يقرّون معه [١] الصلح،

فأرسلوا إليهم رسولا من أكابرهم ومقدميهم، فقتله أهل البلد، فزحف التتر إليهم وقاتلوهم، ثم إنهم ملكوا البلد عنوة في شهر رمضان سنة ثمانى عشرة [و ستمائة] ووضعوا فيهم السيف فلم يبقوا على صغير ولا كبير، ولا امرأة، حتى إنهم كانوا يشقون بطون الحبالى، و يقتلون الأجنّة، و كانوا يفجرون بالمرأة ثم يقتلونها، و كان الإنسان منهم يدخل الدرب فيه الجماعة، فيقتلهم واحدا بعد واحد حتى يفرغ من الجميع لا يمد أحد منهم إليه يدا.

فلما فرغوا منها استقصوا ما حولها بالنهب والتخريب، و ساروا إلى مدينة كنجة، و هى أم بلاد أَران، فعلموا بكثرة أهلها و شجاعتهم لكثرة ذريتهم بقتال الكرج، و حصانتها، فلم يقدموا عليها، فأرسلوا إلى أهلها يطلبون منهم المال و الثياب، فحملوا إليهم ما طلبوا، فساروا عنهم.

ذكر قصد التتر بلاد الكرج

لما فرغ التتر من بلاد المسلمين بأذربيجان و أَران، بعضه بالملك، و بعضه بالصلح، ساروا إلى بلاد الكرج من هذه الأعمال أيضا، و كان الكرج قد أعدوا لهم، و استعدّوا، و سيروا جيشا كثيرا إلى طرف بلادهم ليمنعوا التتر عنها، فوصل إليهم التتر، فالتقوا، فلم يثبت الكرج بل ولّوا منهزمين، فأخذهم السيف، فلم يسلم منهم إلّا الشريد. و لقد بلغنى أنّهم قتل منهم نحو ثلاثين ألفا، و نهبوا ما وصلوا إليه من

[١] يقررون معهم.

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٣٨٤

بلادهم، و خزّبوها، و فعلوا بها ما هو عادتهم، فلما وصل المنهزمون إلى تفليس و بها ملكهم «١» جمعوا جموعا أخرى و سيّروهم إلى التتر أيضا ليمنعوهم من توسط بلادهم، فأرأوا التتر و قد دخلوا البلاد لم يمنعهم جبل و لا مضيق و لا غير ذلك، فلما رأوا فعلهم عادوا إلى تفليس، فأخلوا البلاد، ففعل التتر فيها ما أرادوا من النهب، و القتل، و التخريب، و رأوا بلادا كثيرة المضايق و الدربندات، فلم يتجاسروا على الوغول فيها، فعادوا عنها.

و داخل الكرج منهم خوف عظيم، حتى سمعت عن بعض أكابر الكرج، قدم رسولا، أنّه قال: من حدّثكم أنّ التتر انهزموا و أسروا فلا تصدّقه، و إذا حدّثتم أنّهم قتلوا فصّدّقوا، فإنّ القوم لا يفزون أبدا، و لقد أخذنا أسيرا منهم، فألقى نفسه من الدابة و ضرب رأسه بالحجر إلى أن مات، و لم يسلم نفسه للأسر.

ذكر وصولهم إلى دربند شروان و ما فعلوه فيه

لما عاد التتر من بلد الكرج قصدوا دربند شروان، فحاصروا مدينة شماخى و قاتلوا أهلها، فصبّروا على الحصر، ثم إنّ التتر صعدوا سورها بالسلايم، و قيل بل جمعوا كثيرا من الجمال و البقر و الغنم و غير ذلك، و من قتل الناس منهم و من غيرهم، و ألقوا بعضه فوق بعض، فصار مثل التلّ، و صعدوا عليه فأشرفوا على المدينة و قاتلوا أهلها، فصبّروا، و اشتدّ القتال ثلاثة أيام، فأشرفوا على أن يؤخذوا، فقالوا: السيف لا بدّ منه، فالصبر أولى بنا نموت كراما.

(١). ملكهم و القيم بدولتها إيوانى فجمع جموعا. B.

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٣٨٥

فصبّروا تلك الليلة، فأنتنت تلك الجيف و انهضمت، فلم يبق للتتر على السور استعلاء، و لا تسلّط على الحرب، فعادوا الزحف و

ملازمة القتال، فضجر أهلها، و مسّهم التعب و الكلال و الإعياء، فضعفوا، فملك التتر البلد، و قتلوا فيه فأكثرُوا، و نهبوا الأموال فاحتازوها.

فلما فرغوا منه أرادوا عبور الدربند، فلم يقدرُوا على ذلك، فأرسلوا رسولا إلى شروان [شاه] «١» ملك دربند شروان يقولون له ليرسل إليهم رسولا يسعى بينهم فى الصلح، فأرسل عشرة رجال من أعيان أصحابه، فأخذوا أحدهم فقتلوه، ثم قالوا للباقيين: إن أنتم عرفتُمونا طريقا نعبُر فيه فلکم الأمان، و إن لم تفعلُوا قتلناكم كما قتلنا هذا. فقالوا لهم: إن هذا الدربند ليس فيه طريق البتّة، و لكن فيه موضع هو أسهل ما فيه من الطرق، فساروا معهم إلى ذلك الطريق، فعبروا فيه، و خلفوه وراء ظهورهم.

ذكر ما فعلوه باللان و قفجاق

لما عبر التتر دربند شروان ساروا فى تلك الأعمال، و فيها أمم كثيرة منهم: اللان و اللکز، و طوائف من الترك، فنهبوا، و قتلوا من اللکز كثيرا، و هم مسلمون و كفّار، و أوقعوا بمن عداهم «٢» من أهل تلك البلاد، و وصلوا إلى اللان، و هم أمم كثيرة، و قد بلغهم خبرهم، فحذروا، و جمعوا عندهم جمعا من قفجاق، فقاتلُوهم، فلم تظفر إحدى الطائفتين بالأخرى، فأرسل التتر إلى قفجاق يقولون: نحن و أنتم جنس واحد، و هؤلاء اللان ليسوا منكم حتّى تنصروهم، و لا دينكم مثل دينهم، و نحن نعاهدكم

(١). II، ١٨٤٩.SA، ٤٥٤.

(٢). من اللکز ... عداهم. B. mo

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٣٨٦

أننا لا نتعرّض لكم، و نحمل إليكم من الأموال و الثياب ما شئتم و تتركون بيننا و بينهم. فاستقرّ الأمر بينهم على مال حملوه و ثياب و غير ذلك، فحملوا إليهم ما استقرّ و فارقهم قفجاق فأوقع التتر باللان، فقتلوا منهم و أكثرُوا و نهبوا، و سبوا، و ساروا إلى قفجاق و هم آمنون متفرّقون لما استقرّ بينهم من الصلح، فلم يسمعوا بهم إلّا و قد طرّقوهم و دخلوا بلادهم فأوقعوا بهم الأوّل فالأوّل، و أخذوا منهم أضعاف ما حملوا إليهم. و سمع من كان بعيد الدار من قفجاق الخبر، ففرّوا من غير قتال، و أبعدوا، فبعضهم اعتصم بالغياض، و بعضهم بالجبال، و بعضهم لحق ببلاد الروس.

و أقام التتر فى بلاد قفجاق، و هى أرض كثيرة المراعى فى الشتاء و الصيف، و فيها أماكن باردة فى الصيف كثيرة المرعى، و أماكن حارة فى الشتاء كثيرة المرعى، و هى غياض على ساحل البحر، و وصلوا إلى مدينة سوداق، و هى مدينة قفجاق التى منها مادّتهم، فإنّها على بحر الخزر، و المراكب تصل إليها و فيها الثياب، فيشتري قفجاق منهم و يبيعون عليهم الجوارى، و المماليك، و البرطاسى، و القندر، و السنجاب، و غير ذلك ممّا هو فى بلادهم، و بحر الخزر هذا هو بحر متّصل بخليج القسطنطينيّة. و لمّا وصل التتر إلى سوداق ملكوها، و تفرّق أهلها منها، فبعضهم صعد الجبال بأهله و ماله، و بعضهم ركب البحر و سار إلى بلاد الروم التى بيد المسلمين من أولاد قلع أرسلان.

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٣٨٧

ذكر ما فعله التتر بقفجاق و الروس

لما استولى التتر على أرض قفجاق، و تفرّق قفجاق، كما ذكرنا، سار طائفة كثيرة منهم إلى بلاد الروس، و هى بلاد كثيرة، طويلة عريضة، تجاورهم، و أهلها يدينون بالنصرانيّة، فلما وصلوا إليهم اجتمعوا كلّهم، و اتّفقت كلمتهم على قتال التتر إن قصدوهم، و أقام

التر بأرض قفجاق مدّة، ثمّ إنهم ساروا سنة عشرين و ستمائة إلى بلاد الروس، فسمع الروس و قفجاق خبرهم، و كانوا مستعدين لقتالهم، فساروا «١» إلى طريق التتر ليلقوهم قبل أن يصلوا إلى بلادهم ليمنعوهم عنها، فبلغ مسيرهم إلى التتر، فعادوا على أعقابهم راجعين، فطمع الروس و قفجاق فيهم، و ظلّوا أنّهم عادوا خوفا منهم و عجزا عن قتالهم، فجدّوا فى اتّباعهم، و لم يزل التتر راجعين، و أولئك يقفون أثرهم، اثنى عشر يوما.

ثمّ إنّ التتر عطفوا على الروس «٢» و قفجاق، فلم يشعروا بهم إلّا و قد لقوهم على غرّة منهم، لأنّهم كانوا قد أمنوا التتر، و استشعروا القدرة عليهم، فلم تتكامل عدّتهم للقتال إلّا و قد بلغ التتر منهم مبلغا عظيما، فصر الطائفتان صبرا لم يسمع بمثله. و دام القتال بينهم عدّة أيام، ثمّ إنّ التتر ظفروا و استظهروا، فانهزم قفجاق و الروس هزيمة عظيمة بعد أن أثخن فيهم التتر، و كثر القتل فى المنهزمين فلم يسلم منهم إلّا القليل، و نهب جميع ما معهم، و من سلم وصل إلى البلاد على أقبح صورة لبعد الطريق و الهزيمة، و تبعهم التتر يقتلون و ينهبون

(١). فساروا فى خلق لا يحصى يطلبون التتر ليقاتلوهم و يمنعوهم عن بلادهم، فبلغ خبرهم إلى التتر. A.

(٢). التتر رجعوا نحو الروس. A.

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٣٨٨

و يخربون البلاد، حتّى خلا- أكثرها، فاجتمع كثير من أعيان تجار الروس و أغنيائهم و حملوا ما يعزّ عليهم، و ساروا يقطعون البحر إلى بلاد الإسلام فى عدّة مراكب.

فلما قاربوا المرسى الذى يريدونه انكسر مركب من مراكبهم، فغرق إلّا أنّ الناس نجوا، و كانت العادة جارية أنّ السلطان له كلّ مركب ينكسر، فأخذ من ذلك شيئا كثيرا، و سلم باقى المراكب، و أخبر من بها بهذه الحال «١».

ذكر عود التتر من بلاد الروس و قفجاق إلى ملكهم «٢»

لما فعل التتر بالروس ما ذكرناه، و نهبوا بلادهم، عادوا عنها و قصدوا بلغار أواخر سنة عشرين و ستمائة، فلما سمع أهل بلغار بقربهم منهم كمنوا لهم فى عدّة مواضع، و خرجوا إليهم فلقوهم «٣»، و استجروهم إلى أن جاوزوا موضع الكمناء، فخرجوا عليهم من وراء ظهورهم، فبقوا فى الوسط، و أخذهم السيف من كلّ ناحية، فقتل أكثرهم، و لم ينج منهم إلّا القليل.

قيل: كانوا نحو أربعة آلاف رجل، فساروا إلى سقسين عاندين إلى ملكهم جنكزخان، و خلت أرض قفجاق منهم، فعاد من سلم منهم إلى بلادهم،

(١) نسأل الله أن يخلص الناس من شر هذه الطائفة التى عم ضررها و استطار شررها حتى ملأ الأرض، إنما أوردنا حوادث التتر المغربة متتابعة و لم نفصل بينها بما فعله ملكهم جنكزخان و باقى عسكره و إن كان أولى لئلا تنقطع أخبار هؤلاء فإنّ متابعتها يوضحها، و نذكر ما فعله جنكزخان ملكهم بخراسان متتابعة أيضا إن شاء الله تعالى. A. dda

(٢). A. tupaccohmutom

(٣). فلقوهم و قاتلوهم. B.

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٣٨٩

و كان الطريق منقطعاً مذ دخلها التتر، فلم يصل منهم شىء من البرطاسى و السنجاب و القندر و غيرها ممّا يحمل من تلك البلاد، فلما فارقوها عادوا إلى بلادهم، و اتّصلت الطريق، و حملت الأمتعة كما كانت.

هذه أخبار «١» التتر المغرّبة قد ذكرناها سياقة واحدة لئلا تنقطع.

ذكر ما فعله التتر بما وراء النهر بعد بخارى و سمرقند

قد ذكرنا ما فعله التتر المغرّبة التى سيّرها ملكهم جنكزخان، لعنه الله، إلى خوارزم شاه، و أما جنكزخان فإنه بعد أن سيّر هذه الطائفة إلى خوارزم شاه و بلغه انهزام خوارزم شاه من خراسان، قسم أصحابه عدّة أقسام، فسيّر قسما منها إلى بلاد فرغانة ليملكوها، و سيّر قسما آخر منها إلى ترمذ، و سيّر قسما منها إلى كلانة، و هى قلعة حصينة على جانب جيحون، من أحصن القلاع و أمنع الحصون، فسارت كلّ طائفة إلى الجهة التى أمرت بقصدها، و نازلتها، و استولت عليها، و فعلت من القتل، و الأسر، و السبى، و النهب، و التخريب، و أنواع الفساد «٢»، مثل ما فعل أصحابهم.

فلما فرغوا من ذلك عادوا إلى ملكهم جنكزخان و هو بسمرقند، فجّهز جيشا عظيما مع أحد أولاده و سيّرههم إلى خوارزم، و سيّر جيشا آخر فعبروا جيحون إلى خراسان.

(١). هذا جرى و هو آخر أخبار B.

(٢). و أنواع الفساد A. mo

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٣٩٠

ذكر ملك التتر خراسان

لما سار الجيش المنفذ إلى خراسان عبروا جيحون، و قصدوا مدينة بلخ، فطلب أهلها الأمان، فأمنوهم، فسلم البلد سنة «١» سبع عشرة و ستمائة، و لم يتعرضوا له بنهب و لا قتل، بل جعلوا فيه شحنة و ساروا و قصدوا الزوزان «٢»، و ميمنده، و أندخوى، و قاريات، فملكوا الجميع و جعلوا فيه ولاية، و لم يتعرضوا لأهلها بسوء و لا أذى «٣»، سوى أنهم كانوا يأخذون الرجال ليقاتلوا بهم من يمتنع عليهم، حتى وصلوا إلى الطالقان، و هى ولاية تشتمل على عدّة بلاد، و فيها قلعة حصينة يقال لها منصور كوه، لا ترام علوا و ارتفاعا، و بها رجال يقاتلون، شجعان، فحصروها [١] مدّة ستّة أشهر يقاتلون أهلها ليلا و نهارا و لا يظفرون منها بشيء.

فأرسلوا إلى جنكزخان يعرّفونه عجزهم عن ملك هذه القلعة، لكثرة من فيها من المقاتلة، و لامتناعها بحصانتها «٤»، فسار بنفسه و بمن عنده من جموعه إليهم، و حصرها، و معه خلق كثير من المسلمين أسرى، فأمرهم بمباشرة القتال و إلّا قتلهم، فقاتلوا معه «٥»، و أقام عليها أربعة أشهر أخرى فقتل من التتر عليها خلق كثير، فلما رأى ملكهم ذلك أمر أن يجمع له من الحطب و الأخشاب ما أمكن جمعه، ففعلوا ذلك «٦»، و صاروا يعملون صفّا من خشب «٧»، و فوقه صفّا من تراب، فلم يزالوا كذلك حتى صار تلا عاليا

[١] - فحصره.

(١). و تسلموها منهم سنة B. و تسلموا A.

(٢). الرروان A.

(٣). أهلها بشيء من الأذى A.

(٤). و لامتناعها بحصانتها A. mo

(٥). يعينونه على حصر القلعة A. فأمرهم ... معه orp

(٦). أمر أن ... ذلك. mo.B.

(٧). من الحطب. A.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٣٩١

يوازي القلعة، و صعد الرّجالة فوقه و نصبوا عليه منجنيقا فصار يرمى إلى وسط القلعة و حملوا على التتر حملة واحدة فسلم الخيالة منهم و نجوا، و سلّكوا تلك الجبال و الشعاب.

و أمّا الرّجالة فقتلوا، و دخل التتر القلعة، و سبوا النساء و الأطفال، و نهبوا الأموال و الأمتعة.

ثمّ إنّ جنكزخان جمع أهل البلاد الذين [١] أعطاهم الأمان ببلخ و غيرها «١»، و سيّرهم مع بعض أولاده إلى مدينة مرو، فوصلوا إليها و قد اجتمع بها من الأعراب و الأتراك و غيرهم ممّن نجا من المسلمين ما يزيد على مائتي ألف رجل «٢»، و هم معسكرون بظاهر مرو، و هم عازمون على لقاء التتر، و يحدّثون نفوسهم بالغلبة لهم، و الاستيلاء عليهم، فلمّا وصل التتر إليهم التقوا و اقتتلوا، فصر المسلمون، و أمّا التتر فلا يعرفون الهزيمة، حتّى إنّ بعضهم أسر، فقال و هو عند المسلمين: إن قيل إنّ التتر يقتلون «٣» فصّدّقوا، و إن قيل إنّهم انهزموا فلا تصدّقوا.

فلمّا رأى المسلمون صبر التتر و إقدامهم، ولّوا منهزمين، فقتل التتر منهم و أسروا الكثير، و لم يسلم إلّا القليل، و نهبت أموالهم، و سلاحهم، و دوابهم، و أرسل التتر إلى ما حولهم من البلاد يجمعون الرجال لحصار مرو، فلمّا اجتمع لهم ما أرادوا تقدّموا إلى مرو و حصروها، و جدّوا في حصرها، و لازموا القتال.

[١]- التّي.

(١). بيلخ و غيرها. A. mo

(٢). رجل و قد عسكروا بظاهر مرو و يقولون إنّهم يلقون التتر و يفنونهم قتلا و أسرا فلما وصل. A.

(٣). التتر قد قتلوا. A. و هو ... المسلمين. A. mo

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٣٩٢

و كان أهل البلد قد ضعفوا بانهزام ذلك العسكر، و كثرة القتل و الأسر فيهم، فلمّا كان اليوم الخامس من نزولهم أرسل التتر إلى الأمير الذي بها متقدّما على من فيها «١» يقولون له: لا تهلك نفسك و أهل البلد، و اخرج إلينا فنحن نجعلك أمير هذه البلدة و نرحل عنك، فأرسل يطلب الأمان لنفسه و لأهل البلد، فأمنهم، فخرج إليهم، فخلع عليه ابن جنكزخان، و احترامه، و قال له: أريد أن تعرض عليّ أصحابك حتّى ننظر [١] من يصلح لخدمتنا استخدمناه، و أعطيناه إقطاعا، و يكون معنا.

فلمّا حضروا عنده، و تمكّن منهم، قبض عليهم و على أميرهم، و كتفوهم، فلمّا فرغ منهم قال لهم: اكتبوا إلى تجار البلد و رؤسائه، و أرباب الأموال في جريدة، و اكتبوا إلى أرباب الصناعات و الحرف في نسخة أخرى، و اعرضوا ذلك علينا، ففعلوا ما أمرهم، فلمّا وقف على النسخ «٢» أمر أن يخرج أهل البلد منه بأهليهم، فخرجوا كلّهم، و لم يبق فيه أحد، فجلس على كرسي من ذهب و أمر أن يحضر أولئك الأجناد الذين قبض عليهم، فأحضروا، و ضربت رقابهم صبرا و الناس ينظرون إليهم و يبكون.

و أمّا العامة فإنهم قسموا الرجال و النساء و الأطفال و الأموال، فكان يوما مشهودا من كثرة الصراخ و البكاء و العويل، و أخذوا أرباب الأموال فضربوهم، و عذبوهم بأنواع العقوبات في طلب الأموال، فربما مات أحدهم من شدّة الضرب، و لم يكن بقي له [ما] يفتدى به نفسه، ثمّ إنّهم أحرقوا البلد، و أحرقوا تربة السلطان سنجر، و نبشوا القبر طلبا المال، فبقوا كذلك ثلاثة أيام، فلمّا كان اليوم الرابع أمر بقتل أهل البلد كافّة، و قال: هؤلاء عصوا

[١] تنظر.

(١). بها ... فيها. A. mo

(٢). فلما ... النسخ. A. mo

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٣٩٣

علينا، فقتلوههم أجمعين، و أمر «١» بإحصاء القتلى، فكانوا نحو سبعمائة ألف قتيل، ف إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ ممَّا جرى على المسلمين ذلك اليوم.

ثم ساروا إلى نيسابور فحاصروها خمسة أيام، و بها جمع صالح من العسكر الإسلامى، فلم يكن لهم بالترقوة، فملكوا المدينة، و أخرجوا أهلها إلى الصحراء «٢» فقتلوههم، و سبوا حريمهم، و عاقبوا من اتهموه بالمال، كما فعلوا بمرو، و أقاموا خمسة عشر يوما يخربون، و يفتشون المنازل «٣» عن الأموال.

و كانوا لما قتلوا أهل مرو قيل لهم «٤» إن قتلهم سلم منهم كثير، و نجوا إلى بلاد الإسلام، فأمرؤا بأهل نيسابور أن تقطع رؤوسهم «٥» لئلا يسلم من القتل أحد، فلما فرغوا من ذلك سيروا [١] طائفة منهم إلى طوس، ففعلوا بها كذلك أيضا، و خربوها «٦» و خربوا المشهد الذى فيه على بن موسى الرضى، و الرشيد، حتى جعلوا الجميع خرابا.

ثم ساروا إلى هراء، و هى من أحصن البلاد، فحاصروها عشرة أيام فملكوها و أمنوا أهلها، و قتلوا منهم البعض، و جعلوا عند من سلم منهم شحنة، و ساروا إلى غزنه، فلقبهم جلال الدين بن خوارزم شاه فقاتلهم و هزمهم على ما ذكره إن شاء الله، فوثب أهل هراء على الشحنة فقتلوه، فلما عاد المنهزمون إليهم دخلوا البلد قهرا و عنوة، و قتلوا كل من فيه، و نهبوا الأموال و سبوا الحريم، و نهبوا السواد «٧» و خربوا المدينة جميعها و أحرقوها، و عادوا إلى ملكهم جنكزخان و هو بالطالقان يرسل السرايا إلى جميع بلاد خراسان،

[١] و سيروا.

(١). فقتلوا عامة ذلك اليوم و أمر. A.

(٢). إلى ظاهر البلد. A.

(٣). و يبنشون المنازل. B.

(٤). لهم إنه قد سلم من أولئك القتل جمع و لجوا. A.

(٥). رؤوسهم و وكلوا أسارى المسلمين بقطع الرؤوس. A.

(٦). و خربوها و فى جملة ما خربوا. A.

(٧). أجمع. B. السواد و جميع القرى. A.

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٣٩٤

ففعلوا بها كذلك، و لم يسلم من شرهم و فسادهم شىء من البلاد، و كان جميع ما فعلوه بخراسان سنة سبع عشرة [و ستمائة].

ذكر ملكهم خوارزم و تخريبها

و أما الطائفة من الجيش التى سیرها جنكزخان إلى خوارزم «١»، فإنها كانت أكثر السرايا جميعها لعظم البلد، فساروا حتى وصلوا إلى

خوارزم وفيها عسكر كبير، و أهل البلد معروفون بالشجاعة و الكثرة، فقاتلوهم أشد قتال سمع به الناس، و دام الحصر لهم خمسة أشهر، فقتل من الفريقين خلق كثير، إلّا أن القتلى من التتر كانوا أكثر لأنّ المسلمين كان يحميهم السور. فأرسل التتر إلى ملكهم جنكزخان يطلبون المدد، فأمدّهم بخلق كثير، فلمّا «٢» وصلوا إلى البلد زحفوا زحفا متتابعاً، فملكوا طرفاً منه، فاجتمع أهل البلد «٣» و قاتلوهم في طرف الموضع الذي ملكوا، فلم يقدرُوا على إخراجهم، و لم يزالوا يقاتلونهم، و التتر يملكون منهم محلّة بعد محلّة، و كلّما ملكوا محلّة قاتلهم المسلمون في المحلّة التي تليهم، فكان الرجال و النساء و الصبيان يقاتلون، فلم يزالوا كذلك حتّى ملكوا البلد جميعه، و قتلوا كلّ من فيه، و نهبوا كلّ ما فيه، ثمّ إنهم فتحوا السكر الذي يمنع ماء جيحون عن البلد فدخله الماء، ففرق البلد جميعه، و تهدمت الأبنية، و بقى موضعه ماء، و لم يسلم من أهله أحد البتّة، فإنّ غيره من البلاد قد كان يسلم بعض أهله، منهم من يختفى، و منهم من يهرب، و منهم من يخرج ثمّ يسلم، و منهم من يلقي نفسه بين القتلى

(١). إلى خوارزم و كان فيهم كثرة فوصلوا إليها و فيها عسكر A.

(٢). فأمدّهم بطائفة كثيرة من الجند فلما A.

(٣). زحفا ... البلد B. mo

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٣٩٥

فينجو، و أمّا [أهل] خوارزم فمن اختفى من التتر غرقه الماء، أو قتله الهدم، فأصبحت خراباً يباباً [١]:
 كأن لم يكن بين الحجون إلى الصّيف أنيس و لم يسمر بمكّة سامر و هذا لم يسمع بمثله في قديم الزمان و حديثه، نعوذ بالله من الحور بعد الكور، و من الخذلان بعد النصر، فلقد عمّت هذه المصيبة الإسلام و أهله، فكم من قتيل من أهل خراسان و غيرها، لأنّ القاصدين من التجار و غيرهم كانوا كثيراً، مضى الجميع تحت السيف.
 و لمّا فرغوا من خراسان و خوارزم عادوا إلى ملكهم بالطالقان.

ذكر ملك التتر غزنه و بلاد الغور

لمّا فرغ التتر من خراسان و عادوا إلى ملكهم جهّز جيشاً كثيفاً و سيّره [إلى] غزنه و بها جلال الدين بن خوارزم شاه مالكا لها، و قد اجتمع إليه من سلم من عسكر أبيه، قيل: كانوا ستين ألفاً، فلمّا وصلوا إلى أعمال غزنه خرج إليهم المسلمون مع ابن خوارزم شاه إلى موضع يقال له بلق «١»، فالتقوا هناك و اقتتلوا قتالاً شديداً، و بقوا كذلك ثلاثة أيّام، ثمّ أنزل الله نصره على المسلمين، فانهزم التتر و قتلهم المسلمون كيف شاءوا، و من سلم منهم عاد إلى ملكهم بالطالقان، فلمّا سمع أهل هراة بذلك ثاروا بالوالي

[١] أبابا.

(١). بلف: P.C. spUte. بلف:

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٣٩٦

الذي عندهم للتتر فقتلوه، فسيّر إليهم جنكزخان عسكراً فملكوا البلد و خرّبوه كما ذكرناه.

فلما انهزم التتر أرسل جلال الدين رسولا إلى جنكزخان يقول له.

في أيّ موضع تريد [أن] يكون الحرب حتّى نأتى إليه؟ فجّهز جنكزخان عسكراً كثيراً، أكثر من الأوّل مع بعض أولاده، و سيّره إليه، فوصل إلى كابل، فتوجه العسكر الإسلاميّ إليهم، و تصافّوا هناك، و جرى بينهم قتال عظيم، فانهزم الكفّار ثانياً، فقتل [١] كثير منهم،

و غنم المسلمون ما معهم، و كان عظيمًا، و كان معهم من أسارى المسلمين خلق كثير، فاستنقذوهم و خلّصوهم. ثم إنَّ المسلمين جرى بينهم فتنة لأجل الغنيمة، و سبب ذلك أنَّ أميرًا منهم يقال له سيف الدين بغراق، أصله من الأتراك الخلع، كان شجاعًا مقدامًا، ذا رأى فى الحرب و مكيدة، و اصطلى الحرب مع التتر بنفسه، و قال لعسكر جلال الدين: تأخروا أنتم فقد ملثتم منهم رعبًا، و هو الذى كسر التتر على الحقيقة.

و كان من المسلمين أيضا أمير كبير يقال له ملك خان، بينه و بين خوارزم شاه نسب، و هو صاحب هراء، فاختلف هذان الأُميران فى الغنيمة، فاقتلوا، فقتل بينهم أخ لبغراق. فقال بغراق: أنا أهزم الكفار و يقتل أخى لأجل هذا السحت! فغضب و فارق العسكر و سار إلى الهند، فتبعه من العسكر ثلاثون ألفًا كلهم يريدونه، فاستعطفه جلال الدين بكل طريق، و سار بنفسه إليه، و ذكره الجهاد، و خوفه من الله تعالى «١»، و بكى بين يديه، فلم يرجع، و سار

[١] فقيل.

(١). تعالى بتركه. A.

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٣٩٧

مفارقًا، فانكسر لذلك المسلمون و ضعفوا.

فبينما هم كذلك إذ ورد الخبر أنَّ جنكزخان قد وصل فى جموعه و جيوشه، فلما رأى جلال الدين ضعف المسلمين لأجل من فارقهم من العسكر، و لم يقدر على المقام، سار [١] نحو بلاد الهند، فوصل إلى ماء السند، و هو نهر كبير، فلم يجد من السفن ما يعبر فيه. و كان جنكزخان يقص أثره مسرعًا، فلم يتمكن جلال الدين من العبور، حتّى أدركه جنكزخان فى التتر، فاضطرَّ المسلمون حينئذ إلى القتال و الصبر لتعدُّر العبور عليهم، و كانوا فى ذلك كالأشقر إن تأخر يقتل و إن تقدّم يعقر، فتصافوا و اقتتلوا أشد قتال، اعترفوا كلهم أنَّ كل ما مضى من الحروب كان لعبًا بالنسبة إلى هذا القتال، فبقوا «١» كذلك ثلاثة أيام، فقتل الأمير ملك خان المقدّم ذكره و خلق كثير، و كان القتل فى الكفار أكثر «٢»، و الجراح أعظم، فرجع الكفار عنهم، فأبعدوا، و نزلوا على بعد، فلما رأى المسلمون أنَّهم لا مدد لهم، و قد ازدادوا ضعفًا بمن قتل منهم و جرح، و لم يعلموا بما أصاب الكفار من ذلك، أرسلوا يطلبون السفن، فوصلت، و عبر المسلمون ليقضى الله أمرًا كان مفعولًا.

فلما كان الغد عاد الكفار إلى غزئه، و قد قويت نفوسهم بعبور المسلمين الماء إلى جهة الهند و بعدهم، فلما وصلوا إليها «٣» ملكوها لوقتها لخلوها من العساكر و المحامى، فقتلوا أهلها، و نهبوا الأموال، و سبوا الحرىم، و لم يبق أحد، و خرّبوها و أحرقوها، و فعلوا بسوادها كذلك، و نهبوا و قتلوا و أحرقوا،

[١] فسار.

(١). قتال مضى لهم فبقوا. A.

(٢). كثير و كذلك من الكفار بل كان القتل فيهم أكثر. A.

(٣). الماء ... إليها. A. mo

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٣٩٨

فأصبحت تلك الأعمال جميعها خالية من الأنيس، خاوية على عروشها كأن لم تغن بالأمس «١».

ذكر تسليم الأشرف خلّاط إلى أخيه شهاب الدين غازي

وأخر هذه السنة أقطع الملك «٢» الأشرف موسى بن العادل مدينة خلّاط وجميع «٣» الأعمال: أرمينية، و مدينة ميّافارقين من ديار بكر، و مدينة حاني «٤»، أخاه «٥» شهاب الدين غازي بن العادل «٦»، و أخذ منه «٧» مدينة الزها، و مدينة سروج من بلاد الجزيرة، و سيّره إلى خلّاط أوّل سنة ثمانى عشرة و ستمائة.

و سبب ذلك أنّ الكرج لمّا قصد التتر بلادهم و هزموهم، و نهبوا، و قتلوا كثيرا من أهلها، أرسلوا إلى أوزبك، صاحب أذربيجان و أرّان، يطلبون منه المهادنة و الموافقة على دفع التتر، و أرسلوا إلى الملك الأشرف فى هذا المعنى، و قالوا للجميع: إن لم توافقونا على قتال هؤلاء القوم و دفعهم عن بلادنا، و تحضروا [١] بنفوسكم و عساكركم لهذا المهم، و إلّا صالحناهم عليكم.

فوصلت رسلهم إلى الأشرف و هو يتجهّز «٨» إلى الديار المصرية لأجل الفرنج، و كانوا عنده أهتمّ الوجوه «٩»، لأسباب: أولها أنّ الفرنج كانوا قد ملكوا دميّاط، و قد أشرفت الديار المصرية على أن تملك، فلو «١٠» ملكوها

[١] و تحضرون.

(١). خاوية ... بالأمس. A. mo

(٢). سلم الملك. A.

(٣-٤) و مديدة حاني. A. mo - جميع. A. mo

(٥-٦-٧). منه عوض ذلك مدينة الرها و أعمال الجزيرة. A. - العادل و أضاف إليها ميافارقين. A. - إلى أخيه. A.

(٨). يتجهّز المسير. A.

(٩). الوجوه منها أنهم قد. A.

(١٠). فلو أخذوا مصر لم. A.

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٣٩٩

لم يبق بالشام و لا غيره معهم ملك لأحد.

و ثانيها أنّ الفرنج أشدّ شكيمة، و طالبو ملك، فإذا ملكوا قرية لا يفارقونها إلا بعد أن يعجزوا عن حفظها يوما واحدا.

و ثالثها أنّ الفرنج قد طمعوا «١» فى كرسى مملكة البيت العادلى، و هى مصر، و التتر لم يصلوا إليها، و لم يجاوزوا شيئا من بلادهم

«٢»، و ليسوا أيضا ممّن يريد المنازعة فى «٣» الملك، و ما غرضهم إلّا النهب و القتل، و تخريب البلاد، و الانتقال من بلد إلى آخر.

فلَمّا أتاه رسل الكرج بما ذكرناه، أجابهم «٤» يعتذر بالمسير إلى مصر لدفع الفرنج، و يقول لهم: إننى قد أقطعت ولاية خلّاط «٥»

لأخى، و سيّره إليها ليكون بالقرب منكم «٦»، و تركت عنده العساكر، فمتى احتجتم إلى نصرته حضر لدفع التتر، و سار هو إلى مصر

كما ذكرناه.

ذكر عدّة حوادث

فى هذه السنة، فى ربيع الآخر، ملك بدر الدين قلعة تلّ أعفر.

و فيها، فى جمادى الأولى، ملك الأشرف مدينة سنجار.

و فيها أيضا وصل الموصل، و أقام بظاهرها، ثم سار يريد إربل لقصد صاحبها، فتردّت الرسل بينهم فى الصلح، فاصطلحوا فى شعبان،

وقد تقدّم هذا جميعه مفضّلاً سنّه خمس عشرة و ستمائة.
و فيها وصل التتر الرّى فملكوها و قتلوا كلّ من فيها، و نهبوا،

(١). قد طمعوا. A. mo

(٢). و لم ... بلادهم. A. mo

(٣). المنازعة في. A. mo

(٤). ذكرناه أرسل إليهم. A.

(٥-٦). و سيرته ... منكم. mo- خلاط جميعها. A. ijuq

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٤٠٠

و ساروا عنها، فوصلوا إلى همذان، فلقبهم رئيسها بالطاعة و الحمل، فأبقوا على أهلها و ساروا إلى أذربيجان، فخرّبوا، و حرّقوا البلاد، و قتلوا، و سبوا، و عملوا ما لم يسمع بمثله، و قد تقدّم أيضا مفضّلاً.

و فيها توفّي نصير الدين ناصر بن مهدي العلويّ الذي كان وزير الخليفة، و صلّى عليه بجامع القصر، و حضره أرباب الدولة و دفن بالمشهد.

و فيها توفّي صدر الدين أبو الحسن محمّد بن حمويه الجويني، شيخ الشيوخ بمصر و الشام، و كان موته بالموصل و ردها رسولا، و كان فقيها فاضلا، و صوفيا صالحا، من بيت كبير من خراسان، رحمه الله، كان نعم الرجل.

و فيها عاد جمع بني معروف إلى مواضعهم من البطيحة، و كانوا قد ساروا إلى الأجنّا «١» و القطيف، فلم يمكنهم المقام لكثرة أعدائهم، فقصّدوا شحنة البصرة، و طلبوا منه أن يكتاب الديوان ببغداد بالرضى عنهم، فكتب معهم بذلك و سيّرهم مع أصحابه إلى بغداد، فلمّا قاربوا واسط لقيهم قاصد من الديوان بقتلهم، فقتلوا.

(١). إلى الأحسا. B.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٤٠١

٦١٨ ثم دخلت سنّه ثمانى عشرة و ستمائة

ذكر وفاة قتادة أمير مَكّة و ملك ابنه الحسن و قتل أمير الحاجّ

فى هذه السنّه، فى جمادى الآخرة، توفّي قتادة بن إدريس العلويّ، ثمّ الحسنّي، أمير مَكّة، حرسها الله، بها، و كان عمره نحو تسعين سنّه، و كانت ولايته قد اتّسعت من حدود اليمن إلى مدينة النّبى، صلّى الله عليه و سلّم، و له «١» قلعة ينبع بنواحي المدينة، و كثر عسكره، و استكثر من المماليك، و خافه العرب فى تلك البلاد خوفا عظيما.

و كان، فى أوّل ملكه، لمّا ملك مَكّة، حرسها الله، حسن السيرة «٢» أزال عنها العبيد المفسدين، و حمى البلاد، و أحسن إلى الحاجّ، و أكرمهم، و بقى كذلك مدّة، ثمّ إنّه بعد ذلك أساء السيرة، و جدّد المكوس بمَكّة، و فعل أفعالا شنيعة، و نهب الحاجّ فى بعض السنين كما ذكرناه.

و لمّا مات ملك بعده ابنه الحسن «٣»، و كان له ابن آخر اسمه راجح، مقيم «٤» فى العرب بظاهر مَكّة، يفسد، و ينازع أخاه فى ملك مَكّة، فلمّا سار حاجّ العراق كان الأمير عليهم مملوكا من مماليك الخليفة الناصر لدين الله اسمه أقباش، و كان حسن السيرة مع الحاجّ

في الطريق، كثير الحماية، فقصده راجح ابن قتادة، و بذل له و للخليفة مالا ليساعده على ملك مكة «٥»، فأجابه إلى ذلك،

(١). إلى مكة و له. A.

(٢). أحسن السيرة. و. A.

(٣-٤). مقيم. A. mo- الحسن مكة و بقي ابن آخر له. A.

(٥). مالا ليوليه مكة. A.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٤٠٢

و وصلوا إلى مكة، و نزلوا بالزاهر «١»، و تقدّم إلى مكة مقاتلا لصاحبها حسن.

و كان حسن قد جمع جموعا كثيرة من العرب و غيرها، فخرج إليه من مكة و قاتله، و تقدّم أمير الحاج من بين يدي عسكره منفردا، و صعد الجبل إدلالا بنفسه، و أنّه لا يقدم أحد عليه، فأحاط به أصحاب حسن، و قتلوه، و علّقوا رأسه، فانهزم «٢» عسكر أمير المؤمنين، و أحاط أصحاب حسن بالحاج لينهبوهم، فأرسل إليهم حسن عمامته أمانا للحجاج، فعاد أصحابه و لم ينهبوا منهم شيئا، و سكن الناس، و أذن لهم حسن في دخول مكة و فعل ما يريدونه من الحجّ و البيع و غير ذلك، و أقاموا بمكة عشرة أيّام، و عادوا، فوصلوا إلى العراق سالمين، و عظم الأمر على الخليفة، فوصلت رسل حسن يعتذرون، و يطلبون [١] العفو عنه، فأجيب إلى ذلك.

و قيل في موت قتادة: إنّ ابنه حسنا خنقه فمات، و سبب ذلك أنّ قتادة جمع جموعا كثيرة و سار عن مكة يريد المدينة، فنزل بوادي الفرع و هو مريض، و سیر أخاه على الجيش و معه ابنه الحسن بن قتادة، فلمّا أبعدوا بلغ الحسن أنّ عمّه قال لبعض الجند: إنّ أخي مريض، و هو ميت لا محالة، و طلب منهم أن يحلفوا له ليكون هو الأمير بعد أخيه قتادة، فحضر الحسن عند عمّه، و اجتمع إليه كثير من الأجناد و المماليك الذين لأبيه، فقال الحسن لعمّه: قد فعلت كذا و كذا، فقال: لم «٣» أفعّل، فأمر حسن الحاضرين بقتله، فلم يفعلوا، و قالوا: أنت أمير و هذا أمير، و لا نمّد أيدينا إلى أحد كما.

فقال له غلامان لقتادة: نحن عبيدك، فمرنا بما شئت، فأمرهما أن يجعلّا عمامة

[١] و يطلب.

(١). بالزاهر و قصد أمير الحاج مكة. A.

(٢). فانهزم أصحاب أمير الحاج. A.

(٣). له: spU.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٤٠٣

عمّه في عنقه، ففعلا، ثم قتلته.

فسمع قتادة الخبر، فبلغ منه الغيظ كلّ مبلغ، و حلف ليقتلنّ ابنه، و كان على ما ذكرناه من المرض، فكتب بعض أصحابه إلى الحسن يعرّفه الحال، و يقول له: ابدأ به قبل أن يقتلك، فعاد الحسن إلى مكة، فلمّا وصلها قصد دار أبيه في نفر يسير، فوجد على «١» باب الدار جمعا كثيرا، فأمرهم بالانصراف إلى منازلهم، ففارقوا الدار و عادوا إلى مساكنهم، و دخل الحسن إلى أبيه، فلمّا رآه أبوه شتمه، و بالغ في ذمّه و تهديده، فوثب إليه الحسن فخنقه لوقته، و خرج إلى الحرم الشريف، و أحضر الأشراف، و قال: إنّ أبي قد اشتدّ مرضه، و قد أمركم أن تحلفوا لي أن أكون أنا أميركم، فحلفوا له، ثمّ إنّّه أظهر تابوتا و دفنه ليظنّ الناس أنّه مات، و كان قد دفنه سراً. فلمّا استقرّت الإمارة بمكة له أرسل إلى أخيه الهذلي بقلعة الينبع على لسان أبيه يستدعيه، و كتم موت أبيه عنه، فلمّا حضر أخوه قتله

أيضا، و استقر أمره، و ثبت قدمه، و فعل بأمير الحاج ما تقدّم ذكره، فارتكب عظيما: قتل أباه و عمّه و أخاه في أيام يسيرة، لا جرم لم يمهله الله، سبحانه و تعالى، نزع ملكه، و جعله طريدا شريدا خائفا يترقب.

و قيل إنّ قتاده كان يقول شعرا، فمن ذلك أنّه طلب ليحضر عند أمير الحاج، كما جرت عادة أمراء مكّة، فامتنع، فعوتب من بغداد، فأجاب بأبيات شعر منها:

و لي كفّ ضرغام أدلّ ببطشهاو أشرى بها بين الوري و أبيع
تظلّ [١] ملوك الأرض تلثم ظهروهاو في وسطها للمجد بين ربيع

[١] تظنّ.

(١). يسير فرأى على B.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٤٠٤ أ جعلها تحت الرّحا ثم أبتغي خلاصا لها؟ إني إذا لرقيع
و ما أنا إلّا المسك في كلّ بلدة يצוע، و أمّا عندكم فيضيع

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة استعاد المسلمون مدينة دمياط بالديار المصريّة من الفرنج، و قد تقدّم ذكرها مشروحا مفصّلا.
و فيها، في صفر، ملك التتر مراغة و خرّبوها و أحرقوها و قتلوا أكثر أهلها و نهبوا أموالهم و سبوا حريمهم.
و سار التتر منها إلى همذان و حصروها، فقاتلهم أهلها و ظفر بهم التتر و قتلوا منهم ما لا يحصى، و نهبوا البلد.
و ساروا إلى أذربيجان فأعادوا النهب، و نهبوا ما بقى من البلاد، و لم ينهبوه أولا.

و وصلوا إلى بيلقان من بلاد أَران، فحصروها و ملكوها [١] و قتلوا أهلها حتّى كادوا يفتنونهم و نهبوا أموالهم، و ساروا إلى بلاد الكرج
من أذربيجان و أَران، فلقبهم خلق كثير من الكرج فقاتلوهم و انهزم الكرج و كثر القتل فيهم و نهب أكثر بلادهم و قتل أهلها، و ساروا
من هناك إلى دربند شروان، فحصروا مدينة شماخي و ملكوها، و قتلوا كثيرا من أهلها.
و ساروا إلى بلد اللّان و اللّكز «١» و من عندهم من الأمم، فأوقعوا،

[١] و ملكوا.

(١). و اللّكز ... و رحلوا عن A. mo

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٤٠٥

و رحلوا عن قفجاق، و أجلوهم عنها، و استولوا عليها، و ساحوا في تلك الأرض حتّى وصلوا إلى بلاد الروس، و قد تقدّم ذكر جميعه
مستقصى، و إنّما أوردناه [١] ها هنا جملة ليعلم الّذي كان في هذه السنة من حوادثهم.

و فيها توفي صديقنا أمين الدين ياقوت الكاتب الموصليّ، و لم يكن في زمانه من يكتب ما يقاربه، و لا من يؤدّي طريقة ابن البوّاب
مثله، و كان ذا فضائل جيّة من علم الأدب و غيره، و كان كثير الخير، نعم الرجل، مشهورا في الدنيا، و الناس متفقون على الثناء
الجميل عليه و المدح له، و لهم فيه أقوال كثيرة نظما و نثرا، فمن ذلك ما قاله نجيب الدين الحسين بن عليّ الواسطيّ من قصيدة
يمدحه بها:

جامع شارد العلوم و لولاه لكنت أم الفضائل ثكلى
 ذو يراع تخاف سطوته الأسدو تعنو له الكتابب ذلاً
 و إذا افتّر ثغره عن سوادفى بياض فالبيض و السمر خجلى
 أنت بدر و الكاتب ابن هلال كآبيه لا فخر فيمن تولى و منها:
 إن يكن أولاً، فإنك بالفضل أولى، لقد سبقت و صلى و هى طويلة، و الكاتب ابن هلال هو ابن البوّاب الذى هو أشهر من أن يعرّف.
 و فيها توفى جلال الدين الحسن، و هو من أولاد الحسن بن الصباح، الذى تقدّم ذكره، صاحب الموت و كردكوه، و هو مقدّم
 الإسماعيلية، و قد ذكرنا أنّه كان قد أظهر شريعة الإسلام من الأذان و الصلاة، و ولى بعد ابنه علاء الدين محمد.

[١] أردناه.

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٤٠٦

٦١٩ ثم دخلت سنة تسع عشرة و ستمائة

ذكر خروج طائفة من قفجاق إلى أذربيجان و ما فعلوه بالكرج و ما كان منهم

فى هذه السنة اجتمع طائفة كثيرة من القفجاق و فارقوا بلادهم لَمّا استولى عليها التتر، و ساروا إلى دربند شروان، و أرسلوا إلى
 صاحبه، و اسمه رشيد، و قالوا له: إنّ التتر قد ملكوا بلادنا، و نهبوا أموالنا «١»، و قد قصدناك لنقيم فى بلادك، و نحن ممالك لك،
 و نفتح البلاد لك و [تكون] أنت سلطاننا، فمنعهم من ذلك و خافهم، فأعادوا الرسالة إليه: إنّنا نحن نرهن عندك أولادنا و نساءنا على
 الطاعة و الخدمة لك، و الانقياد لحكمك، فلم يجبههم إلى ما طلبوا، فسألوه أن يمكّنهم «٢» ليتزوّدوا من بلده، تدخل عشرة عشرة، فإذا
 اشتروا ما يحتاجون [١] إليه فارقوا بلادهم، فأجابهم إلى ذلك، فصاروا يدخلون متفرّقين، و يشترون ما يريدون، و يخرجون.
 ثمّ إنّ بعض كبرائهم و المقدمين منهم جاء إلى رشيد و قال: إنّنى كنت فى خدمة السلطان خوارزم شاه، و أنا مسلم، و الدين يحملنى
 على نصحك، اعلم أنّ قفجاق أعداؤك، و يريدون الغدر بك، فلا تمكّنهم من المقام ببلادك،

[١] يحتاجوا.

(١). إنّ التتر ... أموالنا و A. mo

(٢). يمكنهم من دخول المدينة A.

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٤٠٧

فأعطنى عسكريا حتّى أقاتلهم و أخرجهم من البلاد. ففعل ذلك، و سلّم إليه طائفة من عسكريه، و أعطاهم ما يحتاجون إليه من سلاح و
 غيره، فساروا معه، فأوقعوا بطائفة من قفجاق، فقتل منهم جماعة و نهب منهم، فلم يتحرّك قفجاق لقتال بل قالوا: نحن ممالك الملك
 شروان شاه رشيد، و لو لا ذلك لقاتلنا عسكريه، فلَمّا عاد ذلك المقدّم القفجاقىّ و معه عسكري رشيد سالمين، فرح بهم.
 ثمّ إنّ قفجاق فارقوا موضعهم، فساروا ثلاثة أيام، فقال ذلك القفجاقىّ لرشيد: أريد عسكرياً أتبعهم [به و أغنم ما معهم]، فأمر له من
 العسكري بما أراد، فسار يقفو أثر القفجاق، فأوقع بأواخرهم، و غنم منهم.
 و قصده جمع كثير من قفجاق من الرجال و النساء ييكون، و قد جزّوا شعورهم، و معهم تابوت، و هم محيطون به ييكون حوله، و قالوا

له: إِنَّ صديقك فلانا قد مات، وقد أوصى أن نحمله إليك فتدفنه [فى] أى موضع شئت، و نكون نحن عندك، فحمله معه و الذين يكون عليه أيضا، و عاد إلى شروان شاه رشيد، و أعلمه أن الميت صديق له، و قد حمله معه، و قد طلب أهله أن يكونوا عنده فى خدمته، فأمر أن يدخلوا البلد، و أنزلهم فيه.

فكان أولئك الجماعة يسرون مع ذلك المقدم، و يركبون بركوبه، و يصعدون معه إلى القلعة التى لرشيد، و يقعدون عنده، و يشربون معه هم و نساؤهم، فأحب رشيد امرأة ذلك الرجل الذى قيل له: إنه ميت، و لم يكن مات، و إنما فعلوا هكذا مكيدة حتى دخلوا البلد و الذى أظهروا موته معهم فى المجلس، و لا يعرفه رشيد، و هو من أكبر مقدمى قفجاق، فبقوا كذلك عدة أيام، فكل يوم يجىء جماعة من قفجاق متفرقين، فاجتمع بالقلعة منهم جماعة، و أرادوا قبض رشيد و ملك بلاده «١»، ففطن لذلك، فخرج عن القلعة من باب السر، و هرب و مضى إلى شروان. و ملك قفجاق القلعة، و قالوا لأهل

(١). و ملك بلاده. A. mo

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٤٠٨

البلد: نحن خير لكم من رشيد، و أعادوا باقى أصحابهم إليهم، و أخذوا السلاح الذى فى البلد جميعه، و استولوا على الأموال التى كانت لرشيد فى القلعة، و رحلوا عن القلعة، و قصدوا قبله، و هى للكرج، فنزلوا عليها و حصروها. فلما سمع رشيد بمفارقتهم القلعة رجع إليها و ملكها «١»، و قتل من بها من قفجاق، و لم يشعر القفجاق الذين عند قبله بذلك، فأرسلوا طائفة منهم إلى القلعة، فقتلهم رشيد أيضا، فبلغ الخبر إلى القفجاق، فعادوا إلى دربند، فلم يكن لهم «٢» فى القلعة طمع. و كان صاحب قبله، لما كانوا يحصرونه، قد أرسل إليهم، و قال لهم:

أنا أرسل «٣» إلى ملك الكرج حتى يرسل إليكم الخلع و الأموال، و نجتمع نحن و أنتم و نملك البلاد، فكفوا عن نهب ولايته أياما، ثم إنهم مدوا أيديهم بالنهب و الفساد، و نهبوا بلاد قبله جميعها، و ساروا إلى قرب كنجه من بلاد أران، و هى للمسلمين، فنزلوا هناك، فأرسل إليهم الأمير بكنجه، و هو مملوك لأوزبك صاحب أذربيجان «٤» اسمه كوشخه، عسكرا فمنعهم من الوصول إلى بلاده «٥»، و سیر رسولا إليهم يقول لهم: غدرتم بصاحب شروان، و أخذتم قلعتة، و غدرتم بصاحب قبله، و نهبتم بلاده، فما يثق بكم أحد، فأجابوا: إننا ما جئنا إلّا قصدًا لخدمه سلطانكم، فمنعنا شروان شاه عنكم، فلهذا قصدنا بلاده، و أخذنا قلعتة، ثم تركناها من غير خوف، و أما صاحب قبله فهو عدوكم و عدونا، و لو أردنا أن نكون عند الكرج لما كنّا جعلنا طريقنا على دربند شروان، فإنه أصعب و أدقّ و أبعد، و كنّا جئنا إلى بلادهم «٦»

(١). رجع إلى قلعة دربند و ملكها. A.

(٢). لهم فيها مطمع و أرسل إليهم صاحب قبله يستميلهم و يقول لهم أنا أرسل. A.

(٣).

(٤). أذربيجان و أران. A.

(٥). يمنعهم من دخول بلاده. A.

(٦). بلادهم من طريق القريب على. A.

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٤٠٩

على عادتنا و نحن نوجه الرهائن إليكم.

فلما سمع كوشخه هذا سار إليهم، فسمع به قفجاق، فركب [١] أميران منهم، هما مقدماهم، فى نفر يسير، و جاءوا إليه و لقوه و

خدموه، وقالوا له: قد أتيناك جريده فى قلّة من العدد لتعلم أنّنا ما قصدنا إلّا الوفاء و الخدمة لسلطانكم، فأمرهم كوشخرة بالرحيل و النزول عند كنجّه، و تزوّج ابنه أحدهم «١»، و أرسل إلى صاحبه أوزبك يعرّفه حالهم، فأمر لهم بالخلع و النزول بجبل كيلكون «٢»، ففعلوا ذلك.

و خافهم الكرج، فجمعوا لهم ليكبسوه، فوصل الخبر بذلك إلى كوشخرة أمير كنجّه، فأخبر قفجاق، و أمرهم بالعود و النزول عند كنجّه، فعادوا و نزلوا عندها، و سار أمير من أمراء قفجاق فى جمع منهم إلى الكرج، فكبسهم، و قتل كثيرا منهم، و هزمهم، و غنم ما معهم، و أكثر القتل فيهم و الأسر منهم، و تمّت الهزيمة عليهم، و رجع قفجاق إلى جبل كيلكون «٣»، فنزلوا فيه كما كانوا. فلما نزلوا أراد الأمير الآخر من أمراء قفجاق أن يؤثر فى الكرج مثل ما فعل صاحبه، فسمع كوشخرة، فأرسل إليه ينهيه عن الحركة إلى أن يكشف له خبر الكرج، فلم يقف، فسار إلى بلادهم فى طائفته، و نهب و خرّب و أخذ الغنائم، فسار «٤» الكرج فى طريق يعرفونها و سبقوه، فلما وصل إليهم قاتلوه، و حملوا عليه و على من معه على غزّه و غفلّه، فوضعوا السيف فيهم، و أكثروا القتل فيهم، و استنقذوا الغنائم منه، فعاد هو و من معه على أقبح حاله، و قصدوا برذعه.

[١] فركبوا.

(١). أحد من مقدميهم و أرسل.A.

(٢-٣). كيلكون: SA. ١٨٤٩، II، ٨٦٤. spU.

(٤). الغنائم و عاد فسار.B.

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٤١٠

و أرسلوا إلى كوشخرة يطلبون أن يحضر عندهم هو بنفسه و عسكره ليقصدوا الكرج فيأخذوا بثأرهم منهم، فلم يفعل «١»، و أخافهم، و قال: أنتم خالفتمونى، و عملتم برأيكم، فلا- أنجدكم بفارس واحد، فأرسلوا يطلبون الرهائن الذين لهم، فلم يعطهم، فاجتمعوا و أخذوا كثيرا من المسلمين عوضا من الرهائن، فثأر بهم المسلمون من أهل «٢» البلاد، و قاتلوه، فقتلوا منهم جماعة كثيرة، فخافوا، و ساروا نحو شروان، و جازوا إلى بلد اللكر، فطمع الناس فيهم، المسلمون و الكرج و اللكر و غيرهم، فأفنوهم قتلا و نهبا و أسرا و سبيا بحيث إنّ المملوك منهم كان يباع فى دربند شروان بالثمن البخس. الكامل فى التاريخ ج ١٢ ٤١٠ ذكر نهب الكرج بيلقان ص: ٤١٠

ذكر نهب الكرج بيلقان

فى هذه السنه، فى شهر رمضان، سار الكرج من بلادهم إلى بلاد أزان و قصدوا مدينة بيلقان، و كان التتر قد خرّبوها، و نهبوا كما ذكرناه قبل، فلما سار التتر إلى بلاد قفجاق عاد من سلم من أهلها إليها، و عمروا ما أمكنهم عمارته من سورها «٣». فبينما هم كذلك إذ أتاهم الكرج [و دخلوا البلد و ملكوه. و كان المسلمون فى تلك البلاد ألفوا من الكرج] «٤» أنّهم إذا ظفروا ببلد صانعوه بشيء من المال فيعودون عنهم، فكانوا أحسن الأعداء مقدرة، فلما كانت هذه الدفعة ظنّ المسلمون أنّهم يفعلون مثل ما تقدّم، فلم يبالغوا فى الامتناع «٥» منهم،

(١). منهم فلم يفعل.A. mo

(٢). فاجتمعوا ... من أهل.A. mo

(٣). عمارته من المساكن و السور. A.

(٤). P.C. ٧٤٠٢٤

(٥). الامتناع و لا فارقوا البلد مع معرفتهم بعجزهم، فلما. A.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٤١١

و لا هربوا من بين أيديهم، فلما ملك الكرج المدينة وضعوا السيف في أهلها، و فعلوا من القتل و النهب أكثر مما فعل بهم التتر. هذا جميعه يجرى، و صاحب بلاد أذربيجان أوزبك «١» بن البهلوان بمدينة تبريز، و لا يتحرك في صلاح، و لا يتجه «٢» لخير بل قد قنع بالأكل و إدمان الشرب و الفساد، فقبحه الله، و يسر للمسلمين من يقوم بنصرهم و حفظ بلادهم بمحمد و آله [١].

ذكر ملك بدر الدين قلعة شوش

في هذه السنة ملك بدر الدين، صاحب الموصل، قلعة شوش من أعمال الحميدية، و بينها و بين الموصل اثنا عشر فرسخا. و سبب ذلك أنها كانت هي و قلعة العقر متجاورتين لعماد الدين زنكي ابن أرسلان شاه «٣»، و كان بينهما من الخلف [٢] ما تقدم ذكره.

فلما كان هذه السنة «٤» سار زنكي إلى أذربيجان لخدم صاحبها أوزبك ابن البهلوان، فاتصل به، و صار معه، و أقطعه إقطاعات، و أقام عنده، فسار بدر الدين إلى قلعة شوش فحاصرها، و ضيق عليها «٥»، و هي على رأس جبل عال، فطال مقامه عليها لحصانتها، فعاد إلى الموصل، و ترك عسكره محاصرا

[١] و آلهم.

[٢] الخلق.

(١). و صاحب البلاد الإسلامية أوزبك. A.

(٢). نتيجة: ٤٧٢، J. SA ١٨٤٩، II.

(٣). أرسلان شاه و هما متجاورتان. A.

(٤). و كان بينهما ... السنة. A. mo

(٥). عليها و نصب عليها المجانيق و هي من أمتع الحصون على رأس. A.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٤١٢

سلموها على قاعدة استقرت بينهم، من أقطاع و خلع و غير ذلك، فتسلمها نوابه في التاريخ، و رتبوا أمورها و عادوا إلى الموصل.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة، في العشرين من شعبان، ظهر كوكب في السماء في الشرق، كبير له ذؤابة طويلة غليظة، و كان طلوعه وقت السحر، فبقى كذلك عشرة أيام، ثم إنه ظهر أول الليل في الغرب مما يلي الشمال، فكان كل ليلة يتقدم إلى جهة الجنوب نحو عشرة أذرع في رأى العين، فلم يزل يقرب من الجنوب حتى صار غربا محضا، ثم صار غربا مائلا إلى الجنوب، بعد أن كان غربا مما يلي الشمال، فبقى كذلك إلى آخر شهر رمضان من السنة ثم غاب.

و فيها توفي ناصر الدين محمود بن محمد قرا أرسلان، صاحب حصن كيفا و آمد، و كان ظالما قبيح السيرة في رعيته. قيل: إنه كان

يتظاهر بمذهب الفلاسفة في أن الأجساد لا تحشر، كذبوا لعنهم الله. ولما مات ملك ابنه الملك المسعود.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٤١٣

٦٢٠ ثم دخلت سنة عشرين و ستمائة

ذكر ملك صاحب اليمن مكّة، حرسها الله تعالى

في هذه السنة «١» سار الملك المسعود أّتسز ابن الملك الكامل محمّد، صاحب مصر، إلى مكّة، و صاحبها حينئذ حسن بن قتادة بن إدريس، العلويّ الحسيني، قد ملكها بعد أبيه، كما ذكرناه.

و كان حسن قد أساء إلى الأشراف و المماليك الذين كانوا لأبيه، و قد تفرّقوا عنه، و لم يبق عنده غير أخواله من غيره، فوصل صاحب اليمن إلى مكّة «٢»، و نهبها عسكره إلى العصر.

فحدّثني بعض المجاورين المتأهلين أنّهم نهبوا، حتّى أخذوا الثياب عن الناس، و أفقروهم، و أمر صاحب اليمن أن ينبش قبر قتادة و يحرق، فنبشوه، فظهر التابوت الذي دفنه ابنه الحسن و الناس ينظرون إليه، فلم يروا فيه شيئاً، فعلموا حينئذ أن الحسن دفن أباه سرّاً، و أنّه لم يجعل في التابوت شيئاً.

و ذاق الحسن عاقبة قطيعة «٣» الرحم، و عجل الله مقابله، و أزال عنه ما قتل أباه و أخاه و عمّه لأجله، خسر الدنيا و الآخرة، ذلك هو الخسران المبين.

(١). السنة في أولها ملك صاحب اليمن أّتسز ... بن العادل صاحب مصر مكّة و كان صاحبها. A. iuq

(٢). إلى مكّة رابع ربيع الآخر فلقية الحسن و قاتله بالمسعى ببطن مكّة فلم يثبت و ولي منهزماً ففارق مكّة فيمن معه و ملك أّتسز صاحب اليمن مكّة و نهبها. B.

(٣). عاقبة الظلم و قطيعة. B.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٤١٤

ذكر حرب بين المسلمين و الكرج بأرمينية

في هذه السنة، في شعبان، سار صاحب قلعة سرماري «١»، [و هي] من أعمال [أرمينية إلى] خلاط، لأنّه كان في طاعة صاحب خلاط، و هو حينئذ شهاب الدين غازي بن العادل أبي بكر بن أيّوب، فحضر عنده، و استخلف ببلده أميراً من أمرائه، فجمع هذا الأمير جمعا و سار إلى بلاد الكرج، فنهب منها عدّة قرى و عاد.

فسمعت الكرج بذلك، فجمع صاحب دوين، و اسمه شلوة «٢»، و هو من أكابر أمراء الكرج، عسكره [و سار] إلى سرماري فحصرها أيّاماً، و نهب بلدها و سوادها و رجع.

فسمع صاحب سرماري الخبر، فعاد إلى سرماري، فوصل إليها في اليوم الذي رحل الكرج عنها، فأخذ عسكره و تبعهم، فأوقع بساقتهم، فقتل منهم و غنم، و استنقذ بعض ما أخذوا من غنائم بلاده.

ثم إنّ صاحب دوين جمع عسكره و سار «٣» إلى سرماري ليحصرها، فوصل الخبر إلى صاحبها بذلك، فحصّنها، و جمع الذخائر و ما يحتاج إليه، فأتاه من أخبره أن الكرج نزلوا بواد بين دوين و سرماري، و هو واد ضيق، فسار جميع عسكره جريده، و جدّ السير ليكبس الكرج، فوصل إلى الوادي الذي هم فيه وقت السّحر، ففرّق عسكره فرقتين: فرقة من أعلى الوادي، و فرقة من أسفله، و حملوا عليهم و

هم غافلون، و وضعوا السيف فيهم،

(١). سرمن رأى P.C. euqibu .spU

(٢). II. sa J. rfC. سلوة: spU. شروء: P.C.

(٣). دوين حشد الكرج و سار. A.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٤١٥

فقتلوا و آسروا، فكان في جملة الأسرى شلوة أمير دوين، في جماعة كثيرة من مقدميهم «١»، و من سلم من الكرج عاد إلى بلدهم على حال سيئة.

ثم إن ملك الكرج أرسل إلى الملك الأشرف موسى بن العادل، صاحب ديار الجزيرة، و هو «٢» الذي أعطى خلاط و أعمالها الأمير شهاب الدين، يقول له «٣»: كنّا نظنّ أننا صلح، و الآن فقد عمل صاحب سرماي هذا العمل، فإن كنّا على الصلح فنريد إطلاق أصحابنا من الأسر، و إن كان الصلح قد انفسخ بيننا فتعرّفنا حتّى ندبر أمرنا.

فأرسل الأشرف إلى صاحب سرماي يأمره بإطلاق الأسرى و تجديد الصلح «٤» مع الكرج، ففعل ذلك و استقرت قاعدة الصلح، و أطلق الأسرى.

ذكر الحرب بين غياث الدين و بين خاله

في هذه السنة، في جمادى الآخرة «٥»، انهزم إيغان طائيسى، و هو خال غياث الدين بن خوارزم شاه محمد بن تكش، و غياث الدين هذا هو صاحب بلاد الجبل و الرّي و أصبهان و غير ذلك، و له أيضا بلاد كرمان «٦».

و كان سبب ذلك أنّ خاله إيغان طائيسى كان معه، و في خدمته، و هو أكبر أمير معه لا يصدر غياث الدين إلّا عن رأيه، و الحكم إليه في جميع المملكة، فلمّا عظم شأنه حدث نفسه بالاستيلاء على الملك، و حسن له ذلك غيره، و أطمعه فيه، قيل: إنّ الخليفة الناصر لدين الله أقطعته البلاد سراً، و أمره بذلك «٧»،

(١). من مقدمي الكرج و غنموا جميع ما معهم و عادوا سالمين و أما الكرج فمن سلم منهم عاد إلى بلده. A.

(٢-٣). الذي استتاب أخاه غازي بخلاط يقول له. A- صاحب خلاط و غيرها و هو. A.

(٤). الصلح من الجانبين فأطلق الأسرى و اصطالحوا و استقرت القواعد بينهم. A.

(٥). جمادى الأولى. A.

(٦). و غير ... كرمان. A. mo

(٧). قيل إن ... بذلك. A. mo

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٤١٦

فقويت نفسه على الخلاف، فاستفسد جماعة من العسكر و استمالهم.

فلمّا تمّ له أمره أظهر الخلاف على غياث الدين، و خرج عن طاعة «١» أوزبك، و صار في البلاد يفسد، و يقطع الطريق، و ينهب ما أمكنه من القرى و غيرها، و انضاف إليه جمع كثير من أهل العنف و الفساد، و معه مملوك آخر اسمه أيبك الشامي «٢»، و ساروا جميعهم إلى غياث الدين ليقاتلوه و يملكوا بلاده و يخرجوه منها، فجمع غياث الدين عسكره و التقوا بنواحي «٣»

و اقتتلوا، فانهزم خال غياث الدين و من معه، و قتل من عسكره و أسر كثير، و عاد المنهزمون إلى أذربيجان على أقبح حال، و أقام

غياث الدين فى بلاده و ثبت قدمه.

حادثة غريبة لم يوجد مثلها

كان أهل المملكة فى الكرج لم يبق منهم غير امرأة، و قد انتهى الملك إليها فوليته، و قامت بالأمر فيهم، و حكمت «٤»، فطلبوا لها رجلا يتزوجها و يقوم بالملك نيابة عنها، و يكون من أهل بيت مملكة، فلم يكن فيهم من يصلح لهذا الأمر. و كان صاحب أرزن الروم، هذا الوقت، هو مغيث الدين طغرل شاه بن

(١). طاعته و قصد أذربيجان و كان بها مملوك (لصاحبها أوزبك. A) اسمه بندى قد خرج عن طاعة صاحبه (و خالف عليه و نهب البلاد و أفسد فيها. A) (أوزبك و انضاف إليه جمع كثير من. هل العيث و الفساد و صار فى البلاد). B
(٢). الشامى فكثّر جمعهما و اتفقا مع خال غياث الدين و لحق بهم كل من يريد الفساد و النهب فقوى خال غياث الدين بهما و كثر حشدهم و ساروا إلى. A

(٣). بنواحي: mecovtittimo .P .C .ma nualtebahmednae

(٤). و حكمت عليهم. B

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٤١٧

قلج أرسلان بن مسعود قلج أرسلان «١»، و بيته مشهور من أكابر ملوك الإسلام، و هم من الملوك السلجوقية، و له ولد كبير، فأرسل إلى الكرج يطلب الملكة لولده ليتزوجها، فامتنعوا من إجابته، و قالوا: لا نفعل هذا، لأننا لا يمكننا أن يملك أمرنا مسلم. فقال لهم: إن ابنى يتنصّر و يتزوجها، فأجابوه إلى ذلك، فأمر ابنه فتنصّر و دان بالنصرانية، و تزوج الملكة، و انتقل إليها، و أقام عند الكرج حاكما فى بلادهم، و استمرّ على النصرانية، نعوذ بالله من الخذلان، و نسأله أن يجعل خير أعمالنا آخرها، و خير أعمالنا خواتيمها، و خير أيامنا يوم نلقاه.

ثم كانت هذه الملكة الكرجية تهوى مملوكا لها، فكان زوجها يسمع عنها القبايح و لا يمكنه الكلام لعجزه، ثم إنه يوما دخل عليها فرآها نائمة مع مملوكها فى فراش، فأنكر ذلك و واجهها بالمنع منه، فقالت: إن رضيت بهذا، و إلا أنت أخبر. فقال: إننى لا أرضى بهذا، فنقلته إلى بلد آخر، و وكلت به من يمنعه من الحركة، و حجرت عليه، و أرسلت إلى بلد اللان و أحضرت رجلين كانا قد وصفا بحسن الصورة، فتزوجت أحدهما، فبقى معها يسيرا، ثم إنهما فارقت، و أحضرت إنسانا آخر من كنجة، و هو مسلم، فطلبت منه أن يتنصّر ليتزوجها، فلم يفعل، فأرادت أن تتزوج و هو مسلم، فقام عليها جماعة الأمراء، و معهم إيوانى «٢»، و هو مقدّم العساكر الكرجية، فقالوا لها:

قد افتضحنا بين الملوك بما تفعلين ثم تريدين أن يتزوجك مسلم، و هذا لا نمكّن منه أبدا، و الأمر بينهم متردد و الرجل الكنجى عندهم لم يجبههم إلى الدخول فى النصرانية، و هى تهواه.

(١). بن قلج أرسلان. B

(٢). أبوابى: J. SA. ١٨٤٩، II، ٦٧٤. spU.

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٤١٨

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة كان الجراد في أكثر البلاد، وأهلك كثيرا من الغلات والخضر بالعراق والجزيرة وديار بكر وكثير من الشام وغيرها. وفيها، في رمضان، توفي عبد الرحمن بن هبة الله بن عساكر، الفقيه الشافعي الدمشقي، بها، وكان غزير العلم، عالما بالمذهب، كثير الصلاح والزهد والخير، رحمه الله.

وفيها خرج العرب في خلق كثير على حجاج الشام، وأرادوا قطع الطريق عليهم وأخذهم، وكان الأمير على الحجاج شرف الدين يعقوب بن محمد، وهو من أهل الموصل، أقام بالشام، وتقدم فيه، فمنعهم بالرغبة والرهبه، ثم صانعهم بمال و ثياب وغير ذلك، فأعطى الجميع من ماله، ولم يأخذ من الحجاج الدرهم الفرد، وفعل فعلا جميلا. وكان عنده كثير من العلوم، ويرجع إلى دين متين. الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٤١٩

٦٢١ ثم دخلت سنة إحدى وعشرين و ستمائة

ذكر عود طائفة من التتر إلى الرّي و همذان وغيرهما

أول هذه السنة وصل طائفة من التتر من عند ملكهم جنكزخان، وهؤلاء غير الطائفة الغربية التي ذكرنا أخبارها قبل وصول هؤلاء الرّي، وكان من سلم من أهلها قد عادوا إليها وعمروها، فلم يشعروا بالتتر إلّا وقد وصلوا إليهم، فلم يمتنعوا عنهم، فوضعوا في أهلها السيف وقتلوه كيف شاءوا، ونهبوا البلد وخربوه، وساروا إلى ساوة ففعلوا بها كذلك، ثم إلى قم وقاشان، وكانتا قد سلمتا من التتر أولا، فإنهم لم يقربوهما، ولا أصاب أهلها [١] أذى، فأتاهما هؤلاء وملكوهما، وقتلوا أهلها، وخربوهما، وألحقوهما بغيرهما من البلاد الخراب.

ثم ساروا في البلاد يخربون ويقتلون وينهبون، ثم قصدوا همذان، وكان قد اجتمع بها كثير ممن سلم من أهلها، فأبادوهم قتلا وأسرا ونهبوا، وخربوا البلد.

وكانوا لما وصلوا إلى الرّي رأوا بها عسكرا كثيرا من الخوارزمية، فكبسوهم وقتلوا منهم، وانهزم الباقون إلى أذربيجان، فتلوا بأطرافها، فلم يشعروا إلّا والتتر أيضا قد كبسوهم ووضعوا السيف فيهم، فولوا منهزمين، فوصل

[١] أهلها.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٤٢٠

طائفة منهم إلى تبريز «١»، وأرسلوا إلى صاحبها أوزبك بن البهلوان يقولون:

إن كنت موافقا فسلم إلينا من عندك من الخوارزمية، وإلّا فعرفنا أنك غير موافق لنا، ولا في طاعتنا، فعمد إلى من عنده من الخوارزمية فقتل بعضهم وأسّر بعضهم، وحمل الأسرى والرءوس إلى التتر، وأنفذ معها من الأموال والثياب والدواب شيئا كثيرا، فعادوا عن بلاده نحو خراسان، فعلوا هذا وليسوا في كثرة، كانوا نحو ثلاثة آلاف فارس، وكان الخوارزمية الذين انهزموا منهم نحو ستة آلاف راجل، وعسكر أوزبك أكثر من الجميع، ومع هذا فلم يحدث نفسه ولا الخوارزمية بالامتناع منهم.

نسأل الله أن يبيّر للإسلام والمسلمين من يقوم بنصرتهم، فقد دفعوا إلى أمر عظيم من قتل النفوس، ونهب الأموال، واسترقاق الأولاد، وسبي الحريم وقتلهم، وتخريب البلاد.

ذكر ملك غياث الدين بلاد فارس

قد ذكرنا أن غياث الدين بن خوارزم شاه محمد كان بالرّي، وله معها أصفهان وهمذان وما بينهما من البلاد، وله أيضا بلاد كرمان،

فلَمَّا هلك أبوه، كما ذكرناه، وصل التتر إلى بلاده، و امتنع بأصفهان، و حصره التتر فيها فلم يقدرُوا عليها، فلَمَّا فارق التتر بلاده، و ساروا إلى بلاد قفجاق، عاد ملك البلاد و عمر ما أمكنه منها، و أقام بها إلى أواخر سنة عشرين و ستمائة، و جرى له ما ذكرناه. ففى آخر سنة عشرين و ستمائة سار إلى بلاد فارس فلم يشعر صاحبها، و هو

(١). تبريز و تفرق الباقون و وصل التتر إلى قرب تبريز. B

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٤٢١

أتابك سعد بن دكلا، إذ وقد وصل غياث الدين إلى أطراف بلاده، فلم يتمكّن من الامتناع، فقصد قلعة إصطخر فاحتّمى بها، و سار غياث الدين إلى مدينة شیراز، و هى كرسى مملكة فارس، و أكبرها و أعظمها، فملكها بغير تعب أوّل سنة إحدى و عشرين و ستمائة، و بقى غياث الدين بها، و استولى على أكثر البلاد، و لم يبق بيد سعد إلّا الحصون المنيعّة. فلَمَّا طال الأمر على سعد صالح غياث الدين على أن يكون لسعد من البلاد قسم اتّفقوا عليه، و لغياث الدين الباقي، و أقام غياث الدين بشيراز، و ازداد إقامته و عزما على ذلك لَمَّا سمع أن التتر قد عادوا إلى الرّى و البلاد التى له و خرّبوها.

ذكر عصيان شهاب الدين غازى على أخيه الملك الأشرف و أخذ خلاط منه

كان الملك الأشرف موسى بن العادل أبى بكر بن أيوب قد أقطع أخاه شهاب الدين غازى مدينة خلاط و جميع أعمال أرمينية، و أضاف إليها ميفارقين و حانى و جبل جور، و لم يقنع بذلك حتّى جعله ولىّ عهده فى البلاد التى له جميعها، و حلّف له جميع النّوّاب و العساكر فى البلاد.

فلَمَّا سلّم إليه أرمينية سار إليها، كما ذكرناه، و أقام بها إلى آخر سنة عشرين و ستمائة، فأظهر مغاضبة أخيه الملك الأشرف، و التجنّى عليه و العصيان، و الخروج عن طاعته، فراسله الأشرف يستميله و يعاتبه على ما فعل، فلم يرد، و لا ترك ما هو عليه، بل أصرّ على ذلك، و اتّفق هو و أخوه المعظم عيسى، صاحب دمشق، و مظفر الدين بن زين الدين، صاحب إربل،

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٤٢٢

على الخلاف للأشرف، و الاجتماع على محاربته، و أظهرُوا ذلك.

و علم الأشرف فأرسل إلى أخيه الكامل بمصر يعرّفه ذلك، و كانا متفقين، و طلب منه نجدة، فجّهز العساكر و أرسل إلى أخيه، صاحب دمشق، يقول له:

إن تحرّكت من بلدك سرت إليه و أخذته، و كان قد سار نحو ديار الجزيرة للميعاد الذى بينهم، فلَمَّا وصلت إليه رسالته أخيه، و سمع بتجهيز العساكر، عاد إلى دمشق.

و أمّا صاحب إربل فإنّه جمع العساكر و سار إلى الموصل، فكان منه ما ذكره إن شاء الله.

و أمّا الأشرف فإنّه لَمَّا تيقّن عصيان أخيه جمع العساكر من الشام، و الجزيرة، و الموصل، و سار إلى خلاط، فلَمَّا قرب منها خافه أخوه غازى، و لم يمكن له قوّة على أن يلقاه محارباً، ففرّق عسكره فى البلاد ليحصىّنها، و انتظر أخوه صاحب دمشق أن يسير صاحب إربل إلى ما يجاوره من الموصل و سنجار، و أن يسير أخوه إلى بلاد الأشرف عند الفرات [١]: الرّقّة و حرّان و غيرهما، فيضطرّ الأشرف حينئذ إلى العود عن خلاط.

فسار الأشرف إليه، و قصد خلاط، و كان أهلها يريدونه، و يختارون دولته لحسن سيرته، كانت فيهم، و سوء سيرة غازى، فلَمَّا حصرها سلّمها أهلها إليه يوم الاثنين ثانى عشر جمادى الآخرة، و بقى غازى فى القلعة ممتنعاً، فلَمَّا جئته الليل نزل إلى أخيه معتذراً و متّصّلاً، فعاتبه الأشرف و أبقى عليه و لم يعاقبه على فعله، لكن أخذ البلاد منه و أبقى عليه ميفارقين.

[١] الفراء.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٤٢٣

ذكر حصار صاحب إربل الموصل

قد ذكرنا اتفاق مظفر الدين كوكبرى بن زين الدين على، صاحب إربل، و شهاب الدين غازي، صاحب خلاط، و المعظم عيسى، صاحب دمشق، على قصد بلاد الملك الأشرف، فأما صاحب دمشق فإنه سار عنها مراحل يسيرة و عاد إليها لأن أخاه صاحب مصر أرسل إليه يتهدده إن سار عن دمشق أنه يقصدها و يحصرها، فعاد.

و أما غازي فإنه استحضر في خلاط، و أخذت منه كما ذكرناه.

و أمّا صاحب إربل فإنه جمع عسكره و سار إلى بلد الموصل و حصرها و نازلها يوم الثلاثاء ثالث عشر جمادى الآخرة، ظنّا منه أنّ الملك الأشرف إذا سمع بنزوله عليها رحل عن خلاط، و يخرج غازي في طلبه، فتخبّط أحواله، و تقوى نفس صاحب دمشق على المجيء إليهم، فلمّا نازل الموصل كان صاحبها بدر الدين لؤلؤ قد أحكم أمورها من استخدام الجند على الأسوار، و إظهار آلة الحصار، و إخراج الذخائر.

و إنّما قوى طمع صاحب إربل على حصر الموصل لأن أكثر عسكرها كان قد سار إلى الملك الأشرف إلى خلاط و قد قلّ العسكر فيها، و كان الغلاء شديدا في البلاد جميعها، و السعر في الموصل كلّ ثلاثة مكاييك بدینار، فلهذا السبب أقدم على حصرها، فلمّا نزل عليها أقام عشرة أيام ثمّ رحل عنها يوم الجمعة لتسع بقين من جمادى الآخرة.

و كان سبب رحيله أنّه رأى امتناع البلد عليه، و كثرة من فيه، و عندهم من الذخائر ما يكفيهم الزمان الكثير، و وصل إليه خبر الملك الأشرف أنّه ملك خلاط، فانفسخه عليه كلّ ما كان يؤمله من صاحبها و من دمشق، و بقي

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٤٢٤

وحده متلبّسا بالأمر، فلمّا وصلت الأخبار إليه بذلك سقط في يده، و رأى أنّه قد أخطأ الصواب، فرحل عائدا إلى بلده، و أقام على [الزب] و مدّة مقامه على الموصل لم يقاتلها، إنّما كان في بعض الأوقات يجيء بعض اليزك الذين له يقاتلون البلد، فيخرج إليهم بعض الفرسان، و بعض الرّجاله، فيجري بينهم قتال ليس بالكثير ثمّ يتفرّقون، و ترجع كلّ طائفة إلى صاحبها.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة، أوّل آب، جاء ببغداد مطر برعد و برق، و جرت المياه بباب البصرة و الحربيّة، و كذلك بالمحوّل، بحيث إنّ الناس كانوا يخوضون في الماء و الوحل بالمحوّل.

و فيها سار صاحب المخزن إلى بعقوبا في ذى القعدة، فعسف أهلها، فنقل إليه عن إنسان منها أنّه يسبّه، فأحضره و أمر بمعاقبته، و قال له: لم تسبني؟

فقال له: أنتم تسبون أبا بكر و عمر لأجل أخذهما فذك، و هي عشر نخلات لفاطمة، عليها السلام، و أنتم تأخذون مني ألف نخلة و لا أتكلّم؟ فعفا عنه.

و فيها وقعت فتنة بواسط بين السّنة و الشيعة على جاري عادتهم.

و فيها قلت الأمطار في البلاد، فلم يجئ منها شيء إلى سباط، ثمّ إنّها كانت تجيء في الأوقات المتفرقة مجيئا قريبا لا يحصل منه الرّى للزرع، فجاءت الغلات قليلة، ثم خرج عليها الجراد، و لم يكن في الأرض من النبات ما يشتغل [١] به عنها، فأكلها إلّا القليل، و كان

كثيرا خارجا عن الحدّ، فغلت الأسعار في العراق، و الموصل، و سائر ديار الجزيرة، و ديار بكر، و غيرها، و قلتّ الأقوات، إلّا أنّ أكثر الغلاء كان بالموصل و ديار الجزيرة.

[١] يشتمل.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٤٢٥

٦٢٢ ثم دخلت سنة اثنتين و عشرين و ستمائة

ذكر حصر الكرج مدينة كنجة

في هذه السنة سارت الكرج في جموعها إلى مدينة كنجة من بلاد أَرَان قصدا لحصرها، و اعتدوا لها بما أمكنهم من القوة لأنّ أهل كنجة كثير عددهم، قويّة شوكتهم، و عندهم شجاعة كثيرة من طول ممارستهم للحرب مع الكرج، فلمّا وصلوا إليها و نازلوها قاتلوا أهلها، عدّة أيام، من وراء السور، لم يظهر من أهلها أحد، ثمّ في بعض الأيام خرج أهل كنجة و من عندهم من العسكر من البلد، و قاتلوا الكرج بظاهر البلد أشدّ قتال و أعظمه، فلمّا رأى الكرج ذلك علموا أنّهم لا طاقة لهم بالبلد، فرحلوا بعد أن اتّخذ أهل كنجة فيهم. وَ رَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا «١».

ذكر وصول جلال الدين بن خوارزم شاه إلى خوزستان و العراق

في أوّل هذه السنة وصل جلال الدين بن خوارزم شاه محمّد بن تكش إلى بلاد خوزستان و العراق، و كان مجيئه من بلاد الهند، لأنّه كان وصل إليها

(١). ٢٥، ٣٣ roC.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٤٢٦

لَمّا قصد التتر غزنه، و قد ذكرنا ذلك جميعه، فلمّا تعدّر عليه المقام ببلاد الهند سار عنها على كرمان، و وصل إلى أصفهان و هي بيد أخيه غياث الدين، و قد تقدّمت أخباره، فملكها، و سار عنها إلى بلاد فارس، و كان أخوه قد استولى على بعضها، كما ذكرناه، فأعاد ما كان أخوه أخذه منها إلى أتاكبك سعد صاحبها، و صالحه، و سار من عنده إلى خوزستان، فحصر مدينة تستر في المحرّم و بها الأمير مظفر الدين المعروف بوجه السبع، مملوك الخليفة الناصر لدين الله، حافظا لها، و أميرا عليها، فحصره جلال الدين، و ضيق عليه، فحفظها وجه السبع، و بالغ في الحفظ و الاحتياط، و تفرّق الخوارزميّة ينيهون، حتّى وصلوا إلى بادرايا و باكسايا و غيرهما، و انحدر بعضهم إلى ناحية البصرة، فنهبوا هنالك، فسار إليهم شحنة البصرة، و هو الأمير ملتكين «١»، فسار إليهم فأوقع بهم، و قتل منهم جماعة، فدام الحصار نحو شهرين، ثمّ رحل عنها بغتة.

و كانت عساكر الخليفة، مع مملوكه جمال الدين قشتمر، بالقرب منه، فلمّا رحل جلال الدين لم يقدر العسكر على منعه، فسار إلى أن وصل إلى بعقوبا، و هي قرية مشهورة بطريق خراسان، بينها و بين بغداد نحو سبعة فراسخ، فلمّا وصل الخبر إلى بغداد تجهّزوا للحصار، و أصلحوا السلاح من الجروح، و القسيّ و النشاب، و التّفط، و غير ذلك، و عاد عسكر الخليفة إلى بغداد.

و أمّا عسكر [١] جلال الدين فنهب البلاد و أهلكتها، و كان قد وصل هو و عسكره إلى خوزستان في ضرّ شديد و جهد جهيد، و قلّة من الدوابّ، و الذي معهم فهو من الضعف إلى حدّ لا ينتفع به، فغنموا من البلاد جميعها، و استغنوا،

[١] عساكر.

(١). نلتكين: spU. ٠٤٧.A

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٤٢٧

و أكثروا من أخذ الخيل و البغال، فإنهم كانوا في غاية الحاجة إليه.

و سار من يعقوبا إلى دقوقا فحصروها، فصعد أهلها إلى السور و قاتلوه، و سبوه، و أكثروا من التكبير، فعظم ذلك عنده، و شق عليه، و جد في قتالهم، ففتحها عنوة و قهرا، و نهبتها عساكره، و قتلوا كثيرا من أهلها، فهرب من سلم منهم من القتل و تفرقوا في البلاد. و لما كان الخوارزميون على دقوقا سارت سرية منهم إلى البت و الراذان «١»، فهرب أهلها إلى تكريت، فتبعهم الخوارزمية، فجرى بينهم و بين عسكر تكريت وقعة شديدة، فعادوا إلى العسكر.

و لقد رأيت بعض أعيان أهل دقوقا و هم بنو يعلى، و هم أغنياء، فنهبوا، و سلم أحدهم، و معه ولدان له، و شيء يسير من المال، فسير ما سلم معه إلى الشام مع الولدين ليتجر بما ينتفعون به و ينفقونه على نفوسهم، فمات أحد الولدين بدمشق، و احتاط الحاكم على ما معهم، فلقد رأيت أباهم على حالة شديدة لا يعلمها إلا الله، يقول: أخذت الأموال و الأملاك، و قتل بعض الأهل، و فارق من سلم منهم الوطن بهذا القدر الحقيق، أردنا [أن] نكف به وجوهنا من السؤال، و نصون أنفسنا، فقد ذهب الولد و المال.

ثم سار إلى دمشق ليأخذ ما سلم مع ابنه الآخر، فأخذه و عاد إلى الموصل، فلم يبق غير شهر حتى توفي، إن الشقي بكل حبل يخنق. و أما جلال الدين فإنه لما فعل بأهل دقوقا ما فعل خافه أهل البوازيج، و هي لصاحب الموصل، فأرسلوا إليه يطلبون منه إرسال شحنة إليهم يحميهم، و بذلوا له شيئا من المال، فأجابهم إلى ذلك، و سير إليهم من يحميهم، قيل: كان بعض أولاد جنكزخان، ملك التتر، أسره جلال الدين في بعض حروبه

(١). الست و الداران: spU. البت و الراذان:

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٤٢٨

مع التتر، فأكرمهم، فحماهم، و أقام بمكانه إلى أواخر ربيع الآخر، و الرسل مترددة بينه و بين مظفر الدين، صاحب إربل، فاصطلحوا، فزار جلال الدين إلى أذربيجان، و في مدة مقام جلال الدين بخوزستان و العراق ثارت العرب في البلاد يقطعون الطريق، و ينهبون القرى، و يخيفون السبل، فنال الخلق منهم أذى شديد، و أخذوا في طريق العراق قفلين عظيمين كانا [١] سائرين إلى الموصل، فلم يسلم منهما [٢] شيء البتة.

ذكر وفاة الملك الأفضل وغيره من الملوك

في هذه السنة، في صفر، توفي الملك الأفضل على بن صلاح الدين يوسف ابن أيوب فجأة بقلعة سميساط، و كان عمره نحو سبع و خمسين سنة، و قد ذكرنا سنة تسع و ثمانين و خمسمائة عند وفاة والده، رحمه الله، ملكه مدينة دمشق و البيت المقدس، و غيرها من الشام، و ذكرنا سنة اثنتين و تسعين أخذ الجميع منه، ثم ذكرنا سنة خمس و تسعين ملكه ديار مصر، و ذكرنا سنة ست و تسعين أخذها منه، و انتقل إلى سميساط و أقام بها، و لم يزل بها إلى الآن، فتوفي بها.

و كان، رحمه الله، من محاسن الزمان، لم يكن في الملوك مثله، كان خيرا عادلا فاضلا حليما كريما قل أن عاقب على ذنب، و لم يمنع طالبا، و كان يكتب خطا حسنا، و كتابة [٣] جيدة، و بالجملة، فاجتمع فيه من الفضائل

[١] كانوا.

[٢] منهم.

[٣] و كناية.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٤٢٩

و المناقب ما تفرق في كثير من الملوك، لا- جرم حرم الملك و الدنيا، و عاداه الدهر، و مات بموته كلّ فعل جليل، فرحمه الله و رضى عنه.

و رأيت من كتابته أشياء حسنة، فمما بقي على خاطري منها أنه كتب إلى بعض أصحابه، لما أخذت دمشق منه، كتابا من فصوله: و أما أصحابنا بدمشق فلا علم لى بأحد منهم، و سبب ذلك أنى:

أى صديق سألت عنه، ففى الدّل و تحت الخمول فى الوطن

و أى ضدّ سألت حالته سمعت ما لا تحبّه أذنى فتركت السؤال عنهم، و هذا غاية الجودة فى الاعتذار عن ترك السؤال و الصاحب.

و لما مات اختلف أولاده و عمّهم قطب الدين موسى، و لم يقو أحد منهم على الباقين ليستبدّ بالأمر.

و مات فى هذه السنة صاحب أرزن الروم، و هو مغيث الدين طغرل بن قلعج أرسلان، و هو الذى سيّر ولده إلى الكرج، و تنصّر و تزوّج ملكة الكرج، و لما مات ملك بعده ابنه.

و مات فيها ملك أرزنكان.

و توفى فيها عزّ الدين الخضر بن إبراهيم بن أبى بكر بن قرا أرسلان بن داود ابن سقمان، صاحب خرت برت، و ملك بعده ابنه نور الدين أرتق شاه «١»، و كان المدبّر لدولته و دولة والده معين الدين بدر بن عبد الرحمن البغدائى الأصل الموصلى المنشأ.

(١). اردوشاه: ١(٠٤٧. spu.te).

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٤٣٠

ذكر خلع شروان شاه و ظفر المسلمين بالكرج

فى هذه السنة ثار على شروان شاه ولده فتزعه من الملك، و أخرجه من البلاد، و ملك بعده.

و سبب ذلك أنّ شروان شاه كان سيّئ السيرة، كثير الفساد و الظلم، يتعرّض لأموال الرعايا و أملاكهم، و قيل أيضا: إنّه كان يتعرّض للنساء و الولدان، فاشتدّت وطأته على الناس، فاتّفق بعض العسكر مع ولده، و أخرجوا أباه من البلاد، و ملك الابن، و أحسن السيرة، فأحبّه العساكر و الرعيّة، و أرسل الولد إلى أبيه يقول له: إننى [١] أردت أن أتركك فى بعض القلاع و أجرى لك الجرايات الكثيرة، و لكلّ من تحبّ أن يكون عندك، و الذى حملنى على ما فعلت معك سوء سيرتك و ظلمك لأهل البلاد، و كراهيتهم لك و لدولتك.

فلما رأى الأب ذلك سار إلى الكرج و استنصر بهم، و قرّر معهم أن يرسلوا معه عسكرا يعيدونه إلى ملكه، و يعطيهم نصف البلاد، فسوّروا معه عسكرا كثيرا، فسار حتّى قارب مدينة شروان، فجمع ولده العسكر، و أعلمهم الحال، و قال: إنّ الكرج متى حصرونا ربّما ظفروا بنا، و حينئذ لا يبقى أبى على أحد منا، و يأخذ الكرج نصف البلاد، و ربّما أخذوا الجميع، و هذا أمر عظيم، و رأى أنّنا نسير إليهم جريده و نلقاهم، فإن ظفروا بهم فالحمد لله، و إن ظفروا بنا فالحصر بين أيدينا، فأجابوه إلى ذلك.

فخرج فى عسكره، و هم قليل، نحو ألف فارس، و لقوا الكرج و هم فى ثلاثة آلاف مقاتل، فالتقوا، و اقتتلوا، و صبر أهل شروان،

فانهزم الكرج، فقتل كثير منهم، و أسر كثير، و من سلم عاد بأسوا حال، و شروان شاه

[١] إن.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٤٣١

المخلوع معهم، فقال له مقدمو الكرج: إننا لم نلق بسبيك خيرا، و لا نؤاخذك بما كان منك، فلا تقم ببلادنا، ففارقهم و بقي مترددا لا يأوى إلى أحد، و استقرّ ولده في الملك و أحسن إلى الجند و الرعيّة، و أعاده إلى الناس أملاكهم و مصادراتهم، فاجتبطوا بولايته.

ذكر ظفر المسلمين بالكرج أيضا

و في هذه السنة أيضا سار جمع من الكرج من تفليس يقصدون أذربيجان و البلاد التي بيد أوزبك، فزلوا وراء مضيق في الجبال لا يسلك إلّا للفارس بعد الفارس، فزلوا آمنين من المسلمين استضعافا لهم، و اغتاروا بحصانة موضعهم، و أنّه لا طريق إليهم. و ركب طائفة من العساكر الإسلامية و قصدوا الكرج، فوصلوا إلى ذلك المضيق، فجازوه مخاطرين، فلم يشعر الكرج إلّا و قد غشيهم المسلمون و وضعوا فيهم السيف فقتلوهم كيف شاءوا، و ولّى الباقون منهزمين لا يلوى والد على ولده، و لا أخ على أخيه، و أسر منهم جمع كثير صالح، فعظم الأمر عليهم، و عزموا على الأخذ بثأرهم، و الجدّ في قصد أذربيجان و استئصال المسلمين منه، و أخذوا يتجهّزون على قدر عزمهم.

فبينما هم في ذلك إذ وصل إليهم الخبر بوصول جلال الدين بن خوارزم شاه إلى مراغة، على ما ذكره إن شاء الله، فتركوا ذلك و أرسلوا إلى أوزبك، صاحب أذربيجان، يدعونه إلى الموافقة على ردّ جلال الدين، و قالوا: إن لم نتفق نحن و أنت، و إلّا أخذك، ثم أخذنا، فعاجلهم جلال الدين قبل اتّفاقهم و اجتماعهم، فكان ما ذكره إن شاء الله تعالى.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٤٣٢

ذكر ملك جلال الدين أذربيجان

في هذه السنة استولى جلال الدين على أذربيجان، و سبب ذلك أنّه لما سار من دقوقا، كما ذكرناه، قصد مراغة فملكها و أقام بها، و شرع في عمارة البلد، فاستحسنه، فلما وصل إليها أتاه الخبر أنّ الأمير إيغان طائيسى، و هو خال أخيه غياث الدين، قد قصد همذان قبل وصول جلال الدين بيومين.

و كان إيغان طائيسى هذا قد جمع عسكرا كثيرا يبلغون خمسة آلاف فارس. و نهب كثيرا من أذربيجان، و سار إلى البحر من بلد أَران، فشَتَّى هنالك لقلّة البرد، و لما عاد إلى همذان نهب أذربيجان أيضا مرّة ثانية.

و كان سبب مسيره إلى همذان أنّ الخليفة الناصر لدين الله راسله و أمره بقصد همذان، و أقطعه إيّاها و غيرها، فسار ليستولى عليها كما أمر، فلما سمع جلال الدين بذلك سار جريده إليه، فوصل إلى إيغان طائيسى ليلا، و كان إذا نزل جعل حول عسكره جميع ما غنموا من أذربيجان و أَران من خيل، و بغال، و حمير، و بقر، و غنم. فلما وصل جلال الدين أحاط بالجميع، فلما أصبح عسكر إيغان طائيسى و رأى العسكر و الجتر البذى يكون على رأس السلطان، علموا أنّه جلال الدين، فسقط في أيديهم لأنّهم كانوا يظنّونه عند دقوقا، فأرسل إيغان طائيسى زوجته، و هى أخت جلال الدين، تطلب له الأمان، فأمنه و أحضره عنده، و انضاف عسكره إلى عسكر جلال الدين، و بقي إيغان طائيسى وحده إلى أن أضاف إليه جلال الدين عسكرا غير عسكره، و عاد إلى مراغة، و أعجبه المقام بها.

و كان أوزبك بن البهلوان، صاحب أذربيجان و أَران، قد سار من تبريز

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٤٣٣

إلى كنيجه خوفا من جلال الدين، و أرسل جلال الدين إلى من فى تبريز من وال و أمير و رئيس يطلب منهم أن يتردد عسكره إليهم يمتارون، فأجابوه إلى ذلك و أطاعوه، فتردد العسكر إليها، و باعوا و اشتروا الأقوات و الكسوات و غيرها، و مدّوا أيديهم إلى أموال الناس، فكان أحدهم يأخذ الشيء و يعطى الثمن ما يريد، فشكا بعض أهل تبريز إلى جلال الدين منهم، فأرسل إليهم شحنة يكون عندهم، و أمره أن يقيم بتبريز، و يكفّ أيدي الجند عن أهلها، و من تعدّى على أحد منهم صلبه.

فأقام الشحنة، و منع الجند من التعدّى على أحد من الناس، و كانت زوجة أوزبك، و هى ابنة السلطان طغرل بن أرسلان بن طغرل بن محمد بن ملك شاه، مقيمة بتبريز، و هى كانت الحاكمة فى بلاد زوجها، و هو مشغول ببلداته من أكل و شرب و لعب.

ثم إن أهل تبريز شكوا من الشحنة و قالوا: إنّه يكلفنا أكثر من طاقتنا، فأمر جلال الدين أنّه لا يعطى إلّا ما يقيم به لا غير، ففعلوا ذلك، و سار جلال الدين إلى تبريز و حصرها خمسة أيام، و قاتل أهلها قتالا شديدا، و زحف إليها فوصل العسكر إلى السور، فأذعن أهلها بالطاعة، و أرسلوا يطلبون الأمان منه لأنّه كان يذمهم، و يقول: قتلوا أصحابنا المسلمين و أرسلوا رءوسهم إلى التتر الكفار، و قد تقدّمت الحادثة سنة إحدى و عشرين و ستّمائة، فخافوا منه لذلك، فلما طلبوا الأمان ذكر لهم فعلهم بأصحاب أبيه و قتلهم، فاعتذروا بأنهم لم يفعلوا شيئا من ذلك، و إنّما فعله صاحبهم، و لم يكن لهم من القدرة ما يمنعونه، فعذرهم، و أمنهم، و طلبوا منه أن يؤمّن زوجة أوزبك، و لا يعارضها فى الذى لها بأذربيجان و هو مدينه خوى و غيرها من ملك و مال و غيره، فأجابهم إلى ذلك.

و ملك البلد سابع عشر رجب من هذه السنة، و سّر زوجة أوزبك إلى

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٤٣٤

خوى، و معها طائفة من العسكر، مع رجل كبير القدر، عظيم المنزلة، و أمرهم بخدمتها، فإذا وصلت إلى خوى عادوا عنها. و لَمّا رحل جلال الدين إلى تبريز أمر أن لا يمنعوا عنه أحدا من أهلها، فأتاه الناس مسلمين عليه، فلم يحجّبا عنه، و أحسن إليهم، و بثّ فيهم العدل، و وعدهم الإحسان و الزيادة منه، و قال لهم: قد رأيتم ما فعلت بمراغة من الإحسان و العماره بعد أن كانت خرابا، و سترون كيف أصنع معكم من العدل فيكم، و عماره بلادكم.

و أقام إلى يوم الجمعة، فحضر الجامع، فلما خطب الخطيب و دعا للخليفة قام قائما، و لم يزل كذلك حتّى فرغ من الدعاء و جلس. و دخل إلى كشك كان أوزبك قد عمره، و أخرج عليه من الأموال كثيرا، فهو فى غاية الحسن، مشرف على البساتين، فلما طاف فيه خرج منه و قال:

هذا مسكن [١] الكسالى لا يصلح لنا. و أقام أياما استولى فيها على غيرها من البلاد، و سّر الجيوش إلى بلاد الكرج.

ذكر انهزام الكرج من جلال الدين

قد ذكرنا فيما تقدّم من السنين ما كان الكرج يفعلونه فى بلاد الإسلام:

خلاط، و أذربيجان، و أرّان، و أرزن الروم، و دربند شروان، و هذه ولايات تجاور بلادهم، و ما كانوا يسفكون من دماء المسلمين، و ينهبون من أموالهم، و يملكون من بلادهم، و المسلمون معهم فى هذه البلاد تحت الذلّ و الخزي، كلّ يوم قد أغاروا عليهم و قتلوا فيهم، و قاطعوه على ما شاءوا

[١]- مساكن.

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٤٣٥

من الأموال، فكنا سمعنا بشيء من ذلك سألنا الله تعالى، نحن و المسلمون، فى أن ييسّر للإسلام و المسلمين من يحميهم و ينصرهم، و يأخذ بثأرهم، فإن أوزبك، صاحب أذربيجان، منعكف على شهوة بطنه و فرجه، لا يفيق من سكره، و إن أفاق فهو مشغول

بالقمار بالبيض.

وهذا ما لم يسمع بمثله أن أحدا من الملوك فعله، لا يهتدى لمصلحة، ولا يغضب لنفسه بحيث إن بلاده مأخوذة، وعساكره طماعة، ورعيته قد قهرها، وقد كان كل من أراد أن يجمع جمعا ويتغلب على بعض البلاد فعل، كما ذكرناه من حال بغدي، وأبيك الشامي، وإيغان طائيسي، فنظر الله تعالى إلى أهل هذه البلاد المساكين بعين الرحمة، فرحمهم ويسر لهم جلال الدين هذا، ففعل بالكرج ما تراه، وانتقم للإسلام والمسلمين منهم فنقول:

في هذه السنة كان المصاف بين جلال الدين بن خوارزم شاه [و بين الكرج، في شهر شعبان، فإن جلال الدين] من حين وصل إلى هذه النواحي لا يزال يقول: إنني أريد [أن] أقصد بلاد الكرج وأقاتلهم وأملك بلادهم، فلما ملك أذربيجان أرسل إليهم يؤذنها بالحرب، فأجابوه بأننا قد قصدنا التتر الذين فعلوا بأبيك، وهو أعظم منك ملكا، وأكثر عسكريا، وأقوى نفسا، ما تعلمه، وأخذوا بلادكم، فلم نبال بهم، وكان قصاراهم السلامة منا.

و شرعوا يجمعون العساكر، فجمعوا ما يزيد على سبعين ألف مقاتل، فسار إليهم، فملك مدينة دوين، وهي للكرج، كانوا قد أخذوها من المسلمين، كما ذكرناه، و سار منها إليهم، فلقوه وقاتلوه أشد قتال وأعظمه، وصبر كل منهم لصاحبه، فانهزم الكرج، وأمر أن يقتلوا بكل طريق، ولا يبقوا على أحد منهم، فالذي تحققناه أنه قتل منهم عشرون ألفا، وقيل: أكثر من ذلك، فليل: الكرج جميعهم قتلوا، وافترقوا، وأسر كثير من أعيانهم، من جملتهم شلوة، فتمت الهزيمة عليهم، ومضى إيوانى منهزما، وهو المقدم

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٤٣٦

على الكرج جميعهم، و مرجعهم إليه، و معولهم عليه، و ليس لهم ملك، إنما الملك امرأة،

و لقد صدق رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، حيث يقول: لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة.

فلما انهزم إيوانى أدركه [١] الطلب، فصعد قلعة لهم على طريقهم، فاحتوى فيها، وجعل جلال الدين عليها من يحصرها و يمنعه من النزول، و فرق عساكره في بلاد الكرج ينهبون، و يقتلون، و يسبون، و يخربون البلاد، فلو لا ما أتاه من تبريز ما أوجب عوده لملك البلاد بغير تعب ولا مشقة، لأن أهلها كانوا قد هلكوا، فهم بين قتل و أسير و طريق.

ذكر عود جلال الدين إلى تبريز و ملكه مدينة كنجة و نكاحه زوجة أوزبك

لما فرغ جلال الدين من هزيمة الكرج، و دخل البلاد و بث العساكر فيها، أمرهم بالمقام بها مع أخيه غياث الدين، و عاد إلى تبريز. و سبب عوده أنه كان قد خلف وزيره شرف الملك في تبريز ليحفظ البلد، و ينظر في مصالح الرعية، فبلغه عن رئيس تبريز و شمس الدين الطغراني، و هو المقدم على كل من في البلد، و عن غيرهما من المقدمين، أنهم قد اجتمعوا، و تحالفوا على الامتناع على جلال الدين، و إعادة البلد إلى أوزبك، و قالوا: إن جلال الدين قد قصد بلاد الكرج، فإذا عصينا عليه و أحضرنا أوزبك و من معه من العساكر، يضطر جلال الدين إلى العود، فإذا عاد تبعه الكرج فلا يقدر على المقام، و يجتمع أوزبك و الكرج و يقصدونه، فينحل نظام أمره، و تتم عليه الهزيمة.

[١] فأدركه.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٤٣٧

فبنوا أمرهم على أن جلال الدين يسير الهوينا إلى بلاد الكرج، و يترى في الطريق احتياطا منهم، فلما اتفقوا على ذلك أتى الخبر إلى الوزير، فأرسل إلى جلال الدين يعرفه الحال، فأتاه الخبر و قد قارب بلاد الكرج، فلم يظهر من ذلك شيئا، و سار نحو الكرج مجدا، فلقبهم و هزمهم، فلما فرغ منهم قال لأمرأه عسكره: إنني قد بلغني من الخبر كذا و كذا، فتقيمون أنتم في البلاد على ما أنتم عليه من

قتل من ظفرت به، و تخريب ما أمكنكم من بلادهم، فإنني خفت أن أعزفكم قبل هزيمة الكرج لئلا يلحقكم وهن و خوف. فأقاموا على لهم، و عاد هو إلى تبريز، و قبض على الرئيس و الطغرائي و غيرهما، فأما الرئيس فأمر أن يطاف به على أهل البلد، و كل من له عليه مظلمة فليأخذها منه، و كان ظالما، ففرح الناس بذلك، ثم قتله، و أما الباقون فحبسوا، فلما فرغ منهم و استقام له أمر البلد تزوج زوجته أوزبك ابنه السلطان طغرل، و إنما صح له نكاحها لأنه ثبت عن أوزبك أنه حلف بطلاقها أنه لا يقتل مملوكا له اسمه «١» ... ثم قتله، فلما وقع الطلاق بهذه اليمين نكحها جلال الدين، و أقام بتبريز مدة، و سير منها جيشا إلى مدينة كنجة فملكوها، و فارقتها أوزبك إلى قلعة كنجة فتحصن فيها.

فبلغني أن عساكر جلال الدين تعرضوا لأعمال هذه القلعة بالنهب و الأخذ، فأرسل أوزبك إلى جلال الدين يشكو، و يقول: كنت لا أرضى بهذه الحال لبعض أصحابي، فأنا أسأل أن تكف الأيدي المتطرفة إلى هذه الأعمال عنها. فأرسل جلال الدين إليها من يحميها من التعرض لها من أصحابه و غيرهم.

(١). tse.4vniianucal.daE

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٢٣٨

ذكر وفاة الخليفة الناصر لدين الله

في هذه السنة، آخر ليلة من شهر رمضان، توفي الخليفة الناصر لدين الله أبو العباس أحمد بن المستضيء بأمر الله أبي محمد الحسن بن المستنجد بالله أبي عبد الله بن المستظهر بالله أبي العباس أحمد بن المظفر يوسف بن المقتضي لأمر الله أبي العباس محمد بن المقتدى بأمر الله أبي القاسم عبد الله بن الذخيرة محمد بن القائم بأمر الله أبي جعفر عبد الله بن القادر بالله أبي العباس أحمد بن إسحاق بن المقتدر بالله أبي الفضل جعفر بن المعتضد بالله أبي العباس أحمد بن الموفق أبي أحمد محمد بن جعفر المتوكل على الله، و لم يكن الموفق خليفة، و إنما كان ولي عهد أخيه المعتمد على الله، فمات قبل المعتمد، فصار ولده المعتضد بالله ولي عهد المعتمد على الله.

و كان المتوكل على الله ابن المعتصم بالله أبي إسحاق محمد بن هارون الرشيد ابن محمد المهدي بن أبي جعفر عبد الله المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، رضي الله عنهم.

نسب كأَنَّ عليه من شمس الصبحي نورا، و من فلق الصباح عمودا فكان في آباءه أربعة عشر خليفة، و هم كل من له لقب، و الباقون غير خلفاء، و كان فيهم من ولي العهد محمد بن القائم، و الموفق بن المتوكل، و أما باقي الخلفاء من بني العباس فلم يكونوا من آباءه، فكان السفاح أبو العباس عبد الله أخا المنصور ولي قبله، و كان موسى الهادي أخا الرشيد ولي قبله، و كان محمد الأمين و عبد الله المأمون ابنا الرشيد أخوي المعتصم وليا قبله، و كان محمد المنتصر بن المتوكل ولي بعده.

ثم ولي بعد المنتصر بالله المستعين بالله أبو العباس أحمد بن محمد بن المعتصم،

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٢٣٩

و ولي بعد المستعين المعتز بالله محمد، و قيل طلحة، و هو ابن المتوكل، و ولي بعد المعتز المهدي بالله محمد بن الواثق، ثم ولي بعده المعتمد على الله أحمد بن المتوكل، فالمنتصر، و المعتز، و المعتمد إخوة الموفق، و المهدي ابن عمه، و الموفق من أجداد الناصر لدين الله.

ثم ولي المعتضد بعد المعتمد، و ولي بعد المعتضد ابنه أبو محمد علي المكتفي بالله، و هو أخو المقتدر بالله، و ولي بعد المقتدر بالله أخوه القاهر بالله أبو منصور محمد بن المعتضد، و ولي بعد القاهر الرازي بالله أبو العباس محمد بن المقتدر.

ثم ولي بعده المتقي لله أبو إسحاق إبراهيم بن المقتدر، ثم ولي بعده المستكفي بالله أبو القاسم عبد الله [بن] المكتفي بالله علي بن المعتضد، ثم ولي بعده المطيع لله أبو بكر عبد الكريم، فالقاهر، والراضي، والمتقي، والمطيع بنوه، والمستكفي ابن لأخيه المكتفي. [ثم ولي] الطائع لله بن المقتدر، ثم ولي بعد الطائع القادر «١» بالله، و [هو] من أجداد الناصر لدين الله، ثم ولي بعده المستظهر بالله، [ثم ولي] بعده ابنه المسترشد بالله أبو منصور، و ولي بعد المسترشد بالله «٢» ابنه الراشد أبو جعفر، فالمسترشد أخو المتقي، والراشد بالله ابن أخيه، فجمع من ولي الخلافة ممن ليس في سياق نسب الناصر تسعة عشر خليفة.

و كانت أم الناصر أم ولد، تركية، اسمها زمرد، و كانت خلافته ستاً وأربعين سنة و عشرة أشهر و ثمانية و عشرين يوماً، و كان عمره نحو سبعين سنة تقريباً، فلم يل الخلافة أطول مدة منه إلّا ما قيل عن المستنصر بالله العلوي، صاحب مصر، فإنه ولي ستين سنة، و لا اعتبار به، فإنه ولي و له سبع سنين فلا تصح ولايته.

(١). المقتدر: spU.

(٢).

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٤٤٠

و بقي الناصر لدين الله ثلاث سنين عاطلاً عن الحركة بالكلية، و قد ذهبت إحدى عينيه و الأخرى يبصر بها إبصاراً ضعيفاً، و في آخر الأمر أصابه دوسنطاريا عشرين يوماً و مات.

و وزر له عدّة وزراء، و قد تقدّم ذكرهم، و لم يطلق في طول مرضه شيئاً كان أحدثه من الرسوم الجائرة، و كان قبيح السيرة في رعيته، ظالماً، فخرّب في أيامه العراق، و تفرّق أهله في البلاد، و أخذ أملاكهم و أموالهم، و كان يفعل الشيء و ضده، فمن ذلك أنّه عمل دور الضيافة ببغداد ليفطر الناس عليها في رمضان، فبقيت مدة، ثم قطع ذلك، ثم عمل دور الضيافة للحجاج، فبقيت مدة، ثم بطلها، و أطلق بعض المكوس التي جدّدها ببغداد خاصّة، ثم أعادها. و جعل جلّ همّه في رمي البندق، و الطيور المناسب، و سراويلات الفتوة، فبطل الفتوة في البلاد جميعها، إلّا من يلبس منه سراويل يدعى إليه، و لبس كثير من الملوك منه سراويلات الفتوة.

و كذلك أيضاً منع الطيور المناسب لغيره إلّا ما يؤخذ من طيوره، و منع الرمي بالبندق إلّا من ينتمي إليه، فأجابه الناس، بالعراق و غيره إلى ذلك، إلّا إنساناً واحداً يقال له ابن السفّ من بغداد، فإنه هرب من العراق و لحق بالشام، فأرسل إليه يرغبه في المال الجزيل ليرمي عنه، و ينسب في الرمي إليه، فلم يفعل، فبلغني أنّ بعض أصدقائه أنكر عليه الامتناع من أخذ المال، فقال: يكفيني فخراً أنّه ليس في الدنيا أحد إلّا يرمى للخليفة، إلّا أنا.

فكان غرام الخليفة بهذه الأشياء من أعظم الأمور، و كان سبب ما ينسبه العجم إليه صحيحاً من أنّه هو الذي أطمع التتر في البلاد، و راسلهم في ذلك، فهو الطامة الكبرى التي يصغر عندها كلّ ذنب عظيم.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٤٤١

ذكر خلافة الظاهر بأمر الله

قد ذكرنا سنة خمس و ثمانين و خمسمائة الخطبة للأمير أبي نصر محمد ابن الخليفة الناصر لدين الله بولاية العهد في العراق و غيره من البلاد، ثم بعد ذلك خلعه الخليفة من ولاية العهد، و أرسل إلى البلاد في قطع الخطبة له، و إنّما فعل ذلك لأنّه كان يميل إلى ولده الصغير عليّ، فاتفق أنّ الولد الصغير توفي سنة اثنتي عشرة و ستّمائة، و لم يكن للخليفة ولد غير وليّ العهد، فاضطرّ إلى إعادته، إلّا أنّه تحت الاحتياط و الحجر لا يتصرّف في شيء.

فلما توفي أبوه ولي الخلافة، و أحضر الناس لأخذ البيعة، و تلقّب بالظاهر بأمر الله، و عني أن أباه و جميع أصحابه أرادوا صرف الأمر

عنه، فظهر و وليّ الخلافة بأمر الله لا يسعى من أحد.

ولما وليّ الخلافة أظهر من العدل والإحسان ما أعاد به سنّة العمرين، فلو قيل إنّه لم يلّ الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز مثله لكان القائل، صادقا، فإنّه أعاد من الأموال المغصوبة في أيام أبيه وقبله شيئا كثيرا، وأطلق المكوس في البلاد جميعها، وأمر بإعادة الخراج القديم في جميع العراق، وأن يسقط جميع ما جدّده أبوه، وكان كثيرا لا يحصى، فمن ذلك أن قرية بعقوبا كان يحصل منها قديما نحو عشرة آلاف دينار، فلما تولّى الناصر لدين الله، كان يؤخذ منها كلّ سنة ثمانون ألف دينار، فحضر أهلها واستغاثوا، وذكروا أن أملاكهم أخذت حتّى صار يحصل منها هذا المبلغ، فأمر أن يؤخذ الخراج القديم وهو عشرة آلاف دينار، فقليل له إن هذا المبلغ يصل إلى المخزن، فمن أين يكون العوض؟ فأقام لهم العوض من جهات أخرى، فإذا كان المطلق من جهة واحدة سبعين ألف دينار، فما الظنّ بباقي البلاد؟

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٤٤٢

ومن أفعاله الجميلة أنّه أمر بأخذ الخراج الأوّل من باقى البلاد جميعها، فحضر كثير من أهل العراق، وذكروا أن الأملاك التي كان يؤخذ منها الخراج قديما قد يبس أكثر أشجارها و خربت، ومتى طولبوا بالخراج الأوّل لا يفى دخل الباقي بالخراج، فأمر أن لا يؤخذ الخراج إلّا من كلّ شجرة سليمة، وأما الذاهب فلا يؤخذ منه شيء، وهذا عظيم جدّا.

ومن ذلك أيضا أن المخزن كان له صنجة الذهب تزيد على صنجة البلد نصف قيراط، يقبضون بها المال، ويعطون بالصّينجة التي للبلد يتعامل بها الناس، فسمع بذلك فخرج خطّه إلى الوزير، وأوله وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ، أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ «١». قد بلغنا أن الأمر كذا وكذا، فتعاد صنجة المخزن إلى الصّينجة التي يتعامل بها المسلمون، واليهود، والنصارى.

فكتب بعض التّوّاب إليه يقول: إن هذا مبلغ كثير، وقد حسبناه فكان في السنة الماضية خمسة و ثلاثين ألف دينار، فأعاد الجواب ينكر على القائل، ويقول: لو أنّه ثلاث مائة ألف وخمسون ألف دينار يطلق.

وكذلك أيضا فعل في إطلاق زيادة الصنجة التي للديوان، وهى فى كلّ دينار حبة، وتقدّم إلى القاضى أن كلّ من عرض عليه كتابا صحيحا بملك يعيده إليه من غير إذن، وأقام رجلا صالحا فى ولاية الحشرى و بيت المال، وكان الرجل حنبليّا، فقال: إننى من مذهبي أن أورث ذوى الأرحام، فإن أذن أمير المؤمنين أن أفعل ذلك وليت و إلّا فلا. فقال له: أعط كلّ ذى حقّ حقّه، واتّق الله و لا تتّق سواه.

(١) (١٨٣، qq51).

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٤٤٣

ومنها أن العادة كانت ببغداد أن الحارس بكلّ درب ييكر، و يكتب مطالعة إلى الخليفة بما تجدد فى دربه من اجتماع بعض الأصدقاء ببعض على نزهة، أو سماع، أو غير ذلك، و يكتب ما سوى ذلك من صغير و كبير، فكان الناس من هذا فى حجر عظيم، فلما وليّ هذا الخليفة، جزاه الله خيرا، أنه المطالعات على العادة، فأمر بقطعها، وقال: أى غرض لنا فى معرفة أحوال الناس فى بيوتهم؟ فلا يكتب أحد إلينا إلّا ما يتعلّق بمصالح دولتنا، فقليل له:

إنّ العامة تفسد بذلك، و يعظم شرّها، فقال: نحن ندعو الله أن يصلحهم.

ومنها أنّه لما وليّ الخلافة وصل صاحب الديوان من واسط، و كان قد سار إليها الناصر لتحصيل الأموال، فأصعد، و معه من المال ما يزيد على مائة ألف دينار، و كتب مطالعة تتضمّن ذكر ما معه، و يستخرج الأمر فى حمله، فأعاد الجواب بأن يعاد إلى أربابه، فلا حاجة لنا إليه، فأعيد عليهم.

و منها أنه أخرج كل من كان في السجون، و أمر بإعادة ما أخذ منهم، و أرسل إلى القاضى عشرة آلاف دينار ليعطيها عن كل من هو محبوس فى حبس الشرع و ليس له مال.

و من حسن نيته للناس أن الأسعار فى الموصل و ديار الجزيرة كانت غالية، فرخصت الأسعار، و أطلق حمل الأطعمة إليها، و أن يبيع كل من أراد البيع للغلة، فحمل منها الكثير الذى لا يحصى، فقليل له: إن السعر قد غلا شيئاً، و المصلحة المنع منه، فقال: أولئك مسلمون، و هؤلاء مسلمون، و كما يجب علينا النظر فى أمر هؤلاء كذلك يجب علينا النظر لأولئك.

و أمر أن يباع من الأهواء التى له طعام أرخص مما يبيع غيره، ففعلوا ذلك، فرخصت الأسعار عندهم أيضاً أكثر مما كانت أولاً، و كان السعر فى الموصل، لئلا ولى، كل مكوك بدينار و ثلاثة قراريط، فصار كل أربعة مكايك بدينار فى أيام قليلة، و كذلك باقى الأشياء من التمر، و الدبس،

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٤٤٤

و الأرز، و السمس و غيرها، فإله تعالى يؤيده، و ينصره، و يبقيه، فإنه غريب فى هذا الزمان الفاسد. و لقد سمعت عنه كلمة أعجبتنى جداً، و هى أنه قيل له فى الذى يخرج و يطلقه من الأموال التى لا تسمح نفس ببعضها، فقال لهم: أنا فتحت الدكان بعد العصر، فاتركونى أفعل الخير، فكم أعيش؟ و تصدق ليله عيد الفطر من هذه السنة، و فرق فى العلماء و أهل الدين مائة ألف دينار.

ذكر ملك بدر الدين قلعتى العمادية و هروز

فى هذه السنة ملك بدر الدين قلعة العمادية من أعمال الموصل، و قد تقدم ذكر عصيان أهلها عليه سنة خمس عشرة و ستمائة، و تسليمها إلى عماد الدين زنكى، ثم عودهم إلى طاعة بدر الدين، و خلافهم على عماد الدين، فلما عادوا إلى بدر الدين أحسن إليهم، و أعطاهم الإقطاع الكثير، و ملكهم القرى، و وصلهم بالأموال الجزيلة و الخلع السيئة، فبقوا كذلك مدة يسيرة.

ثم شرعوا يرسلون عماد الدين زنكى، و مظفر الدين صاحب إربل، و شهاب الدين غازى بن العادل، لما كان بخلاط، و يعدون كلاً منهم بالانحياز إليه و الطاعة له، و أظهروا من المخالفة لبدر الدين ما كانوا يبتغونه، فكانوا لا يمكنون أن يقيم عندهم من أصحاب بدر الدين إلّا من يريدونه، و يمنعون من كرهوه، فطال الأمر، و هو يحتمل فعلهم و يداريهم، و هم لا يزدادون إلّا طمعا و خروجاً عن الطاعة.

و كانوا جماعة، فاختلفوا، ففوى بعضهم، و هم أولاد خواجه إبراهيم و أخوه و من معهم، على الباقين، فأخرجوهم عن القلعة، و غلبوا عليها، و أصروا

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٤٤٥

على ما كانوا عليه من النفاق.

فلما كان هذه السنة سار بدر الدين إليهم فى عساكره، فأتاهم بغته، فحصرهم، و ضيق عليهم، و قطع الميرة عنهم، و أقام بنفسه عليهم، و جعل قطعة من الجيش على قلعة هروز يحصرونها، و هى من أمنع الحصون و أحصنها، لا يوجد مثلها. و كان أهلها أيضاً قد سلكوا طريق أهل العمادية من عصيان، و طاعة، و مخادعة، فأتاهم العسكر و حصروهم و هم فى قلعة من الذخيرة، فحصرها أياماً، ففنى ما فى القلعة، فاضطر أهلها إلى التسليم، فسلموها و نزلوا منها.

و عاد العسكر إلى العمادية، فأقاموا عليها مع بدر الدين، فبقى بدر الدين بعد أخذ هروز يسيراً، و عاد إلى الموصل، و ترك العسكر بحاله مع ابنه أمين الدين لؤلؤ، فبقى الحصار إلى أول ذى القعدة، فأرسلوا يذعنون بالطاعة، و يطلبون العوض عنها ليسلموها، فاستقرت القواعد على العوض من قلعة يحتمون فيها، و أقطاع، و مال، و غير ذلك، فأجابهم بدر الدين إلى ما طلبوا، و حضر نوابهم ليحلّفوا بدر

الدين.

فبينما هو يريد أن يحلف لهم وقد أحضر من يشهد اليمين إذ قد وصل طائر من العمادية و على جناحه رقعة من أمين الدين لؤلؤ يخبر أنه قد ملك العمادية قهرا و عنوة، و أسر بنى خواجه الذين كانوا تغلبوا عليه، فامتنع بدر الدين من اليمين. و أما سبب غلبه أمين الدين عليها، فإنه كان قد ولّاه بدر الدين عليها لما عاد أهلها إلى طاعته، فبقى فيها مدّة، و أحسن فيهم، و استمال جماعة منهم ليتقوى بهم على الحرب للذين عصوا أولا، فسمى الخبر إليهم، فأساءوا مجاورته، و استقالوا من ولايته عليهم، ففارقهم إلى الموصل.

و كان أولئك الذين استمالهم يكاتبونه و يرأسونه، فلما حصرهم كانوا

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٤٤٦

أيضا يكاتبونه في الشباب يخبرونه بكل ما يفعله أولاد خواجه من إنفاذ رسول و غير ذلك، و بما عندهم من الذخائر و غيرها، إلّا أنهم لم يكونوا من الكثرة إلى حد أنهم يقهرون أولئك.

فلما كان الآن و استقرت القواعد من التسليم لم يذكر أولاد خواجه أحدا من جند القلعة في نسخة اليمين بمال، و لا غيره من أمان، و إقطاع، فسخطوا هذه الحال، و قالوا لهم: قد حلفتم لأنفسكم بالحصون و القرى و المال، و نحن قد خربت بيوتنا لأجلكم، فلم تذكرونا، فأهانوهم، و لم يلتفتوا إليهم، فحضر عند أمين الدين رجلا من منهم ليلا، و طلبوا منه أن يرسل إليهم جمعا يصعدونهم إلى القلعة، و يثبون بأولئك و يأخذونهم، فامتنع، و قال: أخاف أن لا يتم هذا الأمر و يفسد علينا كل ما فعلناه. فقالوا: نحن نقبض عليهم غدا بكرة، و تكون أنت و العسكر على ظهر، فإذا سمعتم النداء باسم بدر الدين و شعاره تصعدون إلينا، فأجابهم إلى ذلك.

و ركب بنفسه بكرة هو و العسكر على العادة، و أما أولئك فإنهم اجتمعوا، و قبضوا على أولاد خواجه و من معهم، و نادوا بشعار بدر الدين، فبينما العسكر قيام إذا الصوت من القلعة باسم بدر الدين، فصعدوا إليها و ملكوها، و تسلّم أمين الدين أولاد خواجه فحسبهم، و كتب الرقعة على جناح الطائر بالحال، و ملكوا القلعة صفوا عفوا بغير عوض، و كان يريد [أن] يغرم مالا جليلا، و أقطعا كثيرة، و حصنا منيعا، فتوفّر الجميع عليه، و أخذ منهم كل ما احتقبوه و آذروه، و إذا أراد الله أمرا فلا مردّ له.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٤٤٧

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة ليلة الأحد العشرين من صفر زلزلت الأرض بالموصل، و ديار الجزيرة، و العراق، و غيرها، زلزلة متوسطة. و فيها اشتدّ الغلاء بالموصل، و ديار الجزيرة جميعها، فأكل الناس الميتة، و الكلاب، و السنابير، فقلّت الكلاب و السنابير بعد أن كانت كثيرة [١]. و لقد دخلت يوما إلى داري، فرأيت الجوارى يقطعن اللحم ليطبخنه [٢]، فرأيت سنابير استكثرتها، فعددتها، فكانت اثني عشر سنّورا، و رأيت اللحم في هذا الغلاء في الدار و ليس عنده من يحفظه من السنابير لعدمها، و ليس بين المرتين كثير. و غلا مع الطعام كل شيء فبيع رطل الشّيرج بقيراطين بعد أن كان بنصف قيراط قبل الغلاء، و أما قبل ذلك فكان كل سنّين رطلا بدينار. و من العجب أن السلق و الجزر و الشلجم بيع كل خمسة أرتال بدرهم، و بيع البنفسج كل سنّة أرتال بدرهم، و بيع في بعض الأوقات كل سبعة أرتال بدرهم، و هذا ما لم يسمع بمثله. فإنّ الدنيا ما زالت قديما و حديثا، إذا غلت الأسعار، متى جاء المطر رخصت، إلّا هذه السنة فإنّ الأمطار ما زالت متتابعة من أول الشتاء إلى آخر الربيع، و كلّما جاء المطر غلت الأسعار، و هذا ما لم يسمع بمثله، فبلغت الحنطة ملوك و ثلث بدينار و قيراط، يكون وزنه خمسة و أربعين رطلا دقيقا بالبغدادى، و كان الملح ملوك بدرهم، فصار الملوك بعشرة دراهم، و كان الأرز ملوك باثني عشر [٣] درهما، فصار المكوك بخمسين

[١] كانوا كثيرة.

[٢] - ليطبخوه.

[٣] - عشرة.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٤٤٨

درهما، و كان التمر كل أربعة أرتال و خمسة أرتال بقيراط، فصار كل رطلين بقيراط.

و من عجيب ما يحكى أن السكر النادر الأسمر كان كل رطل بدرهم و ربع، و كان السكر الأبلوج المصرى النقى كل رطل بدرهمين، فصار [١] السكر الأسمر كل رطل بثلاثة دراهم و نصف، و السكر الأبلوج كل رطل بثلاثة دراهم و ربع، و سببه أن الأمراض لما كثرت، و اشتدّ الوباء، قالت النساء: هذه الأمراض باردة و السكر الأسمر حارّ فينفع منها، و الأبلوج بارد يقويها، و تبعهنّ الأطباء استمالة لقلوبهنّ، و لجهلهم، فعلا الأسمر بهذا السبب، و هذا من الجهل المفرط.

و ما زالت الأشياء هكذا إلى أول الصيف، و اشتدّ الوباء، و كثر الموت و المرض فى الناس، فكان يحمل على النعش الواحد عدّة من الموتى، فممن مات فيه شيخنا عبد المحسن بن عبد الله الخطيب، الطوسى، خطيب الموصل، و كان من صالحى المسلمين، و عمره ثلاث و ثمانون سنة و شهور.

و فيها انخسف القمر ليلة الثلاثاء خامس عشر صفر.

و فيها هرب أمير حاج العراق، و هو حسام الدين أبو فراس الحلّى، الكرديّ، الورامى، و هو ابن أخى الشيخ ورام، كان عمّه من صالحى المسلمين و خيارهم من أهل الحلّة السيفيّة، فارق الحاجّ بين مكّة و المدينة و سار إلى مصر.

حكى لى بعض أصدقائه أنّه إنّما حمّله على الهرب كثرة الخرج فى الطريق، و قلّة المعونة من الخليفة، و لما فارق الحاجّ خافوا خوفا شديدا من العرب، فأمن الله خوفهم، و لم يدعهم ذاعر فى جميع الطريق، و وصلوا آمنين، إلّا أن

[١] صار.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٤٤٩

كثيرا من الجمال هلك، أصابها غدّة عظيمة فلم يسلم إلّا القليل.

و فيها، فى آب، جاء مطر شديد و رعد و برق، و دام حتّى جرت الأدويّة، و امتلأت الطرق بالوحل، ثمّ جاء الخبر من العراق، و الشام، و الجزيرة، و ديار بكر، أنّه كان عندهم مثله، و لم يصل إلينا بالموصل أحد إلّا و أخبر أنّ المطر كان عندهم مثله فى ذلك التاريخ. و فيها كان فى الشتاء ثلج كثير، و نزلت بالعراق، فسمعت أنّه نزل فى جميع العراق، حتّى فى البصرة، أمّا إلى واسط فلا شكّ فيه، و أمّا البصرة فإنّ الخبر لم يكثر عندنا بنزوله فيها.

و فيها خربت قلعة الرّعفران من أعمال الموصل، و هى حصن مشهور يعرف قديما بدير الرّعفران، و هو على جبل عال قريب من فرسابور.

و فيها أيضا خربت قلعة الجديدة من بلد الهكاريّة، من أعمال الموصل أيضا، و أضيف عملها و قرارها إلى العماديّة.

و فيها، فى ذى الحجة، سار جلال الدين بن خوارزم شاه من تبريز إلى بلد الكرج قاصدا لأخذ بلادهم و استئصالهم، و خرجت السنة و لم يبلغنا أنّه فعل بهم شيئا، و نحن نذكر ما فعله بهم سنة ثلاث و عشرين و ستمائة إن شاء الله.

و فيها، ثالث شباط، سقط ببغداد ثلج، و برد الماء بردا شديدا، و قوى البرد حتّى مات به جماعة من الفقراء.

و فيها، فى ربيع الأول، زادت دجلة زيادة عظيمة، و اشتغل الناس بإصلاح سكر القورج، و خافوا، فبلغت الزيادة قريبا من الزيادة الأولى ثمّ نقص الماء و استبشر الناس.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٢٥٠

٢٢٣ ثم دخلت سنة ثلاث وعشرين وستمائة

ذكر ملك جلال الدين تقيس

في هذه السنة، ثامن ربيع الأول، فتح جلال الدين بن خوارزم شاه مدينة تقيس من الكرج، و سبب ذلك أننا قد ذكرنا سنة اثنتين وعشرين و ستمائة الحرب بينه وبينهم، و انهزمهم منه، و عوده إلى تبريز بسبب الخلف الواقع فيها، فلما استقر الأمر في أذربيجان عاد إلى بلد الكرج في ذى الحجة من السنة، و خرجت سنة اثنتين وعشرين و ستمائة، و دخلت هذه السنة، فقصد بلادهم، و قد عادوا فحشدوا و جمعوا من الأمم المجاورة لهم اللان و اللكر و قفجاق و غيرهم، فاجتمعوا في جمع كثير لا يحصى، فطمعوا بذلك، و منتهم أنفسهم الأباطيل، و وعدهم الشيطان الظفر، و ما يعدُّهم الشيطان إلا غروراً، فلقبهم، و جعل لهم الكمين في عدة مواضع، و التقوا و اقتتلوا، فولى الكرج منهزمين لا يلقى الأخ على أخيه، و لا الوالد على ولده، و كل منهم قد أهنته نفسه، و أخذتهم سيوف المسلمين من كل جانب، فلم ينج منهم إلا اليسير الشاذ الذي لا يعبأ به، و أمر جلال الدين عسكره أن لا يبقوا على أحد، و أن يقتلوا من وجدوا، فتبعوا المنهزمين يقتلونهم، و أشار عليه أصحابه بقصد تقيس دار ملكهم، فقال: لا حاجة لنا إلى أن نقتل رجالنا تحت الأسوار، إنما إذا أفنت الكرج أخذت البلاد صفوا عفوا.

و لم تزل العساكر تتبعهم و تستقصى في طلبهم إلى أن كادوا يفنونهم، فحينئذ قصد تقيس و نزل بالقرب منها. و سار في بعض الأيام في طائفة من

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٢٥١

العسكر، و قصدها لينظر إليها، و يبصر مواضع النزول عليها، و كيف يقاتلها، فلما قاربها كمن أكثر العسكر الذي معه في عدة مواضع، ثم تقدّم إليها في نحو ثلاثة آلاف فارس، فلما رآه من بها من الكرج طمعوا فيه لقلته من معه، و لم يعلموا أنه معهم، فظهروا إليه فقاتلوه، فتأخر عنهم، فقوى طمعهم فيه لقلته من معه، فظنّوه منهزماً، فتبعوه، فلما توسّطوا العساكر «١» خرجوا عليهم و وضعوا السيف فيهم، فقتل أكثرهم، و انهزم الباقون إلى المدينة فدخلوها، و تبعهم المسلمون، فلما وصلوا إليها نادى المسلمون من أهلها بشعار الإسلام، و باسم جلال الدين، فألقى الكرج بأيديهم و استسلموا، لأنهم كانوا قد قتل رجالهم في الوقعات المذكورة، فقلّ عددهم، و ملئت قلوبهم خوفاً و رعباً، فملك المسلمون البلد عنوة و قهراً بغير أمان، و قتل كل من فيه من الكرج، و لم يبق على كبير و لا صغير إلا من أذعن بالإسلام، و أقرّ بكلمتي الشهادة، فإنه أبقى عليه، و أمرهم فتختّوا و تركهم.

و نهب المسلمون الأموال، و سبوا النساء و استرقوا الأولاد، و وصل إلى المسلمين الذين بها بعض الأذى من قتل و نهب و غيره. و تقيس هذه من أحصن البلاد و أمنعها، و هى على جانبى نهر الكرّ، و هو نهر كبير، و لقد جلّ هذا الفتح و عظم موقعه في بلاد الإسلام و عند المسلمين، فإن الكرج كانوا قد استطالوا عليهم، و فعلوا بهم ما أرادوا، فكانوا يقصدون أى بلاد أذربيجان أرادوا، فلا يمنعهم عنها مانع، و لا يدفعهم عنها دافع، و هكذا أرزن الروم، حتى إن صاحبها لبس خلع ملك الكرج، و رفع على رأسه علماً في أعلاه صليب، و تنصّر ولده رغبة في نكاح ملكة الكرج، و خوفاً منهم، ليدفع الشر عنه، و قد تقدّمت القصّة، و هكذا دربند شروان.

(١). الكمئاء: J، ٤٨٨، SA، ١٨٤٩، II.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٢٥٢

و عظم أمرهم إلى حدّ أن ركن الدين بن قلج أرسلان، صاحب قونية، و أقصروا، و ملطيّة، و سائر بلاد الروم التي للمسلمين، جمع

عساكره، و حشد معها غيرها فاستكثر، و قصد أرزن الروم، و هى لأخيه طغرل شاه بن قلعج أرسلان، فأتاه الكرج و هزموه، و فعلوا به و بعسكره كلّ عظيم، و كان أهل دربند شروان معهم فى الضنك و الضيقة.

و أما أرمينية، فإنّ الكرج دخلوا مدينة أرجيش، و ملكوا قرس و غيرها، و حصروا خلاط، فلو لا أنّ الله سبحانه منّ على المسلمين بأسر إيوانى، مقدّم عساكر الكرج، لملكوها، فاضطرّ أهلها إلى أن بنوا لهم بيعة فى القلعة يضرب فيها الناقوس، فرحلوا عنهم، و قد تقدّم تفصيل هذه الحملة.

و لم يزل هذا الثغر من أعظم الثغور ضررا على المجاورين له من الفرس، قبل الإسلام، و على المسلمين بعدهم، من أوّل الإسلام إلى الآن، و لم يقدم أحد عليهم هذا الإقدام، و لا- فعل بهم هذه الأفاعيل، فإنّ الكرج ملكوا تفليس سنة خمس عشرة و خمسمائة، و السلطان حينئذ محمود بن محمود بن ملك شاه السلجوقى، و هو من أعظم السلاطين منزلة، و أوسعهم مملكة، و أكثرهم عساكر، فلم يقدر على منعهم عنها، هذا مع سعة بلاده، فإنّه كان له الرّى و أعمالها، و بلد الجبل، و أصفهان، و فارس، و خوزستان، و العراق، و أذربيجان، و أزان، و أرمينية، و ديار بكر، و الجزيرة، و الموصل، و الشام، و غير ذلك، و عمّه السلطان سنجر له خراسان و ما وراء النهر، فكان أكثر بلاد الإسلام بأيديهم، و مع هذا فإنّه جمع عساكره سنة تسع عشرة و خمسمائة، و سار إليهم بعد أن ملكوها، فلم يقدر عليهم.

ثمّ ملك بعده أخوه السلطان مسعود، و ملك الدكر بلد الجبل و الرّى و أصفهان و أذربيجان و أزان، و أطاعه صاحب خلاط، و صاحب فارس،

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٤٥٣

و صاحب خوزستان، و جمع و حشد لهم، و كان قصاره أن يتخلّص منهم، ثمّ ابنه البهلوان بعده، و كانت البلاد فى أيّام أولئك عامرة، كثيرة الأموال و الرجال، فلم يحدّثوا أنفسهم بالظفر بهؤلاء، حتّى جاء هذا السلطان و البلاد خراب قد أضعفها الكرج أولاً، ثمّ استأصلها التتر، لعنهم الله، على ما ذكرناه، ففعل بهم هذه الأفاعيل، فسبحان من إذا أراد أمرا قال له كُنْ فَيَكُونُ.

ذكر مسير مظفر الدين صاحب إربل إلى الموصل و عوده عنها

فى هذه السنة، فى جمادى الآخرة، سار مظفر الدين بن زين الدين، صاحب إربل، إلى أعمال الموصل، قاصدا إليها. و كان السبب فى ذلك أنّه استقرّت القاعدة بينه و بين جلال الدين «١» بن خوارزم شاه و بين الملك المعظم، صاحب دمشق، و بين صاحب آمد، و بين ناصر الدين، صاحب ماردين، ليقصدوا البلاد التى بيد الأشرف، و يتغلّبوا عليها، و يكون لكلّ منهم نصيب ذكره، و استقرّت القواعد بينهم على ذلك، فبادر مظفر الدين إلى الموصل.

و أمّا جلال الدين فإنّه سار من تفليس يريد خلاط، فأتاه الخبر أنّ نائبه ببلاد كرمان، و اسمه بلاق حاجب، قد عصى عليه، على ما نذكره، فلمّا أتاه الخبر بذلك ترك خلاط و لم يقصدها، إلّا أنّ عسكره نهب بعض بلدها و خرّب كثيرا منه، و سار مجداً إلى كرمان، فانفسخ جميع ما كانوا عزموا عليه، إلّا أنّ مظفر الدين سار من إربل و نزل على جانب الزّاب، و لم يمكنه العبور إلى بلد الموصل.

(١). tatsxeibi. قاصدا orp قاصدين ta؛ doC. ٧٤٠

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٤٥٤

و كان بدر الدين قد أرسل من الموصل إلى الأشرب، و هو بالزّقة، يستنجده، و يطلب منه أن يحضر بنفسه الموصل ليدفع مظفر الدين، فسار منها إلى حرّان، و من حرّان إلى دنيسر، فخرّب بلد ماردين و أهله تخريبا و نهبا.

و أمّا المعظم، صاحب دمشق، فإنّه قصد بلد حمص و حماة، و أرسل إلى أخيه الأشرف يقول: إن رحلت عن ماردين و حلب، و أنا

عن حمص و حماة، و أرسلت إلى مظفر الدين ليرجع عن بلد الموصل، فرحل الأشرف عن ماردين، و عاد كل منهم إلى بلده، و خربت أعمال الموصل، و أعمال ماردين بهذه الحركة، فإنّها كانت قد أجحف بها تتابع الغلاء و طول مدّته، و جلاء أكثر أهلها، فأنتها هذه الحادثة فزادت خرابا على خراب.

ذكر عصيان کرمان على جلال الدين و مسيره إليها

في هذه السنة، في جمادى الآخرة، وصل الخبر إلى جلال الدين أنّ نائبه بكرمان، و هو أمير كبير اسمه بلاق حاجب، قد عصى عليه، و طمع في البلاد أن يتملّكها و يستبدّ بها لبعد جلال الدين عنها، و اشتغاله بما ذكرناه من الكرج و غيرهم، و أنّه أرسل إلى التتر يعرّفهم قوّة جلال الدين و ملكه كثيرا من البلاد، و إن أخذ الباقي عظمت مملكته، و كثرت عساكره، و أخذ ما بأيديكم من البلاد. فلمّا سمع جلال الدين ذلك كان قد سار يريد خلاط، فتركها و سار إلى کرمان [يطوى المراحل، و أرسل بين يديه رسولا إلى صاحب کرمان] «١»،

(١).

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٤٥٥

و معه الخلع ليطمئن و يأتيه و هو غير محتاط و لا مستعدّ للامتناع منه، فلمّا وصل الرسول علم أنّ ذلك مكيدة عليه لما يعرفه من عادته، فأخذ ما يعزّ عليه، و صعد إلى قلعة منيعة فتحصّن بها، و جعل من يثق به [١] من أصحابه في الحصون يمتنعون بها، و أرسل إلى جلال الدين يقول: إنّني أنا العبد و المملوك، و لمّا سمعت بمسيرك إلى هذه البلاد أخليت لك لأنّها بلادك، و لو علمت أنّك تبقى على لحضرت بابك، و لكنّي أخاف هذا جميعه، و الرسول يحلف له «١» أنّ جلال الدين بتفليس، و هو لا يلتفت إلى قوله، فعاد الرسول، فعلم جلال الدين أنّه لا يمكنه أخذ ما بيده من الحصون لأنّه يحتاج [أن] يحصرها مدّة طويلة، فوقف بالقرب من أصفهان، و أرسل إليه الخلع، و أقرّه على ولايته.

فبينما الرسل تتردّد إذ وصل رسول من وزير جلال الدين إليه من تفليس يعرّفه أنّ عسكر الملك الأشرف الّذى بخلاط قد هزموا بعض عسكره و أوقعوا بهم، و يحثّه على العود إلى تفليس، فعاد إليها مسرعا.

ذكر الحرب بين عسكر الأشرف و عسكر جلال الدين

لمّا سار جلال الدين إلى کرمان ترك بمدينة تفليس عسكرا مع وزيره شرف الملك، فقلّت عليهم الميرة، فساروا إلى أعمال أرزن الروم، فوصلوا إليها، و نهبوا، و سبوا النساء، و أخذوا من الغنائم شيئا كثيرا لا يحصى، و عادوا فكان طريقهم على أطراف ولاية خلاط، فسمع النائب عن الأشرف

[١] إليه.

(١) (nitseeD).

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٤٥٦

بخلاط، و هو الحاجب حسام الدين على الموصل، فجمع العسكر و سار إليهم، فأوقع بهم، و استنقذ ما معهم من الغنائم، و غنم كثيرا ممّا معهم، و عاد هو و عساكره سالمين.

فلما فعل ذلك خاف وزير جلال الدين منهم، فأرسل إلى صاحبه بكرمان يعترفه الحال، و يحثه على العود إليه، و يخوفه عاقبة التواني و الإهمال، فرجع فكان ما ذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر وفاة الخليفة الظاهر بأمر الله

في هذه السنة، في الرابع عشر من رجب، توفي الإمام الظاهر بأمر الله أمير المؤمنين أبو نصر محمد بن الناصر لدين الله أبي العباس أحمد بن المستضيء بأمر الله، و قد تقدم نسبه عند وفاة أبيه، رضى الله عنهما، فكانت خلافته تسعة أشهر و أربعة و عشرين يوماً، و كان نعم الخليفة، جمع الخشوع مع الخضوع لربه، و العدل و الإحسان إلى رعيته، و قد تقدم عند ذكر ولايته الخلافة من أفعاله ما فيه كفاية، و لم يزل كل يوم يزداد من الخير و الإحسان إلى الرعية، فرضى الله عنه و أرضاه، و أحسن منقلبه و مثواه، فلقد جدد من العدل ما كان دارساً، و أذكر من الإحسان ما كان منسياً.

و كان قبل وفاته أخرج توقيعاً إلى الوزير بخطه ليقراه على أرباب الدولة، و قال الرسول: أمير المؤمنين يقول: ليس غرضنا أن يقال برز مرسوم، أو نفذ مناك، ثم لا يبين له أثر، بل أنتم إلى إمام فعال أحوج منكم إلى إمام قول، فقرءوه، فإذا في أوله بعد البسملة: اعلموا أنه ليس إهمالنا إهمالاً، و لا إغضاؤنا إغفالاً، و لكن لنبلوكم

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٤٥٧

أيكم أحسن عملاً و قد عفونا لكم ما سلف من إخراج البلاد، و تشريد الرعايا، و تقييح السيمعة، و إظهار الباطل الجلي في صورة الحق الخفي حيلة و مكيدة، و تسمية الاستئصال و الاجتياح [١] استيفاء و استدراكاً لأغراض انتهزتم فرصتها مختلساً من برائن ليث باسل، و أنياب أسد مهيب، تتفقون بألفاظ مختلفة على معنى واحد و أنتم أمانؤه و ثقاته، فتميلون رأيه إلى هواكم، و تمرجون باطلكم بحقه، فيطيعكم و أنتم له عاصون، و يوافقكم و أنتم له مخالفون، و الآن قد بدل الله سبحانه بخوفكم أماناً، و بفقركم غنى [٢]، و بباطلكم حقاً، و رزقكم سلطاناً يزيل العثرة و يقبل المعذرة، و لا يؤاخذ إلا من أصر، و لا ينتقم إلا ممن استمر، يأمركم بالعدل و هو يريد منكم، و ينهاكم عن الجور و هو يكرهه لكم، يخاف الله تعالى، فيخوفكم مكرهه، و يرجو الله تعالى، و يرغبكم في طاعته، فإن سلكتكم مسالك خلفاء الله في أرضه و أمانته على خلقه و إلا هلكتم، و السلام.

و لما توفي وجدوا في بيت، في داره، ألوف رقاع كلها مختومة لم يفتحها، ف قيل له ليفتحها، فقال: لا حاجة لنا فيها، كلها سعايات. و لم أزل، علم الله سبحانه، مذ ولي الخلافة، أخاف عليه قصر المدة لخبث الزمان و فساد أهله، و أقول لكثير من أصدقائنا: و ما أخوفني أن تقصر مدة خلافته، لأن زماننا و أهله لا يستحقون خلافته، فكان كذلك.

[١] و الاحتياج.

[٢] غنا.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٤٥٨

ذكر خلافة ابنه المستنصر بالله

لما توفي الظاهر بأمر الله بويج بالخلافة ابنه الأكبر أبو جعفر المنصور، و لقب المستنصر بالله، و سلك في الخير و الإحسان إلى الناس سيرة أبيه، رضى الله عنه، و أمر فنودي ببغداد بإفاضة العدل، و إن من كان له حاجة، أو مظلماً يطالع بها، تقضى حاجته، و تكشف مظلّمته.

فلما كان أول جمعة أتت على خلافته أراد أن يصلي الجمعة في المقصورة التي كان يصلي فيها الخلفاء، ف قيل له إن المطبق الذي

يسلك فيه إليها خراب لا يمكن سلوكه، فركب فرسا و سار إلى الجامع، جامع القصر، ظاهرا يراه الناس بقميص أبيض و عمامة بيضاء، بسكاكين حرير، و لم يترك أحدا يمشى معه بل أمر كل من أراد أن يمشى معه من أصحابه بالصلاة في [١] الموضع الذي كان يصلي فيه، و سار هو و معه خادمان و ركابدار لا غير، و كذلك الجمعة الثانية حتى أصلح له المطبق.

و كان السعر قد تحرك بعد وفاة الظاهر بأمر الله، رضى الله عنه، فبلغت الكارة ثمانية عشر قيراطا، فأمر أن تابع الغلات التي له كل كارة بثلاثة عشر قيراطا، فرخصت الأسعار و استقامت الأمور.

ذكر الحرب بين كيقباز و صاحب آمد

في هذه السنة، في شعبان، سار علاء الدين كيقباز بن كيخسرو [ابن] قلع أرسلان، ملك بلاد الروم، إلى بلاد الملك المسعود، صاحب آمد،

[١] إلى.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٤٥٩

و ملك عدّة من حصونه.

و سبب ذلك ما ذكرناه من اتفاق صاحب آمد مع جلال الدين بن خوارزم شاه و الملك المعظم، صاحب دمشق، و غيرهما على خلاف الأشرف، فلما رأى الأشرف ذلك أرسل إلى كيقباز، ملك الروم، و كانا متفقين، يطلب منه أن يقصد بلد صاحب آمد و يحاربه، و كان الأشرف حينئذ على ماردین، فسار ملك الروم إلى ملطية، و هي له، فنزل عندها، و سير العساكر إلى ولاية صاحب آمد، [فتفتحوا حصن منصور و حصن سمكاراد و غيرهما، فلما رأى صاحب آمد] «١» ذلك راسل الأشرف، و عاد إلى موافقته، فأرسل الأشرف إلى كيقباز يعرفه ذلك، و يقول له ليعيد إلى صاحب آمد ما أخذ منه، فلم يفعل، و قال: لم أكن نائبا للأشرف يأمرني و ينهاني.

فاتفق أن الأشرف سار إلى دمشق ليصلح أخاه الملك المعظم، و أمر العساكر التي له بديار الجزيرة بمساعدة صاحب آمد، إن أصرّ ملك الروم على قصده، فسارت عساكر الأشرف إلى صاحب آمد و قد جمع عسكره و من بيلاده ممن يصلح للحرب و سار إلى عسكر ملك الروم و هم يحاصرون قلعة الكختا بعد الهزيمة، و هي من أمنع الحصون و المعقل، فلما ملكوها عادوا إلى صاحبهم.

ذكر حصر جلال الدين مدينتي آني و قرس

في هذه السنة، في رمضان، عاد جلال الدين من كرمان، كما ذكرناه، إلى تفليس، و سار منها إلى مدينة آني، و هي للكرج، و بها إيوانى مقدّم

(١). ٧٤٠.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٤٦٠

عساكر الكرج فيمن بقى معه من أعيان الكرج، [فحصره و سير طائفة من العسكر إلى مدينة قرس و هي للكرج] أيضا، و كلاهما من أحصن البلاد و أمنعها، فنازلهما و حصرهما، و قاتل من بهما، و نصب عليهما المجانيق، و جدّ في القتال عليهما، و حفظهما الكرج، و بالغوا في الحفظ و الاحتياط لخوفهم منه أن يفعل بهم ما فعل بأشياعهم من قبل بمدينة تفليس، و أقام عليهما إلى أن مضى بعض شوال، ثم ترك العسكر عليهما يحصرونهما و عاد إلى تفليس.

و سار من تفليس مجداً إلى بلاد انجاز و بقايا الكرج، فأوقع بمن فيها، فنهب، و قتل، و سبي، و خرب البلاد و أحرقتها، و غنم عساكره ما فيها، و عاد منها إلى تفليس.

ذكر حصر جلال الدين خلط

قد ذكرنا أن جلال الدين عاد من مدينة آنى إلى تفليس و دخل بلاد انجاز، و كان رحيله مكيدة لأنه بلغه أن النائب عن الملك الأشرف، و هو الحاجب حسام الدين على بمدينة خلط، قد احتاط، و اهتم بالأمر و حفظ البلد لقربه منه، فعاد إلى تفليس ليطمئن أهل خلط و يتركوا [١] الاحتياط و الاستظهار ثم يقصدهم بغته، فكانت غيبته ببلاد انجاز عشرة أيام، و عاد، و سار مجدداً يطوى المراحل على عادته، فلو لم يكن عنده من يرسل نواب الأشرف بالأخبار لفجأهم [٢] على حين غفلة منهم، و إنما كان عنده بعض ثقاته يعرفهم أخباره،

[١] و تركوا.

[٢] لفجئهم.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٤٦١

و كتب إليهم فوصل الخبر إليهم قبل وصوله بيومين.

و وصل جلال الدين فانزل مدينة ملاز كرد يوم السبت ثالث عشر ذى القعدة، ثم رحل عنها، فانزل مدينة خلط يوم الاثنين خامس عشر ذى القعدة، فلم يزل حتى زحف إليها، و قاتل أهلها قتالا شديداً، فوصل عسكره سور البلد، و قتل بينهم قتلى كثيرة، ثم زحف إليها مرة ثانية، و قاتل أهل البلد قتالا عظيماً، فعظمت نكايه [١] العسكر في أهل خلط، و وصلوا إلى سور البلد، و دخلوا الرض الذي له، و مدوا أيديهم في النهب و سبي الحريم.

فلما رأى أهل خلط ذلك تدامروا، و حرض بعضهم بعضاً، فعادوا إلى العسكر فقاتلوهم فأخرجوهم من البلد، و قتل بينهم خلق كثير، و أسر العسكر الخوارزمي من أمراء خلط جماعة، و قتل منهم كثير، و ترجل الحاجب على، و وقف في نحر العدو، و أبلى بلاء عظيماً.

ثم إن جلال الدين استراح عدة أيام، و عاود الزحف مثل أول يوم، فقاتلوه حتى أبعدوا عسكره عن البلد، و كان أهل خلط مجددين في القتال، حريصين على المنع عن أنفسهم، لما رأوا من سوء سيرة الخوارزميين و نهبهم البلاد، و ما فيهم من الفساد، فهم يقاتلون قتال من يمنع عن نفسه و حريمه و ماله، ثم أقام عليها إلى أن اشتد البرد، و نزل شيء من الثلج، فرحل عنها يوم الثلاثاء لسبع بقين من ذى الحجة من السنة، و كان سبب رحيله مع خوف الثلج ما بلغه عن التركمان الإيوانية من الفساد ببلاد.

[١] فعظم نكايه.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٤٦٢

ذكر إيقاع جلال الدين بالتركمان الإيوانية

كان التركمان الإيوانية قد تغلبوا على مدينة أسنة و أرميه، من نواحي أذربيجان، و أخذوا الخراج من أهل خوى ليكفوا عنهم، و اغتروا باشتغال جلال الدين بالكرج، و بعدهم بخلاط، و ازداد طمعهم، و انبسطوا بأذربيجان ينهاون، و يقطعون الطريق، و الأخبار تأتي إلى خوارزم شاه جلال الدين بن خوارزم شاه، و هو يتغافل عنهم لاشتغاله بما هو المهم عنده، و بلغ من طمعهم أنهم قطعوا الطريق بالقرب

من تبريز، وأخذوا من تجار أهلها شيئاً كثيراً، ومن جملة ذلك أنهم [١] اشتروا غنماً من أرزن الروم وقصدوا بها تبريز، فلقبهم الإيوانية قبل وصولهم إلى تبريز، فأخذوا جميع ما معهم، ومن جملة عشرون ألف رأس غنم. فلما اشتد ذلك على الناس وعظم الشر أرسلت زوجة جلال الدين ابنه السلطان طغرل ونوابه في البلاد إليه يستغيثون، ويعرفونه أن البلاد قد خربها الإيوانية، ولئن لم يلحقها، وإلا هلكت بالمرّة.

فاتفق هذا إلى خوف الثلج، فرحل عن خلاط، وجد السير إلى الإيوانية، وهم آمنون مطمئنون، لعلمهم أن خوارزم شاه على خلاط، وظنوا أنه لا يفارقها، فلو لا هذا الاعتقاد لصعدوا إلى جبال لهم منيعة شاهقة لا يرتقى إليها إلا بمشقة وعناء، فإنهم كانوا إذا خافوا صعدوا إليها وامتنعوا بها، فلم يرعهم إلا والعساكر الجلائية قد أحاطت بهم، وأخذهم السيف من كل جانب، فأكثروا القتل فيهم، والنهب، والسبي، واسترقوا الحريم والأولاد، وأخذوا من عندهم ما لا يدخل تحت الحصر، فأوا كثيراً من الأمتعة التي

[١] أن منهم.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٤٦٣

أخذوها من التجار بحالها في الشدوات، هذا سوى ما كانوا قد حلّوه وفصلوه، فلما فرغ عاد إلى تبريز.

ذكر الصلح بين المعظم والأشرف

نبتدئ بذكر سبب الاختلاف، فنقول: لما توفي الملك العادل أبو بكر ابن أيوب، اتفق أولاده الملوك بعده اتفاقاً حسناً، وهم: الملك الكامل محمّد، صاحب مصر، والملك المعظم عيسى، صاحب دمشق، والملك الأشرف موسى، وهو صاحب ديار الجزيرة وخلاط، واجتمعت كلمتهم على دفع الفرنج عن الديار المصرية.

ولما رحل الكامل عن دميّط لما كان الفرنج يحصرونها، صادفه أخوه المعظم من الغد، وقويت نفسه، وثبت قدمه، ولو لا ذلك لكان الأمر عظيماً، وقد ذكرنا ذلك مفصّلاً، ثم إنه عاد من مصر وسار إلى أخيه الأشرف ببلاد الجزيرة مرتين يستنجد به على الفرنج، ويحثّه على مساعدة أخيهما الكامل، ولم يزل به حتى أخذه وسار إلى مصر، وأزالوا الفرنج عن الديار المصرية، كما ذكرناه قبل، فكان اتفاقهم على الفرنج سبباً لحفظ بلاد الإسلام، وسرّ الناس أجمعون بذلك.

فلما فارق الفرنج مصر وعاد كلّ من الملوك أولاد العادل إلى بلده بقوا كذلك يسيراً، ثم سار الأشرف إلى أخيه الكامل بمصر، فاجتاز بأخيه المعظم بدمشق، فلم يستصحبه معه، وأطال المقام بمصر، فلا شك أن المعظم ساء ذلك.

ثم إن المعظم سار إلى مدينة حماة وحصرها، فأرسل إليه أخواه من مصر ورحّله عنها كارهاً، فازداد نفوراً، وقيل: إنه نقل إليه عنهما أنهما اتفقا عليه، والله أعلم بذلك.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٤٦٤

ثم انضاف إلى ذلك أن الخليفة الناصر لدين الله، رضى الله عنه، كان قد استوحش من الكامل لما فعله ولده صاحب اليمن من الاستهانة بأمير الحاج العراقي، فأعرض عنه وعن أخيه الأشرف لاتفاقهما، وقاطعتهما، وراسل مظفر الدين كوكبرى بن زين الدين على، صاحب إربل، يعلمه بانحرافه عن الأشرف، واستماله، واتفقا على مراسلة المعظم، وتعظيم الأمر عليه، فمال إليهما، وانحرف عن إخوته.

ثم اتفق ظهور جلال الدين وكثرة ملكه، فاشتد الأمر على الأشرف بمجاورة جلال الدين خوارزم شاه ولاية خلاط، ولأن المعظم بدمشق يمنع عنه عساكر مصر أن تصل إليه، وكذلك عساكر حلب وغيرها من الشام، فرأى الأشرف أن يسير إلى أخيه المعظم بدمشق، فسار إليه في شوال واستماله وأصلحه، فلما سمع الكامل بذلك عظم عليه، ثم إنهما راسلاه، وأعلماه بنزول جلال الدين

على خلاط، و عظمًا الأمر عليه، و أعلماه أن هذه الحال تقتضى الاتفاق لعمارة البيت العادلي، و انقضت السنة و الأشرف بدمشق و الناس على مواضعهم ينتظرون خروج الشتاء ما يكون من الخوارزميين، و سنذكر ما يكون سنة أربع و عشرين و ستمائة إن شاء الله تعالى.

ذكر الفتنة بين الفرنج و الأرمن

في هذه السنة جمع البرنس الفرنجي، صاحب أنطاكية، جموعا كثيرة و قصد الأرمن الذين في الدروب بلاد ابن ليون، فكان بينهم حرب شديدة.

و سبب ذلك أن ابن ليون الأرمني، صاحب ادروب، توفي قبل و لم يخلف ولدا ذكرا، إنما خلف بنتا، فملكها الأرمن عليهم، ثم علموا أن الملك لا يقوم بامرأة، فزوجوها من ولد البرنس، فتزوجها، و انتقل إلى

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٤٦٥

بلدهم، و استقر في الملك نحو سنة، ثم ندموا على ذلك، و خافوا أن يستولي الفرنج على بلادهم، فثاروا بابن البرنس، فقبضوا عليه و سجنوه، فأرسل أبوه يطلب أن يطلق و يعاد في الملك، فلم يفعلوا، فأرسل إلى بابا ملك الفرنج برومية الكبرى يستأذنه في قصد بلادهم، و ملك رومية هذا أمره عند الفرنج لا يخالف، فمنعه عنهم، و قال: إنهم أهل ملتنا، و لا يجوز قصد بلادهم، فخالفه و أرسل [إلى] علاء الدين كيخباد ملك قونية و ملطية و ما بينهما من بلاد المسلمين، و صالحه، و وافقه على قصد بلاد ابن ليون، و الاتفاق على قصدها، فاتفقا على ذلك، و جمع البرنس عساكره ليسير إلى بلاد الأرمن، فخالف عليه الداوية و الاسبتارية، و هما جمرة الفرنج، فقالوا: إن ملك رومية نهانا عن ذلك، إلا أنه أطاعه غيرهم، فدخل أطراف بلاد الأرمن، و هي مضايق و جبال و عرة، فلم يتمكن من فعل ما يريد.

و أما كيكاوس، فإنه قصد بلاد الأرمن من جهته، و هي أسهل من جهة الشام، فدخلها سنة اثنتين و عشرين و ستمائة، فنهبها، و أحرقتها، و حصر عدة حصون، ففتح أربعة حصون، و أدركه الشتاء فعاد عنها.

فلما سمع بابا ملك الفرنج برومية أرسل إلى الفرنج بالشام يعلمهم أنه قد حرم البرنس، فكان الداوية و الاسبتارية و كثير من الفرسان لا يحضرون معه، و لا يسمعون قوله، و كان أهل بلاده، و هي أنطاكية و طرابلس، إذا جاءهم عيد يخرج من عندهم، فإذا فرغوا من عيدهم دخل البلد.

ثم إنه أرسل إلى ملك رومية يشكو من الأرمن، و أنهم لم يطلقوا ولده، و يستأذنه في أن يدخل بلادهم و يحاربهم إن لم يطلقوا ابنه، فأرسل إلى الأرمن يأمرهم بإطلاق ابنه و إعادته إلى الملك، فإن فعلوا و إلا فقد أذن له في قصد بلادهم، فلما بلغتهم الرسالة لم يطلقوا ولده، فجمع البرنس و قصد بلاد الأرمن، فأرسل الأرمن إلى الأتابك شهاب الدين بحلب يستجدونه، و يخوفونه

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٤٦٦

من البرنس إن استولى على بلادهم لأنها تجاور أعمال حلب، فأمدهم بجند و سلاح.

فلما سمع البرنس ذلك صم العزم على قصد بلادهم، فسار إليهم و حاربهم، فلم يحصل على غرض، فعاد عنهم.

حدثني بهذا رجل من عقلاء النصاري ممن دخل تلك البلاد و عرف حالها، و سألت غيره، فعرف البعض و أنكر البعض.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة انخسف القمر مرتين: أولاهما ليلة رابع عشر صفر، و فيها كانت أعجوبة [١] بالقرب من الموصل حامية تعرف بعين القتيارة، شديدة الحرارة، تسميها الناس عين ميمون، و يخرج مع الماء قليل من القار، فكان الناس يسبحون فيها دائما في الربيع و

الخريف، لأنها تنفع من الأمراض الباردة، كالفالج وغيره، نفعا عظيما، فكان من يسبح فيها يجد الكرب الشديد من حرارة الماء، ففى هذه السنة برد الماء فيها، حتى كان السابح فيها يجد البرد، فتركوها وانتقلوا إلى غيرها.

وفىها كثرت الذئاب و الخنازير و الحيات، فقتل كثير، فلقد بلغنى أن ذئبا دخل الموصل فقتل فيها، و حدثنى صديق لنا له بستان بظاهر الموصل أنه قتل فيه، فى سنة اثنتين و عشرين و ستمائة، جميع الصيف حيتين، و قتل هذه السنة إلى أول حزيران سبع حيات لكثرتها.

[١] - عجوبة.

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٤٦٧

وفىها انقطع المطر بالموصل و أكثر البلاد الجزرية من خامس شباط إلى ثانى عشر نيسان، و لم يجر شىء يعتد به، لكنه سقط اليسير منه فى بعض القرى، فجاءت الغلات قليلة، ثم خرج الجراد الكثير، فازداد الناس أذى، و كانت الأسعار قد صلحت شيئا، فعادت لكثرة الجراد فغلت، و نزل أيضا فى أكثر القرى برد كبير أهلك زروع أهلها و أفسدها، و اختلفت أقاويل الناس فى أكبره، كان وزن بردة مائتى درهم، و قيل رطل، و قيل غير ذلك، إلا أنه أهلك كثيرا من الحيوان، و انقضت هذه السنة و الغلاء باق و أشده بالموصل.

وفىها اصطاد صديق لنا أرنباه فرآه و له أنثيان و ذكر و فرج أنثى، فلما شقوا بطنها رأوا فيها حريفين، سمعت هذا منه و من جماعة كانوا معه، و قالوا: ما زلنا نسمع أن الأرنب يكون سنة ذكرا و سنة أنثى، و لا نصدق ذلك، فلما رأينا هذا علمنا أنه قد حمل، و هو أنثى، و انقضت السنة فصار ذكرا، فإن كان كذلك و إلا فيكون فى الأرناب كالخنثى فى بنى آدم، يكون لأحدهم فرج الرجل و فرج الأنثى، كما أن الأرنب تحيض كما تحيض النساء، فإننى كنت بالجزيرة، و لنا جار له بنت اسمها صفية، فبقيت كذلك نحو خمس [١] عشرة سنة، و إذا قد طلع لها ذكر رجل، و نبت لحيته، فكان له فرج امرأة و ذكر رجل.

وفىها ذبح إنسان عندنا رأس غنم، فوجد لحمه مراً شديد المرارة، حتى رأسه و أكارع و معلاقه و جميع أجزائه، و هذا ما لم يسمع بمثله.

وفىها يوم الأربعاء الخامس و العشرين [٢] من ذى القعدة، ضحوه النهار، زلزلت الأرض بالموصل و كثير من البلاد العربية و العجمية، و كان أكثرها

[١] خمسة.

[٢] و العشرون.

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٤٦٨

بشهرزور، فإنها خرب أكثرها، و لا سيما القلعة، فإنها أجحفت بها، و خرب من تلك الناحية ست قلاع، و بقيت الزلزلة تتردد فيها تيفا و ثلاثين يوما، ثم كشفها الله عنهم، و أما القرى بتلك الناحية فخرّب أكثرها.

وفىها، فى رجب، توفى القاضى حجة الدين أبو منصور المظفر بن عبد القاهر بن الحسن بن على بن القاسم الشهرزورى، قاضى الموصل، بها، و كان قد أضرّ قبل وفاته بنحو سنتين، و كان عالما بالقضاء، عفيفا، نزها، ذا رئاسة كبيرة [١]، و له صلات دائرة للمقيم [٢] و الوارد، رحمه الله، فلقد كان من محاسن الدنيا، و لم يخلف غير بنت توفيت بعده بثلاثة أشهر.

[١] كثيرة.

[٢] للقيم.

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٤٦٩

٦٢٤ ثم دخلت سنة أربع وعشرين و ستمائة

ذكر دخول الكرج مدينة تفليس وإحراقها

في هذه السنة، في ربيع الأول، وصل الكرج مدينة تفليس، و لم يكن بها من العسكر الإسلامي من يقوم بحمايتها، و سبب ذلك أن جلال الدين لما عاد من خلاط، كما ذكرنا قبل، و أوقع بالإيوانية، فرّق عساكره إلى المواضع الحارّة الكثيرة المرعى، ليشّتوا بها، و كان عسكره قد أساءوا السيرة في رعيّة تفليس، و هم مسلمون، و عسفوهم، فكاتبوا الكرج يستدعونهم إليهم ليملكوهم البلد، فاغتنم الكرج ذلك لميل أهل البلد إليهم، و خلّوه من العسكر، فاجتمعوا، و كانوا بمديتي قرس و آني و غيرهما من الحصون، و ساروا إلى تفليس، و كانت خاليّة كما ذكرناه، و لأنّ جلال الدين استضعف الكرج لكثرة من قتل منهم، و لم يظنّ فيهم حركة، فملكوا البلد، و وضعوا السيف فيمن بقي من أهله، و علموا أنّهم لا يقدرّون على حفظ البلد من جلال الدين، فأحرقوه جميعه [١].

و أمّا جلال الدين فإنّه لما بلغه الخبر سار فيمن عنده من العساكر ليدركهم، فلم ير منهم أحدا، كانوا قد فارقوا تفليس لما أحرقوها.

[١] - فأحرقوها جميعها.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٤٧٠

ذكر نهب جلال الدين بلد الإسماعيلية

في هذه السنة قتل الإسماعيليّة أميرا كبيرا من أمراء جلال الدين «١»، و كان قد أقطعه جلال الدين مدينة كنجّه و أعمالها، و كان نعم الأمير، كثير الخير، حسن السيرة، ينكر على جلال الدين ما يفعله عسكره من النهب و غيره من الشرّ.

فلما قتل ذلك الأمير عظم قتله على جلال الدين، و اشتدّ عليه، فسار في عساكره إلى بلاد الإسماعيلية، من حدود الموت إلى كردكوه، بخراسان، فخرّب الجميع، و قتل أهلها، و نهب الأموال، و سبى الحريم، و استرقّ الأولاد، و قتل الرجال، و عمل بهم الأعمال العظيمة، و انتقم منهم، و كانوا قد عظم شرّهم و ازداد ضرّهم، و طمعوا منذ خرج التتر إلى بلاد الإسلام إلى الآن، فكفّ عاديتهم و قمعهم، و لقّاهم الله ما عملوا بالمسلمين.

ذكر الحرب بين جلال الدين و التتر

لما فرغ جلال الدين من الإسماعيلية بلغه الخبر أنّ طائفه من التتر عظيمه قد بلغوا إلى دامغان. بالقرب من الرّيّ، عازمين على قصد بلاد الإسلام، فسار إليهم و حاربهم، و اشتدّ القتال بينهم، فانهزموا منه، فأوسعهم قتلا، و تبع المنهزمين عدّة أيام يقتل و يأسر، فبينما هو كذلك قد أقام بنواحي الرّيّ خوفا من جمع آخر للتتر، إذ أتاه الخبر بأنّ كثيرا منهم واصلون إليه، فأقام ينتظرهم، و سذكّر خبرهم سنة خمس و عشرين و ستمائة.

(١) اسمه: tiddA.spU.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٤٧١

ذكر دخول العساكر الأشرقيّة إلى أذربيجان و ملك بعضها

في هذه السنة، في شعبان، سار الحاجب علىّ حسام الدين، و هو النائب عن الملك الأشرف بخلاط، و المقدّم على عساكرها، إلى

بلاد أذربيجان فيمن عنده من العساكر. وسبب ذلك أن سيرة جلال الدين كانت جائرة، وعساكره طامعة في الرعايا، وكانت زوجته ابنة السلطان طغرل السلجوقي، وهي التي كانت زوجة أوزبك بن البهلوان، صاحب أذربيجان، فتزوجها جلال الدين، كما ذكرناه قبل، وكانت مع أوزبك تحكم في البلاد جميعها، ليس له ولا غيره معها حكم. فلتما تزوجها جلال الدين أهملها ولم يلتفت إليها، فخافته مع ما حرمتها من الحكم والأمر والنهي، فأرسلت هي وأهل خوي إلى حسام الدين الحاجب يستدعونه ليسلموا البلاد، فسار ودخل البلاد، بلاد أذربيجان، فملك مدينة خوي وما يجاورها من الحصون التي بيد امرأة جلال الدين، وملك مرند، وكتبه أهل مدينة نقجوان، فمضى إليهم، فسلموها إليه، وقويت شوكتهم بتلك البلاد، ولو داموا لملكوها جميعها، وإنما عادوا إلى خلاط، واستصحبوا معهم زوجة جلال الدين ابنة السلطان طغرل إلى خلاط، وسندكر باقي خبرهم سنة خمس وعشرين [وستمائة] إن شاء الله تعالى.

ذكر وفاة المعظم صاحب دمشق وملك ولده

في هذه السنة توفي الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل يوم الجمعة سلخ ذي القعدة، وكان مرضه دوسنطاريا، وكان ملكه لمدينة دمشق، من حين

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٤٧٢

وفاته والده الملك العادل، عشر سنين وخمسة أشهر وثلاثة [١] وعشرين يوما.

وكان عالما بعدة علوم، فاضلا فيها، منها الفقه على مذهب أبي حنيفة، فإنه كان قد اشتغل به كثيرا، وصار من المتميزين فيه، ومنها علم النحو، فإنه اشتغل به أيضا اشتغالا زائدا، وصار فيه فاضلا، وكذلك اللغة وغيرها، وكان قد أمر أن يجمع له كتاب في اللغة جامع كبير، فيه كتاب الصحاح للجوهري، ويضاف إليه ما فات الصحاح من التهذيب للأرموي والجمهرة لابن دريد وغيرهما، وكذلك أيضا أمر بأن يرتب مسند أحمد بن حنبل على الأبواب، ويرد كل حديث إلى الباب الذي يقتضيه معناه، مثاله: أن يجمع أحاديث الطهارة، وكذلك يفعل في الصلاة وغيرها من الرقائق، والتفسير، والغزوات، فيكون كتابا جامعاً.

وكان قد سمع المسند من بعض أصحاب ابن الحصين، ونفق العلم في سوقه، وقصده العلماء من الآفاق، فأكرمهم، وأجرى عليهم الجرايات الوافرة، وقربهم، و[كان] يجالسهم، ويستفيد منهم، ويفيدهم، وكان يرجع إلى علم وصبر على سماع ما يكره، لم يسمع أحد ممن يصحبه منه كلمة تسوؤه.

وكان حسن الاعتقاد يقول كثيرا: إن اعتقادي في الأصول ما سطره أبو جعفر الطحاوي، وصي عند موته بأن يكفن في البياض، ولا يجعل في أكفانه ثوب فيه ذهب، وأن يدفن في لحد، ولا يبنى عليه بناء بل يكون قبره في الصحراء تحت السماء، ويقول في مرضه: لي عند الله تعالى في أمر دمياط ما أرجو أن يرحمني به.

ولما توفي ولي بعده ابنه داود ولقب الملك الناصر، وكان عمره قد قارب عشرين سنة.

[١] وثلاثة.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٤٧٣

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة دام الغلاء في ديار الجزيرة، ودامت الأسعار تزيد قليلا وتنقص قليلا، وانقطع المطر جميع سباط وعشرة أيام من آذار،

فازداد الغلاء، فبلغت الحنطة كل مكوّين بدينار و قيراطين بالموصل، و الشعير كل ثلاثة مكايك بالموصل بدينار و قيراطين أيضا، و كل شيء بهذه السنة في الغلاء.

و فيها، في الربيع، قلّ لحم الغنم بالموصل، و غلا سعره، حتّى بيع كل رطل لحم بالبغدادى بحبتين بالصنجة، و ربّما زاد في بعض الأيام على هذا الثمن.

و حكى لى من يتولّى بيع الغنم بالموصل أنّهم باعوا يوما خروفا واحدا لا غير، و فى بعضها خمسة أرؤس، و فى بعضها ستّة، و أقلّ و أكثر، و هذا ما لم يسمع بمثله، و لا- رأيناه فى جميع أعمارنا، و لا- حكى لنا مثله لأنّ الربيع مظنة رخص اللحم بها، لأنّ التركمان و الأكراد و الكيلكان ينتقلون من الأمكنة التى شتّوا بها إلى الزوزان فيبيعون الغنم رخيصا.

و كان اللحم كل سنة فى هذا الفصل كل ستّة أرتال و سبعة بقيراط، صار هذه السنة الرطل بحبتين.

و فيها عاشر آذار، و هو العشرون من ربيع الأوّل، سقط الثلج بالموصل مرّتين، و هذا غريب جدّا لم يسمع بمثله، فأهلك الأزهار التى خرجت كزهر اللوز، و المشمش، و الإجاص، و السفرجل و غيرها، و وصلت الأخبار من العراق جميعه مثل ذلك، فهلكت به أزهارها و الثمار، و هذا أعجب من حال ديار الجزيرة و الشام فإنّه أشدّ حرّا من جميعها.

و فيها ظفر جمع من التركمان، كانوا بأطراف أعمال حلب، بفارس مشهور من الفرنج الداويّة بأنطاكيّة فقتلوه، فعلم الداويّة بذلك فساروا

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٤٧٤

و كسبوا التركمان، فقتلوا منهم و أسروا، و غنموا من أموالهم، فبلغ إلى أتابك شهاب الدين المتولّى لأموار حلب، فراسل الفرنج، و تهّددهم بقصد بلادهم، و اتّفق أنّ عسكر حلب قتلوا فارسين كبيرين من الداويّة أيضا، فأذعنوا بالصلح، و ردّوا إلى التركمان كثيرا من أموالهم و حريمهم و أسراهم.

و فيها، فى رجب، اجتمع طائفة كثيرة من ديار بكر، و أرادوا الإغارة على جزيرة ابن عمر، و كان صاحب الجزيرة قد قتل، فلمّا قصدوا بلد الجزيرة اجتمع أهل قرية كبيرة من بلد الجزيرة اسمها سلكون، و لقوهم من ضحوّة النهار إلى العصر، و طال القتال بينهم، ثم حمل أهل القرية على الأكراد فهزموهم و قتلوا فيهم، و خرجوا و نهبوا ما معهم و عادوا سالمين.

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٤٧٥

٦٢٥ ثم دخلت سنة خمس و عشرين و ستمائة

ذكر الخلف بين جلال الدين و أخيه

فى هذه السنة خاف غياث الدين بن خوارزم شاه، و هو أخو جلال الدين من أبيه «١»، [أخاه]، و خافه معه جماعة من الأمراء، و استشعروا منه، و أرادوا الخلاص منه، فلم يتمكّنوا من ذلك إلى أن خرجت التتر، و اشتغل بهم جلال الدين، فهرب غياث الدين و من معه، و قصدوا خوزستان، و هى من بلاد الخليفة، و أرادوا الدخول فى طاعة الخليفة، فلم يمكنهم النائب بها من الدخول إلى البلد، مخافة أن تكون هذه مكيدة، فبقى هناك، فلمّا طال عليه الأمر فارق خوزستان و قصد بلاد الإسماعيليّة، فوصل إليهم، و احتفى بهم و استجار بهم.

و كان جلال الدين قد فرغ من أمر التتر و عاد إلى تبريز، فأتاه الخبر و هو بالميدان يلعب بالكرة أنّ أخاه قد قصد أصفهان، فألقى الجوكان من يده، و سار مجدّا، فسمع أنّ أخاه قد قصد الإسماعيليّة ملتجئا إليهم، و لم يقصد أصفهان، فعاد إلى بلاد الإسماعيليّة لينهب بلادهم إن لم يسلموا إليه أخاه، و أرسل يطلبه من مقدّم الإسماعيليّة، فأعاد الجواب يقول: إنّ أخاك قد قصدنا، و هو سلطان

ابن سلطان، ولا يجوز لنا أن نسلمه، لكن نحن نتركه عندنا ولا نمكّنه أن يأخذ شيئاً من بلادك، ونسألك أن تشفعني فيه والضمان

(١). من tittimo

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٤٧٦

علينا بما قلنا، ومتى كان منه ما تكره في بلادك، فبلادنا حينئذ بين يديك تفعل فيها ما تختار. فأجابهم إلى ذلك، واستحلفهم على الوفاء بذلك، وعاد عنهم وقصد خلاط، على ما ذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر الحرب بين جلال الدين والتتر

في هذه السنة عاود التتر الخروج إلى الرّى، وجرى بينهم وبين جلال الدين حروب كثيرة اختلف الناس علينا في عددها، كان أكثرها عليه، وفي الأخير كان الظفر له.

و كانت أول حرب بينهم عجائب غريبة، وكان هؤلاء التتر قد سخط ملكهم جنكزخان على مقدمهم، وأبعده عنه، وأخرجه من بلاده، فقصد خراسان، فرآها خراباً، فقصد الرّى ليتغلب على تلك النواحي والبلاد، فلقية بها جلال الدين، فاقتلوا أشد قتال، ثم انهزم جلال الدين وعاد ثم انهزم، وقصد أصفهان، وأقام بينها وبين الرّى، وجمع عساكره ومن في طاعته، فكان فيمن أتاه صاحب بلاد فارس، وهو ابن أتابك سعد ملك بعد وفاة أبيه، كما ذكرناه، وعاد جلال الدين إلى التتر فلقبهم.

فبينما هم مصطفون كلّ طائفة مقابل الأخرى انعزل غياث الدين أخو جلال الدين فيمن وافقه من الأمراء على مفارقة جلال الدين، واعتزلوا، وقصدوا جهة ساروا إليها، فلمّا رأهم التتر قد فارقوا العسكر ظنّوهم يريدون أن يأتوهم من وراء ظهورهم ويقاثلوهم من جهتين، فانهزم التتر لهذا الظنّ وتبعهم صاحب بلاد فارس.

وأما جلال الدين فأنه لما رأى مفارقة أخيه إياه ومن معه من الأمراء ظنّ

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٤٧٧

أنّ التتر قد رجعوا خديعة ليستدرجوه، فعاد منهزماً، ولم يجسر [أن] يدخل أصفهان لئلا يحصره التتر، فمضى إلى سميرم.

وأما صاحب فارس فلمّا أبعد في أثر التتر، ولم ير جلال الدين ولا عسكره معه، خاف التتر فعاد عنهم.

وأما التتر فلمّا لم يروا في آثارهم أحدا يطلبهم وقفوا، ثمّ عادوا إلى أصفهان، فلم يجدوا في طريقهم من يمنعهم، فوصلوا إلى أصفهان فحاصروها، وأهلها يظنون أنّ جلال الدين قد عدم، فبينما هم كذلك والتتر يحصرونهم إذ وصل قاصد من جلال الدين إليهم يعرفهم سلامته، ويقول: إني أدور حتى يجتمع إليّ من سلم من العسكر وأقصدكم وتتفق أنا وأنتم على إزعاج التتر وترحيلهم عنكم.

فأرسلوا إليه يستدعونه إليهم، ويعدونه النصر والخروج معه إلى عدوّه، وفيهم شجاعة عظيمة، فسار إليهم، واجتمع بهم، وخرج أهل أصفهان معه، فقاتلوا التتر، فانهزم التتر أقبح هزيمة، وتبعهم جلال الدين إلى الرّى يقتل ويأسر، فلمّا أبعدوا عن الرّى أقام بها، وأرسل إليه ابن جنكزخان يقول: إنّ هؤلاء ليسوا من أصحابنا، إنّما نحن أبعدناهم عنّا، فلمّا أطمأن جانب جنكزخان أطمأن وعاد إلى أذربيجان.

ذكر خروج الفرنج إلى الشام و عمارة صيدا

وفي هذه السنة خرج كثير من الفرنج من بلادهم، التي هي في الغرب من صقلية وما وراءها من البلاد، إلى بلادهم التي بالشام: عكا و صور وغيرهما من ساحل الشام، فكثرت جمعهم، وكان قد خرج قبل هؤلاء جمع آخر

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٤٧٨

أيضا إلبا أنهم لم تمكنهم «١» الحركة و الشروع في أمر الحرب لأجل أن ملكهم الذي هو المقدم عليهم هو ملك الألمان، و لقبه أنبرور، قيل: معناه ملك الأمراء، و لأن المعظم كان حيا، و كان شهما شجاعا مقداما، فلما توفي المعظم، كما ذكرناه، و ولى بعده ابنه و ملك دمشق طمع الفرنج، و ظهوروا من عكا و صور و بيروت إلى مدينة صيدا، و كانت مناصفة بينهم و بين المسلمين، و سورها خراب، فعمروها، و استولوا عليها.

و إنما تم لهم ذلك بسبب تخريب الحصون القريبة منها، تبين و هونين و غيرهما. و قد تقدم ذكر ذلك قبل مستقصى، فعظمت شوكة الفرنج، و قوى طمعهم، و استولى في طريقه على جزيرة قبرس، و ملكها، و سار منها إلى عكا، فارتاع المسلمون لذلك، و الله تعالى يخذله و ينصر المسلمين بمحمد و آله، ثم إن ملكهم أنبرور وصل إلى الشام.

ذكر ملك كيقباز أرزنكان

و في هذه السنة ملك علاء الدين كيقباز بن كيخسرو بن قلعج أرسلان، و هو صاحب قونية، و أقصروا، و ملطية، و غيرها من بلاد الروم، أرزنكان.

و سبب ملكه إياها أن صاحبها بهرام شاه كان قد طال ملكه لها، و جاوز ستين سنة، توفي و لم يزل في طاعة قلعج أرسلان و أولاده بعده، فلما توفي ملك بعده ولده علاء الدين داود شاه، فأرسل إليه كيقباز يطلب منه عسكريا ليسير معه إلى مدينة أرزن الروم ليحصرها، و يكون هو مع العسكر، ففعل ذلك، و سار في عسكره إليه، فلما وصل قبض عليه، و أخذ مدينة أرزنكان

(١). يمكنهم: ٧٤٠ (١).

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٤٧٩

منه، و له حصن من أمنع الحصون اسمه كماخ، و فيه مستحفظ لداود شاه، فأرسل إليه ملك الروم يحصره، فلم يقدر العسكر على القرب منه لعلوه و ارتفاعه و امتناعه، فتهدد داود شاه إن لم يسلم كماخ، فأرسل إلى نائبه في التسليم، فسلم القلعة إلى كيقباز. و أراد كيقباز المسير إلى أرزن الروم ليأخذها و بها صاحبها ابن عمه طغرل شاه بن قلعج أرسلان، فلما سمع صاحبها بذلك أرسل إلى الأمير حسام الدين علي، النائب عن الملك الأشرف بخلاط، يستنجده، و أظهر طاعة الأشرف، فسار حسام الدين فيمن عنده من العساكر، و كان قد جمعها من الشام، و ديار الجزيرة، خوفا من ملك الروم، خافوا أنه إذا ملك أرزن الروم يتعدى [١]، و يقصد خلاط، فسار الحاجب حسام الدين إلى الروم و منع عنها.

و لما سمع كيقباز بوصول العساكر إليها لم يقدم على قصدها، فسار من أرزنكان إلى بلاده، و كان قد أتاه الخبر أن الروم الكفار المجاورين لبلاده قد ملكوا منه حصنا يسمى صنوب، و هو من أحصن القلاع، مطلق على البحر السياه بحر الخزر، فلما وصل إلى بلاده سير العسكر إليه و حصره بزا و بحرا، فاستعاده من الروم، و سار إلى أنطاكية ليشتي بها على عادته.

ذكر خروج الملك الكامل

في هذه السنة، في سؤال، سار الملك الكامل محمد ابن الملك العادل، صاحب مصر، إلى الشام، فوصل إلى البيت المقدس، حرسه الله تعالى، و جعله دار الإسلام أبدا، ثم سار عنه، و تولى بمدينة نابلس، و شحن على تلك البلاد

[١] يتعدا.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٤٨٠

جميعها، وكانت من أعمال دمشق، فلما سمع صاحبها، وهو ابن الملك المعظم، خاف أن يقصده و يأخذ دمشق منه، فأرسل إلى عمه الملك الأشرف يستنجد، و يطلبه ليحضر عنده بدمشق، فسار إليه جريده، فدخل دمشق.

فلما سمع الكامل بذلك لم يتقدم لعلمه أن البلد منيع، وقد صار به من يمنعه و يحميه، و أرسل إليه الملك الأشرف يستعطفه، و يعرفه أنه ما جاء إلى دمشق إلّا طاعة له، و موافقة لأغراضه، و الاتفاق معه على منع الفرنج عن البلاد، فأعاد الكامل الجواب يقول: إنني ما جئت إلى هذه البلاد إلّا بسبب الفرنج، فإنهم لم يكن في البلاد من يمنعهم عما يريدونه، و قد عمروا صيدا، و بعض قيساريه، و لم يمنعوا، و أنت تعلم أن عمنا السلطان صلاح الدين فتح البيت المقدس، فصار لنا بذلك الذكر الجميل على تقضى الأعصار و ممر الأيام، فإن أخذه الفرنج حصل لنا من سوء الذكر و قبح الأحداث ما يناقض ذلك الذكر الجميل الذي أذخره عمنا، و أى وجه يبقى لنا عند الناس و عند الله تعالى؟

ثم إنهم ما يقنعون حينئذ بما أخذوه، و يتعدون إلى غيره، و حيث قد حضرت أنت فأنا أعود إلى مصر، و احفظ أنت البلاد، و لست بالذى يقال عني إنني قاتلت أختي، و حصرته، حاشا لله تعالى.

و تأخر عن نابلس نحو الديار المصريه، و نزل تل العجول، فخاف الأشرف و الناس قاطبة بالشام، و علموا أنه إن عاد استولى الفرنج على البيت المقدس و غيره ممّا يجاوره، لا مانع دونه، فتردّت الرسل، و سار الأشرف بنفسه إلى الكامل أخيه، فحضر عنده، و كان وصوله ليلة عيد الأضحى، و منعه من العود إلى مصر، فأقاما بمكانهما.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٢٨١

ذكر نهب جلال الدين بلاد أرمينية

في هذه السنة وصل جلال الدين خوارزم شاه إلى بلاد خلاط، و تعدّى خلاط إلى صحراء موش، و جبل جور، و نهب الجميع، و سبي الحرير، و استرق الأولاد، و قتل الرجال، و خرّب القرى، و عاد إلى بلاده.

ولما وصل الخبر إلى البلاد الجزرية: حرّان و سروج و غيرهما، أنه قد جاز خلاط إلى جور، و أنه قد قرب منهم، خاف أهل البلاد أن يجيء إليهم، لأن الزمان كان شتاء، و ظنوا أنه يقصد الجزيرة ليشتي بها، لأنّ البرد بها ليس بالشديد، و عزموا على الانتقال من بلادهم إلى الشام، و وصل بعض أهل سروج إلى منبج من أرض الشام، فأتاهم الخبر أنه قد نهب البلاد و عاد، فأقاموا، و كان سبب عوده أن الثلج سقط ببلاد خلاط كثيرا، لم يعهد مثله، فأسرع العود.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة رخصت الأسعار بديار الجزيرة جميعها، و جاءت الغلات التي لهم من الحنطة و الشعير جيّدا، إلّا أن الرخص لم يبلغ الأوّل الذي كان قبل الغلاء، إنّما صارت الحنطة كلّ خمسة [١] مكاييك بدينار، و الشعير كلّ سبعة عشر مكوكا بالموصل بدينار.

[١] خمس.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٢٨٢

٦٢٦ ثم دخلت سنة ست و عشرين و ستمائة

ذكر تسليم البيت المقدس إلى الفرنج

في هذه السنة، أول ربيع الآخر، تسلّم الفرنج، لعنهم الله، البيت المقدّس صلحا، أعاده الله إلى الإسلام سريعا.

و سبب ذلك ما ذكرناه سنة خمس وعشرين و ستمائة من خروج الأنبرور، ملك الفرنج، في البحر من داخل بلاد الفرنج إلى ساحل الشام، و كانت عساكره قد سبقته، و نزلوا بالساحل، و أفسدوا فيما يجاورهم من بلاد المسلمين، و مضى إليهم، و هم بمدينة صور، طائفة من المسلمين يسكنون الجبال المجاورة لمدينة صور و أطاعوهم، و صاروا معهم، و قوى طمع الفرنج بموت الملك المعظم عيسى بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب، صاحب دمشق.

و لما وصل الأنبرور إلى الساحل نزل بمدينة عكا، و كان الملك الكامل، رحمه الله تعالى، ابن الملك العادل، صاحب مصر، قد خرج من الديار المصرية يريد الشام بعد وفاة أخيه المعظم، و هو نازل بتلّ العجول، يريد أن يملك دمشق من الناصر داود ابن أخيه المعظم، و هو صاحبها يومئذ، و كان داود لما سمع بقصد عمّه الملك الكامل له قد أرسل إلى عمّه الملك الأشرف، صاحب البلاد الجزرية، يستنجد، و يطلب منه المساعدة على دفع عمّه عنه، فسار إلى دمشق، و ترددت الرسل بينه و بين أخيه الملك الكامل في الصلح، فاصطلحا، و اتفقا، و سار الملك الأشرف إلى الملك الكامل و اجتمع به.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٤٨٣

فلما اجتمعا ترددت الرسل بينهما و بين الأنبرور، ملك الفرنج، دفعات كثيرة، فاستقرت القاعدة على أن يسلموا إليه البيت المقدّس و معه مواضع يسيرة من بلاده، و يكون باقى البلاد مثل الخليل، و نابلس، و الغور، و ملطية، و غير ذلك بيد المسلمين، و لا يسلم إلى الفرنج إلّا البيت المقدّس و المواضع التي استقرت معه.

و كان سور البيت المقدّس خرابا [قد] «١» خربه الملك المعظم، و قد [ذكرنا] «٢» ذلك، و تسلّم الفرنج البيت المقدّس، و استعظم المسلمون ذلك و أكبروه، و وجدوا له من الوهن و التألم ما لا يمكن وصفه، يسّر الله فتحه و عوده إلى المسلمين بمنّه و كرمه، أمين.

ذكر ملك الملك الأشرف مدينة دمشق

و في هذه السنة يوم الاثنين ثانى شعبان ملك الملك الأشرف ابن الملك العادل مدينة دمشق من ابن أخيه صلاح الدين داود بن المعظم.

و سبب ذلك ما ذكرناه أنّ صاحب دمشق لما خاف من عمّه الملك الكامل أرسل إلى عمّه الأشرف يستنجد، و يستعين به على دفع الكامل عنه، فسار إليه من البلاد الجزرية، و دخل دمشق، و فرح به صاحبها و أهل البلد، و كانوا قد احتاطوا، و هم يتجهّزون للحصار، فأمر بإزالة ذلك، و ترك ما عزموا عليه من الاحتياط، و حلف لصاحبها على المساعدة و الحفاظ له و لبلاده عليه، و راسل الملك الكامل و اصطلحا و ظنّ صاحب دمشق أنّه معهما في الصلح.

و سار الأشرف إلى أخيه الكامل، و اجتمعا في ذى الحجة من سنة خمس

(١).

(٢).

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٤٨٤

وعشرين، يوم العيد، و سار صاحب دمشق إلى بيسان و أقام بها، و عاد الملك الأشرف من عند أخيه، و اجتمع هو و صاحب دمشق، و لم يكن الأشرف في كثرة من العسكر، فبينما هما جالسان في خيمة لهما إذ قد دخل عزّ الدين أيبك، مملوك المعظم الذي كان صاحب دمشق، و هو أكبر أمير مع ولده، فقال لصاحبه داود: قم اخرج و إلّا قبضت الساعة، فأخرجه، و لم يمكن الأشرف منعه لأنّ أيبك كان قد أركب العسكر الذي لهم جميعه، و كانوا أكثر من الذين مع الأشرف، فخرج داود و سار هو و عسكره إلى دمشق.

و كان سبب ذلك أن أيبك قيل له: إن الأشرف يريد القبض على صاحبه و أخذ دمشق منه، ففعل ذلك، فلمّا عادوا وصلت العساكر من الكامل إلى الأشرف، و سار فنازل دمشق و حصرها، و أقام محاصرا لها إلى أن وصل إليه الملك الكامل، فحينئذ اشتدّ الحصار، و عظم الخطب على أهل البلد، و بلغت القلوب الحناجر.

و كان من أشدّ الأمور على صاحبها أن المال عنده قليل لأنّ أمواله بالكرك، و لو ثوقه بعمّه الأشرف لم يحضر منها شيئا، فاحتاج إلى أن باع حلى نسائه و ملبوسهن [١]، و ضاقت الأمور عليه، فخرج إلى عمّه الكامل و بذل له تسليم دمشق و قلعة الشوبك على أن يكون له الكرك و الغور و بيسان و نابلس، و أن يبقى على أيبك قلعة صرخد و أعمالها.

و تسلّم الكامل دمشق، و جعل نائبة بالقلعة إلى أن سلّم إليه أخوه الأشرف حرّان و الرّها و الرّقة و سروج و رأس عين من الجزيرة، فلمّا تسلّم ذلك سلّم قلعة دمشق إلى أخيه الأشرف، فدخلها، و أقام بها، و سار الكامل إلى الديار الجزرية فأقام بها إلى أن استدعى أخاه الأشرف بسبب حصر جلال الدين

[١]- و ملبوسهم.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٤٨٥

ابن خوارزم شاه مدينة خلّاط، فلمّا حضر عنده بالرقّة عاد الكامل إلى ديار مصر، و أمّا الأشرف فكان منه ما نذكره، إن شاء الله تعالى.

ذكر القبض على الحاجب عليّ و قتله

و في هذه السنة أرسل الملك الأشرف مملوكه عزّ الدين أيبك، و هو أمير كبير في دولته، إلى مدينة خلّاط، و أمره بالقبض على الحاجب حسام الدين عليّ بن حمّاد، و هو المتولّي لبلاد خلّاط و الحاكم فيها من قبل الأشرف.

و لم نعلم شيئا يوجب القبض عليه، لأنّه كان مشفقا عليه، ناصحا له، حافظا لبلاده، و حسن السيرة مع الرعيّة، و لقد وقف هذه المدّة الطويلة في وجه خوارزم شاه جلال الدين، و حفظ خلّاط حفظا يعجز غيره عنه، و كان مهتمّا بحفظ بلاده، و ذابّا عنها، و قد تقدّم من ذكر قصده بلاد جلال الدين و الاستيلاء على بعضها ما يدلّ على همّة عاليّة، و شجاعة تامّة، و صار لصاحبه به منزلة عظيمة، فإنّ الناس يقولون: بعض غلمان الملك الأشرف يقاوم خوارزم شاه.

و كان، رحمه الله، كثير الخير و الإحسان لا يمكن أحدا من ظلم، و عمل كثيرا من أعمال البرّ، من الخانات في الطرق، و المساجد في البلاد، و بنى بخلاط بيمارستانا و جامعا، و عمل كثيرا من الطرق، و أصلحها كان يشقّ سلوكها.

فلمّا وصل أيبك إلى خلّاط قبض عليه، ثمّ قتله غيلة، لأنّه كان عدوّه، و لما قتل ظهر أثره كفايته، فإنّ جلال الدين حصر خلّاط بعد قبضه و ملكها، على ما نذكره إن شاء الله، و لم يمهل الله أيبك بل انتقم منه سريعا، فإنّ جلال

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٤٨٦

الدين أخذ أيبك أسيرا لمّا ملك خلّاط مع غيره من الأمراء، فلمّا اصطلح الأشرف و جلال الدين أطلق الجميع، و ذكر أن أيبك قتل.

و كان سبب قتله أن مملوكا للحاجب عليّ كان قد هرب إلى جلال الدين، فلمّا أسر أيبك طلبه ذلك المملوك من جلال الدين ليقتله بصاحبه الحاجب عليّ، فسلمّه إليه فقتله، و بلغني أن الملك الأشرف رأى في المنام كأنّ الحاجب عليّا قد دخل إلى مجلس فيه أيبك فأخذ منديلا و جعله [١] في رقبة أيبك و أخذه و خرج، فأصبح الملك الأشرف و قال: قد مات أيبك، فإنّي رأيت في المنام كذا و كذا.

ذكر ملك الكامل مدينة حماة

و في هذه السنة، أواخر شهر رمضان، ملك الملك الكامل مدينة حماة. و سبب ذلك أن الملك المنصور محمد بن تقي الدين عمر، و هو صاحب حماة، توفي، على ما نذكره، و لما حضرته الوفاة حلف الجند و أكابر البلد لولده الأكبر، و يلقب بالملك المظفر، و كان قد سيّره أبوه إلى الملك الكامل، صاحب مصر، لأنه كان قد تزوج بابنته، و كان لمحمد ولد آخر اسمه قليج أرسلان، و لقبه صلاح الدين، و هو بدمشق، فحضر إلى مدينة حماة فسلمت إليه، و استولى على المدينة و على قلعتها، فأرسل الملك [الكامل] يأمره أن يسلم البلد إلى أخيه الأكبر، فإن أباه أوصى له به، فلم يفعل، و ترددت الرسل في ذلك إلى الملك المعظم، صاحب دمشق، فلم تقع الإجابة.

فلما توفي المعظم، و خرج الكامل إلى الشام و ملك دمشق، سيّر جيشا

[١]- و جعلها.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٤٨٧

إلى حماة فحصرها ثالث شهر رمضان، و كان المقدم على هذا الجيش أسد الدين شيركوه، صاحب حمص، و أمير كبير من عسكره يقال له فخر الدين عثمان، و معهما ولد محمد بن تقي الدين محمد الذي كان عند الكامل، فبقى الحصار على البلد عدة أيام. و كان الملك الكامل قد سار عن دمشق و نزل على سلمية يريد العبور إلى البلاد الجزرية، حران و غيرها، فلما نازلها قصدده صاحب حماة صلاح الدين، و نزل إليه من قلعة، و لم يكن لذلك سبب إلا أمر الله تعالى، فإن صلاح الدين قال لأصحابه: أريد النزول إلى الملك الكامل، فقالوا له: ليس بالشام أحصن من قلعتك، و قد جمعت من الذخائر ما لا حد له، فلأى شيء تنزل إليه؟ ليس هذا برأي، فأصر على النزول، و أصرّوا على منعه، فقال في آخر الأمر:

اتركوني أنزل، و إلا ألقيت نفسي من القلعة، فحينئذ سكتوا عنه، فنزل في نفر يسير، و وصل إلى الكامل، فاعتقله إلى أن سلم مدينة حماة و قلعتها إلى أخيه الأكبر الملك المظفر، و بقي بيده قلعة بارين، فإنها كانت له، و كان هو كالباحث عن حتفه بظلفه.

ذكر حصر جلال الدين خلّاط و ملكها

و في هذه السنة، أوائل شوال، حصر جلال الدين خوارزم شاه مدينة خلّاط، و هي للملك الأشرف، و بها عسكره، فامتنعوا بها، و أعانهم أهل البلد خوفا من جلال الدين لسوء سيرته، و أسرفوا في الشتم و السفه، فأخذهم اللجاج معهم، و أقام عليهم جميع الشتاء محاصرا، و فرق كثيرا من عساكره في القرى و البلاد القريبة من شدة البرد و كثرة الثلج، فإن خلّاط من أشد البلاد بردا و أكثرها ثلجا. و أبان جلال الدين عن عزم قوى، و صبر تحار العقول منه، و نصب

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٤٨٨

عليها عدة مجانيق، و لم يزل يرميها بالحجارة حتى خربت بعض سورها، فأعاد أهل البلد عمارته، و لم يزل مصابريهم و ملازمهم إلى أواخر جمادى الأولى من سنة سبع و عشرين [و ستمائة]، فرحف إليها زحفا متتابعا و ملكها عنوة و قهرا يوم الأحد الثامن و العشرين من جمادى الأولى، سلمها إليه بعض الأمراء غدرا.

فلما ملك البلد صعد من فيه من الأمراء إلى القلعة التي لها و امتنعوا بها، و هو منازلهم، و وضع السيف في أهل [البلد]، و قتل من وجد به منهم، و كانوا قد قتلوا، فإن بعضهم فارقه خوفا، و بعضهم خرج منه من شدة الجوع، و بعضهم مات من القلّة و عدم القوت، فإن الناس في خلّاط أكلوا الغنم، ثم البقر، ثم الجواميس، ثم الخيل، ثم الحمير، ثم البغال و الكلاب و السنانير، و سمعنا أنهم كانوا يصطادون الفأر و يأكلونه، و صبروا صبرا لم يلحقهم فيه أحد.

و لم يملك من بلاد خلّاط غيرها، و ما سواها من البلاد لم يكونوا ملكوه، و خربوا «١» خلّاط، و أكثروا القتل فيها، و من سلم هرب

فى البلاد، و سبوا الحرىم، و استرقوا الأولاد، و باعوا الجمىع، فتمزقوا كل ممزق، و تفرقوا فى البلاد، و نهبوا الأموال، و جرى على أهلها ما لم يسمع بمثله أحد، لا جرم لم يمهل الله تعالى، و جرى عليه من الهزيمة بين المسلمين و التتر ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر عدة حوادث

فى أواخر هذه السنة قصد الفرنج حصن بارى بالشام، و نهبوا بلاده، و أعماله، و أسروا و سبوا، و من جملة من ظفروا به طائفة كثيرة من التركمان، فأخذوا الجمىع، و لم يسلم منهم إلّا النادر الشاذ، و الله أعلم.

(١). و جزيرة: spu.

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٤٨٩

٦٢٧ ثم دخلت سنة سبع و عشرين و ستمائة

ذكر انهزام جلال الدين من كىقباد و الأشرف

فى هذه السنة، يوم السبت الثامن و العشرين من رمضان، انهزم جلال الدين ابن خوارزم شاه من عبد الله بن كىقباد بن كىخسرو بن قلع أرسلان، صاحب بلاد الروم، قونية، و أقصروا، و سىواس، و ملطية، و غيرها، و من الملك الأشرف، صاحب دمشق و ديار الجزيرة و خلاط.

و سبب ذلك أن جلال الدين كان قد أطاعه صاحب أرزن الروم، و هو ابن عم علاء الدين، ملك الروم، و بينه و بين ملك الروم عداوة مستحكمة، و حضر صاحب أرزن الروم عند جلال الدين على خلاط، و أعانه على حصرها، فخافهما علاء الدين، فأرسل إلى الملك الكامل، و هو حينئذ بحران، يطلب منه أن يحضر أخاه الأشرف من دمشق، فإنه كان مقيما بها بعد أن ملكها، و تابع علاء الدين الرسل بذلك خوفا من جلال الدين، فأحضر الملك الكامل أخاه الأشرف من دمشق، فحضر عنده، و رسل علاء الدين إليهما متتابعة، يحتّ الأشرف على المجرى إليه و الاجتماع به، حتّى قيل إنه فى يوم واحد وصل إلى الكامل و الأشرف من علاء الدين خمسة رسل، و يطلب [١] مع الجمىع وصول الأشرف إليه و لو وحده، فجمع عساكر الجزيرة و الشام و سار إلى علاء الدين، فاجتمعا بسىواس، و سارا نحو خلاط، فسمع جلال

[١]- و يطلب.

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٤٩٠

الدين بهما، فسار إليهما مجدا فى السير، فوصل إليهما بمكان يعرف بىاسى حمار «١»، و هو من أعمال أرزنجان، فالتقوا هناك. و كان مع علاء الدين خلق كثير، قيل: كانوا عشرين ألف فارس، و كان مع الأشرف نحو خمسة آلاف فارس، إلّا أنهم من العساكر الجيدة الشجعان، لهم السلاح الكثير، و الدواب الفارسة من العربيات، و كل منهم قد جرب الحرب. و كان المقدم عليهم أمير من أمراء عساكر حلب يقال له عز الدين عمر بن على، و هو من الأكراد الهكاريّة، و من الشجاعة فى الدرجة العليا، و له الأوصاف الجميلة و الأخلاق الكريمة.

فلما التقوا بهت جلال الدين لما رأى من كثرة العساكر، و لا سىما لما رأى عسكر الشام، فإنه شاهد من تجملهم، و سلاحهم، و دوابهم ما ملأ صدره رعبا، فأنشب عز الدين بن على القتال، و معه عسكر حلب، فلم يقم لهم جلال الدين و لا صبر، و مضى منهزما هو

عسكره و تمزقوا لا- يلوى الأخ على أخيه، و عادوا إلى خلاط فاستصحبوا معهم من فيها من أصحابهم، و عادوا إلى أذربيجان فنزّلوا عند مدينة خوي، و لم يكونوا قد استولوا على شيء من أعمال خلاط سوى خلاط، و وصل الملك الأشرف إلى خلاط و قد استصحبوا معهم من فيها فبقيت خاوية على عروشها، خالية من الأهل و السكان، قد جرى عليهم ما ذكرناه قبل.

ذكر ملك علاء الدين أرزن الروم

قد ذكرنا أنّ صاحب أرزن الروم كان مع جلال الدين على خلاط، و لم يزل معه، و شهد معه المصافى المذكور، فلما انهزم جلال الدين أخذ صاحب

(١) بباسى حماك. ٧٤٠ (١).

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٤٩١

أرزن الروم أسيرا، فأحضر عند علاء الدين كيخباذ ابن عمه، فأخذه، و قصد أرزن الروم، فسلمها صاحبها إليه هى و ما يتبعها من القلاع و الخزائن و غيرها، فكان كما قيل: خرجت النعمة تطلب قرنين، فعادت بلا أذنين. و هكذا هذا المسكين جاء إلى جلال الدين يطلب الزيادة، فوعده بشيء من بلاد علاء الدين، فأخذ ماله و ما بيديه من البلاد و بقى أسيرا، فسبحان من لا يزول ملكه.

ذكر الصلح بين الأشرف و علاء الدين و بين جلال الدين

لما عاد الأشرف إلى خلاط، و مضى جلال الدين منهزما إلى خوي، ترددت الرسل بينهما، فاصطلحوا كلّ منهم على ما بيده، و استقرت القواعد على ذلك، و تحالفوا، فلما استقرّ الصلح و جرت الأيمان عاد الأشرف إلى سنجار، و سار منها إلى دمشق، فأقام جلال الدين ببلاده من أذربيجان إلى أن خرج عليه التتر، على ما ذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر ملك شهاب الدين غازى مدينة أرزن

كان حسام الدين صاحب مدينة أرزن من ديار بكر لم يزل مصاحبا للملك الأشرف، مشاهدا جميع حروبه و حوادثه، و ينفق أمواله فى طاعته، و يبذل نفسه و عساكره فى مساعدته، فهو يعادى أعداءه، و يوالى أوليائه. و من جملة موافقته أنّه كان فى خلاط لما حصرها جلال الدين، فأسره

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٤٩٢

جلال الدين، و أراد أن يأخذ منه مدينة أرزن، فقبل له: إنّ هذا من بيت قديم عريق فى الملك، و إنّ وراث أرزن هذه من أسلافه، و كان لهم سواها من البلاد فخرج الجميع من أيديهم، فعطف عليه و رقّ له، و أبقى عليه مدينته، و أخذ عليه العهود و المواثيق أنّه لا يقاتله.

فلما جاء الملك الأشرف و علاء الدين محاربين لجلال الدين لم يحضر معهم فى الحرب، فلما انهزم جلال الدين سار شهاب الدين غازى ابن الملك العادل، و هو أخو الأشرف، و له مدينة ميافارقين، و مدينة حانى، و هو بمدينة أرزن، فحصره بها، ثم ملكها صلحا، و عوّضه عنها بمدينة حانى من ديار بكر.

و حسام الدين هذا نعم الرجل، حسن السيرة، كريم، جواد، لا يخلو بابه من جماعة يردون إليه يستمنحونه، و سيرته جميلة فى ولايته و رعيته، و هو من بيت قديم يقال له [١] بيت طغان أرسلان، كان له مع أرزن بدليس و وسطان و غيرهما، و يقال لهم بيت الأحذب، و

هذه [٢] البلاد معهم من أيام ملك شاه بن ألب أرسلان السلجوقي، فأخذ بكتمر صاحب خلاط منهم بدليس، أخذها من عم حسام الدين هذا، لأنه كان موافقا لصلاح الدين يوسف بن أيوب، فقصد بكتمر لذلك، و بقيت أرزن بيد هذا إلى الآن، فأخذت منه، و لكل أول آخر، فسبحان من لا أول له و لا آخر لبقائه.

[١]- لهم.

[٢] و لهذه.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٤٩٣

ذكر ملك سونج قشالوا قلعة رويندز

و في هذه السنة ظهر أمير من أمراء التركمان اسمه سونج، و لقبه شمس الدين، و اسم قبيلته قشالوا، و قوى أمره، و قطع الطريق، و كثر جمعه، و كان بين إربل و همذان، و هو و من معه يقطعون الطريق، و يفسدون في الأرض، ثم إنه تعدى إلى قلعة منيعة اسمها سارو، و هي لمظفر الدين، من أعمال إربل، فأخذها و قتل عندها أميرا كبيرا من أمراء مظفر الدين، فجمع مظفر الدين، و أراد استعادتها منه، فلم يمكنه لحصانتها، و لكثرة الجموع مع هذا الرجل، فاصطلحا على ترك القلعة بيده.

و كان عسكر لجلال الدين بن خوارزم شاه يحصرون قلعة رويندز، و هي من قلاع أذربيجان، من أحصن القلاع و أمنعها، لا يوجد مثله، و قد طال الحصار على من بها فأذعنوا بالتسليم، فأرسل جلال الدين بعض خواص أصحابه و ثقاته ليتسلمها، و أرسل معه الخلع و المال لمن بها، فلما صعد ذلك القاصد إلى القلعة و تسلمها أعطى بعض من بالقلعة، و لم يعط البعض و استدللهم و طمع فيهم حيث استولى على الحصن، فلما رأى من لم يأخذ شيئا من الخلع و المال ما فعل بهم أرسلوا إلى سونج يطلبونه ليسلموا إليه القلعة، فسار إليهم في أصحابه فسلموها إليه، فسبحان من إذا أراد أمرا سهله.

قلعة رويندز هذه لم تزل تتقاصر عنها قدرة أكابر الملوك و عظمائهم من قديم الزمان و حديثه، و تضرب الأمثال بحصانتها، لما أراد الله سبحانه و تعالى أن يملكها هذا الرجل الضعيف سهل له الأمور، فملكها بغير قتال و لا تعب، و أزال عنها أصحاب مثل جلال الدين الذي كل ملوك الأرض تهابه و تخافه، و كان أصحابه جلال الدين، كما قيل: رب ساع لقاعد.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٤٩٤

فلما ملكها سونج طمع في غيرها، و لا سيما مع اشتغال جلال الدين بما أصابه من الهزيمة و مجيء التتر، فنزل من القلعة إلى مراغة، و هي قريب منها، فحصرها، فأثاه سهم غرب فقتله، فلما قتل ملك [قلعة] رويندز أخوه، ثم إن هذا الأخ الثاني نزل من القلعة، و قصد أعمال تبريز و نهبها، و عاد إلى القلعة ليجعل فيها من ذلك النهب و الغنيمة ذخيرة خوفا من التتر، و كانوا قد خرجوا، فصادفه طائفة من التتر، فقتلوه و أخذوا ما معه من النهب، و لما قتل ملك القلعة ابن أخت له، و كان هذا جميعه في مدة سنتين، فأف لدنيا لا تزال تتبع فرحة بترحه، و كل حسنة بسيئة. الكامل في التاريخ ج ١٢ ٤٩٥ ٦٢٨ ثم دخلت سنة ثمان و عشرين و ستمائة ص: ٤٩٥

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٤٩٥

٦٢٨ ثم دخلت سنة ثمان و عشرين و ستمائة

ذكر خروج التتر إلى أذربيجان و ما كان منهم

في هذه السنة وصل التتر من بلاد ما وراء النهر إلى أذربيجان، و قد ذكرنا قبل كيف ملكوا ما وراء النهر، و ما صنعوه بخراسان و غيرها

من البلاد، من النهب، والتخريب، والقتل، واستقرّ ملكهم بما وراء النهر، وعادت بلاد ما وراء النهر فانهمرت، وعمروا مدينة تقارب مدينة خوارزم عظمى، و بقيت مدن خراسان خرابا لا يجسر أحد من المسلمين [أن] يسكنها.

و أما التتر فكانوا تغير كلّ قليل طائفة منهم ينهبون ما يرونه بها، فالبلاد خاوية على عروشها، فلم يزالوا كذلك إلى أن ظهر منهم طائفة سنة خمس وعشرين [و ستمائة]، فكان بينهم وبين جلال الدين ما ذكرناه، و بقوا كذلك، فلمّا كان الآن، و انهزم جلال الدين من علاء الدين كيقباز و من الأشرف، كما ذكرناه سنة سبع وعشرين [و ستمائة]، أرسل مقدّم الإسماعيلية الملاحدة إلى التتر يعرّفهم ضعف جلال الدين بالهزيمة الكائنة عليه، و يحثّهم على قصده عقيب الضعف، و يضمن لهم الظفر به للوهن الذى صار إليه.

و كان جلال الدين سبى السيرة، قبيح التدبير لملكه، لم يترك أحدا من الملوك المجاورين له إلّا عاداه، و نازعه الملك، و أساء مجاورته، فمن ذلك أنّه أوّل ما ظهر فى أصفهان و جمع العساكر قصد خوزستان، فحصر مدينة شستر، و هى للخليفة، و سار إلى دقوقا فنهبها، و قتل فيها فأكثر، و هى للخليفة أيضا،

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٤٩٦

ثمّ ملك أذربيجان، و هى لأوزبك، و قصد الكرج و هزمهم و عاداهم، ثمّ عادى الملك الأشرف، صاحب خلاط، ثمّ عادى علاء الدين، صاحب بلاد الروم، و عادى الإسماعيلية، و نهب بلادهم، و قتل فيهم فأكثر، و قرّر عليهم وظيفة من المال كلّ سنة، و كذلك غيرهم، فكلّ من الملوك تخلى عنه، و لم يأخذ بيده.

فلما وصلت كتب مقدّم الإسماعيلية إلى التتر يستدعيهم إلى قصد جلال الدين بادر طائفة منهم فدخلوا بلادهم و استولوا على الزى و همذان و ما بينهما من البلاد، ثمّ قصدوا أذربيجان فخرّبوا و نهبوا و قتلوا من ظفروا به من أهلها، و جلال الدين لا يقدم على أن يلقاهم، و لا يقدر أن يمنعهم عن البلاد، قد ملئ رعبا و خوفا، و انضاف إلى ذلك أنّ عسكره اختلفوا عليه، و خرج وزيره عن طاعته فى طائفة كثيرة من العسكر.

و كان السبب غريبا أظهر من قلّة عقل جلال الدين ما لم يسمع بمثله، و ذلك أنّه كان له خادم خصى، و كان جلال الدين يهواه، و اسمه قليج، فاتّفق أنّ الخادم مات، فأظهر من الهلع و الجزع عليه ما لم يسمع بمثله، و لا لمجنون ليلى، و أمر الجند و الأمراء أن يمشوا فى جنازته رجالة، و كان موته بموضع بينه و بين تبريز عدّة فراسخ، فمشى الناس رجالة، و مشى بعض الطريق راجلا، فألزمه أمراؤه و وزيره بالركوب، فلما وصل إلى تبريز أرسل إلى أهل البلد، فأمرهم بالخروج عن البلد لتلقّى تابوت الخادم، ففعلوا، فأنكر عليهم حيث لم يبعدوا، و لم يظهروا من الحزن و البكاء أكثر ممّا فعلوا، و أراد معاقبتهم على ذلك فشفع فيهم أمراؤه فتركهم.

ثمّ لم يدفن ذلك الخصى، و إنّما يستصحبه معه حيث سار، و هو يلطم و يبكى، فامتنع من الأكل و الشرب، و كان إذا قدّم له طعام يقول: احملوا من هذا إلى فلان، يعنى الخادم، و لا يتجاسر أحد [أن] يقول إنّ مات، فإنّه قيل له مرّة

الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص: ٤٩٧

إنّه مات، فقتل القائل له ذلك، إنّما كانوا يحملون إليه الطعام، و يعودون فيقولون: إنّ يقبل الأرض و يقول: إنّنى الآن أصلح ممّا كنت، فلحق أمراءه من الغيظ و الأنفة من هذه الحالة ما حملهم على مفارقة طاعته و الانحياز عنه مع وزيره، فبقى حيران لا يدرى ما يصنع، و لا سيّما لما خرج التتر، فحينئذ دفن اغلام الخصى، و راسل الوزير و استماله و خدعه إلى أن حضر عنده، فلما وصل إليه بقى أيّاما و قتله جلال الدين، و هذه نادرة غريبة لم يسمع بمثلا.

ذكر ملك التتر مراغة

و فى هذه السنة حصر التتر مراغة من أذربيجان، فامتنع أهلها، ثمّ أذعن أهلها بالتسليم على أمان طلبوه، فبذلوا لهم الأمان، و تسلّموا البلد و قتلوا فيه إلّا أنّهم لم يكثروا القتل و جعلوا فى البلد شحنة، و عظم حينئذ شأن التتر، و اشتدّ خوف الناس منهم بأذربيجان، فالله

تعالى ينصر الإسلام والمسلمين نصرا من عنده، فما نرى في ملوك الإسلام من له رغبة في الجهاد، ولا في نصره الدين، بل كلّ منهم مقبل على لهوه ولعبة و ظلم رعيته، وهذا أخوف عندى من العدو، وقال الله تعالى: وَ اتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ﴿١﴾.

ذكر وصول جلال الدين إلى آمد و انهزامة عندها و ما كان منه

لمّا رأى جلال الدين ما يفعله التتر في بلاد أذربيجان، و أنّهم مقيمون بها يقتلون، و ينهبون، و يأسرون، و يخربون البلاد، و يجبون الأموال، و هم

(١). ٢٥، ٨. roC.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٤٩٨

عازمون على قصده، و رأى ما هو عليه من الوهن و الضعف، فارق أذربيجان إلى بلاد خلاط، و أرسل إلى النائب بها عن الملك الأشرف يقول له: ما جئنا للحرب و لا للأذى، إنّما خوف هذا العدو حملنا على قصد بلادكم. و كان عازما على أن يقصد ديار بكر و الجزيرة، و يقصد باب الخليفة يستنجد به و جميع الملوك على التتر، و يطلب منهم المساعدة على دفعهم، و يحذرهم عاقبة إهمالهم، فوصل إلى خلاط، فبلغه أنّ التتر يطلبونه، و هم مجدّون في أثره، فسار إلى آمد، و جعل له اليزك في عدّة مواضع خوفا من البيات، فجاءت طائفة من التتر يقصّون أثره، فوصلوا إليه و هم على غير الطريق الّذى فيه اليزك، فأوقعوا به ليلا و هو بظاهر مدينة آمد، فمضى منهزما على وجهه، و تفرّق من معه من العسكر و تمزّقوا في كلّ وجه، فقصد طائفة من عسكره حرّان، فأوقع بهم الأمير صواب و من معه من عسكر الكامل بحرّان، فأخذوا ما معهم من مال، و سلاح، و دوابّ، و قصد طائفة منهم نصيبين، و الموصل، و سنجار، و إربل و غير ذلك من البلاد، فتخطّفهم الملوك و الرعايا، و طمع فيهم كلّ أحد، حتّى الفلاح، و الكردي، و البدويّ، و غيرهم، و انتقم منهم و جازاهم على سوء صنيعهم، و قبيح فعلهم في خلاط و غيرها، و بما سعوا في الأرض من الفساد، و الله لا يحبّ المفسدين، فازداد جلال الدين ضعفا إلى ضعفه، و وهنا إلى و هه بمن تفرّق من عسكره، و بما جرى عليهم. فلما فعل التتر بهم ذلك، و مضى منهزما منهم، دخلوا ديار بكر في طلبه، لأنّهم لم يعلموا أين قصد، و لا أى طريق سلك، فسبحان من بدّل أمنهم خوفا، و عزّهم ذلّا، و كثرتهم قلّة، فتبارك الله ربّ العالمين الفعّال لما يشاء.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٤٩٩

ذكر دخول التتر ديار بكر و الجزيرة و ما فعلوه في البلاد من الفساد

لمّا انهزم جلال الدين من التتر على آمد نهب التتر سواد آمد و أرزن و ميافارقين، و قصدوا مدينة أسعد، فقاتلهم أهلها، فبذل لهم التتر الأمان، فوثقوا منهم و استسلموا، فلما تمكّن التتر منهم وضعوا فيهم السيف و قتلوهم حتّى كادوا يأتون عليهم، فلم يسلم منهم إلّا من اختفى، و قليل ما هم.

حكى لى بعض التجار، و كان قد وصل آمد، أنّهم حزروا [١] القتلى ما يزيد على خمسة عشر ألف قتيل، و كان مع هذا التاجر جارية من أسعد، فذكرت أنّ سيدها خرج ليقاتل، و كان له أمّ، فمنعته، و لم يكن لها ولد سواه، فلم يصغ إلى قولها، فمشت معه، فقتلا جميعا، و ورثها ابن أخ للأّم فباعها من هذا التاجر، و ذكرت من كثرة القتلى أمرا عظيما، و أنّ مدّة الحصار كانت خمسة أيّام.

ثمّ ساروا منها إلى مدينة طنزّة ففعلوا فيها كذلك، و ساروا من طنزّة إلى واد بالقرب من طنزّة يقال له وادى القريشيّة، فيه مياه جارية، و بساتين كثيرة، و الطريق إليه ضيق، فقاتلهم أهل القريشيّة فمنعوهم عنه، و امتنعوا عليهم، و قتل بينهم كثير، فعاد التتر و لم يبلغوا منهم

غرضاً، و ساروا في البلاد لا- مانع يمنعهم، ولا- أحد يقف بين أيديهم، فوصلوا إلى ماردین فنهبوا ما وجدوا من بلدها، و احتمی صاحب ماردین و أهل دنيسر بقلعة ماردین، و غیرهم ممن جاور القلعة احتمی بها أيضاً. ثم وصلوا إلى نصیبین الجزيرة، فأقاموا عليها بعض نهار، و نهبوا سوادها

[١]- حرزوا.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٥٠٠

و قتلوا من ظفروا به، و غلقت أبوابها، فعادوا عنها، و مضوا إلى بلد سنجان، و وصلوا إلى الجبال من أعمال سنجان، فنهبوا و دخلوا إلى الخابور، فوصلوا إلى عربان، فنهبوا، و قتلوا، و عادوا. و مضى طائفة منهم على طريق الموصل، فوصل القوم إلى قرية تسمى المؤنسة، و هي على مرحلة من نصیبین، بينها و بين الموصل، فنهبوا و احتمی أهلها و غیرهم بخان فيها، فقتلوا كل من فيه. و حكى لى عن رجل منهم أنه قال: اختفيت منهم بيت فيه تبن، فلم يظفروا به، و كنت أراهم من نافذة في البيت، فكانوا إذا أرادوا قتل إنسان، فيقول، لا- بالله، فيقتلونه، فلمّا فرغوا من القرية، و نهبوا ما فيها، و سبوا الحریم، رأيتهم و هم يلعبون على الخيل، و يضحكون، و يغنون بلغتهم بقول: لا بالله.

و مضى طائفة منهم إلى نصیبین الروم، و هي على الفرات، و هي من أعمال آمد، فنهبوا، و قتلوا فيها، ثم عادوا إلى آمد، ثم إلى بلد بدليس، فتحصن أهلها بالقلعة و بالجبال، فقتلوا فيها يسيراً، و أحرقوا المدينة. و حكى إنسان من أهلها قال: لو كان عندنا خمس مائة فارس لم يسلم من التتر أحد لأنّ الطريق ضيق بين الجبال، و القليل يقدر على منع الكثير.

ثم ساروا من بدليس إلى خلاط، فحاصروا مدينة من أعمال خلاط يقال لها: باكرى، و هي من أحصن البلاد، فملكوها عنوة، و قتلوا كل من بها، و قصدوا مدينة أرجيش من أعمال خلاط، و هي مدينة كبيرة عظيمة، ففعلوا كذلك، و كان هذا في ذى الحجة. و لقد حكى لى عنهم حكايات يكاد سامعها يكذب بها من الخوف الذى ألقى الله سبحانه و تعالى في قلوب الناس منهم، حتى قيل إنّ الرجل الواحد منهم كان يدخل القرية أو الدرب و به جمع كثير من الناس، فلا يزال يقتلهم

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٥٠١

واحد بعد واحد، لا يتجاسر أحد [أن] يمدّ يده إلى ذلك الفارس.

و لقد بلغنى أنّ إنساناً منهم أخذ رجلاً، و لم يكن مع التترى ما يقتله به، فقال له: ضع رأسك على الأرض و لا تبرح، فوضع رأسه على الأرض، و مضى التترى فأحضر سيفاً و قتله به.

و حكى لى رجل قال: كنت أنا و معى سبعة عشر رجلاً- فى طريق، فجاءنا فارس من التتر و قال لنا حتى يكتف بعضنا بعضاً، فشرع أصحابى يفعلون ما أمرهم، فقلت لهم: هذا واحد فلم لا نقتله و نهرب؟ فقالوا: نخاف. فقلت: هذا يريد قتلكم الساعة، فنحن نقتله، فعمل الله يخلصنا، فوالله ما جسر أحد [أن] يفعل، فأخذت سكيناً و قتلته و هربنا فنجونا، و أمثال هذا كثير.

ذكر وصول طائفة من التتر إلى إربل و دقوا

فى هذه السنة، فى ذى الحجة، وصل طائفة من التتر من أذربيجان إلى أعمال إربل، فقتلوا من على طريقهم من التركمان الإيوانية و

الأكراد الجوزقان [١] وغيرهم إلى أن دخلوا بلد إربل، فنهبوا القرى، وقتلوا من ظفروا به من أهل تلك الأعمال، و عملوا الأعمال الشنيعة التي لم يسمع بمثلا من غيرهم.

و برز مظفر الدين، صاحب إربل، في عساكره، و استمدّ عساكر الموصل فساروا إليه، فلما بلغه عود التتر إلى أذربيجان أقام في بلاده [و لم يتبعهم] «١»، فوصلوا إلى بلد الكرخيني «٢»، و بلد دقوقا، و غير ذلك، و عادوا سالمين لم

[١]- الخوزقان.

(١). doC.٧٤٠

(٢). الكرخيني: spU. الكرخني: ٧٤٠.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٥٠٢

يذعرهم أحد، و لا وقف في وجوههم فارس.

و هذه مصائب و حوادث لم ير الناس من قديم الزمان و حديثه ما يقاربها، فالله سبحانه و تعالى يلفظ بالمسلمين، و يرحمهم، و يردّ هذا العدو عنهم، و خرجت هذه السنة و لم تتحقق لجلال الدين خبرا، و لا نعلم هل قتل، أو اختفى، لم يظهر نفسه خوفا من التتر، أو فارق البلاد إلى غيرها، و الله أعلم.

ذكر طاعة أهل أذربيجان للتتر

في أواخر هذه السنة أطاع أهل بلاد أذربيجان جميعها للتتر، و حملوا إليهم الأموال و الثياب الخطائي، و الخويي، و العتايي، و غير ذلك، و سبب طاعتهم أن جلال الدين لما انهزم على آمد من التتر، و تفرقت عساكره، و تمزقوا كل ممزق، و تخطفهم الناس، و فعل التتر بديار بكر و الجزيرة و إربل و خلاط ما فعلوا، و لم يمنعهم أحد، و لا وقف في وجوههم واقف، و ملوك الإسلام منجرحون في الأتقاب، و انضاف إلى هذا انقطاع أخبار جلال الدين، فإنه لم يظهر له خبر، و لا علموا له حالة، سقط في أيديهم، و أذعنوا للتتر بالطاعة، و حملوا إليهم ما طلبوا منهم من الأموال و الثياب.

من ذلك مدينة تبريز التي هي أصل بلاد أذربيجان، و مرجع الجميع إليها و إلى من بها، فإن ملك التتر نزل في عساكره بالقرب منها، و أرسل إلى أهلها يدعوهم إلى طاعته، و يتهددهم إن امتنعوا عليه، فأرسلوا إليه المال الكثير، و التحف من أنواع الثياب الإبريسم و غيرها، و كل شيء حتى الخمر، و بذلوا له الطاعة، فأعاد الجواب يشكرهم، و يطلب منهم أن يحضر مقدّموهم عنده، فقصده قاضي البلد و رئيسه، و جماعة من أعيان أهله، و تخلف عنهم

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٥٠٣

شمس الدين الطغرائي، و هو الذي يرجع الجميع إليه، إلا أنه لا يظهر شيئا من ذلك.

فلما حضروا عنده سألهم عن امتناع الطغرائي من الحضور فقالوا: إنه رجل منقطع، ما له بالملوك تعلق، و نحن الأصل، فسكت ثم طلب أن يحضروا عنده من صنّاع الثياب الخطائي و غيرها، ليستعمل لملكهم الأعظم، فإن هذا هو من أتباع ذلك الملك، فأحضروا الصنّاع، فاستعملهم في الهدى أرادوا، و وزن أهل تبريز الثمن، و طلب منهم خركاء لملكه أيضا، فعملوا له خركاء لم يعمل مثلهما، و عملوا غشاءها من الأطلس الجيد المزركش، و عملوا من داخلها السيّمور و القندر، فجاءت عليهم بجملة كثيرة، و قرّر عليهم شيئا من المال كل سنة، و ترددت رسلهم إلى ديوان الخلافة و إلى جماعة من الملوك يطلبون منهم أنهم لا ينصرون خوارزم شاه.

و لقد وقفت على كتاب وصل من تاجر من أهل الرّي في العام الماضي، قبل خروج التتر، فلما وصل التتر إلى الرّي و أطاعهم أهلها، و

ساروا إلى أذربيجان، سار هو معهم إلى تبريز، فكتب إلى أصحابه بالموصل يقول: إِنَّ الكافر، لعنه الله، ما نقدر [أن] نصفه، ولا نذكر جموعه حتى لا- تنقطع قلوب المسلمين، فإن الأمر عظيم، ولا تظنوا [١] أن هذه الطائفة التي وصلت إلى نصيبين و الخابور، و الطائفة الأخرى التي وصلت إلى إربل و دقوقا، كان قصدهم النهب، إنما أرادوا أن يعلموا هل في البلاد من يردّهم أم لا، فلمّا عادوا أخبروا ملكهم بخلو البلاد من مانع و مدافع، و أن البلاد خالية من ملك و عساكر، فقوى [٢] طمعهم، و هم في الربيع يقصدونكم، و ما يبقى عندكم مقام، إلّا إن كان في بلد الغرب، فإنّ عزمهم على قصد البلاد جميعها، فانظروا لأنفسكم.

[١]- تظنون.

[٢]- قوى.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٥٠٤

هذا مضمون الكتاب، ف إِنَّا لِلَّهِ وَ إِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، و لا حول و لا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم، و أمّا جلال الدين فإلى آخر سنة ثمان و عشرين [و ستمائة] لم يظهر له خبر، و كذلك إلى سلخ صفر سنة تسع لم نقف له على حال، و الله المستعان.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة قلّت الأمطار بديار الجزيرة و الشام، و لا سيّما حلب و أعمالها فإنّها كانت قليلة بالمرّة، و غلت الأسعار بالبلاد، و كان أشدها غلاء حلب، إلّا أنّه لم يكن بالشديد مثل ما تقدّم في السنين الماضية، فأخرج أتابك شهاب الدين، و هو والى الأمر بحلب، و المرجع إلى أمره و نهيه، و هو المدبّر لدولة سلطاتها الملك العزيز ابن الملك الظاهر، و المربّي له، من المال و الغلات كثيرا، و تصدّق صدقات دائرة، و ساس البلاد سياسة حسنة بحيث لم يظهر للغلاء أثر، فجزاه الله خيرا.

و فيها بنى أسد الدين شيركوه، صاحب حمص و الرحبة، قلعه عند سلمية، و سمّاها سميمس، و كان الملك الكامل لمّا خرج من مصر إلى الشام قد خدمه أسد الدين، و نصّح له، و له أثر عظيم في طاعته، و المقاتلة بين يديه، فأقطعه مدينته سلمية، فبنى هذه القلعة بالقرب من سلمية، و هي على تلّ عال.

و فيها قصد الفرنج الذين بالشام مدينته جبلة، و هي بين جملة المدن المضافة إلى حلب، و دخلوا إليها، و أخذوا منها غنيمة و أسرى، فسير أتابك شهاب الدين إليهم العساكر مع أمير كان أقطعها، فقاتل الفرنج، و قتل منهم كثيرا، و استردّ الأسرى و الغنيمة.

الكامل في التاريخ، ج ١٢، ص: ٥٠٥

و فيها توفّي القاضي ابن غنائم بن العديم الحلبيّ، الشيخ الصالح، و كان من المجتهدين في العبادة و الرياضة و العاملين بعلمه، فلو قال قائل: إنّ لم يكن في زمانه أعبد منه، لكان صادقا، فرضى الله عنه و أرضاه، فإنّه من جملة شيوخنا، سمعنا عليه الحديث، و انتفعنا برؤيته و كلامه.

و فيها أيضا في الثاني عشر من ربيع الأوّل توفّي صديقنا أبو القاسم عبد المجيد بن العجميّ الحلبيّ، و هو و أهل بيته مقدّموا السيّنة بحلب، و كان رجلا ذا مروءة غزيرة، و خلق حسن، و حلم وافر، و رئاسة كثيرة، يحبّ إطعام الطعام، و أحبّ الناس إليه من يأكل طعامه، و يقبل بزه، و كان يلقي أضيافه بوجه منبسط و لا يقعد عن إيصال راحة، و قضاء حاجة، فرحمه الله رحمة واسعة.

تم المجلد الثاني عشر

الكامل في التاريخ، ج ١٣، ص: ٥

جاهدوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/٤١).

قال الإمام علي بن موسى الرضا - عليه السلام: رَحِمَ اللَّهُ عَبْدًا أَحْيَا أَمْرَنَا... يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَيُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بِنَادِرُ الْبَحَار - في تلخيص بحار الأنوار، للعلامة فيض الاسلام، ص ١٥٩؛ عُيُونُ أَخْبَارِ الرُّضَا(ع)، الشيخ الصدوق، الباب ٢٨، ج ١/ ص ٣٠٧).

مؤسس مجتمع "القائمية" الثقافي بأصفهان - إيران: الشهيد آية الله "الشمس آبادي" - رَحِمَهُ اللَّهُ - كان أحدًا من جهابذة هذه المدينة، الذي قد اشتهر بشَعْفِهِ بأهل بيت النبي (صلواتُ الله عليهم) ولاسيما بحضرة الإمام علي بن موسى الرضا (عليه السلام) و بساحه صاحب الزمان (عَجَّلَ اللَّهُ تعالى فرجه الشريف)؛ ولهذا أسس مع نظره و درايته، في سَنَةِ ١٣٤٠ الهجرية الشمسية (= ١٣٨٠ الهجرية القمرية)، مؤسسه و طريقة لم ينطفيء مصباحها، بل تَتَبَعَ بِأَقْوَى و أَحْسَنِ مَوْقِفٍ كُلَّ يَوْمٍ.

مركز "القائمية" للتحرى الحاسوبى - بأصفهان، إيران - قد ابتدأ أنشِطَتَهُ من سَنَةِ ١٣٨٥ الهجرية الشمسية (= ١٤٢٧ الهجرية القمرية) تحت عناية سماحة آية الله الحاج السيد حسن الإمامي - دامَ عَزَهُ - و مع مساعِدة جمعٍ من خريجي الحوزات العلمية و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، في مجالات شتى: دينية، ثقافية و علمية...

الأهداف: الدفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثقافته الثقلين (كتاب الله و اهل البيت عليهم السلام) و معارفهما، تعزيز دوافع الشباب و عموم الناس إلى التحرى الأدق للمسائل الدينية، تخليف المطالب النافعة - مكان البلايتي المتبدلة أو الرديئة - في المحاميل (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوترية)، تمهيد أرضية واسعة جامعة ثقافية على أساس معارف القرآن و اهل البيت -عليهم السلام - بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطلاب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغه هواة برامج العلوم الإسلامية، إنالة منابع اللازمة لتسهيل رفع الإبهام و الشُّبُهات المنتشرة في الجامعة، و...

- منها العدالة الاجتماعية: التي يُمكن نشرها و بثها بالأجهزة الحديثة متصاعدة، على أنه يُمكن تسريع إبراز المرافق و التسهيلات - في آكناف البلد - و نشر الثقافة الإسلامية و الإيرانية - في أنحاء العالم - من جهةٍ أخرى.

- من الأنشطة الواسعة للمركز:

(الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ كتبٍ، كتيبة، نشرة شهرية، مع إقامة مسابقات القراءة

(ب) إنتاج مئات أجهزة تحقيقية و مكتبية، قابلة للتشغيل فى الحاسوب و المحمول

(ج) إنتاج المعارض ثلاثية الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرسوم المتحركة و... الأماكن الدينية، السياحية و...

(د) إبداع الموقع الانترنتى "القائمية" www.Ghaemiyeh.com و عدة مواقع أخرى

(ه) إنتاج المُنتجات العرضية، الخطابات و... للعرض فى القنوات القمرية

(و) الإطلاق و الدَّعم العلمى لنظام إجابة الأسئلة الشرعية، الاخلاقية و الاعتقادية (الهاتف: ٠٠٩٨٣١١٢٣٥٠٥٢٤)

(ز) ترسيم النظام التلقائى و اليدوى للبلوتوث، ويب كشك، و الرسائل القصيرة SMS

(ح) التعاون الفخرى مع عشرات مراكز طبيعية و اعتبارية، منها بيوت الآيات العظام، الحوزات العلمية، الجوامع، الأماكن الدينية كمسجد جَمكران و...

(ط) إقامة المؤتمرات، و تنفيذ مشروع "ما قبل المدرسة" الخاص بالأطفال و الأحداث المُشاركين فى الجلسة

(ى) إقامة دورات تعليمية عمومية و دورات تربية المربى (حضوراً و افتراضاً) طيلة السَّنة

المكتب الرئيسى: إيران/أصفهان/ شارع "مسجد سيد" / "ما بين شارع" پنج رَمضان "و مُفترق" وفائى / "بنايه" القائمية

تاريخ التأسيس: ١٣٨٥ الهجرية الشمسية (= ١٤٢٧ الهجرية القمرية)

رقم التسجيل: ٢٣٧٣

الهوية الوطنية: ١٠٨٦٠١٥٢٠٢٦

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الالكتروني: Info@ghaemiyeh.com

المتجر الانترنتي: www.eslamshop.com

الهاتف: ٢٥-٢٣-٢٣٥٧٠٢٣ (٠٠٩٨٣١١)

الفاكس: ٢٣٥٧٠٢٢ (٠٣١١)

مكتب طهران ٨٨٣١٨٧٢٢ (٠٢١)

التجارية و المبيعات ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩

امور المستخدمين ٢٣٣٣٠٤٥ (٠٣١١)

ملاحظة هامة:

الميزات الحالية لهذا المركز، شعبيّة، تبرّعيّة، غير حكوميّة، و غير ربحيّة، اقتُنيت باهتمام جمع من الخيرين؛ لكنّها لا تُوفّي الحجم المتزايد و المتسعّ للامور الدّينيّة و العلميّة الحاليّة و مشاريع التوسّع الثقافيّة؛ لهذا فقد ترجّى هذا المركزُ صاحبَ هذا البيتِ (المُسمّى بالقائميّة) و مع ذلك، يرجو من جانب سماحة بقيّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرجه الشريف) أن يُوفّقَ الكلَّ توفيقاً متزائداً لِإعانتهم - في حدّ التّمكن لكلّ احدٍ منهم - إيانا في هذا الأمر العظيم؛ إن شاء الله تعالى؛ و اللهُ وليّ التوفيق.

مركز
للبحوث والتحريات الكمبيوترية
أصبحان



للحصول على المكتبات الخاصة الأخرى
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم

www.Ghaemiyeh.com

www.Ghaemiyeh.net

www.Ghaemiyeh.org

www.Ghaemiyeh.ir

و للإيحاء من فضلكم

٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٥٩